معنى الحياة



تأليف: ألفريد آدلر
ترجمة وتقديم: عادل نجيب بشرى

709

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة

معنى الحياة

تأليـــف : ألفريد آدلر

ترجمة وتقديم : عادل نجيب بشرى

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٠٩
- معنى الحياة
- ألفريد أدلر
- عادل نجيب بشرى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

What Life Could Mean To You

By : Alferd Adler

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084.

المحتويات

مقدمة المترجم

يعتبر آدلر واحداً من الثلاثة العظام – مع كلٍّ من سيجموند فرويد و كارل جوستاف يونج – الذين كان لهم فضل تأسيس علم النفس الحديث.

وقد وِلد ألفريد آدلر فى عام ١٨٧٠ فى إحدى ضواحى مدينة ڤيينا عاصمة النمسا ، لأب يهودى يعمل فى تجارة الحبوب ، و كان ترتيبه الثانى فى عائلة من ستة أطفال ، وعندما كان آدلر فى الثالثة من عمره .. توفى أخوه الأصغر بسبب الدفتريا .. فى الفراش المجاور له ، و قد عانى هو نفسه من الكساح .. و غيره ، كما أنه أصيب – فى الرابعة من عمره – إصابة خطيرة بداء الرئة Pneumonia كادت تودى بِحياته ، وكان لكل هذا أكبر الأثر فيه .. فقبل بلوغه سن الخامسة كان قد اتخذ قراره بأن يصبح طبيباً بشريا .. حتى يتمكن من "محاربة الموت" على حد تعبيره .

و لقد أصبح آدلر طبيباً بشريا .. بعد أن تخرج فى كلية الطب جامعة ڤيينا عام ١٨٩٤ وفى البداية تخصص فى طب العيون ، ولكنه أصبح ممارساً عاما فيما بعد ، قبل أن يتحول اهتمامه إلى علم النفس ، و كان من أول من اهتموا بنظريات سيجموند فرويد .. كما أنه اعترف بأن هذه النظريات قد فتحت طريقًا جديداً لتحديث وتطوير علم النفس.

وانضم آدلر إلى جماعة المناقشة التى أنشأها فرويد فى عام ١٩٠٢، و فى عام ١٩١٠ أصبح آدلر رئيساً لمجمع التحليل النفسى بڤيينا ، وبتزكية من فرويد نفسه ، لكنٍ الخلافات سرعان ما دبت بينهما ، و أصبح الخلاف بين وجهة نظره و وجهات نظر كلٍّ من فرويد ويونج .. أكبر من أن يتغاضى عنها .. ، مما أدى إلى استقالته فى عام ١٩١١ مكوناً مع بعض زملائه جماعة "البحث الحر فى التحليل النفسى" ، وغيَّر اسمها فى العام التالى إلى جماعة "علم النفس الفردى".

إنه من الواضح أن كل أعمال آدلر .. تدين بالكثير لزملائه السابقين ، ولكنه كان يحمل فى داخله طريقة مختلفة ومستقلة فى وصف وعلاج مشاكل البشر.

كما قلنا فإن آدلر قد شكل جماعة "علم النفس الفردى" فى عام ١٩١٢ .. والتى أكدت على أهمية "النظرة الشاملة" لشخصية الفرد ، وكلمة "الفردى" قد استُخدِمت هنا للتأكيد على تَمَيُّز واختلاف كل شخصية عن الأخرى .. ، وعن عدم إمكانية تقسيم أو تجزئة الشخصية .. بل وجوب النظر إلى الشخصية على أنها وحدة لا تتجزأ.

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، خدم آدلر فى جيش بلاده طبيبًا فى قسم الأمراض النفسية و العصبية فى إحدى المستشفيات العسكرية ، وقد جعلته فترة الخدمة العسكرية أكثر إدراكًا لأهمية و ضرورة نشر أفكاره.

فى عام ١٩٣٥ ذهب إلى الولايات المتحدة و استقر هناك ، و كانت شهرته قد ذاعت هناك أيضًا ، فتم خلق منصبٍ جديد - خصيصًا له - فى كلية الطب بلونج آيلاند .. Long Island College Of Medicine : حيث تولى أستاذية قسم علم النفس الطبى وفى العام (١٩٣٥) نفسه بدأت مدرسة ألفريد آدلر فى إصدار مجلتها "الجريدة الدولية لعلم النفس الفردى". International Jounal of Individual Psychology

ولقد توفى آدلر فى ٢٨ مايو عام ١٩٣٧ .. عن عمر يناهز السابعة والستين عامًا متأثرًا بأزمة قلبية مفاجئة خلال رياضته الصباحية (المشى) ، و بعد أن ألقى محاضرة واحدة على طلبة جامعة أبردين فى اسكتلندا.

واليوم بعد مرور أكثر من ٦٥ عامًا على وفاته .. فإن هناك مستشارين نفسيين تم تدريبهم على استخدام طرق علم النفس الفردى فى الكثير من دول العالم من الولايات المتحدة و كندا غربًا .. إلى إنجلترا و ألمانيا و النمسا و سويسرا .. و حتى فى أستراليا و غيرها من دول العالم.

من الحالات التى ذكرها آدلر أنه عرف جنديين خلال الحرب أصابت كلا منهما قذيفة أطاحت بذراعه ، و برئ كلاهما من الجراحة ، فلما انتهت الحرب .. ومضت

سنوات عديدة لقيهما آدلر مصادفة ، كلا على حدة ولكن فى وقت متقارب ، فقال أحدهما عندما رآه :

" إنى يا دكتور عاجز عن الاستمرار فى الحياة ، وأجرُّ جسدى كما لو كان عبئًا ثقيلا لا خلاص منه ، لأن بتر ذراعى قد حال بينى وبين القيام بأى عمل نافع ، وليتنى كنت مت بدلا من الحياة على هذه الحالة ".

كان هذا الجندى شابا و لكنه استنام إلى كارثته وارتضى العجز و الاستسلام.

فى الأسبوع نفسه زاره الجندى الآخر الذى تعرض لحادثة مشابهة بترت الذراع نفسها ، وقال له الجندى :

" أنا يا دكتور فى أحسن حال فقد وجدت عملاً أرتزق منه .. وهذا العمل أحسن بكثير من العمل الذى كنت أقوم به قبل الحرب ، حين كانت لى ذراعان ، وقد تزوجت وأنجبت .. و أنا سعيد بزوجتى وأولادى ، و أكاد أتساءل لماذا خلق الله لنا ذراعين مع أن ذراعًا واحدة تكفى ".

دفع التناقض الواضح – بين تصرفات الجنديين – آدلر إلى التمعن والتفكير ، وأخذ يقارن بين سلوكيهما ، ويبرر هذا التناقض من خلال الشجاعة التى تحلى به الجندى الثانى فى مجابهة الحياة وما تحمله من كوارث ومحن ، ويعزو آدلر هذا الفرق العظيم بين الشابين إلى أن أحدهما (الجندى الثانى) قد تعود منذ الطفولة – خلال السنوات الأربع الأولى من عمره – أن يكون شجاعًا .. يتحدى ويتصدى ، فى حين تعود الآخر (الجندى الأول) منذ طفولته – خلال السنوات الأربع الأولى من عمره – أن يجبن و يفر و يستكين.

وخرج آدلر من هذا كله بأن هذا الفارق و تلك الفجوة الشاسعة بين موقف الجنديين كانا نتيجة للتربية التى تلقاها كل منهما ، وبدأ آدلر يركز على أهمية دور الأم و ألقى التبعة عليها فى ضرورة أن تعمل على تعليم أطفالها الشجاعة.

"إن الشجاعة هى صحة النفس" .. هذه هى إحدى الكلمات المأثورة عن آدلر ، ذلك أن جميع الأمراض النفسية – تقريبًا – تعود إلى الخوف .. خاصة الخوف الذى

ليس له ما يـبرره من العـوامل الخارجية فهو حالة نفسية تعسة تجعل صاحبها يخاف كل شيء ، وتنبع هذه الحالة من داخل الفرد .. وتتسبب فى زعزعة نفسه.

ولكن لا يجب أن يكون النقص فى التـربيـة عـذراً .. لأن نجبن ونسـتكين للكوارث التى تحـيق بنا ، فإن لم نكن قد تعلمنا الشـجاعة و تعودنا عليها خـلال مرحلة الطفولة فإنه يجب علينا أن نتعلمها و نشرع فى التعود عليها ، وأن نغالب المشاكل والصعوبات والكوارث و لا نعترف بالهزيمة أبداً ، مثل ذلك القائد العسكرى الذى قال :

" إن الجيش لن يهزم مادام لا يعترف بالهزيمة ".

وكتـاب " مـعنى الحـياة " أو "مـا الذى يمكن أن تعنيـه الحـياة لك" كمـا سُمِّى فى طبعته الإنجليزية ، هو واحد من أهم مؤلفات ألفريد آدلر وأكثرها شـهرة ، وقد نشـره لأول مـرة فى عـام ١٩٣١ ، وشـرح فيه أهمـيـة التـعـويض الزائـد Overcompensation كميكانيزم يلجـأ إليه الـفرد فى محـاولة لقـهر عـقدة النقـص Inferiority complex، والوصول إلى تحقيق هدفه فى "التفوق".

فى هذا المجـلد الفريد يقـوم ألفريد آدلر - الخصـم العنيد لسيجموند فرويد ، والزميل والشريك السابق له فى نظرية التحليل النفسى - بشرح وجهة نظر "علم النفس الفردى" فى معنى الحياة ، وما يصفها بأنها المشكلات الأسـاسية الثـلاث التى تواجه الفرد فى حياته .. ألا وهى .. العمل ، والعلاقة مع باقى أفراد المجتمع ، والزواج ، كما أنه يخـبرنا بطريقـتـه العلمية الفذة والمُنظمة عن أهميـة "التـعـاون" فى مواجـهـة هذه المشكلات الثلاث ، حتى إنه وضع تعريفًا جديداً لعلم النفس ، عرف فيه علم النفس : بأنه العلم الذى يبحث عن كيفية معالجة أوجه القصور فى "التعاون" ، ولا يخلو الكتاب بالطبع من النقد الصريح و المستتر لنظريات فرويد فى "التحليل النفسى" مع ما هو معروف عن الخلاف الفكرى بينهما.

ولقـد حرصت على أن أقـدم للقارئ العـربى الترجمة الكاملة الأمينة لكل المعانى والأفكـار المتضمـنة فى هـذا الكـتاب .. و بترتيب ورودهـا ، غير أنى قد وضـعت بعض رءوس المواضيع الفرعية لزيادة توضيح المعنى ، كما قمت بتقسيم الفقرات الطويلة

جدا إلى فقرات أصغر ، كما أننى قمت بتحديث بعض التعبيرات والتشبيهات التى رأيت أنها غير ملائمة للغة العصر ، و لكنى حافظت على فردية المعنى .. ولم أحاول استخدام ضمير الجمع ما وسعنى ذلك .. وهو ما فعله المؤلف فى النسخة الأصلية من كتابه.

ولما كان المؤلف قد توجه بخطابه – أساسًا – إلى القارئ الغربى ، حيث تختلف الثقافة عن ثقافتنا ، فقد وردت بالكتاب أشياء و شخصيات يعلمها القارئ الغربى .. وقد يجهلها بعضنا ، و ربما أيضًا وردت به أشياء أخرى تخصنا ، ولكن المؤلف أوردها على نحو مبتسر ، لذا لزم على أن أخصها جميعًا بهوامش .. أضفتها إلى هوامش المؤلف ، ومعظم الهوامش لا تخرج عن كونها تبسيطًا يستخدم لغة العصر لبعض التعبيرات و الاصطلاحات الطبية التى استخدمها المؤلف بحكم خلفيته الطبية ، ولم أشأ أن أستزيد منها حتى لا ينصرف ذهن القارئ عن متابعة هذا الكتاب الممتع والمفيد.

عادل نجيب بشرى

الفصل الأول

معنى الحياة

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا إذا عَرفَ أن لحياته معنى ، فنحن لا نتعامل مع الأشياء المختلفة باعتبار ما هى عليه ، لكننا نتعامل معها من خلال ما تعنيه بالنسبة إلينا ، أى أننا لا نتعامل مع أشياء مجردة .. بل نَعرِفها و نتعامل معها من خلال نواتنا .

حتى إذا نظرنا إلى جوهر أى خِبرة من خِبراتنا اليومية ، فإن هذا الجوهر سيكون متأثرًا بوجهة نظرنا الإنسانية ، فالخشب مثلاً له معنى مرتبط بنا كبشر ، كما أن كلمة حجر لها معنى فقط كعامل من العوامل المؤثرة فى الحياة البشرية.

وكل شخص يحاول أن يأخذ فى الاعتِبار الظروف المحيطة باستبعاد المعانى المرتبطة بها ، فإنه سيواجَه بسوء الحظ لأنه سيعزل نفسه عن الآخرين ، وأفعاله ستصبح عديمة الفائدة لنفسه ولأى شخص آخر ، أى أن هذا الشخص سيصبح "عديم المعنى" .

لكن علينا أن نتذكر أنه لا يوجد إنسان بشرى واحد يستطيع أن يهرب من المعانى ، فإن تَعرُّفنا على الحقائق المحيطة بنا يتم من خلال المعنى الذى نلصقه بهذه الحقائق ، وليس بما هى عليه فعلاً و لكن بما فهمناهُ منها .

ولهذا فمن الطبيعى أن نستنتج أن المعنى ما هو إلا شىء ناقص وغير مُنتَهٍ ، بل إننا نستطيع أن نقول إن المعنى لا يمكن أن يكون على صواب دائمًا ، وعلى هذا فإن مملكة المعانى ما هى إلا مملكة للأخطاء.

لوأننا سألنا أحدهم مثلاً :

" ما معنى الحياة ؟ ".

فإنه من المرجح أن لا يتمكن ذلك الشخص من الإجابة عن هذا التساؤل ، لأن معظم البشر لا يُصدعون رءوسهم بمثل هذه المواضيع ، و رغم أن هذا السؤال قديم قدم الإنسان نفسه ... فإن الشباب فى وقتنا هذا – وحتى كبار السن – يطالبون بالحصول على إجابة له ، ورغم أنهم لا يتساءلون مثل هذه التساؤلات إلا إذا حاق بهم ضرر أو أصابهم مكروه فإنه لا مناص من توجيه مثل هذا السؤال .

فلو أننا صَممنا أذنينا ، و أبقينا عيوننا مفتوحة لنلاحظ كل فعل ونركز على معناه ، فإننا سنجد أن كل فرد قد قام بتشكيل معادلة خاصة به – ومختلفة عن معادلات الأفراد الآخرين – للإجابة عن هذا التساؤل ، وسوف نلاحظ الشىء المهم الآتى :

وهو أن كل آرائهم وطرقهم فى التصرف ، وكل حركاتهم وتعبيراتهم وآدابهم ، وكل طموحاتهم و عاداتهم ، وأيضًا كل صِفَاتهم الشخصية تتفق مع المعادلة التى صاغوها لأنفسهم ، فإن كل شخص يتصرف وكأنه يستطيع أن يعتمد على معنى محدد للحياة ، وكل أفعاله تُظهر بوضوح طريقة فهمه للعالم ولنفسه ولمعنى الحياة ، فهى فى ذلك مثلها مثل قرار نهائى صدر عن إحدى المحاكم :

" أنا كذلك .. و سأكون بهذه الطريقة ، و العالم والكون كله كذلك ... و سيكون بتلكَ الطريقة ".

وهكذا سيكون هناك معنى لنفسه ومعنى منسوبًا للحياة .

هناك العديد من المعانى المختلفة التى يمكن نسبتها إلى الشىء الواحد فى حياتنا ، وكما سبق وقلنا فإن كل معنى يحمل بعض الخطأ فى طياته ، وعلى هذا فلا يوجد شخص أيًا كان يعرف المعنى الحقيقى المطلق للحياة ، ولهذا أيضًا فإن أى معنى لا يمكن أن يكون سليمًا تمامًا أو خطأ تمامًا.

إذن كل المعانى ما هى إلا نسخٌ متنوعة ومختلفة تتراوح بين الخطأ والصواب ، ويكون اختيارنا لبعض هذه النسخ المتنوعة لأنها أكثر ملاءمة لنا من غيرها ، فهى – من وجهة نظرنا – تحتوى على نسبة خطأ قليلة جدا ، ولهذا فإنها تلائمنا أكثر ، أما بعضها الآخر فيكون من الواضح أنه أقل ملاءمة لنا.

ويمكننا – إذا دققنا النظر – أن نكتشف وجود العوامل المشتركة بين النسخ المتنوعة التى تُلائمنا كما أنه يمكننا أن نكتشف الفروق الواضحة بين النسخ المتنوعة التى لا تلائمنا ، ويجب أن نتذكر دائمًا أن ما هو حقيقى يكون حقيقيًا بالنسبة إلى كل البشر لكل أغراضهم و أهدافهم ، وأنه لا توجد حقيقة أخرى غير تلكَ الحقيقة ، وحتى بفرض وجود حقيقة أخرى فإنها ستكون غير ذات قيمة بالنسبه إلينا ، وليس لها أى معنى.

المهام الثلاث للحياة

إن كل البشر يعيشــون تحت ثلاثة ظروف اضطرارية رئيسية تشكل ماهية ومكونات الحقيقة بصورة اضطرارية ، وهذه الدوافع الاضطرارية – بحكم تعريفها – "يجب" أخذها فى الاعتبار دائمًا لأنها تشكل الحقيقة ، ولأن كل المشاكل والتساؤلات التى تواجهنا فى الحياة تنبع أساسًا من هذه الدوافع الاضطرارية الثلاثة فإننا نكون مجبرين دائمًا على الإجابة على هذه التساؤلات والتعامل مع هذه المشاكل لأننا نكون فى معركة دائمة معها ، و الإجابات التى نحصل عليها تشكل مفهومنا لـ " معنى الحياة ".

الظرف الاضطرارى الأول : إننا نعيش على سطح كوكب صغير جدا – كوكب الأرض – وعلى هذا فإنه من المفروض علينا أن نعيش فى حدود ما يوفره هذا الكوكب لنا من موارد طبيعية محدودة ، وأن نحاول تطويرها و استخدامها أحسن استخدام فى حدود معارفنا ، و سيكون من المفروض علينا أن نقوم بتطوير أجسامنا و عقولنا حتى نستطيع الاستمرار فى الحياة على الأرض.

إن هذه المشكلة – التى تواجهنا جميعًا – لا يمكن التخلص منها أو تجنبها بأى طريقة ، فمهما فعلنا فإن أفعالنا ستكون هى الإجابة لموقفنا كبشر من الحياة : لأنها تكشف ما نعتقد بضرورته وكونه ملائمًا وممكنًا ومرغوبًا فيه ، فكل إجابة يجب أن تأخذ فى الاعتبار حقيقة مهمة وهى "أننا أعضاء فى الجنس البشرى الذى يسكن على كوكب الأرض".

الآن دعنا ندرس نقاط ضعف الجنس البشرى ، خاصة نقاط ضعف الجسم البشرى والتى تشكل خطرًا عظيمًا على قدرتنا على الاستمرار فى الوجود والحياة ، ولكن علينا أولاً أن نقيِّم إجاباتنا لنجعل منها إجابات واضحة وبعيدة النظر ، لتحقيق الصالح العام لجميع البشر ، وهى لهذا تشبه إلى حد بعيد إحدى المسائل الرياضية التى نسعى لإيجاد حل لها ، فإنه لا يمكن لنا أن نحل مسألة رياضية عن طريق التخمين، بل يجب أن نعمل بانتظام مستخدمين كل الوسائل المنطقية للوصول إلى الحل ، ورغم أنه فى كثير من الحالات لا يمكن إيجاد حل مطلق ووحيد لجميع الأسئلة ، فإنه من الواجب علينا أن نسعى لإيجاد حل تقريبى ، بل إنه من الواجب علينا أن نستمر فى سعينا هذا حتى نحسن من هذا الحل التقريبى على مرور الزمن ، آخذين فى الاعتبار – دائمًا – أننا من سكان الأرض بكل ما يعنيه هذا من مُمَيزات و عيوب.

الظرف الاضطرارى الثانى : إن كل واحد منا عضو فى جماعة البشر الذين يعيشون من حوله ، وإن وجودنا مرتبط بوجودهم ، فإن الضعف الذى يميز الفرد البشرى ومحدودية قدرات كل واحد منا تجعل من المستحيل على أى فرد تحقيق أهدافه فى الحياة بمفرده ، فمن المعروف أنه إذا ما حاول فرد ما العيش بمفرده ومواجهة مشاكل الحياة بصورة مستقلة عن الآخرين فإنه إن عاجلاً أو آجلاً سينتهى الأمر به إلى الفناء ، ولهذا فإننا جميعًا كأفراد مرتبطين ارتباطًا وثيقًا ببعضنا البعض ، وهى رابطة تمثل فى أهميتها الحياة نفسها لأنه بدون هذه الرابطة فإن الحياة نفسها لن تستمر ، وعلى هذا يمكننا القول بأن أعظم منحة يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان – بغرض تحقيق حياة أفضل – هى منحة الزمالة ، وهذا يجعل كل إجابة من الإجابات التى نحصل عليها لمشاكل الحياة لابد من أن تتضمن وتأخذ فى الاعتبار هذه الحقيقة : ألا وهى أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى معزل عن أخيه الإنسان

بل ما هو أكثر من هذا ، فإننا فى حاجة لوجود الآخرين من حولنا لإشباع حاجاتنا المعنوية اللازمة لاستمرار وجودنا ، و ليست الحاجات المادية فقط ، فلو أنه كتب لنا الحياة على هذا الكوكب فإنه من الواجب علينا أن نشبع حاجات معنوية كثيرة مثل الحاجة إلى وجود هدف وغرض من استمرار الحياة.

الظرف الاضطرارى الثالث : إن الظرف الاضطرارى الثالث الذى يحكمنا كبشر هو أن الجنس البشرى يتكون من رجل و امرأة ، وإن بقاء الجنس البشرى واستمراره يعتمد على كل منهما ، وعلى هذا فإن مشاكل مثل الحب و الزواج تنتمى إلى هذا الظرف الاضطرارى الثالث ، ولا يمكن لرجل أو امرأة الاستمرار فى الحياة دون الإجابة على التساؤلات التى تمثلها مثل هذه المشاكل ، والأفعال التى يقوم بها البشر عندما تواجههم مثل هذه المشاكل هى الإجابات التى توصلوا إليها لحل هذه المشاكل ، هناك العديد من الطرق التى يمكن بها حل المشكلات ، ولكن أفعالهم تعتبر أصدق تعبير على ما يؤمن هذا الفرد بأنه الحل الأمثل لمثل تلك المشكلة.

من هذا نرى أن الظروف الثلاثة الاضطرارية – التى سبق شرحها – تمثل ثلاث مشاكل : المشكلة الأولى : علينا أن نجد وظيفة تمكننا من الحياة فى ظل القيود المفروضة علينا بحكم وجودنا على كوكب الأرض.

المشكلة الثانية : علينا أن نجد لأنفسنا موقعًا – تحت الشمس – يمكننا من التعاون مع باقى أفراد المجموعة التى نعيش فيها بحيث نفيد ونستفيد من بعضنا البعض .

المشكلة الثالثة : يجب أن يتسع صدرنا لحقيقة وجود نوعين – رجال و نساء – وأن استمرار الجنس البشرى يعتمد على العلاقات بين النوعين.

إن علم النفس الفردى قد اكتشف أن كل مشاكل البشر يمكن تصنيفها تحت هذه النقاط الثلاث الرئيسية : وظيفية ، واجتماعية ، وجنسية ، وأن ردود أفعالهم تجاه هذه المشاكل هى التى تكشف طبيعة فهمهم الشخصى لـ "معنى الحياة".

دعنا نفترض على سبيل المثال وجود شخص محروم من وجود شريكة فى حياته ، وأن هذا الشخص فشل فى التقدم فى المجال الوظيفى ، وأن هذا الشخص أيضًا لا يتمتع بوجود العديد من الأصدقاء فى حياته حتى إنه يجد أن الاختلاط بغيره من أفراد المجتمع أمرٌ غير مريح بل ومؤلم جدًا ، إن مثل هذا الشخص قد وضع على نفسه الكثير من القيود التى تمنعه من الحياة بصورة مريحة ، ولهذا فإنه لن يكون من الصعب علينا اِستنتاج أن مثل هذا الشخص يرى الحياة على أنها عبء ثقيل ، بل إنه ربما يراها على أنها مغامرة محفوفة بالمخاطر تحتوى على الكثير من الفشل والقليل من الفرص.

إن قلة عدد الأفعال التى قام بها استجابة للمشكلات التى واجهته ، هو ما جعل حياته على ما هى عليه من فشل ، فكأنه يقول :

" إن معنى الحياة بالنسبه إلىَّ هو أن أحمى نفسى من الأذى الذى يمكن أن يلحق بى ، وإنه على أن أختبئ و أحصن نفسى ضد الأذى الذى سوف يصيبنى إذا ما تعاملت أو تعاونت مع الآخرين ".

و الآن دعنا نفترض المثال المعاكس ، فالشخص هذه المرة يتمتع بعلاقة حميمة وصحية بالجنس الآخر حيث يسود تعاون تام بينهما ، كما أن الوظيفة التى يقوم بها هذا الشخص تسفر عن إنجازات مفيدة دائمًا ، و أيضًا فإن هذا الشخص يتمتع بوجود الكثير من الأصدقاء فى حياته ، واتصالاته بالناس واسعة وكثيرة ومفيدة ، ولهذا فإنه سيكون من السهل علينا أن نستنتج أن هذا الشخص يرى الحياة على أنها مهمة خلاقة تحتوى على الكثير من الفرص و القليل من العقبات التى يمكن التغلب عليها.

إن شجاعة مثل هذا الشخص فى مواجهة مشكلات الحياة تمثلت فى كثرة عدد الأفعال التى قام بها فى مواجهة هذه المشكلات ، و هو ما جعل حياته على ما هى عليه من نجاح ، فكأنه يقول :

" إن معنى الحياة بالنسبة إليَّ هو أن أستمر فى شغفى و اهتمامى بالناس ومصالحهم ؛ لأننى جزء لا يتجزأ من المجتمع ، و مساهمتى مهمة و ضرورية لتحقيق رخاء المجتمع ، كما أن مساهمة المجتمع مهمة و ضرورية فى تحقيق رخائى الشخصى ".

الشعور الاِجتماعى Social feeling

إن كل العوامل المشتركة بين التعريفات الخطأ لـ " معنى الحياة " توجد داخل الشعور الاِجتماعى الذى يشعر به ذلك الفرد تجاه مجتمعه ، فإن الفاشلين فى المجتمع أمثال العصابيين ، والمصابين بالذهان ، والمجرمين ، والمدمنين ، والأطفال المشاغبين ، وذوى الميول الانتحارية ، والمنحرفين جنسيا ، والعاهرات .. كلهم فشلوا فى حياتهم بسبب نقص كبير فى شعورهم بمدى احتياجهم لزمالة وحب باقى أفراد المجتمع ، كما أن بعضهم لديه الشعور العكسى غير الصحيح ، ألا وهو عدم احتياج باقى أفراد المجتمع لزمالتهم وحبهم لهم – ويُمَثل هذا النقص الكبير فى الشعور بأهمية وجود المجتمع من حولنا السبب الرئيسى لفشل هؤلاء الأشخاص.

فهم يتعاملون مع المشكلات الرئيسية الثلاث – الوظيفية ، الصداقة أو الزمالة ، الجنس والعلاقات الأسرية – بطريقة تنم عن عدم ثقتهم فى أنفسهم أو فى قدراتهم للتغلب على هذه المشاكل من خلال " التعاون " ، فإن " معنى الحياة " بالنسبة إليهم يظل محصوراً فى نِطاق ضيق جدا لا يتعدى ذواتهم ، أى أنهم يحتفظون بتعريف خاطئ لـ " معنى الحياة " ، وإن هذا التعريف يجعل من المستحيل على أى فرد آخر من أفراد المجتمع أن يستفيد من إنجازاتهم الشخصية ، لأن هدفهم فى الحياة هو النجاح بما يحقق لهم – ولهم فقط – التفوق الشخصى على باقى أفراد المجتمع ، وعلى هذا فإن نجاحهم فى تحقيق هدفهم من الحياة يكون له معنى خاص وشخصى لهم فقط ، وغير ذى فائدة لباقى أفراد المجتمع.

دعنا نفترض على سبيل المثال وضع المجرم الذى اِعترف بأنه يشعر بالقوة والسيطرة عندما يحمل سلاحًا فى يده يهدد به الآخرين ، فمن الواضح هنا أنه يؤكد أهميته بالنسبة إلى نفسه فقط أما نحن - باقى أفراد المجتمع - فإنه من المرفوض تمامًا بالنسبه إلينا الاِعتراف بتفوق من يحمل السلاح فى يده لأن هذا لا يجعل منه شخصًا أكثر أهمية أو تفوقًا بالطبع ، وعلى هذا فإننا نصل إلى الاِستنتاج القائل بأن :

من يقوم بتعريف معنى خاص لـ " معنى الحياة " إنما هو فى الواقع يقوم بالاِحتفاظ بتعريف خاطئ يضره شخصيا أكثر مما يضر المجتمع الذى حوله ، ومن هذا فإنه يمكن القول بأن المعنى الخاص إنما هو فى الحقيقة ليس أكثر من انعدام للمعنى.

إن المعنى الحقيقى للكلمات ممكن فقط من خلال التواصل الذى يحدث بين أفراد المجتمع : فالكلمه التى يكون لها معنى خاص عند فرد معين تكون - هذه الكلمة - غير ذات فائدة لباقى أفراد المجتمع ؛ لأنها لا تحمل هذا المعنى بالنسبة لهم ، وهكذا فإن المنطق نفسه ينطبق على أفعالنا و أهدافنا :

إن المعنى الحقيقى لهذه الأفعال و الأهداف .. يجب أن يكون هو المعنى الذى تحمله هذه الأفعال والأهداف بالنسبه إلى باقى أفراد المجتمع ، وإلا أصبحت هذه الأفعال والأهداف عديمة الجدوى لهم.

إن كل إنسان - أيًّا كان مكانه أو مكانته - فى المجتمع يتطلع إلى وجود معنى لحياته ولكننا نرتكب خطأ شنيعًا إذا ما اعتقدنا أنه من الممكن أن نجد هذا المعنى لحياتنا بمنأى عن الآخرين وإن حياتنا يكون لها معنى عندما نساهم مساهمة إيجابية فى حياة الآخرين.

والآن سوف أقص عليكم قصة إحدى القادة الدينيين ، ففى يوم من الأيام دعت كل الأشخاص الذين يتبعونها إلى اِجتماع ، حيث أخبرتهم أنها متأكدة من أن نهاية العالم ستكون الأربعاء القادم ، كان التابعون لها يؤمنون إيمانًا شديدًا بقدراتها ،

ويصـدقون كل ما تقـول ، وعلى هـذا فإنهـم قاموا ببـيع كل ممتلـكاتهم الشـخصـية أو التــخلص منهـا ، وانتـظروا بشـوق مـجيء النهـاية ، ولكن الأربعـاء الموعود جـاء ومضى دون أن ينتـهى العـالم ، و فى يـوم الخـميس سألهـا الجميـع تفسيـراً لما حـدث ، وكان الكـثير منهم فى حـالة غضب ؛ لأنهـم قـد تخلصـوا من كل ممتـلكـاتهم الدنيـوية وما كانوا يدخرونه للأوقات الصعبة فى حياتهم عندما يصلون إلى مرحلة الشيـخوخة ، بالإضـافة إلى أنـهم سيصبحـون الآن أضحـوكة فى عيـون الآخـرين بسبب تصـديقهم لما قالتـه.

هنا أخبرتهم الرسولة المدعية بأن يوم الأربعاء فى حِسَابها يختلف تماماً عن يوم الأربعاء فى حِسَاب الناس ، و بهذا تخلصت من ثورة أتبـاعها عليها ، لأنها ادعت أن يوم الأربعاء يحمل "معنى خاصا" تعرفه هى وحدها.

وبهـذا نرى أن الـ "مـعنى الخاص" إنما هو فى الحـقيـقة ليس أكثـر من انعدام للمعنى ؛ لأنه لا يمكننا التحقق أبداً من صحته ، فإن الشخص الوحيد الذى يعلم بهذا المعنى هو الرسولة المدعية .. !!.

إن الدليـل على أننا قـد حصلنا على التعريف الحقـيقى لـ " معنى الحياة " هــو أن يكون هـذا التعريف مشتركًا بيننا و بين أفراد المجتمع ، وأن يكون هـذا التعريف يسمح للآخرين بأن يستفيدوا منه ، وأن يتقبلوه ، كما أن التعريف الحقيقى لـ "مـعنى الحياة" يمكـن أن يُتخذ كنموذج للآخـرين يستطـيعون الاستفادة منـه عنـدما يرون أنه ينطبق على العديد من المشاكل التى يواجهونها الآن ، وأن هذه المشاكل تم التغلب عليها بنجاح – باِستخدام هذا التعريف – فى السابق و بطريقة عبقرية ، حتى إنه يمكن القـول :

" إن حياة الإنسان العبقرى لا تعتبر ذات معنى إلا إذا اِعترف الآخرون بأن لها هـذا المعنى ".

ولشـرح هذا دعنا نقـول إن المعنى فى حيـاة مـثل هذا الإنسـان العبـقرى يمكن التعبير عنه بالقول بأنه أعطى من نفسه الكثير حتى إن كل شخص فى هـذا المجتمع قد استفاد استفادة شخصية من العطاء الكثير الذى هـدمه هـذا العبـقرى.

ومن هذا نرى أن الأشخاص الذين يواجهون بنجاح مشاكل الحياة يوجد بينهم عامل مشترك ، ألا وهو اعترافهم جميعًا .. بأهمية وجود اهتمام حقيقى وخالص بأفراد المجتمع من حولهم ، و أهمية " التعاون " مع الآخرين ، فإنك إذا ما راقبت أفعال هؤلاء الأشخاص فإنها ستَظهر لكَ و كأنها مدفوعة بالاهتمام الحقيقى والخالص فى مجتمعهم ككل ، وعندما يواجهون مشاكل فإنهم يحاولون التغلب عليها بطرق لا تضر مصالح الآخرين.

قد يبدو هذا و كأنه وجهة نظر جديدة وغريبة عن الأسلوب الحالى فى التفكير ، وقد يشك البعض فى صِحة المقولة :

إن المعنى الحقيقى للحياة - "معنى الحياة "- هو فى المساهمة التى نقوم بها لمصلحة حياة الآخرين ، وهو أيضًا فى الاهتمام الحقيقى والخالص فى " التعاون " معهم .

وقد يتساءل هذا البعض : "و لكن ماذا عن الفرد ؟؟" فلو أننا أخذنا فى الاعتبار وجوب "التعاون " مع الآخرين و الاهتمام الحقيقى والخالص بهم طوال الوقت ، فإن هذا سوف يؤثر على الفرد بشكل سلبى ، أليس كذلك ؟ وإن هناك بعض الحالات الخاصة التى تستوجب من الفرد أن يهتم بنفسه أولاً وقبل كل شىء حتى يتمكن من النمو والتطور بصورة طبيعية ، مثل حالة أولئك الأفراد الذين يكون من الواجب عليهم أن يتعلموا أولاً حتى يتمكنوا من حماية حقوقهم أو تقوية شخصياتهم.

لكنى أقول لهؤلاء الذين يتساءلون مثل هذا التساؤل إن نظرتَهم للأمور نظرة خاطئة ، فأنا أؤمن بأن المشكلة التى يعرضونها مشكلة زائفة وغير موجودة ، فلو أن كلا منهم حاول أن يساهم بصدق و رغبة حقيقية ، وكانت كل مشاعرهم موجهة نحو تحقيق هدفهم ، فإنهم سيكونون على استعداد لتطوير أنفسهم بطريقة تجعل من الممكن لهم أن يساهموا فى تحقيق مصلحة الآخرين ، كما أنهم سيتمكنون

من الوصول إلى أهدافهم بكفاءة أفضل ، لأنه سوف يصبح لديهم القدرة على تطوير شعورهم الاجتماعي .. وسيصبحون أكثر مهارة من خلال التمرين ، فما أن يصبح الهدف واضحًا ومحددًا حتى تأتي الخبرة والتدريب اللازمان تلقائيا .. وعندها فقط سيصبحون مستعدين لحل مشاكل الحياة و تطوير قدراتهم.

ولإثبات هذا دعنا نأخذ على سبيل المثال مسألة الحب والزواج ، فإنه لو كان كل شريك يهتم اهتمامًا خالصًا وحقيقيا بشريكه ، و لو كان كل منهما يبذل ما فى وسعه فى تبسيط و تسهيل و تحسين مستوى حياة شريك حياته ، فإنه بصورة تلقائية – وفى الوقت نفسه – يبسط و يسهل ويحسن مستوى حياته الشخصية.

أما إذا اعتقد كلٌ منا أنه فى الإمكان تطوير شخصيته بمعزل عن الآخرين ، وبنية متعمدة فى عدم المساهمة فى تحسين حياة الآخرين ، فإننا ببساطة سنصبح ذوى شخصية متسلطة غير محبوبة من الجميع.

إن هناك دليلاً آخر على صحة ما سبق ، و يمكننا أن نرى آثار هذا الدليل فيما ورثناه عن الأجيال السابقة ، فإننا إذا نظرنا من حولنا إلى التركة التى خلفها لنا أجدادنا فإننا نرى أن كل ما تبقى منهم – أجدادنا – هو المساهمات التى قاموا بها فى سبيل تبسيط و تسهيل وتحسين مستوى الحياة البشرية ، فإن ما نراه من حولنا هو أرض مزروعة ، وطرق ممهدة ، ومبانٍ شامخة ، فثمرة وخبرات حياتهم الطويلة احتفظوا بها لنا فى صورة العادات ، والتقاليد، ونظريات الفلسفة ، والعلوم ، والفنون، والتكنولوجيا ، وطرق فنية للتعامل مع المواقف الإنسانية المختلفة ، كل هذه الأشياء ورثناها من الأشخاص الذين ساهموا فى رفع شأن الجنس البشرى ، وهذا يثبت أن تعريف المعنى الحقيقى للحياة يعتمد اعتماداً كليا على الـ " تعاون ".

ترى .. ماذا حدث لباقى الأشخاص الذين لم يسهموا فى رفع شأن الجنس البشرى ؟ ماذا حدث للأشخاص الذين لم " يتعاونوا " ؟ ، والذين حددوا " معنى الحياة " بتعريف لا يتضمن المساهمة والتعاون مع باقى أفراد مجتمعهم ؟ ، ماذا حدث لهؤلاء الذين تساءلوا :

" ماذا تستطيع الحياة أن تعطينى ؟ " .

إن كل هؤلاء لم يتركوا أى أثر من خلفهم ، فهم ليسوا فقط أمواتًا بالجسد .. ولكن حياتهم أيضًا كانت عديمة الجدوى ، فكأن كوكب الأرض الذى عاشوا عليه قد نطق قائلاً :

" أنا فى غير حاجة لكم ، فأنتم لا تصلحون للحياة ، إن أهدافكم عديمة الجدوى ، وكل القيم و المثل التى تعتزون بها سوف تندثر بلا أثر فإنه لا مكان لها – أو لكم – فى مستقبل هذا الكوكب ، أنتم غير مرغوب فى وجودكم ، فإن الموت والفناء هو المصير الوحيد الذى يليق بكم ".

إن هذا هو الحكم النهائى على أمثال هؤلاء الأشخاص الذين حددوا معنى مغايراً كتعريف لـ " معنى الحياة " ، فإن الـ " تعاون " هو التعريف الوحيد المقبول كـ " معنى للحياة ".

بالطبع من الممكن أن نلحظ العديد من العيوب والشوائب فى حياتنا المعاصرة ، ولكن كل ما علينا أن نفعله هو أن نغير تلك الأشياء المعيبة ، وهذا التغيير يجب أن يكون تغييراً إلى الأحسن ، تغييراً يساهم فى تقدم الجنس البشرى.

لقد كانت هناك – دائمًا – مجموعة من البشر الذين استطاعوا فهم تلك الحقيقة فهمًا عميقًا ، لقد فهم هؤلاء أن " معنى الحياة " هو أن نكون مهتمين اهتمامًا حقيقيا بالجنس البشرى ككل ، وأن نحاول تطوير وتنمية حبنا واهتمامنا الاجتماعى.

فى كل الأديان نجد هذا الاهتمام الحقيقى بخلاص البشر ، وفى جميع الحركات الاجتماعية العظيمة – فى جميع أنحاء العالم – نجد أن البشر يسعون بشوق لزيادة الاهتمام المتبادل بين أفراد المجتمع ، إن الدين هو محاولة من أعظم المحاولات فى اتجاه زيادة هذا الاهتمام المتبادل بين أفراد المجتمع ، ولكن الدين كثيراً ما تم تفسيره وفهمه بطريقة خاطئة ، فإنه سيكون من الصعب على الدين أن يفعل المزيد بدون تطبيق أكبر وأشمل لهذه المهمة المشتركة (زيادة الاهتمام المتبادل بين أفراد المجتمع).

إن علم النفس الفردى يصل إلى النتيجة نفسها ولكن بطريقة علمية ، كما أنه يقترح استخدام الطريقة العلمية لتحقيق هذا الهدف ، وأنا أؤمن أن تحقيق هذا يعتبر خطوة إلى الأمام ، لأن العلم أكثر قدرة على زيادة اهتمام الفرد برفاهية باقى أفراد المجتمع من جميع الأديان والحركات الاجتماعية أو السياسية العظيمة ، ولكن علينا أن نتذكر دائمًا أن معالجة المشكلة بالطرق العلمية ليست إلا طريقة مختلفة للوصول إلى الهدف نفسه ، ألا وهو "تحقيق زيادة فى اهتمام الفرد برفاهية باقى أفراد المجتمع".

حيث إننا حددنا " معنى الحياة " بتعريف سوف يلتصق بنا طوال وجودنا على الأرض ، فإنه سيكون علينا أن نفهم كيف تشكل هذا المعنى – التعريف لـ " معنى الحياة " – ولماذا تختلف تلك التعريفات من فرد لآخر وكيف يمكن تقويم و إصلاح التعريف الخطأ لمعنى الحياة ؟ إذا كان حجم الخطأ كبيرًا بحيث لا يمكن التغاضى عن تقويمه وإصلاحه ، كما أنه علينا أن نتذكر أن القيام بهذا الدور هو مهمة علم النفس الأساسية :

أى أن مهمة علم النفس هى أن تمدنا بالقدرة على فهم " المعانى " ، و الطرق التى تؤثر بها هذه الـ " معانى " على أفعال البشر و مقدراتهم .

الخبرات التى تشكل مرحلة الطفولة

حتى فى المراحل المبكرة جدا من حياة الطفل فإنه يمكن إدراك " معنى الحياة " والذى يكون قد بدأ فى التشكل ، فحتى الأطفال الرضع يسعون بشدة إلى التحقق من قوتهم ومن نصيبهم من الأشياء التى تحيط بهم ، وفى حوالى نهاية العام الخامس من حياة الطفل يصبح واضحًا أن هناك نمطًا محددًا للسلوك قد تجسم وتبلور ، حتى إنه يمكننا أن نميز وجود طريقة مستقلة لمعالجة المشاكل والمواقف التى تواجه ذلك الطفل ، ويمكننا أن نطلق على هذه الطريقة المستقلة فى معالجة المشاكل اسم : " أسلوب الحياة " Life style من هذه النقطة فى حياة الطفل وحتى نهاية وجوده على الأرض فإن " أسلوب الحياة " هذا سوف يشكل كل مفاهيمه وتعريفاته

عـن ما سوف يُتَوقع منه ، وعن ما يَتَوقعه هو من العالم الخارجى ، ومن هذه النقطة فصاعداً فإنه سيرى العالم من خلال مجموعة محددة و مترابطة من النظم.

إن الخبرات التى تمر بنا تفهم بطريقة خاصة قبل أن نتقبلها ، و تلك الطريقة الخاصة فى الفهم تتفق دائماً مع المعنى الأصلى الذى عَرَفَ به الطفل " معنى الحياة ".

حتى إذا كان ذلك التعريف لـ " معنى الحياة " شديد البعد عن الحقيقة وممتلئًا بالأخطاء الخطيرة ، وحتى إذا كانت طريقتنا الخاطئة فى معالجة المشاكل والمواقف التى تواجهنا تؤدى بنا إلى الفشل والخسارة فى كل مرة ، فإننا نكون غير مستعدين للتخلى عن تلك الطرق الخاطئة ، ولهذا فإن الأخطاء التى نرتكبها فى فهمنا لـ " معنى الحياة " ... لا يمكن إصلاحها إلا من خلال إعادة النظر – بصورة شاملة – فى الموقف الذى أدى بنا إلى هذا الفهم الخاطئ لـ " معنى الحياة " ، لأنه من خلال التعرف على الخطأ الذى ارتكبناه واستبدال نظام الماضى بنظام مخالف له فإنه يمكننا عكس طريقة عمل هذا النظام الإدراكى الترابطى.

فى بعض الحالات النادرة ، فإن النتائج الخطيرة – من فشل وخسارة – والتى تنتج عن المعالجة الخاطئة للمشاكل التى تواجه فرداً ما تتسبب فى أن يضطر إلى تغيير التعريف الذى قام بإلصاقه بـ " معنى الحياة " ، وعندها فإنه قد يتمكن من النجاح فى تغيير طرقه الخاطئة فى معالجة المشاكل بنفسه ودون مساعدة من أحد.

لكنه يجب أن نذكر هنا .. أن مثل هذا النجاح لا يحدث إلا فى وجود ضغوط اجتماعية أو عندما يصل الشخص إلى قرار بأن :

"الاستمرار فى مثل هذه الطرق الخاطئة ما هو إلا تدمير للذات" (*) .

(*) وهو ما يطلق عليه فى المجتمع الأمريكى لقد وصل إلى القاع ، أو He hit rock bottom.
(المترجم) .

ولكن على وجه العموم فإن أحسن الطرق لتغيير أسلوب حياة الفرد هى الحصول على مساعدة من شخص مدرب فى أساليب علم النفس وفهم معانيه ، وأن يكون هذا الشخص قادرًا على اكتشاف الخطأ الأصلى – منبع المشكلة – وعلى اقتراح تعريفات أكثر ملاءمة لـ "معنى الحياة" بالنسبة إلى هذا الشخص.

دعنا الآن نأخذ عدة أمثلة توضح الاختلافات فى فهم بعض المواقف التى يتعرض لها شخص ما خلال مرحلة الطفولة ، فإن بعض التجارب السيئة فى حياة الطفل قد يكون لها معنى معاكس تمامًا مما سوف يتسبب فى فهمه الخاطئ لـ " معنى الحياة ".

فمثلاً : إذا ما مر شخص ما بتجارب سيئة كثيرة .. فإنه ربما يستمر فى المعيشة فى ظل هذه التجارب لمدة طويلة بعد حدوثها حتى إنها سوف تؤثر على الطريقة التى يرى بها المستقبل وستتسبب فى فهم الحياة بطريقة مضادة لـ " معنى الحياة " الحقيقى.

والآن لنأخذ فى الاعتبار المثال المضاد: إذا ما مر شخص آخر بتجارب سيئة كثيرة فإنه قد ينظر إليها على أنها مجرد عِبرة و درس له ليتعلم منها فى المستقبل كيف يواجه مشكلات الحياة بطريقة أفضل وسيفكر فى ذلك الماضى الملىء بالألم قائلاً :

"علىَّ أن أبذل كل جهدى حتى لا تتكرر مثل هذه التجارب المؤلمة بأن أمنع الظروف التى مهدت لحدوثها من التجمع فى أفق حياتى مرة أخرى ، وأن أعمل على أن تتوفر لأطفالى فرص أحسن لا تسمح بحدوث مثل هذه التجارب مرة أخرى".

أما الشخص الأول فإنه شَعر بأن الحياة قد ظلمته ، وهو يفكر فى الماضى الملىء بالألم قائلاً :

" إن مثل هذه الأشياء السيئة تحدث لى فقط ، أما الآخرون فإنهم يحصلون على نصيب الأسد من خيرات الدنيا . ليس هناك عدل فى هذه الحياة ، و إذا كان

هـذا هـو نصـيـبى من الدنيـا والناس ، فلمـاذا يكون من الواجب علىَّ إذن أن أعـامل الناس بأحسن مما عاملونى به ؟؟ ".

وبعض الآباء يرتكبون هذا الخطأ الفظيع عندما يقولون لأولادهم :

" لقد كان علىَّ أن أعانى خلال طفولتى مثل ما تعانى الآن وأكثر ، ولكنى تمكنت من الصمود و تجاوزت هذه التجارب ، ولهذا عليك أن تتحمل مثلما تحملت أنا ".

وهناك أيضًا شخص ثالث يشعر بأنه من الواجب على الجميع أن يلتمسوا له الأعذار بسبب المعاناه والتجارب السيئة التى مر بها خلال طفولته.

وفـى كـل حـالة من هـذه الحـالات الـثلاث فإن طريقة فـهمهم لـ " معنى الحياة " ستكون واضـحـة فـى أفـعـالهم ، حـتى إن هــذه الأفـعــال لن تكـون إلا تعـبـيـرًا عن الطـريقـة التى يفـهـمون بهـا الحـيـاة ، كمـا أنه سـيكون من الصـعـب إحـداث أى تــغيير فى أفـعالهم إذا لـم نتمـكن من إحـداث التغـيير فى طريقة فهمهم لـ " معنى الحياة " أولاً.

وهذا هو الاختلاف الأسـاسى بين علم النفس الفردى و نظرية الحتمية Theory of determinism، فإنه لا توجد تجربة من التجـارب – أيا كانت – تكون بالقوة الكافية حتى إنـها تتسبب – وحدها – فى نجاح أو فشل فرد ما فنحن لا نصاب بالصدمة من جراء التجارب التى تمر بنا – وهو مـا يسميه البعض بالصدمة العصبية - Trauma وإنما نحن الذين نسمح للتجربة بأن تتـخذ الشكل الذى تئول إليـه فى النهـاية ، وهو غالبًا ما يكون شكلاً ملائمًا لأغراضنا الخاصـة ، فنحن غير مُحَددين بحدود التجارب التى تمـر بنا ولكننا نحن الذين نضـع الحـدود لهـذه التـجارب عندما نعطيها مـعنى خاصا ، وعندما نقوم باختيار تجربة بعينها ، ونجعل منها الأساس لحياتنا المستقبلية ، فإننا نرتكب خطأ مؤكدًا ، فإن المواقف التى نمر بها يجب ألا تضع حدودًا للمعانى ، وإنما نحن الذين نقوم بوضع حدود لأنفسنا عنـدمـا نلصق مـعنى خـاصـا بالمـواقـف التى تمـر بنا.

الإعاقات الجسدية Phsical disadvantages

لكن علينا أن نتذكر أن هناك بعض التجارب التى تمر بالطفل ، والتى ينتج عنها أخطاء خطيرة فى تحديد الكثير من المعانى ، وأن الكثير من الفشل قد أصاب أطفالاً مروا بمثل هذه التجارب.

فإنه من المعروف أن الأطفال المصابين بنوع ما من أنواع الإعاقة الجسدية أو بسبب مرض خلال فترة الطفولة أو ولدوا من الأصل بمثل هذه الإعاقة .. يقعون داخل الفئة المعرضة للفشل الكثير.

إن مثل هؤلاء الأطفال يتعرضون لكثير من المتاعب و يجدون أن من الصعب عليهم أن يساهموا فى رفاهية المجتمع الذين يعيشون فيه ، و الطريقة الوحيدة لإقناعهم " بالمساهمة " و "التعاون " مع أفراد مجتمعهم هى أن يقوم شخص شديد الصلة بهم – مثل الأب أو الأم – بمنعهم من التركيز على حالة الإعاقة الجسدية التى يعانون منها ، ويجذب انتباهم إلى أفراد المجتمع المحيطين بهم.

فإننا لو تركناهم لشأنهم فإنه من المرجح أن يركزوا اهتماماتهم على ذواتهم ، كما أنه من الممكن – خاصة فى مجتمعنا الحاضر – أن يتزايد شعورهم بالنقص و الدونية أو ما هو أسوأ ... كأن يغرقوا فى مشاعر الأسف لما حاق بهم ، أو يبتعدوا عن المجتمع تماماً خوفاً من تعرضهم لسخرية و تهكم رفقائهم.

هذه هى الظروف المحيطة بالطفل المعاق ، والتى قد تجعل منه شخصاً شديد الانطواء فاقد الأمل فى أن يكون جزءاً مفيداً يسهم فى رفاهية المجتمع وارتقائه ، مما يجعله يحس أكثر و أكثر بوطء الإهانة التى وجهها له العالم.

لقد كنت أول من وصف الصعوبات التى يتعرض لها الطفل المصاب بإعاقة جسدية ، أو الذى يولد بأعضاء مشوهة ، أو الذى يولد باختلال فى إفرزات الغدد . فكل فروع الطب قد أحرزت تقدماً كبيراً ، و لكنه تقدم غير كافٍ خاصة فى المجالات التى كنت أحب أن أرى المزيد من التقدم فيها ، و من البداية كنت أُحاول أن أجد طرقاً للتغلب على هذه الصعوبات – بدلاً من أن أعلق هذا الفشل على شماعة الوراثة

أو الحالة الجينية أو الجسدية - فإنه من الواجب أن لا نسمح لأى إعاقة جسدية بأن تمنع أى فرد من تطوير " أسلوب حياته " بطريقة صحية.

فإنه من المستحيل مثلاً أن نجد طفلين يتأثران بالطريقة نفسها بإفراز غدة ما ، بل إننا نرى الكثير من الأطفال الذين استطاعوا التغلب على الصعوبات التى واجهتهم حتى إنهم تمكنوا من تطوير قدرات و حواس حادة بطريقة غير عادية.

و لهذا فإن علم النفس الفردى لا يؤيد نظمًا علمية مثل " علم تحسين النسل " ، والكثيرون من رجالات العلم المشهورين الذين قدموا مساهمات عظيمة لرقى الحضارة وكانوا من المعاقين جسديا ، فبعضهم كان يعانى من ضعف الصحة الشديد ومات البعض فى سن صغيرة جدا.

التعويض الزائد Overcompensation

ولكننا نلاحظ أنه غالبًا ما تكون الاختراعات والاكتشافات الحديثة من نصيب أشخاص عانوا معاناة شديدة من صعوبات جسدية و مادية ، فإن الصراع الذى خاضوه زاد من قوتهم ، مما مكنهم من المضى قدمًا والتغلب على الكثير من المشاكل التى فشل الأصحاء فى التغلب عليها ، بل إنه يمكن القول بأن هؤلاء الأشخاص الذين عانوا معاناة شديدة ما كانوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من اختراعات واكتشافات لولا الصعوبات الجسدية والمادية التى عانوا منها ، وهو ما سميناه التعويض الزائد.

لهذا فإنه من غير الممكن إصدار حكم سليم على عقل شخص ما من خلال مظاهر قوته أو ضعفه الجسدى فقط لأن العقل يتطور بطرق مختلفة تمامًا بصرف النظر عن الحالة الجسدية.

ورغم هذا فإن معظم الأطفال - حتى الآن - الذين بدأوا حياتهم بإعاقة جسدية لم يتم تدريبهم بطريقة صحيحة ، فإن الصعوبات التى واجهوها لم يتم فهمها بطريقة سليمة ولهذا تحولّ معظمهم إلى شخصيات أنانية ، وهذا هو السبب فى أننا نجد

الكثير من حالات الفشل بين الأطفال الذين عانوا من الإعاقة الجسدية خلال سنوات الطفولة الأولى.

التدليل الزائد Pampering

أما الموقف الثاني الذي يؤدي إلى خطأ في فهم " معنى الحياة " ، فهو موقف الطفل الذي تم تدليله بطريقة مبالغ فيها ، فإن هؤلاء الأطفال تمت تنشئتهم بطريقة خاطئة حتى إنهم يتوقعون أن تكون كل رغباتهم مجابة ، وكل أمانيهم – مهما كانت مستحيلة التنفيذ – واجبة التحقيق بواسطة من يقوم على رعايتهم ، ويحدث كل هذا لأنه قد تم منحهم وضعًا اجتماعيًا وأهمية لا يستحقونها ، ولم يعملوا أو يبذلوا أي جهد في سبيل الحصول عليها و هم عمومًا يطالبون بمميزات هذا الوضع الاجتماعي ، كما لو كان أحد حقوقهم الموروثة ، و نتيجة هذا هي ظهور تصرفات غريبة – كما لو أن الشخص يعاني من الضياع – عندما يفقدون وضعهم كمركز لاهتمام الجميع ، أو عندما لا يعتبر الآخرون أن وجودهم و مشاعرهم هي أهم ما في الوجود.

وهؤلاء المدللون يعتبرون أن العالم قد فشل في إعطائهم ما يستحقونه بجدارة ، فقد تم تدريبهم منذ نعومة أظافرهم على الأخذ .. دون العطاء ، فقد كان جميع من حولهم يقومون بدور الخدم لهم .. حتى إنهم فقدوا القدرة على الاستقلال بأنفسهم .. بل و ربما أنهم يجهلون أنهم قادرون على خدمة أنفسهم.

إن أكثر ما يميز شخصية الفرد المدلل هو أن محور اهتماماته يتركز حول نفسه ، فلم يعلمه أحد قط ضرورة و أهمية الـ " تعاون " ، و عندما يواجه – الشخص المدلل – ببعض المصاعب فإن الطريقة الوحيدة التي يعرفها للتغلب على مثل هذه المصاعب هي أن يطالب من حوله بمد يد المساعدة.

فشخصية الفرد المدلل تؤمن بأنه :

" إذا ما تمكنت من استعادة مركزي و وضعي الاجتماعي السابق ، فإنني سأتمكن من إجبار الآخرين على الاعتراف بمدى خصوصيتي وأهميتي ، وإنه يجب

منحى كل ما أشتهيه وأرغبه ، وعندها فقط فإن كل مشاكلى ستزول ؛ أو على الأقل ستصبح سهلة الحل "٠

وعندما تبلغ شخصية الفرد المدلل مرحلة البلوغ ، فإنها تكون خطرة جدا حتى إن أخطر المجموعات التى يتكون منها المجتمع هى المجموعة التى تتضمن شخصيات تعرضت لتدليل زائد عن الحد فى فترة طفولتها ، فإن بعضهم يتظاهر بالطيبة أو التقوى حتى إنهم يصبحون محبوبين من معظم أفراد المجتمع – ولكن غرضهم الأساسى يبقى كما هو : ألا وهو السيطرة على الآخرين – ولكنهم يظلون ممتنعين عن "التعاون"٠

البعض الآخر منهم يثور ثورة عارمة – و بطريقة مفضوحة – عندما يفشلون فى الحصول على ما يعتقدون أنه حق من حقوقهم الموروثة ، فهم يشعرون كما لو أن أقرب أقربائهم قد خانهم ، بل إن بعضهم يشعر و كأن المجتمع كله يناصبهم العداء وأنه ليس أمامهم إلا أن ينتقموا من أولئكَ الذين يناصبونهم العداء٠

وعندما يظهر المجتمع عدم تقبله لطريقة الحياة – التى يحياها مثل أولئكَ المدللين – فإنهم يتخذون من عدم تقبل المجتمع لطرق حياتهم إثباتًا جديداً على صحة ادعائهم بأن المجتمع يحاول الإساءة إليهم شخصيا ، و هذا هو السبب فى أن العقاب لا يفلح مع مثل هؤلاء ، فإن العقاب – فى نظرهم – يؤكد صحة اعتقادهم بأن الجميع ضدهم٠

ولكن أيا كان رد فعل الطفل المدلل – ثورة عارمة بطريقة مفضوحة أو التظاهر بالطيبة أو الامتناع عن التعاون بغرض فرض السيطرة على الآخرين أو ... – فإنه وأمثاله جميعًا يتصرفون على أساس التعريف الخاطئ نفسه لـ " معنى الحياة " ، وهم جميعًا ينظرون نظرة خاطئة إلى العالم من حولهم ، حتى إننا نجد البعض منهم يحاول المزج بين طريقتين من الطرق السابقة أو اِستخدام الواحدة منهما بعد الأخرى حسبما يناسبه ، و لكن الشيء الثابت هو أن هدفه لا يتغير ، وأن للحياة معنى واحداً فى نظره وهو أن يظل فى الصدارة دائمًا و مركزًا لاِهتمام الجميع ، وأن يحصل على ما يريد من الأشياء حتى ولو كان لا يستحق مثل هذه المكانة أو تلكَ الأشياء٠

وطالما احتفظ الفرد منهم بمثل هذا التعريف لـ " معنى الحياة " ، فإن كل طريقة يستخدمها ستكون طريقة خاطئة.

الإهمال Neglect

أما الموقف الثالث الذى يؤدى إلى خطأ فى فهم " معنى الحياة " ، فهو موقف الأطفال الذين يتعرضون (لـ) الإهمال ، فمثل هؤلاء الأطفال لم يعرفوا " الحب " و " التعاون " قط ولهذا فإنهم يشكلون تعريفًا لـ " معنى الحياة " لا يتضمن مثل هذه القوى الإيجابية الفعالة ، ولعله من السهل علينا أن نفهم كيف تشكَّل مثل هذا التعريف الخاطئ لـ "معنى الحياة" ، فعندما يواجه هؤلاء الأطفال مشاكل الحياة فإنهم يبالغون فى تقدير مدى صعوبتها ويقللون من مدى قدرتهم على مواجهة هذه المشاكل خاصة أنهم لا يتوقعون الحصول على أى مساعدة – مهما ضئلت – من أى شخص.

إن المجتمع فى نظر مثل هؤلاء الأطفال مجتمع بارد بلا مشاعر وعدوانى إلى درجة كبيرة ، وإن المجتمع سيحتفظ بمثل تلك الصفات ، و لن يتغير أبدًا ، والشىء المهم هنا هو أنهم يؤمنون بعجزهم عن اِكتساب صداقة وتعاطف هذا المجتمع مهما فعلوا وأن القيام بأفعال مفيدة تساهم فى رفعة المجتمع لن يعود عليهم بأى منفعة من هذا المجتمع البارد عديم المشاعر ، ولهذا فإنهم يبقون على تشككهم فى الآخرين وعلى عدم قدرتهم فى الوثوق بأى شخص حتى أنفسهم.

وعلىَّ أن اِعترف هنا بأنه لا توجد خبرة أخرى تستطيع أن تعوض ما افتقده مثل هؤلاء الأطفال من اِختبار رقة و حنان و محبة الأبوين ، و لهذا فإننى (أُعِدُّ) أن أهم و أول مهام الأب و الأم هى أن يمنحوا طفلهما الوليد الحب و الحنان ، فهم بهذا يمنحانه المذاق الأول من خبرة التعرف على شخص يمكن الوثوق به والاعتماد عليه ، وفيما بعد – عندما تزداد قدرة الطفل على الإدراك – فإن عليه توسيع المشاعر وتحقيق الثقة داخلهُ حتى يستطيع أن يثق فى الآخرين من حولهِ أيضًا ،

وعلينا هنا أن نتذكر أنه إذا ما فشل الأب والأم فى مهمتهما الأولى - كسب اهتمام وثقة وحب وتعاون الطفل - فإنه سيكون من الصعب جدا على الطفل أن يكتسب اهتماماً حقيقيا بالمجتمع أو أن يشعر حتى بأنه عضو فى فريق يتكون من أعضاء كثيرين.

إن كل فرد يملك القدرة على أن يصبح مهتما اهتماماً حقيقيا بالآخرين، ولكن هذه القدرة يجب رعايتها منذ الصغر بالتدريب والتمرين وإلا فإن نموها سوف يتوقف.

وأعتقد أنه إذا ما تمكنا من دراسة عدد من الحالات التى تعرض فيها الأطفال للإهمال الشديد - بسبب عدم رغبة الآباء فى الطفل أو كرههم للاحتفاظ به، أو غيرها من الأسباب - فإننا سنجد أن الأطفال منعزلين غير قادرين على التواصل مع الآخرين، وأنهم يجهلون تماماً مبادئ المنعزلين التى تسمح لهم بالتعايش مع الآخرين، و أمثال هؤلاء الأطفال محكوم عليهم بالفناء، حتى إنه يمكن القول بأن الأطفال الذين تمكنوا من تجاوز عمر الطفولة هم أطفال حصلوا على حد أدنى من الرعاية و الاهتمام وتجاوزهم لعمر الطفولة يكون دليلاً على ذلك، و لهذا سنجد أنه لا توجد حالات تعرض فيها طفل ما لإهمال تام وكامل، بل إننا سنتعامل مع حالات تعرض فيها الطفل إلى بعض الإهمال أو لم يحصل فيها الطفل على القدر الذى يحتاجه من الحب و الرعاية، وباختصار يمكننا القول بأن الأطفال المهملين هم أطفال لم يستطيعوا أن يجدوا شخصاً يثقون به، ومن المحزن - فى حضارة العصر الحديث - أن هناك الكثير من حالات الفشل فى الحياة بين أطفال الملاجئ الأيتام أو الذين تخلى عنهم ذووهم، وعلينا أن نضم مثل هؤلاء إلى العدد الكلى من الأطفال الذين يعانون من الإهمال الشديد.

هذه الأوضاع الثلاثة - الإعاقة الجسدية، و التدليل الزائد، والإهمال - تمثل إغراءً شديداً للتمسك بتعريف خاطئ لـ " معنى الحياة "، والأطفال الذين مروا بمثل هذه التجارب سيحتاجون الكثير من المساعدة لتغيير وجهة نظرهم نحو أنفسهم ونحو الآخرين وأيضاً نحو دورهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه، والأهم من كل ذلك

فإنهم سيحتاجون إلى تغيير الطريقة التى يتعاملون بها مع المشاكل التى تواجههم ، والمساعدة التى يحتاجونها هى مساعدة فى فهم الحياة على حقيقتها ، ولو أننا مهتمون اهتمامًا حقيقيا بمساعدة مثل هؤلاء الأطفال فى التغلب على مشاكلهم فإننا سنقوم بتدريب أنفسنا على تفهم حقيقة مشاكلهم وسنصبح قادرين على رؤية التعريف الخاطئ الذى وضعوه لـ "معنى الحياة " فى كل تصرف من تصرفاتهم.

الذكريات الأولى والأحلام

إن دراسة الأحلام و ما يتعلق بها من ذكريات الطفولة ستكون مفيدة لنا الآن .

إن شخصية الفرد ثابتة لا تتغير سواء كان هذا الفرد فى حالة صحو ، أو فى حالة نوم ، ولكن عندما نكون نائمين فإن ضغوط المتطلبات الاجتماعية تكون أقل حدة ، مما يجعل حقيقة الشخصية تتكشف بوضوح ؛ لأن حالة النوم تجعلنا أقل حذراً من حالة اليقظة ، كما أنها تجعلنا على استعداد أكثر لإظهار حقيقة نوايانا ، وما نحاول إخفاءه عن الآخرين.

ولكن المساعدة الكبرى التى تقدمها الأحلام هى أنها تظهر لنا المعنى الحقيقى الذى يُعرف به الفرد نفسه و حياته ، فإن كل ذكرى – مهما بلغت تفاهتها – مهمة جدا لأنها تمثل شيئًا ينبغى تذكره بالنسبة لهذا الشخص ، وترجع أهميتها فى أنها تصور الحياة كما يعرفها ذلك الشخص ، فهذه – الذكريات – تقول له :

" إن هذا ما يجب عليك أن تتوقعه ". ... أو

" إن هذا ما يجب عليك أن تتجنبه ". ... أو

" هذه هى الحياة ".

علينا أن نؤكد هنا حقيقة مهمة وهى أن الخبرة التى مر بها الفرد فى حد ذاتها ير مهمة ، و إنما المهم هو أن هذه الخبرة ظلت فى الذاكرة و ساعدت على بلورة المعنى المنسوب للحياة – تعريفنا لـ " معنى الحياة " – فإن كل ذكرى ما هى إلا دافع للتذكر.

إن الذكريات الخاصة بالطفولة المبكرة مفيدة جدا فى إظهار طول المدة التى احتفظ بها فرد ما بتعريف معين لـ " معنى الحياة " ، كما أنها تكشف طبيعة الظروف المحيطة التى تَشَكَّلَ و تَكَوَّنَ فيها موقفه من الحياة لأول مرة.

إن الذكريات الأولى تحتل أهمية خاصة لسببين :

أولاً : إنها تُمثل أصدق تمثيل .. التقدير الأساسى الذى يحمله الفرد لنفسه ووضعه فى المجتمع ، فهى أول ملخص قام به الفرد لما لاحظه من ظواهر ، وهى تمثل أكمل صورة للفرد و لما يَتَوَقَّعَهُ المجتمع منه.

ثانيًا : إنها تمثل أول نقطة بداية شخصية – ذاتية – له ، فهى بداية قصة حياة الفرد ، والتى قام الفرد ذاته بكتابتها ، وعلى هذا فإننا يمكن أن نتعرف على ما يُعده – الفرد – مواقف ضعف أو قوة ؛ و ما يُعِدُّه هو – الفرد – ملائمًا أو غير ملائم ، وما الدور المثالى الذى تلعبه القوة.

إنه من غير المهم هنا ما إذا كانت الذكرى – التى يعتبرها الفرد أول الذكريات – هى حقيقة أول شىء يستطيع هذا الفرد تذكره عن طفولته المبكرة أم لا ، فقد يستطيع الفرد تذكر حدث ما سابق عن ما أعدَّه أولاً " أول الذكريات " ، إنما المهم ما يعتبره هو أول الذكريات ، حتى إنه من غير المهم معرفة ما إذا كانت هذه الذكرى الأولى حقيقية أم من صنع خياله.

فإن الذكريات مهمة فقط بسبب ما تمثله ، وبسبب أنها تمثل طريقة فهم الحياة وتأثيرها على الحاضر و المستقبل.

دعنا الآن نأخذ فى الاِعتبار بعض الأمثلة التى ادعى مجموعة من الأفراد أنها ذكريات أولى و نظهر " معنى الحياة " الكامن فى هذه الأمثلة .

المثال الأول

" لقد سقط براد القهوة الساخن من على المنضدة وحرقني "٠

هذه هي الحياة .. !! ، لا يجب أن نعجب من أن تكون الذكرى الأولى لمثل هذه السيدة عن براد قهوة ساخن ، كما أن العجب يجب ألا يأخذنا إذا ما عرفنا أن حياة مثل هذه المرأه محكومة بمشاعر عجزها عن حماية نفسها .. وأنها تُضَخِّم من حجم المصاعب و الأخطار التي تتعرض لها ، أيضًا يجب ألا نعجب إذا ما عرفنا أنها تلوم الآخرين بسبب عدم قدرتهم على حمايتها من الأخطار التي تتعرض لها ، فقد كان من الخطأ - من وجهة نظرها - ترك طفل صغير في مثل عمرها معرضًا لمثل هذا الخطر الشديد٠

هناك أيضًا صورة مشابهة لمثل الصورة السابقة في المثال التالي :

المثال الثاني

" أنا أتذكر سقوطي من فوق الفراش عندما كنت أبلغ من العمر ثلاث سنوات "٠

كما أن هذه الذكرى الأولى كانت مقترنة بحلم تكرر كثيراً :

" يوم القيامة ... و العالم كله سوف يموت ، استيقظت في منتصف الليل لأجِد أن السماء ملونة بلون النار الأحمر الشديد التوهج ، والنجوم كلها سقطت ، ونحن على وشك الاصطدام بكوكب آخر ، ولكن قبل أن يحدث التصادم استيقظت من النوم"٠

عندما سألت هذا المريض - طالب في الجامعة - عما يخشاه أجاب قائلاً :

" حسنًا ، فأنا أخاف من أن لا أنجح في حياتي العملية "٠

من الواضح أن الذكرى الأولى والحلم المتكرر يقومان بدور مثبط ، ويؤكدان خوفه من الفشل الذريع٠

المثال الثالث

طفل يبلغ من العمر اثنى عشر عامًا ، وقد تم إحضاره بسبب تكرار مشكلة التبول اللا إرادى ، و أيضًا وجود خلافات و مشاكل مستمرة بينه وبين أمه ، عندما سألته عن الذكرى الأولى قال :

" والدتى ظنت أننى قد ضللت الطريق ، فخرجت تجرى إلى الشارع و هى تصيح بأعلى صوتها بحثًا عنى ، و كانت تشعر بالخوف الشديد والقلق من غيابى ، بينما كنت أنا مختبئًا فى داخل المنزل بين ملابسها ".

إن هذه الذكرى الأولى تقول لنا فى وضوح إن معنى الحياة بالنسبة لهذا الصبى هو : سأظل مركز اهتمام الجميع بأى طريقة حتى لو تسببت فى حدوث المشاكل للجميع ، إن الطريقة الوحيدة للشعور بالأمان هى أن أكون لئيمًا ومخادعًا ، أشعر أحيانًا بأن أمى تتجاهلنى عن عمد ، لكنى أستطيع أن أخدع الجميع.

من هذا يتضح أن مشكلة التبول اللا إرادى ما هى إلا وسيلة مناسبة يستخدمها هذا الصبى فى المحافظة على مكانته عند والدته – بأن يبقيها قلقة على حالته الصحية – كما أن والدته أكدت صحة تعريفه لـ" معنى الحياة " عندما استجابت لوسائله المخادعة ، وانزعجت بشدة عليه ، و زادت من اهتمامها به.

فى هذا المثال نرى أن الصبى قد تعلم – فى مرحلة مبكرة جدا من حياته – انطباعًا خاطئًا عن الحياة فى العالم الخارجى .. عندما ظن أن كل ما هو خارج المنزل مملوء بالأخطار ، وأنه يكون فى مأمن عندما يَقْلَقُ الآخرون عليه ، وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى استطاع بها أن يؤكد لنفسه أن الآخرين سيكونون موجودين لحمايته إذا ما احتاج للحماية.

المثال الرابع

هـذه هى الذكرى الأولى لاِمرأة تبلغ من العمر خمسة و ثلاثين عاماً ، فقد قالت :

" بينما كنت أقف على درجات السلم فى الظلام ، بدأ ابن عمى - الذى كان يكبرنى قليلاً - فى مطاردتى ، كنت أشعر بخوف شديد "٠

من الواضـح أن هذه الذكـرى تصف فتاة لم تعتد اللعب مع الأطفال الآخرين ، وربما كانت لا ترتاح لمداعبات الجنس الآخر لها ، أعتقد أنـها الطفل الوحيد فى هذه الأسرة . وقد كنت على صواب فى مثل هذا الاِعتقاد ، كما أنها لا تزال غير متزوجة فى سن الخامسة والثلاثين٠

المثال الخامس

فى هـذا المثـال سوف نجـد أن الشـعـور الاجتـمـاعى مـوجـود بصـورة أوضـح منـه فى الأمـثلة السـابقـة ، فـدعنا نسـتـمع إلى هـذه الذكرى الأولى ، و نحـاول تفـهم "معنى الحياة" الكامن فيها٠

" أنا أتذكر أن والدتى قد اعتادت بأن تسمح لى بأن أدفع العربة الصـغيرة التى تحمل أختى الرضيعة "٠

فى هـذا المثال قد يتضح وجود علامات تدل على أن ذلك الشخص لا يكون سعيداً إلا فى وجود من هو أضعف منه ، كما أن هناك دلائل تدل على اعتمادها الشـديد على والدتها فـإن أنسب الأوقات للحصـول على الـ" تعاون " هـو عندما يولد طفـل جـديد ، لأن الأطـفال الأكبر سنا سـيرحبون بفرصـة المساعدة فى تنشـئة القـادم الجـديد ، كما أن محاولة الحصول على مساعدة من الأطفال الكبار ستؤدى إلى نظـرة صحـية للطفـل الجـديد ، و ليـس على أنه انتقاص من أهمية الأطفال الأكـبر سنا٠

إن الرغبة فى التواجد مع الآخرين ليست دليلاً كافياً على اِهتمامنا الصادق بهم ، و الدليل على ذلك فى المثال القادم :

المثال السادس

عندما سُئلت فتاة صغيرة عن الذكرى الأولى قالت :

" كنت ألعب مع أختى الكبرى و فتاتين آخريين من أصدقائنا ، ولكن أكثر ما أخافه هو أن أكون بمفردى "٠

من الواضح هنا أن هذه الطفلة اِجتماعية ولكن هناك علامات قوية تدل على أن هذه الطفلة لا تحب أن تعتمد على نفسها٠

عندما نجد التعريف الذى يتبعه فرد ما لـ" معنى الحياة " فإن علينا أن نتفهم هذا التعريف بصورة جيدة لأنه مفتاح شخصية هذا الفرد ، ربما قال البعض إنه من المستحيل تغيير شخصية إنسان تغييرًا حقيقيا ، ولكن هذه النظرة غير صحيحة ، فكما رأينا مما سبق فإنه من الممكن أن نعمل على تغيير شخصية فرد بعينه ، و لكن علينا أن نتذكر أنه ما من علاج يستطيع أن ينجح فى تحقيق هذا، إلا إذا اكتشفنا أولاً السبب الأصلى فى تكوين تعريف خاطئ لـ" معنى الحياة " ، كما أنه يمكن القول إن إمكانية إحداث تقدم فى تغيير الشخصية تعتمد على تدريب الفرد على تقبل تعريف لـ" معنى الحياة " يتسم بالتعاون و الشجاعة ٠

أهمية تدريس التعاون

إن التعاون هو الحماية الحقيقية ضد اِحتمال حدوث ميول أنانية ، ولهذا فإنه من المهم جدا أن يتم تدريب الأطفال و تشجيعهم على التعاون ، كما أنه يجب السماح لهم باِستكشاف الطريق المؤدى إلى التعرف على زملاء من عمرهم نفسه عن طريق فرض واجبات مشتركة عليهم أو السماح لهم بالاِنضمام إلى ألعاب مشتركة٠

فإن وجود أى حواجز بينهم و بين الـ" تعاون " له نتائج شديدة الخطورة على مستقبلهم فعلى سبيل المثال فإن الأطفال المدللين ، الذين تعلموا أن يهتموا بأنفسهم

فقط سيأخذون هذا النقص فى الاهتمام بالآخرين معهم ، عندما يذهبون إلى المدرسة، ودروسهم ستكون مهمة بالنسبة إليهم بالقدر الذى يسمح لهم بالحصول على الاهتمام والحب من مدرسيهم ، و سيتقبلون ما يصدر إليهم من أوامر طالما كان تنفيذ هذه الأوامر يظهرهم بمظهر مشرف و يركز الأضواء عليهم.

وعندما يشرف أولئكَ الأطفال المدللون على مرحلة البلوغ فإن مظاهر النقص فى الاهتمام بالآخرين تصبح شديدة الوضوح ، إنهم عندما أخطأوا فى تعريف "معنى الحياة" قد أوقفوا - بالتبعية - التدريب الذى كان من الواجب أن يحصلوا عليه ليصبحوا قادرين على الاستقلال بذواتهم و تحمل المسئولية ، وهم بهذا قد أصبحوا غير مستعدين على الإطلاق لمواجهة اختبارات الحياة وصعوباتها.

إننا لا نستطيع توجيه اللوم للبالغين على الأخطاء التى ارتكبها الأطفال فى المراحل الأولى من طفولتهم ، لكننا نستطيع مساعدتهم فى معالجة نتائج هذه الأخطاء ، إننا لا نتوقع من أطفال لم يتعلموا أى شىء عن علم الجغرافيا أن يتمكنوا من الإجابة عن أسئلة بخصوص هذا العلم ، وبالمثل فإنه يجب ألا نتوقع من أطفال لم يتعلموا أى شىء عن الـ "تعاون" أن يكون رد فعلهم - فى مهمة تتطلب الـ" تعاون " - سليمًا ومناسبًا ، وكل مشاكل الحياة تتطلب قدرًا من التعاون لحلها ، فكل مشكلة يجب أن تحاط بنظام صارم لحلها بواسطة المجتمع البشرى ، بحيث يؤدى هذا الحل إلى مزيد من الرفاهية للمجتمع ككل.

إن الأفراد الذين يستطيعون فهم " معنى الحياة " الحقيقى - التعاون و المساهمة - هم وحدهم القادرون على مواجهة الصعوبات بشجاعة ، و هم وحدهم الذين أمامهم فرصة فى النجاح .

لو أن المدرسين و الآباء و علماء النفس فهموا الأخطاء التى تحدث فى تعريف "معنى الحياة" ، على ألا يقع المدرسون والآباء وعلماء النفس فى الخطأ نفسه ، ألا وهو الاحتفاظ – لأنفسهم – بتعريف خاطئ لـ " معنى الحياة " ، فإننا نستطيع القول بأن الطفل يعانى من نقص الشعور الاجتماعى سيبدأ – تدريجيا – فى التعرف بطريقة أفضل على حقيقة ذاته والقدرات الكامنة فى داخله ، كما أنه سيبدأ فى التعرف على الفرص المتاحة له فى الحياة مما سيدفع به إلى تصحيح تعريفه الخاطئ لـ" معنى الحياة " و سنجد أنه لا يكف عن محاولة حل ما يواجهه من المشكلات ، بل إنه سيختار الطريق الصحيح لحل مثل هذه المشكلات ولن يحاول أن يتجنبها باختيار أسهل الطرق للهرب منها ، كما أنه لن يحاول إلقاء عبء حل هذه المشكلات على الآخرين أو يطالب المجتمع باعتباره بطلاً لمجرد الوقوف أمام هذه المشاكل ، أيضًا فإنه لن يشعر بأن المجتمع يحاول إذلاله فيحاول الانتقام من المجتمع كما أن أسئلة مثل :

" ما فائدة الحياة ؟ " ، و" ما جدوى حياتى ؟ ، و ما الذى أجنيه من هذه الحياة ؟ "٠

لن تخطر على باله ، بل إنه سيفكر قائلاً :

" إنه من الواجب علىَّ أن أعمل على تشكيل حياتى بنفسى ، فإن هذا هو واجبى ، وأنا قادر على القيام بهذا الواجب على أكمل وجه ودون مساعدة ، فأنا الذى أسيطر على أفعالى .. وأقيِّمها ، و إذا ما احتجت إلى تغيير شىء قديم أو بناء شىء جديد فإننى أنا الوحيد القادر على القيام بهذه الأعمال "٠

لو أنه تم النظر إلى الحياة بهذه الطريقة ، أى على أنها تعاون بين أفراد مستقلين بذواتهم عن الآخرين ، فإن الحضارة الإنسانية ستتطور ، ولن يكون لتطورها حدود٠

الفصل الثانى

الجسم والعقل

التفاعل بين الجسم والعقل

طالما تساءل البشر عن من له السيطرة على الآخر " الجسد " أم " العقل " ؟ ، ولقد شارك الفلاسفة فى مثل هذا الجدل متخذين جانبًا أو آخر . على حَسب انتماءاتهم ، "المثاليون " أو " الماديون " ، وكثر الجدل بينهم ولكن التساؤل بقى كما هو بلا إجابة ، ولكن ربما تمكن علم النفس الفردى من الإجابة على مثل هذا التساؤل ، وهذا لأننا فى علم النفس الفردى يكون محور اهتمامنا الحقيقى هو التفاعلات اليومية التى تحدث بين الجسد والعقل ، إن الأفراد – جسدًا وعقلاً – يأتون إلينا طلبًا للعلاج ، فلو أن العلاج الذى نقدمه لهم كان مبنيا على أساس خاطئ فإننا سنصبح غير قادرين على مساعدتهم.

و لهذا فإن الأساس الذى نبنى عليه نظريات العلاج يجب أن يكون مستمدا من خبراتنا السابقة ، وأن يكون قابلاً للتطبيق ، إنه من الواجب علينا أن نتعامل مع نتائج هذه التفاعلات بين العقل والجسد ، كما أن لدينا دافعًا قويا لتحديد وجهة النظر الصحيحة من بين وجهات النظر المختلفة.

إن علم النفس الفردى قد غيَّر من طبيعة هذه المشكلة ، فإنها لم تعد مشكلة ، إما هذا ، وإما ذاك ، فإننا نرى الآن أن كلا من الجسد والعقل ما هو إلا تعبير عن الحياة ، فهما أجزاء من مكونات الحياة ككل ، ولقد بدأنا الآن فى فهم العلاقات المتبادلة بين أجزاء الحياة.

إن الحياة البشرية تعتمد على الحركة ، ولكنه من غير الكافى للإنسان أن يتطور من الناحية الجسمانية فقط ؛ لأن الحركة فى حد ذاتها تتضمن معنى التحكم فى الذكاء ، أى التحكم فى العقل ، فالنبات له جذور ولهذا فإنه يبقى فى المكان نفسه لا يتحرك ، ومن هذا فإنه يمكن القول بأن النبات لا عقل له ، أو على الأقل فإن النباتات ليس لها عقل بالمعنى المفهوم لنا ، وحتى إذا كان فى إمكان النبات إدراك نتائج الأفعال قبل أن تحدث ، فإن هذه الإمكانية - إدراك النتائج - تكون غير مفيدة بالنسبة إلينا ، حيث أن النبات غير قادر على رد الفعل ، فما هى الفائدة من معرفة النبات بأن هناك شخصًا قادمًا مثلاً ، وأن هذا الشخص سيطأ بقدمه النبات ويسحقه فإن النبات سيظل عاجزًا عن إنقاذ نفسه حيث إنه غير قادر على الحركة.

من هذا نستنتج أن كل الأشياء القادرة على الحركة تستطيع أن تتنبأ بنتائج الأحداث والأفعال التى تحدث من حولها ، ومن ثم تقرر الحركة فى هذا الاتجاه أو غيره ، وهذا يتضمن فيما يعنيه أن مثل هذه الأشياء لها عقول أو أرواح.

و هذا أشبه بما قاله شكسبير فى مسرحيته الشهيرة " هاملت " فى المشهد الرابع من الفصل الثالث ، عندما قال :

" العقل ، نعم فأنتِ بالتأكيد لديكِ عقل ، وإلا ما تمكنتِ من الحركة ".

إن القدرة على توقع الأحداث وتوجيه الحركة هى المبدأ المحورى الذى تتركز حوله وظيفة العقل ، وكلما تقبَّلنا هذا المبدأ بسرعة فإنه سيكون بإمكاننا أن نفهم الطريقة التى يتحكم بها العقل فى الجسد.

وعلينا هنا القول بأن مجرد القيام بحركة عشوائية بين الحين والآخر أمر غير كافٍ فإنه من الواجب أن يكون هناك هدف من الحركة حتى يمكن اعتبارها دليلاً على وجود عقل ، وحيث إن وظيفة العقل هى أن يقرر الهدف من الحركة ، فإن العقل يكون هو القائد أى أن العقل يتحكم فى الجسد ، ولكن الجسد له سلطة

على العقل أيضًا ؛ لأنه هو الذى سيؤدى الحركة ، كما أن علينا أن نتذكر حدود العقل ، فإن العقل محكوم بمحدودية قدرة الجسد على الحركة ، فلو أن العقل حاول - على سبيل المثال - أن يأمر الجسد بالذهاب إلى القمر ، فإن الجسد سيفشل فى تنفيذ مثل هذا الأمر بسبب محدودية قدرة الجسد على الحركة.

إن البشر يتحركون أكثر من جميع المخلوقات الأخرى ، وهم قادرون على تحريك أجسامهم بطرق مختلفة ومعقدة - مثل حركة أصابع اليدين والرقص وغير ذلك - وهم أيضًا قادرون على استخدام البيئة المحيطة بهم لتسهيل حركتهم ، ولهذا يمكننا القول إن قدرتهم العقلية على التنبؤ والاستنتاج متطورة جدا ، وإن سلوك الجنس البشرى يدل على شوق وكفاح وسعى حثيث يهدف إلى تحسين حياتهم.

كما أنه يمكننا اكتشاف " دافع آخر " خلف جميع التحركات والأهداف الجزئية التى يقوم بها البشر ، فإن كل نضالنا وسعينا يكون موجهًا نحو تحقيق شعور أساسى ألا وهو "الشعور بالأمان " ، وهو شعور يمكن تحقيقه إذا ما تمكنا من الإحساس بأن كل صعوبات الحياة قد تم التغلب عليها ، وأننا خرجنا من المواجهة بأمان ، منتصرين.

ومن هذا نرى أنه عندما يكون هذا الهدف - " الشعور بالأمان " - أمامنا ، فإن كل حركاتنا وتعبيراتنا تكون متوافقة ومتسقة فى وحدة لتحقيق هذا الهدف ، ولهذا يكون العقل موجهًا بالقوة نحو تطوير ذاته لتحقيق مثل هذا الهدف النهائى النموذجى.

الجسد أيضًا يكون فى الموقف نفسه ، فالجسد أيضًا يناضل من أجل الوحدة ، فهو يتطور فى اتجاه تحقيق هدف نموذجى محدد حتى قبل أن يصبح جنينًا ، فلو أن شخصًا ما تعرض لجرح فإن الجسد يقوم بمجموعة من الأفعال بطريقة أوتوماتيكية حتى يُشفى هذا الجرح ويصبح الجلد سليمًا مرة أخرى ، ولكن علينا أن نعرف هنا أن الجسد لا يُترك وحده فى مواجهة مثل هذه المشكلة ، بل إن العقل يساعد فى المواجهة ، كما أنه - العقل - يساعد الجسد أيضًا عندما يأمره بممارسة أشياء مثل الرياضة البدنية والتدريب والنظافة الشخصية ، والتى ثبتت فائدتها فى تحسين صحة الجسد ومساعدته على بلوغ هدفه النهائى.

وتستمر هذه العلاقة القوية بين الجسد والعقل منذ اليوم الأول فى الحياة وحتى نهايتها ، وهى علاقة شراكة بغرض تحقيق النمو المشترك وتطوير القدرات المشتركة لكل منهما ، فإن العقل والجسم يتعاونان كأجزاء من شىء واحد ، فالعقل مثل محرك السيارة يحمل معه كل الإمكانيات التى يمكن اكتشافها فى الجسد ، وهو بهذا يحافظ على أمان الجسد ويبقيه منيعًا وحصينًا ، وخلال جميع حركات الجسد وفى كل تعبيراته فإننا نرى الأثر الذى تركه العقل على هذه الحركات والتعبيرات.

فعندما يتحرك إنسان فإنه يكون هناك معنى لهذه الحركة أياً كانت ، فإذا كانت هذه الحركة هى تحريك عضلات الوجه ليعبِّر عن شىء ما - الحزن مثلاً - فإن العقل هو الذى وضع هذا المعنى فى هذه التعبيرات.

و من كل هذا نستطيع أن نرى حجم المشكلة التى يتعامل معها علم النفس - علم العقول - فإن الغرض من علم النفس هو اكتشاف معنى جميع تعبيرات الفرد ؛ لأنه عن طريق فهم كل هذه التعبيرات ... فإنه يمكننا اكتشاف الهدف الذى يسعى إليه هذا الفرد كما أنه يمكننا من المقارنة بين هدفه وأهداف الآخرين.

فى خلال السعى لتحقيق الهدف النهائى - الشعور بالأمان - فإن العقل يواجه دائمًا بمشكلة ضرورة المحافظة على الهدف ظاهراً وثابتًا فى جميع الأوقات ، فإنه يكون فى حالة بحث دائم عن " الشعور بالأمان " وعن كيفية الوصول إليه ، والعقل دائمًا يأخذ فى الاعتبار إمكانية أن يحيد الجسد عن هدفه ، ولهذا فإنه يجب على العقل أن يعمل دائمًا للحفاظ على الهدف النهائى واضحًا وثابتًا فى جميع الأحوال ، أيضًا فإن اختيار الطريق المؤدى إلى الهدف يحمل أهمية خاصة ؛ لأنه بدون الهدف والطريق فإنه لا يمكن أن تكون هناك حركة ذات معنى ، فلو أننى حركت يدى فلابد وأن يكون هناك غرض من هذه الحركة فى عقلى ، ورغم أن الحركات التى يأمر العقل بتأديتها قد تقود إلى مصائب - أحيانًا - فإن العقل اختار القيام بمثل هذه الحركات ؛ لأنه كان مقتنعًا بأنها سوف تؤدى إلى تحقيق أهدافه.

وبهذا فإن كل الأخطاء النفسية ما هى إلا أخطاء فى اختيار الطريق الذى يؤدى إلى الهدف ، إن هدف الوصول إلى " الشعور بالأمان " هدف مشترك بين جميع

أفراد الجنس البشرى ، ولكن بعضهم يخطئ فى تحديد مكان الحصول على هذا الهدف ، أو ربما يكون الخطأ فى تحديد الطريق المؤدى إلى هذا الهدف.

دعنا الآن نبحث بعض التفاصيل ، إذا رأينا تعبيراً أو حركة ، وكنا غير قادرين على فهم المعنى المقصود بهذا التعبير أو الحركة ، فإن أفضل الطرق للتعامل مع هذه المشكلة هى تحليلها إلى عواملها الأساسية حتى نتمكن من فهمها :

دعنا نأخذ على سبيل المثال أحد الأفعال المنتشرة فى مجتمعنا : فعل "السرقة" ، ولنبدأ بتعريف المعنى .. السرقة : أن تنزع ممتلكات أحد أفراد المجتمع وتأخذها لنفسك.

دعنا نفحص الهدف من القيام بمثل هذه الحركة - السرقة - إن الهدف فى رأيى هو أن نزيد غِنانا ، وكلما سرقنا أكثر فإننا سنشعر بالأمان أكثر لأن ممتلكاتنا قد زادت ، ولهذا فإن نقطة البداية لمثل هذه الحركة - السرقة - هى الشعور بأننا فقراء ومحرومون.

لهذا فإن الخطوة التالية هى : محاولة اِكتشاف الظروف المحيطة بالأفراد ، وما الأوضاع التى يشعر فيها الفرد بأنه محروم ، والخطوة الأخيرة هى أن نحدد مدى صحة الطريق الذى اختاروه لأنفسهم لتغيير الأوضاع المحيطة بهم والتغلب على مشاعر الحرمان التى تتملكهم ترى أهم على الطريق الصحيح ؟ أم اِختاروا طريقًا خاطئًا للحصول على ما يشتهون ؟ فى كلتا الحالتين يجب علينا ألا ننتقد هدفهم النهائى ، ولكن ما يمكن أن نفعله هو أن نشير إليهم بخطأ الطريق المؤدى إلى هذا الهدف .

و كما لاحظنا فى الفصل الأول فإن السنوات الخمس الأولى من حياة الفرد تكون حاسمة فى تحديد شخصيته ، ومدى شدة وقوة العلاقة بين عقله وجسده ، وخلال هذه الفترة فإنهم يأخذون الصفات والقدرات المورثة لهم ، وأيضًا ما يتعلمونه من البيئة المحيطة بهم ، ويشكلونه كسلاح يستخدمونه فى سبيل تحقيق " التفوق " والوصول إليه.

وبنهاية العام الخامس فإن شخصية الأفراد تكون قد تشكلت ، وأنا أعنى بهذا أنهم قاموا بتعريف " معنى الحياة " ، وأنهم أيضًا قد حددوا الهدف وطريقة الوصول إليه ، كما أن ميولهم ومزاجهم العاطفى يكون قد تحدد بطريقة نهائية ، ورغم أنه من الممكن تغيير بعض تلك الثوابت فإنه سيكون من الصعب الوصول إلى تغييرات حقيقية ذات معنى إذا لم يستطيعوا تحرير أنفسهم من المواقف المضللة التى اتخذوها من الحياة فى طفولتهم ، وكما أن كل أفكارهم وأفعالهم كانت متناسبة مع تعريفهم السابق لـ "معنى الحياة" ، فإنهم الآن – إذا ما تمكنوا من تغيير المواقف المضللة التى اتخذوها من الحياة فى طفولتهم – ستكون لديهم مجموعة جديدة من الأفكار والأفعال تتناسب مع تعريفهم الحالى لـ " معنى الحياة "٠

إن الأفراد يتواصلون مع البيئة المحيطة بهم من خلال حواسهم ، ومن خلال هذه الحواس تتكون لديهم انطباعات عن البيئة ، ويمكننا أن نعلم – من الطريقة التى يدربون بها أجسادهم – نوع الانطباع الذى وصل إليهم عن بيئتهم ، وعمًا ما سوف يفعلونه بالخبرات التى تعلموها ، ولو أننا راقبنا الطريقة التى ينظرون بها إلى الأشياء أو التى يستمعون بها إلى ما حولهم ، فإننا سنعلم الكثير عنهم ، ولهذا فإن فهم الطريقة التى يستخدم بها الفرد حواسه الخمس ذو أهمية خاصة فى معرفة طبيعة هذا الشخص ، حتى إننى أجرؤ على القول بأن كل وضع يتخذه الفرد . وكل حالة نفسية – مزاج – يكون عليها ذات أهمية قصوى ولها معنى خاص علينا أن نفهمه٠

الآن يمكننا إضافه المعانى الآتية لتعريف علم النفس :

إن علم النفس هو : العلم الذى يحاول فهم الأفراد ومواقفهم تجاه الانطباعات الحسية التى تنتقل إليهم من خلال أجسادهم٠

يمكننا الآن أن نتبين المصدر الذى نشأت منه الاختلافات الكبيرة بين عقول أفراد الجنس البشرى ، فإذا أخذنا كمثال جسد شخص ما ، ودعنا نفترض أن هذا الجسد غير قابل للتكيف مع البيئة المحيطة ، كما أن هذا الجسد يجد صعوبة كبيرة فى تلبية الطلبات المفروضة عليه بحكم البيئة ، إن العقل ينظر إلى مثل هذا الجسد

على أنه عبء وليس شريك فعال فى محاولة الوصول إلى الهدف النهائى ، ولهذا السبب فإن الأطفال المولودين بإعاقة جسدية تميل عقولهم للنمو بمعدل أبطأ من غيرهم ، ويكون هذا بسبب الصعوبة التى تواجه عقولهم فى السيطرة على أجسامهم المعاقة ، حيث إنه من المفروض على العقل أن يبذل جهداً أكبر ، فإن تركيزهم الذهنى يكون أكبر من تركيز كل من حولهم ، ولهذا تكون عقولهم مثقلة بالعبء ، لهذا فإنهم يتحولون إلى شخصيات أنانية مهتمة بذاتها فقط.

عندما يصبح الهم الوحيد للأطفال هو الإعاقة الجسدية التى يعانون منها فإنه لا يصبح لديهم أى وقت للتفكير فى الآخرين ، فهم محرومون من الوقت والحرية – حرية الحركة وأيضًا حرية الاختيار – التى تسمح لهم بالاهتمام بحياة الآخرين ، ويكون من نتيجة هذا أنهم لا يحصلون على الشعور الاِجتماعى ، وبالتالى فإن قدرتهم على " التعاون " تكون أقل.

إن الإعاقة الجسمانية تمثل عقبة حقيقية فى طريق أى فرد ، ولكنها فى رأيى لا تمثل عقبة لا يمكن التغلب عليها أو مصيراً لا يمكن الفرار منه ، فلو أن العقل كان نشيطًا بالدرجة الكافية وعمل بجد واجتهاد للتغلب على العقبات التى تواجهه ، فإن الفرد من الممكن جدا أن يصبح ناجحًا بالدرجة نفسها التى ينجح بها من لم يعان من الإعاقة الجسدية قط ، حقا إن الأطفال المصابين بإعاقة جسدية يكونون غالبًا ناجحين بالرغم من الإعاقة ، وبصورة أكثر بكثير من الأطفال الذين يبدأون بصورة طبيعية – بدون إعاقة جسدية – فعلى سبيل المثال ربما يعانى أحد الأطفال من ضغط شديد بسبب ضعف النظر مما يدفعه إلى التركيز بصورة أكبر من المعتاد ، وهذا يدفعه لأن يعطى أهمية أكثر من المعتاد للعالم المرئى المحيط به ، كما أن اهتماماته بتمييز الأشكال والألوان يكون أشد ، وفى النهاية يصبح ذلك الشخص قادراً على تقدير العالم المرئى الذى حوله أحسن تقدير.

ومن هذا يمكن القول إن قصور عضو من الأعضاء – وهو العين فى هذه الحالة – حوَّل مصير شخص إلى الأفضل ، ولكن هذا يحدث فقط إذا ما تمكن العقل من إيجاد طريقة للتغلب على قصور الأعضاء وتحويلها من عيب إلى ميزة.

التعويض الزائد Overcompensation

وسوف نجد نسبة كبيرة من الفنانين – رسامين وشعراء وغيرهم – من المصابين بأنواع مختلفة من الإعاقة الجسدية أو قصور الأعضاء ، وفى جميع هذه الحالات فإن العقل المدرب تغلب على هذا القصور حتى إنهم وصلوا إلى مرحلة تمكنهم من استخدام أعضائهم استخداماً أفضل من الاستخدام الذى يستخدمه الأصحاء.

كما أن النوع نفسه من التعويض يمكن رؤيته بسهولة بين الأطفال المولودين بالقدرة على استخدام اليد اليسرى – أعسر – فإنه إذا لم يتم التعرف على هذا فى البيت أو فى المدرسة فإنه ستتم محاولة إجبارهم على استخدام اليد اليمنى – والتى تكون غير مستعدة لمهام مثل الكتابة – فى الإمساك بالقلم ، أو ربما نتوقع أنه إذا ما تمكن العقل من التغلب على صعوبة مثل صعوبة الكتابة باليد اليمنى لمن هو أعسر ، فإن هذه اليد اليمنى غير المؤهلة لمثل هذه المهام سوف تتطور حتى تصل إلى درجة عالية من المهارة تمكنها من الكتابة بطريقة أفضل من أولئك الذين لم يعانوا من مشكلة العسر ، وهذا هو ما يحدث ، فإن الكثير من الأطفال الذين يستخدمون يدهم اليسرى يصبح لديهم موهبة الرسم والكتابة بخط أحسن من باقى الأطفال.

وعلى هذا يمكن القول بأنه :

إذا تمكنا من تطوير التقنية السليمة ، وبتقوية الدافع السليم لدى الطفل بالتغلب على صعوبة ما ، وبالتدريب المستمر والتمرين ، فإنه يمكن تحويل ما يبدو وكأنه عيب إلى ميزة.

إن الأطفال الذين تملؤهم الرغبة بالمساهمة فى تقدم مجتمعهم ، والذين يهتمون اهتماماً حقيقيا بالمجتمع من حولهم ولا يكون اهتمامهم مركزاً على أنفسهم ، هم وحدهم الذين سينجحون فى تعليم أنفسهم كيفية التعويض عن العيوب التى يعانون منها ، وهم وحدهم الذين سينجحون فى تحويل عيوبهم إلى ميزات.

حقيقة إنهم ربما استمروا في التخلف عن أقرانهم ، ولكنهم يستطيعون المحافظة على شجاعتهم لو أنهم ركزوا على الهدف النهائي لجهودهم ؛ لأن الوصول إلى هذا الهدف وتحقيقه سيكون أكثر أهمية من العقبات التي اعترضت طريقهم.

وعلى هذا يصبح التساؤل المحوري هو هل انتباه واهتمامات هؤلاء الأطفال مركزة على المجتمع من حولهم ؟ أو هي انتباه واهتمامات أنانية مركزة على النفس ؟ ، فلو أن هناك هدفًا - خارج ذواتهم - يستطيعون أن يركزوا عليه ، فإنهم سيتمكنون من تدريب وتسليح أنفسهم بما يحتاجون إليه لتحقيق هذا الهدف ، وستبدو لهم الصعوبات على أنها مجرد حاجز بسيط يمكن تخطيه بسهولة ، من ناحية أخرى لو أن اهتماماتهم كانت مركزة على مجرد محاربة هذه الإعاقة الجسدية - بلا هدف آخر سوى التحرر منها - فإنهم لن يتمكنوا من تحقيق أي تقدم حقيقي ، وتلك اليد اليمنى الخرقاء ستبقى كما هي تعاني من عدم قدرتها على أداء المهام بخفة وبراعة ، فإن مجرد الرغبة أو التمني في تحويلها من يد غير ماهرة إلى يد ماهرة لا يكفي لتحقيق ذلك ، كما أن محاولة تجنب المواقف التي تؤدي إلى ظهور ضعف وعيوب هذا الشخص لا تساعد كثيرًا أيضًا.

على هذا يمكن القول بأن تلك اليد اليمنى الخرقاء يمكن أن تتحول إلى يد ماهرة من خلال التدريب والتمرين على نشاطات عملية ، وأن الدافع لأداء أحسن في المستقبل يجب أن يكون عميقًا إلى درجة تمكنه من التغلب على العقبات التي تعترضه ، كما يجب ألا ننسى أهمية وجود هدف في حياة هؤلاء الأطفال ، هدف يمكنهم من توجيه جميع قواهم للتغلب على الصعوبات ، هدف مبني على الاهتمام بالواقع من حولهم ، هدف يركز على الاهتمام بالآخرين ، وأخيرًا هدف يهتم بتحقيق الـ " تعاون ".

أحد الأمثلة القوية التي اكتشفتها خلال الأبحاث التي أجريتها على عائلات تعاني من عيوب وأمراض وراثية في الكلى هي : حالة التبول اللا إرادي ، فالكثير من الأطفال في هذه العائلات عانوا من التبول اللا إرادي ، وكانت هذه المشكلة حقيقة - أي أنها كانت بلا دافع نفسي خفي من ورائها - وتظهر أعراضها على الكلية ، أو المثانة ،

أو فى وجود حـالة Spina bifida * وغـالبًا مـا يكون هناك عيب مـرافق لهذه الحـالة فى الفقرات القطانية .. Lumbar segment ويمكن الاستدلال على وجود هذا العيب من خلال وجود خُراج فوق بشرة تلك المنطقة.

ومع كل هذا فإن ذلك العيب الجسدى وحده . لا يبرر حدوث التبول اللا إرادى ، فإن الأطفال غير خاضعين تمامًا لسيطرة تلك الأعضاء ، بل إن الأطفال يستخدمون أعضاءهم بطريقة خاصة ، فبعض الأطفال مثلاً . يبللون فراشهم خلال فترة الليل . ولكنهم لا يبللون أنفسهم فى فترة النهار ، كما أن تلك العادة تختفى فجأة . عندما تتغير الظروف المحيطة مثلاً ، أو عندما تتغير طريقة معاملة الآباء للطفل.

وعلى هذا يمكن القول بأن الكثير من حالات التبول اللا إرادى يمكن التغلب عليها لو أننا أقنعنا الأطفال بعدم استخدام تلك الإعاقة الجسدية لتحقيق أهداف مغلوطة.

معظم الأطفال الذين يعانون من التبول اللا إرادى يكون لديهم دافع ما .. لعدم التغلب على تلك المشكلة ، ولكنه يمكننا تدريب الوالدين حتى يصبحا على درجة كافية من المهارة تمكنهم من تدريب أطفالهم ودفعهم للتغلب على مشكلة التبول اللا إرادى وفى العائلات التى تعانى من مشكلات ومتاعب فى المثانة والكلى يكون هناك الكثير من الضغط النفسى والعصبى .. لكى تسير الأمور الخاصة بالتبول بطريقة طبيعية.

إن الآباء يبذلون الكثير من الجهد فى محاولة للضغط على الأطفال لوقف التبول اللا إرادى ، وعندما يلاحظ الأطفال أهمية ذلك بالنسبة لآبائهم .. فإنهم يستخدمون ذلك كورقة ضغط على الأباء ، ويستمرون فى فعلهم هذا .. لأنه يعطيهم الفرصة لإظهار معارضتهم لمثل هذا النوع من التدريب ، وبهذا فإن الطفل الذين يقاوم طريقة علاج الآباء لمشكلته سيجد دائمًا الطريقة لمهاجمة الآباء .. فى أكثر نقاط ضعفهم حساسية.

(*) عيب خلقى . وفيه لا تستطيع الأقواس العصبية الفقرية أن تغلق ، وبوجود هذا الشق تظل محتويات القناة الشوكية الخلفية مكشوفة مع وجود فتق فى أغشية السحايا (المترجم) .

أحد أشهر رجال علم الاجتماع فى ألمانيا اكتشف أن نسبة كبيرة من المجرمين ينتمون إلى عائلات . كان آباؤهم يعملون فى وظائف متعلقة بتطبيق القانون ومحاربة الجريمة . مثل وظائف القضاء والشرطة ، وحراسة السجون ، والمحاماة ... إلخ .

كما أن أطفال المدرسين يكونون غالبًا متخلفين من الناحية الأكاديمية ، وقد وجدت أيضًا أن عددًا غير طبيعى من الأطفال العصابيين ينتمون إلى عائلات يشتغل آباؤهم فى علم النفس ، أيضًا كثير من الأطفال المنحرفين يكونون من أبناء رجال الدين.

وعلى هذا فإن الأطفال الذين يضغط آباؤهم كثيرًا لدفعهم للتوقف عن التبول اللا إرادى ، لديهم فرصة رائعة لتحدى رغبة الآباء ، وإظهار قدرتهم على الاحتفاظ بإرادة مستقلة عن إرادتهم.

إن التبول اللا إرادى يعطينا الفرصة لتوضيح نقطة أخرى بالغة الأهمية ، هى : استخدام الأحلام فى إيقاظ العواطف المناسبة لما انتوينا القيام به من أعمال ، فإن الأطفال الذين يبللون فراشهم يحلمون عادة بأنهم نهضوا من فراشهم وذهبوا إلى دورة المياه ، وبهذه الطريقة يكونون – من وجهة نظرهم – قد قاموا بما يجب عليهم القيام به ، ولهذا فإن من حقهم – الآن – أن يقوموا بتبليل الفراش.

علينا أن نتذكر هنا أن مشكلة تبليل الفراش تخدم عدة أغراض فى آن واحد :

أولاً : من يقوم بهذا – تبليل الفراش – يجذب الانتباه إليه.

ثانيًا : الاحتفاظ باهتمام الآخرين مركزًا عليه طوال الليل ، كما هو – فى أغلب الأحوال – مركز عليه طوال النهار.

ثالثًا : يجعل من الآخرين خدمًا له ، فهو بهذا يحقق غرضه فى إثبات " التفوق " على الآخرين.

رابعًا : أحيانًا يُستخدم – التبول اللا إرادى – فى تعذيب من حوله أيضًا ، فهو نوع من أنواع الحرب غير المعلنة.

وأيا كان الغرض الذى يستخدم من أجله فإن التبول اللا إرادى ما هو إلا طريقة خلاقة للتعبير عمًا يدور داخل الطفل ، فالأطفال هنا يتكلمون من خلال المثانة ، وهذا الضعف الجسدى أمدهم بطريقة للتعبير عن آرائهم المكبوته.

إن الأطفال الذين يعبرون عن أنفسهم بهذه الطريقة يعانون من الكثير من الضغوط ، وهم عادة ينتمون إلى طائفة الأطفال التى نالت قدرًا زائدًا عن الحد من التدليل ، ثم فقدوا – بعد ذلك – موضعهم كمركز لاهتمام الآخرين – ربما بسبب ميلاد طفل جديد – مما جعل من الصعب عليهم الحصول على الاهتمام الكامل للوالدين ، وبهذا يكون التبول اللا إرادى ما هو إلا محاولة للتقرب من الآباء ، فكأنما ذلك الطفل يقول لأبويه :

" أنا مازلت طفلاً صغيراً ، فلا تعاملونى كشخص بالغ ، فأنا مازلت فى حاجة شديدة إلى عنايتكم بى ".

ويمكننا القول هنا بأنه إذا تغيرت الظروف – كأن تتغير طبيعة الإعاقة الجسدية – فإنهم سيختارون وسائل أخرى لتحقيق ذلك الهدف ، فمثلاً يمكنهم استخدام الصوت لتحقيق هذا ، فى هذه الحالة سيبكون كثيرًا خلال الليل ، ويوقظون آباءهم فى منتصف الليل بسبب وبدون سبب ، أو قد يقومون بالمشى فى أثناء النوم ، أو يعانون باستمرار من الكوابيس ، أو يسقطون من على فراشهم ، أو يعانون من حالة عطش غير طبيعى ... إلخ.

إن علم النفس يُرجع جميع هذه الحالات إلى الأصل نفسه ، ألا وهو حاجة الطفل النفسية للحصول على الاهتمام الكامل وغير المجزأ من والديه ، وإن التعبير الذى يختاره الطفل يرجع فى الأساس إلى تكوينه الجسدى وللبيئة المحيطة به.

إن مثل هذه الحالات تُظهر بوضوح التأثير القوى للعقل على الجسد ، ومن المرجح أن العقل لا يؤثر فقط على اختيار الأعراض الجسدية ، بل إنه يحكم أيضًا الموقف ككل .

أنا لا أملك دليلاً مباشراً على صحة هذا الافتراض ، ولكن الدلائل كلها تشير إلى صحته ، فلو أن طفلاً يعاني من الخجل فإن خجله هذا سيكون منعكساً في جميع أطوار نموه ، إنه لن يهتم كثيراً بالإنجازات الجسدية ، فهو سيعتقد - اعتقاداً خاطئاً - أن مثل تلك الإنجازات خارج نطاق قدراته المحدودة ، وبالتالي فإنه لن يفكر في تدريب أو تمرين عضلاته بطريقة فعالة ، كما أنه سيتجاهل كل التعبيرات الخارجية - القادمة من المجتمع - التي ستحاول دفعه لتطوير نفسه من الناحية العضلية ، وسيركز الكثير من الأطفال الآخرين اهتماماتهم على تدريب عضلاتهم وتمرينها حتى يصلوا إلى أطوار نمو متقدمة ولياقة بدنية أفضل من هذا الطفل الخجول عديم الاهتمام .

من كل ما سبق يمكننا استنتاج أن تشكيل وتكوين الجسد ونموه وتطوره يتأثر بالعقل ، كما أنه يعكس الأخطاء والنقائص التي يعاني منها ، ومثال هذا هو ما نلاحظه عن تلك الحالات الجسدية التي ما هي إلا نتيجة مباشرة لمشاكل عقلية وعاطفية ، فعندما لا يجد الفرد وسيلة مقنعة للتعويض عن صعوبة جسدية يعاني منها فإن الغدد الصماء تتأثر خاصة خلال الأعوام الخمسة الأولى من الحياة ، وبينما لا تؤثر عيوب الغدد على السلوك فإنها - الغدد الصماء - تتأثر باستمرار بالبيئة المحيطة ، وتتأثر أيضًا بالاتجاه الذي يحصل منه الأطفال على مثلهم الأعلى والنشاطات الخلاقة لعقولهم.

دور المشاعر

إن "الحضارة الثقافية" هي اسم نعطيه للتغيرات التي أحدثها الجنس البشري في البيئة المحيطة به ، فإن حضارتنا ما هي إلا نتيجة لجميع الحركات التي قامت بها عقول البشر من أجل أجسادهم ، فالعمل الذي نقوم به ما هو إلا إلهام من العقل الذي وجه وساعد في تطوير الجسد ، وفي النهاية يمكننا أن نرى التأثير المفيد للعقل في جميع التطورات التي مر بها الجسد ، لكنه يجب علينا أن نتذكر أنه من غير المرغوب فيه أن يسيطر العقل سيطرة كاملة على الجسد ، فلو أننا أردنا التغلب

على الصعوبات . فإنه من الواجب علينا أن نصل إلى مستوى مقبول من اللياقة الجسدية ، ولهذا فإن العقل يشترك فى التحكم فى البيئة المحيطة بطريقة تمكن الجسد من الاستمرار بدون التعرض إلى الأمراض ، أو الموت أو الحوادث ، أو أى أذى ، ولهذا فإننا طورنا قدرتنا على الشعور بالمتعة والألم وأصبحنا قادرين على أن نتخيل كيف سيكون شعورنا فى المواقف السيئة أو الجيدة على حد سواء.

إن المشاعر تقوم بإعداد الجسد لمواجهة الموقف بمجموعة محددة من ردود الأفعال ، والقدرة على التخيل ، ووضع النفس فى مواقف لم تحدث بعد ، ما هى إلا طرق للتنبؤ ، وهى أيضاً المحرك الذى يدفع بالمشاعر المناسبة التى سوف يستجيب لها الجسد.

وهذه هى الطريقة التى تتشكل بواسطتها مشاعر الأفراد ، إنها التعريف الذى يعطونه لـ " معنى الحياة " وهذا التعريف هو الذى يشكل مشاعر الأفراد والهدف الذى وضعوه أمامهم كهدف نهائى لحياتهم.

ورغم أن المشاعر تتحكم فى الجسد ، فإنها لا تعتمد عليه ، لأن المشاعر تعتمد بطريقة أساسية على الهدف وتكون نتيجة لنمط وأسلوب حياتهم.

من الواضح أن أسلوب حياة الفرد ليس هو العامل الوحيد الذى يتحكم فى سلوكه ، فإن شخصيته أو موقفه His attitude وحده لا يتسبب فى أفعاله ، بل إن للمشاعر دخلاً كبيراً فى هذا ، والشيء الجديد الذى اكتشفته نظرية علم النفس الفردى هو أننا لاحظنا أن المشاعر لا تتناقض أبداً مع أسلوب الحياة ، وأنه إذا كان هناك هدف فإن المشاعر تتكيف بالطريقة التى تسمح بالوصول إلى هذا الهدف ، وهذا سيأخذنا خارج نطاق علم وظائف الأعضاء أو علم الأحياء ، فإن الأصل الذى تنبع منه المشاعر (جذور المشاعر) لا يمكن شرحه وتفسيره من خلال نظريات كيميائية ، كذلك لا يمكن التنبؤ بهذا الأصل من خلال الفحص الكيميائى ، لكننا فى علم النفس الفردى يجب أن نفترض مقدماً وجود هذا العمليات الفسيولوجية processes Physiological ولكننا أكثر اهتماماً بالهدف الفسيولوجى . goal Physiological

ومثال ذلك أننا لا نهتم بتأثيرات القلق Anxiety (القلق نوع من المشاعر) على العصب السمبتاوى(*) إلا فيما يتعلق بالغرض أو الهدف من هذه المشاعر (القلق)٠

بهذا الفهم السابق لا يمكن اعتبار القلق ناشئًا عن الكبت الجنسى ، أو ناشئًا عن تجربة مريرة من تجارب الطفولة ، فإن مثل هذا التفسير سيكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة ، فنحن نعلم أن الأطفال الذين تعودوا على وجود والديهم من حولهم ليساعدوهم فى إنجاز أى شيء وكل شيء ربما أظهروا أنهم يعانون من القلق (الحصر) كوسيلة للتحكم فى آبائهم ، كما أننا لا يمكننا الاكتفاء بالمظاهر الجسدية للغضب ، فإن الخبرة قد أظهرت أن الغضب ما هو إلا جهاز يستخدم للتحكم فى شخص ما أو موقف من المواقف٠

ربما يكون من السهل علينا تقرير أن : كل صفاتنا العقلية والجسدية قد تم الحصول عليها عن طريق الوراثة ، لكن ما الذى سوف نفعله بذلك الإرث حتى نحقق هدفنا النهائى ؟ هذا هو الأسلوب الوحيد الحقيقى لعلم النفس٠

نحن نرى أن المشاعر الفردية قد نمت وتطورت فى اتجاه تحقيق الهدف الشخصى لكل فرد ، فإن مشاعرهم - من قلق أو شجاعة ، ومن سعادة أو حزن - تتفق دائمًا مع أسلوبهم فى الحياة ، فإن مبلغ قوتهم وسيطرتهم اتفق تمام الاتفاق مع توقعاتنا ٠

إن البشر الذين يتمكنون من تحقيق هدفهم فى " التفوق " باستخدام الكآبة لن يتمكنوا من أن يهنأوا بتحقيق أهدافهم ، فهم سعداء فقط عندما يكونون بؤساء٠

يمكننا أيضًا أن نلاحظ أن المشاعر تظهر وتختفى حسب إرادتهم ، فإن المرضى الذين يعانون من رهاب (فوبيا) الأماكن المفتوحة يتلاشى قلقهم عندما يكونون

(*) العصب السمبتاوى هو جزء من الجهاز العصبى اللاإرادى Autonomic nervous system ويتكون من سلسلة من العقد أو الكتل العصبية ، ويتواجد على جانبى العمود الفقرى ، وتخرج منه ألياف لكل الأنسجة العضلية (المترجم) .

فى منازلهم . أو عندما يكونون فى موقف يمكنهم من السيطرة على الآخرين ، فإن كل مرضى العصاب يتجنبون جميع نواحى الحياة التى يتعرضون فيها لفقدان السيطرة على الآخرين.

هنا يجب تقرير حقيقة أخرى ألا وهى أن المشاعر ثابتة ثبوت طريقة وأسلوب حياة الفرد ، فالجبناء يكونون دائمًا جبناء بالرغم من العجرفة والتكبر اللذين يميزان طريقة تعاملهم مع من يعتقدون أنهم أضعف منهم ، كما أن شجاعتهم تظهر فقط عندما يكونون فى حماية آخرين ، ربما أغلقوا أبوابهم بالعديد من الأقفال ، وعينوا الحراس لحمايتهم ، وامتلكوا الكلاب ، وأجهزة إنذار ضد السرقة ، ومع كل هذا فإنهم يصرون على أنهم فى شجاعة الأسود ، ولن يتمكن أى شخص أيا كان من إثبات حقيقة شعورهم بالقلق الشديد ، ولكن جبن شخصياتهم يكون واضحًا من خلال تلك المقاييس التى اتخذوها لحماية أنفسهم.

إن المشاعر الجنسية والحب يعطيان مفهومًا مشابهًا لما سبق ، فإن المشاعر الجنسية تظهر عندما يكون للأفراد هدف جنسى فى عقلهم ، ومن خلال التركيز على هذا الهدف الجنسى فإنهم يتمكنون من تجنب كل ما يتعارض مع الوصول لهذا الهدف من مشاعر واهتمامات وبهذا يتمكنون من الاحتفاظ بالمشاعر المناسبة لتحقيق هدفهم ، أما إذا حدث نقص فى مثل تلك المشاعر – كما هو الحال فى الأشخاص الذين يعانون من العنة بأشكالها المختلفة ، والقذف المبكر ، والجمود الجنسى فى السيدات ، والانحراف الجنسى فى كلٍّ من الرجال والسيدات – فإنه يصبح من الواضح أنهم كانوا غير مستعدين للتخلص من الاهتمامات والمشاعر غير المناسبة لتحقيق هذا الهدف .

فإن مثل تلك الانحرافات تنتج عن اختيار هدف خاطئ من أهداف " التفوق " ، كما أنها تنتج عن الاحتفاظ بأسلوب وطريقة حياة مغلوطة ، ودائما نجد – فى مثل تلك الحالات – ميلاً إلى توقع الكثير من شريك الحياة دون أى استعداد لمنح الكثير فى المقابل وهو ما يشكل دليلاً قويًا على وجود الكثير من النقص فى الشعور الاجتماعى ونقص فى كل من التفاؤل والشجاعة أيضًا.

ولنأخذ فى الاعتبار حالة واحد من مرضاى – وهو الثانى من حيث ترتيب ولادته – كان هذا المريض يعانى من الشعور الشديد بالذنب ، وقد تمكن كل من والده وأخيه الأكبر من فَتح أحد المحلات العظيمة الناجحة بالجهد الشاق والأمانة ، عندما بلغ مريضى السابعة من عمره ادعى أنه كان يؤدى واجباته المنزلية بنفسه رغم أن مدرسه اكتشف أن أخاه الأكبر قد قام بها ، ولهذا قام ذلك المريض بإخفاء مشاعر الذنب داخله لمدة ثلاث سنوات وأخيراً ذهب إلى أستاذه فى المدرسة واعترف له بما قام به ، وحيث إن هذا لم يكن بالجرم الخطير ، فإن المدرس لم يعر الأمر الكثير من الانِتباه ، لكن الصبى لم ييأس ، ذهب إلى والده واعترف للمرة الثانية وهو يبكى ، وفى هذه المرة صادف الصبى بعض النجاح ؛ لأن والده كان شديد الفخر بهذا الاعتراف الذى أظهر حب الصبى للحقيقة ، ولكن برغم أن والد الصبى قد سامحه .. فإن الصبى استمر فى الشعور بالذنب حتى لازمه الاكتئاب .

سيكون من الصعب علينا – فى مثل هذه الحالة – تجنب الوصول إلى الاستنتاج القائل بأن ذلك الصبى كان يسعى لإثبات امتلاكه لمكارم الأخلاق أكثر من سعيه لإراحة ضميره من عبء ذلك الخطأ الصغير ، فنحن نرى هنا تأثير الجو الأخلاقى السائد فى منزل الوالد والذى كان نجاحه فى الحياة عن طريق التمسك بمكارم الأخلاق ، وأن ذلك الصبى عندما شعر بأنه أقل من أخيهِ الأكبر – فى كل من العمل المدرسى والنجاح الاجتماعى – حاول أن يثبت " التفوق " من خلال ما قام به .

بعد مرور سنين عديدة عانى ذلك المريض من حالات مشابهة – الشعور الشديد بالذنب – بسبب أمور بسيطة ، فقد كان يمارس العادة السرية ، كما أنه استمر فى ممارسة طرقه الملتوية فى الحصول على أعلى الدرجات فى المدرسة ، وكانت مشاعر تأنيب الضمير تتزايد قبل فترة الامتحانات على وجه الخصوص ، وكلما تقدم به العمر كانت أمثال هذه المشاكل تتزايد ، وبسبب حساسيته الشديدة فإنه كان أكثر معاناة من أخيه ، وبالتالى أصبح لديه عذرٌ دائمًا فى كل مرة فشل فيها فى معاناة بإنجازات أخيه. وعندما ترك الجامعة كان قد خطط للحصول على عمل فنى

ولكن مشاعر تأنيب الضمير شغلته حتى إنه كان يمضى يومه فى الصلاة راجيًا من الله أن يسامحه ويغفر له مما لم يسمح له بالتركيز فيما هو مطلوب منه من الأعمال فى المدرسة الفنية.

كانت حالته العقلية قد تدهورت إلى درجة استدعت إرساله إلى مستشفى الأمراض العقلية وهناك عُدَّت حالته غير قابلة للعلاج ، ولكن بمضى الوقت تحسنت حالته وترك المستشفى ، لكنه قبل أن يترك المستشفى طلب السماح له بالعودة إذا ما عاودته الحالة ، ثم ترك وظيفته ليتفرغ لدراسة تاريخ الفن ، وعندما اقترب موعد الامتحان ذهب إلى الكنيسة فى يوم من أيام العطلات العامة ، وهناك ركع أمام شعب الكنيسة وأعلن - باكيًا - أنه أسوأ الخطاة وأكثرهم شرا ، وبطريقته الدرامية هذه قد نجح - مرة أخرى - فى جذب الانتباه إليه ، وإلى ضميره الحى شديد الحساسية.

بعد فترة أمضاها مرة أخرى فى مستشفى الأمراض العقلية عاد إلى منزله ، وهناك بدأت تصرفاته الغريبة فى الظهور مرة أخرى حتى إنه قد نزل لحضور الغداء - ذات مرة - وهو عارٍ تمامًا .. !! لقد كان رجلاً ذا بنيان سليم ، ولهذا فهو - من هذه الناحية على الأقل - كان قادرًا على التنافس مع أخيه والآخرين.

لقد كان الشعور بالذنب ما هو إلا آلة (جهاز) تمكنه من الظهور بمظهر الإنسان الأمين ، ذى الضمير الحساس أكثر من الآخرين من حوله ، وهو بهذا تمكن من إثبات وتحقيق هدفه فى " التفوق ".

ولكننا بطبيعة الحال نستطيع أن نرى أنه حقق هدفه بطريقة عديمة النفع وغير ذات جدوى ، فإن محاولاته تجنب الاختبارات الدراسية ، وإصراره على عدم الاحتفاظ بعمل دائم ، كلها أدلة على الجبن ، وعلى شعوره بأنه غير لائق وغير كفء للحياة من حوله.

إن كل ما يعانيه من متاعب ما هو إلا محاولة متعمدة لتجنب أى نشاط قد يعرضه للفشل والسقوط من نظر الآخرين ، ولكن الحاجة لإثبات " التفوق " تظهر واضحة فى الوسائل التى اتبعها خاصة فى مشهد الكنيسة ، والطريقة التى ذهب بها لحضور الغداء وهو عارٍ ، إن أسلوبه فى الحياة أجبره على القيام بمثل ذلك السلوك وتلك الأفعال ، وعلينا أن نلاحظ أن المشاعر التى حصل عليها كانت مناسبة تماماً لأهدافه.

والآن لدى دليل آخر - شديد الوضوح - على التأثير القوى للعقل على الجسد ، ألا وهو وجود طريقة خاصة للتعبير عن كل عاطفة بأسلوب جسدى معين ، فإن كل فرد يظهر العواطف التى تموج فى داخله بطريقة مرئية ، مثال ذلك تعبيرات الوجه وحركات اليدين وضع الجسد وارتعاشة الأطراف .. وغيرها كثيراً.

لعل السبب فى وضوح تأثير العقل على الجسد هذه المرة هو العلاقة الواضحة بظواهر مألوفة ينتج عنها حالات جسدية مؤقتة وغير دائمة - تعبيرات الوجه ، حركات اليدين ، وضع الجسد ، ارتعاشة الأطراف ، وغيرها - بعكس ما رأيناه فى المثال السابق.

ولعله من المناسب أن نذكر أن هناك ما يناظر تلك الحالات الجسدية المؤقتة فى الأعضاء الداخلية لجسم الإنسان ، فعندما يبدو الإنسان شاحباً فإن هذا يناظر التأثير على دورة الدماء فى الوجه ، وهو نتيجة لتأثر وظيفة مجموعة من الأعضاء الداخلية بما واجهه العقل ، ولكل عاطفة بشرية - مثل القلق أو الأسف أو الغضب - تعبير جسدى محدد خاص بها ، وكل فرد له مجموعة خاصة من التعبيرات الجسدية التى تشكل "لغة جسدية" خاصة به.

فعندما يكون أحد الأفراد فى موقف يدعو إلى الخوف ، فإنه يظهر هذا الخوف بتعبير جسدى هو الارتعاش ، ولكن فرداً آخر فى الوضع نفسه قد يظهر هذا الخوف بأن يقف شعر رأسه ، فرد ثالث - فى الوضع نفسه - يكون تعبيره الجسدى زيادة أو اضطراباً فى عدد ضربات القلب ، وهناك عشرات من التعبيرات الجسدية المختلفة عن العاطفة الإنسانية نفسها - وهى الخوف فى هذه الحالة - فقد يختلف التعبير

بحسب (الـ) " اللغة الجسدية " الخاصة بكل فرد ، فمن الشخص الذى يعبر عن خوفه بتزايد الإفرازات من عرق أو غيره ، إلى الشخص الذى يفقد قدرته على الكلام أو يتكلم بصوت أجش مبحوح ، أو يتكوم على نفسه جاعلاً من جسده ما يشبه الكرة ، أو يتجمد تمامًا ويفقد القدرة على الحركة ، وأحيانًا يفقد الجسد قدرته على التوازن ، أو يحدث فقدان الشهية والتقيؤ ، ومع بعض الناس يفقد الفرد قدرته على التحكم فى البول والبراز ، ومع نوعية أخرى من الناس فإن العضو الجنسى هو الذى يتأثر بتلك العاطفة ، فالكثير من الأطفال يشعرون بنوع من اللذة الجنسية فى أثناء الاختبارات المدرسية ، كما أنه من المعروف أن المجرمين يكثرون من ترددهم على بيوت الدعارة - أو عشيقاتهم - بعد ارتكاب الجريمة مباشرة ، كما أن بعض علماء النفس المشهورين يدعون بوجود صلة وثيقة جدا بين الجنس من ناحية وعواطف الخوف والقلق من ناحية أخرى ، بينما يدعى البعض الآخر عدم وجود أى صلة بينهما ، وأعتقد أن سبب الخلاف يرجع إلى أن وجهات نظرهم كانت متأثرة - إلى حد بعيد - بالتجارب الشخصية التى مرت بها كل مجموعة منهم.

إن كل ردود الأفعال السابقة تنتمى إلى مجموعات مختلفة من الأفراد ، وربما تمكن البحث من إظهار الأثر الوراثى فى اختلاف تلك المجموعات من ردود الأفعال عن بعضها البعض ، فإن بعض التعبيرات الجسدية - ردود الأفعال - تكون دليلاً واضحًا على وجود شذوذ أو ضعف فى العائلة ، كما أن عددًا من أفراد هذه العائلة سيظهرون تعبيرات جسدية مشابهة إذا ما وضعوا فى الموقف نفسه .

ولكن ما يهمنا هنا هو أن نكشف كيف يتمكن العقل من استخدام العواطف الإنسانية كمنبه (قادح) للحالات الجسدية.

إن العواطف الإنسانية - وما ينتج عنها من تعبيرات جسدية - تكشف لنا حقيقة أفعال وردود أفعال العقل فى مواقف يعتبرها العقل مناسبة أو غير مناسبة له ، فعلى سبيل المثال : عندما يحدث أن يعانى أحد الأفراد من فقدان السيطرة على أعصابه فإنه يرغب فى التغلب على هذه الصعوبة بسرعة بأن يتمكن من تمالك نفسه

بأسرع ما يكون ، وتكون أحسن الوسائل لتحقيق ذلك – من وجهة نظره – هى أن يهاجم أو يتهم شخصًا آخر.

والغضب بدوره يؤثر على الأعضاء الداخلية .. ويهيئها للحركة ورد الفعل ، فيعانى بعض الأفراد من آلام فى المعدة عند الغضب ، أو تتحول وجوههم إلى اللون الأحمر القانى ، وتتأثر دورتهم الدموية إلى درجة تعرضهم لنوبات من الصداع . ويمكن القول – بصفة عامة – إن معظم حالات الصداع النصفى الشديد المتكررة خفى من ورائها غضب مكتوم أو تعرض للإذلال – أو أى موقف آخر – نتج عنه غضب مكتوم ، حتى إنه – أحيانًا – ينتج عنها نورالجيا العصب المثلث التوائم Trigeminal neuralgia (*) أو نوبات من الصرع.

إن الطريقة التى تؤثر بها العواطف على العقل لم يتم اكتشافها وتوثيقها بطريقة علمية كاملة بعد ، وربما لن نتمكن أبدًا من فهم التفاعل ما بين العواطف والعقل لكن الإجهاد العقلى يؤثر على كُلّ من الجهاز العصبى الإرادى واللا إرادى ، وعندما تكون هناك شدة عصبية – إجهاد عقلى – فإنه يكون هناك رد فعل لها فى الجهاز العصبى الإرادى فالفرد قد يضرب على المنضدة ، أو يعض على شفتيه أو يقوم بتمزيق بعض الأوراق إذا ما شعر بشدة عصبية – إجهاد عقلى – فإنه يشعر كما لو كان مجبرًا على القيام بأى نوع من الحركة ، فالعض على قلم أو قضم الأظافر يسمح له بالتفريج عن حالة الشدة العصبية التى يعانى منها.

فمثل هذه الحركات يكشف لنا عن حقيقة شعوره بأنه مهدد – بطريقة ما – من الموقف المحيط به ، وبالطريقة نفسها عندما يحمر وجه الفرد وهو جالس بين مجموعة من الغرباء وعندما يعانى من رعشة أو لازمة حركية – وهى حركة لا إرادية تحدث دائمًا سواء كان الفرد فى موقف ما أو لم يكن ، ولكنها عادة

(*) تقلصات عصبية لا إرادية غالبًا – تتسبب فى آلام مبرحة موزعة على العصب المثلث الوجوه ، وهو عصب له ثلاثة فروع تمتد لكل من جلد الوجه واللسان والأسنان ، وتعرف بـ Tic douloureux . (المترجم) .

ما تقل عندما يكون الفرد بمفرده – فإن كل هذه التعبيرات الجسدية تَحدُث بسبب التوتر والقلق ومن خلال الجهاز العصبى اللا إرادى.

من هذا نرى أن القلق والتوتر يصلان إلى جميع أجزاء الجسد ، ولهذا فإن كل عاطفة تُعرض الجسد البشرى بأكمله إلى نوع من أنواع التوتر ، لكن الطريقة التى يظهر بها التوتر تكون غير واضحة أحياناً ، ونحن هنا نشير فقط إلى تلك الأعراض الجسدية التى لها صلة قوية بالإجهاد العصبى.

لو أننا بحثنا بعمق فإننا سنجد أن كل جزء من أجزاء الجسد له التعبير العاطفى الخاص به ، كما أننا سنكتشف أن كل التعبيرات الجسدية ما هى إلا نتائج للتفاعل بين العقل والجسد ، ولهذا فإنه من المهم أن نكتشف ردود الفعل المتبادلة بين كل منهما.

مما سبق يمكننا استنتاج أن " أسلوب حياة " الفرد – وما يناظره من نزعات وتحولات عاطفية – له تأثير مستمر على تطور ونمو الجسد ، ولو ثبت صحة أن شخصية الطفل وأسلوب حياته تتشكل فى مرحلة مبكرة جداً من حياته فإنه سيكون من الممكن لنا اكتشاف تعبيراته الجسدية الناتجة فى المراحل التالية من حياته.

فالأفراد الشجعان سوف يظهرون شجاعتهم هذه فى ميلهم العقلى لتحسين حالتهم الجسدية وستصبح أجسادهم مبنية بطريقة مختلفة ، فعضلاتهم ستكون أصلب وأجسادهم ستكون أكثر اعتدالاً وشموخاً من الآخرين ، فإنه من المحتمل جداً أن يكون للحالة المزاجية الكثير من التأثير على تطور ونمو الجسد ، كما أنها تكون مسئولة جزئيا عن حالة التوازن العضلى فيه.

تعبيرات الوجه فى الأفراد الشجعان تكون مختلفة أيضاً عن غيرهم ، وفى النهاية فإن كل تلك المجموعة الكبيرة من الخصائص الجسدية تتأثر حتى إن شكل الجمجمة نفسه قد يتأثر.

سيكون من الصعب علينا إنكار وجود تأثير للعقل على الكيفية التى يعمل بها المخ ، فالمخ ما هو إلا عضو من الأعضاء التى يتكون منها الجسد ، وبالتالى

فإن العقل له تأثير على المخ كغيره من أعضاء الجسد ، كما أن دراستنا لعلم الأمراض أوضحت لنا أن بعض الأفراد الذين فقدوا القدرة على القراءة والكتابة - بسبب إصابة فى النصف الأيسر من المخ - قد تمكنوا من استعادة قدرتهم على القراءة والكتابة بتدريب أجزاء أخرى من المخ على أداء هذه الوظيفة ، حدث هذا عندما عانى هؤلاء الأفراد من سكتة دماغية ، ولم يكن هناك فى الإمكان إصلاح الجزء التالف من المخ ، فقامت أجزاء أخرى من المخ بأداء هذه الوظيفة مما مكن الفرد من استعادة قدراته السابقة.

إن هذه الحقيقة لها أهمية بالغة فى توضيح إمكانية التطبيقات التعليمية لعلم النفس الفردى ، فلو أن العقل تمكن من التأثير على المخ - حتى يصبح المخ مجرد أداة يستخدمها العقل لتحقيق أهدافه - فإننا سنتمكن من تطوير المخ وتحسين حالته ، فلا حاجة هنا لأن نبقى أسرى مقيدين بحدود إمكانيات المخ ، فإنه من الممكن إيجاد *طرق لتدريب المخ حتى يصبح مناسباً لظروف الحياة من حولنا*.

إن العقل الذى حدد هدفًا خاطئًا - أو الذى اختار طريقًا خاطئًا للوصول إلى هدفه - سوف يفشل فى التأثير بصورة إيجابية على المخ ، ومثال ذلك الفرد الذى فشل فى تطوير قدرته على " التعاون " ، فإن مثل هذا الفرد سيفشل عقله فى تطوير القدرات الخاصة بمخه ، ولهذا السبب فإن الكثير من الأطفال غير القادرين على " التعاون " تظهر عليهم أعراض مخ يعانى من عدم القدرة على الفهم ، أو لم يصل إلى الحدود القصوى التى كان من الممكن أن يصل إليها ، لو أنه كان ينتمى إلى عقل شخص يؤمن بأهمية وفاعلية " التعاون ".

الخصائص العقلية والأنماط الجسدية

لقد أشار الكثير لوجود علاقة دائمة بين تعبيرات العقل وتعبيرات الجسد لكن أحداً منهم لم يحاول أن يستكشف "الجسر" الواصل بينهما (أو العلاقة غير الدائمة) ، ولكن هناك من وَصَفَ الكيفية التى يتشكل بها هذا الجسر ، ودرس بإمعان الخصائص

الجسدية للفـرد ، واكتشـف خصائص عقلية وعاطفية مناظرة للخصائص الجسدية ، ثم قام بتصـنيف الأنماط الجسدية للبشـر إلى مجموعات متميزة تشمل معظم أفراد المجتمع البشرى ، وهذا الشخص هـو أرنست كرتشومر(*) .

فعلى سبيل المثال هناك مجموعة البيكينويد Pyknoids، والتى تشمل مجموعة الأفراد الذين يتميزون بوجه مستدير وأنف قصيرة ويميلون إلى البدانـة ، وهـو ما عبر عنه شكسبير فى مسرحيته الخالدة قائلاً :

يوليوس قيصر: " أحيطونى برجال سمان ، ملس الشعور ، ينامون الليل كله ".

الفصـل الأول – المشـهد الثانى من مسرحية يوليوس قيصر

إن كرتشومر وجد العلاقة التى تربط بين مجموعة من الخصائص العقلية ونمط من الأنماط الجسدية ، ولكن دراسته هذه لم توضح أسباب وجود هذا الارتباط بين مجموعة من الخصائص العقلية ونمط من الأنماط الجسدية.

فى مجتمعنا فإن الأفـراد الذين يتميـزون بهذا النمط الجسدى لا يعانون من أى إعاقة جسدية ، فإن أجسادهم متناسبة ومتلائمة تمامًا مع حضارتنا ، من الناحية الجسدية فإنهم يشعرون بأنهم مثلهم مثل أى شخص آخر ، فلهم ثقة فى قوتهم .. وهم لا يعانون من التوتر ، فإذا ما استبدت بهم الرغبة فى القتال ، فإنهم يشعرون بقدرتهم على القتال ، ولكنهم لا يعدون الآخرين أعداءً لهم ، كما أنهم لا ينظرون إلى الحياة نظرة عدائية .

(*) طبيب وعالم نفس ألمانى (ولد عام ١٨٨٨ وتوفى ١٩٦٤) درس كلا من الفلسفة والطب ، حاول كرتشومر الربط بين الصفات الجسدية للفرد ومميزات وخصائص شخصيته ، وفى عام ١٩٢١ قدم نظريته التى تقول بأن بعض الأمراض العقلية تكون أكثر شيوعًا بين الأفراد الذين يتميزون بصفات جسدية معينة ، وفى عصرنا الحالى لا يوجد الكثير ممن يؤمنون بصحة مثل هذه النظريات (المترجم) .

أحد مدارس علم النفس تُسمى أمثال هؤلاء : المنبسطين Extroverts، ولكنها لم تشرح لنا سبب هذه التسمية ، وفى الأغلب فإنها تدعوهم بالمنبسطين لأن أجسادهم لا تمثل مصدراً للقلق أو التوتر بالنسبة لهم.

إن النمط الجسدى المعاكس للنمط السابق هو ما سماه كرتشومر بـ "المنغلقين" أو السيكيتزويد Schizoid، والذين يتميزون بأنهم إما أن يشبهوا الأطفال فى مظهرهم وإما أن يكونو طوال القامة – بطريقة غير طبيعية – وأنف طويلة ورأس يشبه البيضة ، ولهذا فإنهم – من وجهة نظر كرتشومر – يكونون متحفظين ويميلون إلى الاستبطان ، وإذا ما تعرضوا لأى متاعب عقلية فإنهم سرعان ما يصبحون " فصاميين " Schizophrenic وهو ما عبر عنه يوليوس قيصر عندما أكمل حديثه السابق ذكره قائلاً :

يوليوس قيصر : "... أما كاسيوس الذى يظهر عليه الترقب والتحفز ، وكثير التفكير وعميقه ، فهو من أولئكَ الرجال الخطرين الذين لا يؤمن لهم جانب".

الفصل الأول – المشهد الثانى من مسرحية يوليوس قيصر

وربما عانى مثل هؤلاء الأفراد من العيوب الجسدية ، ووصلوا إلى مرحلة البلوغ وهم يعانون من الأنانية والتشاؤم الشديد والانطواء ، وربما يكون كل هذا بسبب نزعتهم فى اللجوء إلى طلب المساعدة ، وعندما يكتشفون أنه لم يتم إعطاؤهم اهتماماً كافياً ، فإنهم يشعرون بالمرارة ويتشككون فى كل من حولهم.

يقرر كرتشومر بوجود أنماط وسيطة – ما بين النمطين السابقين – تجمع ما بين الخصائص المميزة لكل منهما حتى نمط "البيكينويد" الذى نما وتطور بالخصائص العقلية المميزة لنمط المنغلقين ، ونحن نستطيع تفهم هذا لو أن ظروفهم المحيطة ساعدتهم على التعلم والتدرب فى هذا الاتجاه ، مما يجعلهم هيابين للمواقف ومثبطى

الهمة ، وغير مستعدين لتجربة ما هو جديد ، ولكن علينا أن نتذكر هنا أنه يمكننا باستخدام تثبيط الهمة المنظم تحويل أى طفل إلى نمط السلوك الذى يميز " المنغلقين".

يمكننا معرفة مدى قدرة شخص ما على " التعاون " من خلال كل هذه التعبيرات الجزئية وحتى بدون هذه التعبيرات الجزئية فإننا كنا دائماً فى حالة بحث عن علامات تدل على قدرة الشخص على " التعاون ".

إن ضرورة " التعاون " تفرض علينا الكثير من المتطلبات ، وتوجهنا نحو إحداث تغييرات ، ولتحسين أنفسنا فى هذا العالم الممتلئ بالفوضى ، بالطريقة نفسها يمكننا أن نكتشف أنه قبل وقوع أىّ من الأحداث التاريخية المهمة فإن عقول البشر تكون واعية بضرورة التغير ومستعدة له ، وطالما كان هذا الاستعداد غريزيًا ، فإنه من الممكن ارتكاب الكثير من الأخطاء ، ورغم أن البشر كانوا – ومازالوا – يكرهون الأشخاص الذين يتميزون بوجود أى شذوذ فى بنيتهم الجسدية ، فهم – دون إدراك منهم وبطريقة لا شعورية – قد حكموا على مثل هؤلاء الأشخاص بأنهم غير صالحين أو مناسبين لـ "التعاون".

إنى أعد هذا خطأ فظيعًا فى حق مثل هؤلاء الأفراد ، بالرغم من أن مثل هذا الحكم عليهم قد صدر عن خبرة سابقة من قبل باقى أفراد المجتمع.

وحتى الآن فإنه لا توجد طريقة لزيادة درجة " التعاون " بين أفراد الفئة التى تعانى من وجود شذوذ فى البنية الجسدية ، وباقى أفراد المجتمع ، وهذا يجعل الإعاقة الجسدية أكثر إعاقة ... فهم ضحايا لمجموعة من الخزعبلات والخرافات المنتشرة بين العامة.

دعنا الآن نلخص موقفنا :

فى السنين الخمس الأولى من الحياة يوحد الأطفال تطلعاتهم وشوقهم العقلى ويؤسسون جذور العلاقات بين العقل والجسد ، ويتكون نمط وأسلوب للحياة ثابت ودائم

بما يناظره من عادات عاطفية وجسدية وسِمَات مُمَيزة ، وهى تتضمن مستوى معينًا من " التعاون " ، ويمكننا – من خلال هذا المستوى- أن نتعلم كيفية تقدير وفهم كل فرد على حدة.

على سبيل المثال : نجد أن العامل المشترك بين جميع حالات الفشل التى يعانى منها الأفراد هو ضعف القدرة على " التعاون " ، وهو ما يسمح لنا بتقديم تعريف جديد لعلم النفس ، علم النفس هو : محاولة فهم القصور فى " التعاون ".

حيث إن العقل وحدة واحدة قائمة بذاتها ، وإن أسلوب الحياة يكون واضحًا فى كل تعبيرات العقل ، فإن كل مشاعر الفرد وأفكاره يجب أن تكون متسقة مع أسلوب الحياة هذا.

ولو رأينا مجموعة من المشاعر تتسبب فى صعوبات أو تسير بطريقة مضادة لمصلحة هذا الفرد ، فإنه يكون أمرًا عديم النفع محاولة تغيير هذه المشاعر ؛ لأنها التعبير الحقيقى عن أسلوب حياة هذا الفرد ، ويمكن تغيير هذه المشاعر فقط عندما نغير أسلوب الحياة ولا توجد طريقة أخرى للتخلص من مثل تلك المشاعر.

إن ما يقوله علم النفس الفردى هو أنه لا تجوز معالجة أحد أعراض العيوب فى شخصية فرد ما على حدة ، ولكنه من الواجب علينا أن نكتشف الافتراض الخاطئ الذى قام به مثل هؤلاء الأفراد فى تحديد واختيار " أسلوب حياتهم " ، فإن الطريقة التى فهم بها عقل الفرد الخبرات التى مرت به ، والتعريف الذى أعطاه لـ "معنى الحياه" والأفعال التى قام بها كرد فعل للانطباعات التى وصلته من البيئة المحيطة به وأيضًا من جسده ، إن فهم مثل هذه الأشياء هو الذى يمثل وظيفة علم النفس الفردى الأساسية.

إن علم النفس لا يقوم بغرز إبرة فى أجساد الأطفال لمعرفة رد فعلهم للألم ، كما أنه لا يدغدغ الأطفال لمعرفة مدى قدرتهم على الضحك ، ورغم أن أمثال تلك التجارب شائعة بين أطباء علم النفس ، ورغم أن هذه التجارب قد تكون قادرة

على الكشف عن بعض خبايا الفرد النفسية ، فإنه لا يجوز أخذ نتائج مثل تلك التجارب في الاعتبار إلا كدليل على وجود نمط ثابت لأسلوب حياة هذا الفرد.

إن أسلوب الحياة هو المادة الأساسية التي يجب أخذها في الاعتبار ونحن نقوم بأبحاثنا وتحقيقاتنا النفسية في حياة الفرد ، والطبيب النفسي الذي يركز على أي مادة أخرى - غير أسلوب الحياة - لن يصادف الكثير من النجاح ، بل إنه سيكون في دراسة خاصة بالفسيولوجي والبيولوجي الخاص بذلك الفرد أكثر منه في دراسة لنفسية هذا الفرد.

ويظل هذا المبدأ صحيحاً بالنسبة لكل من يقوم بدراسة المؤثر ورد الفعل الخاص به ، وأيضاً الدراسة الخاصة باقتفاء أثر الصدمات النفسية ، وهؤلاء الذين يدرسون القدرات الموروثة وتطورها.

في علم النفس الفردي فإننا نركز على"النفس" **Psyche** ذاتها ، والعقل كوحدة ، ونقوم باختبار المعاني التي يلصقها الأفراد بكل شيء من حولهم ، نختبر أهدافهم ، والطرق التي يختارونها لتحقيق هذه الأهداف ، وأيضاً الطرق التي يعالجون بها مشاكل الحياة ، ومن وجهة نظري فإن أحسن ما يرشدنا إلى فهم الفرد هو درجة ومستوى قدرته على "التعاون".

الفصل الثالث

مشاعر النقص والتفوق

عقدة النقص The Inferiority Complex

إن عقدة النقص واحدة من أهم اكتشافات علم النفس الفردى ، فقد أصبحت معروفة على مستوى العالم ، حتى إن أطباء نفسيين - من مختلف فروع ومدارس علم النفس فى جميع أنحاء العالم - يستخدمون هذا المصطلح بكثرة فى أبحاثهم ، أنا لا أثق كثيراً فى فهم العديد منهم لمعنى هذا المصطلح والطريقة التى يستخدمونه بها ، فعلى سبيل المثال لو أنك أخبرت المرضى بأنهم يعانون من عقدة نقص فإن هذا سيكون غير مفيد على الإطلاق ، بل إنه فى الواقع سيضر أكثر مما ينفع ، لأننا قد أكدنا على مشاعر النقص التى يعانون منها بدون أن نفتح لهم طريقًا للتغلب عليها ، إنه من الواجب علينا أن نتفهم ذلك الشعور الخاطئ بأنهم غير مناسبين وغير ملائمين والذى يظهر بوضوح فى أسلوب حياتهم ، كما أنه من الواجب علينا أن نشجعهم خاصة عندما يفشلون وتنقصهم الشجاعة.

إن جميع الأفراد العصابيين يعانون من عقدة نقص ، ويمكننا التعرف عليهم من خلال المواقف التى يشعرون فيها بأنهم غير قادرين على الحياة بطريقة مفيدة ، أيضًا بالحدود التى يضعونها لأنفسهم لتقييد مجهوداتهم ونشاطهم.

إن مجرد إعطاء اسم للمشكلة التى يعانون منها أمر غير مفيد على الإطلاق ، ونحن لا نستطيع تزويدهم بالشجاعة عندما نقول :

" إنك تعانى من عقدة نقص ".

فهم يشعرون بوجود هذه العقدة ، وبالآلام التى تسببها مثل هذه العقدة فى حياتهم.

إن الكثير من العصابيين إذا ما سألتهم :

" هل تشعر بأنك تعانى من عقدة نقص ؟ ، أو بأنك أقل من غيرك ".

فإنهم يجيبون قائلين :

" لا ، بالعكس ، فأنا أشعر بالتفوق على الناس من حولى ".

و لهذا فإنه من الواجب علينا أن " لا " نسأل مثل تلك الأسئلة ، فإن كل ما نحتاج إليه هو مراقبة سلوك مثل هؤلاء الأفراد العصابيين ، وسوف تتكشف لنا الطرق التى يتحايلون بها على المجتمع ، لتأكيد أهميتهم ، فالشخص المتعجرف على سبيل المثال ما هو إلا شخص يعانى من عقدة نقص فهو يفكر قائلاً لنفسه :

" من المرجح أن الكثير من أفراد ذلك المجتمع المحيط بى سيحاولون تجاهلى والتقليل من شأنى ، ولهذا فإنه من الواجب علىَّ أن أسبقهم وأريهم مدى أهميتى ".

ومن ثم يكون سلوكه هذا الذى يتسم بالتكبر والغطرسة ، أيضًا يمكننا أن نرى فى سلوك الشخص الذى يفرط فى استخدام اليدين وتعبيرات الوجه عندما يتكلم أنه يشعر بأن كلماته لا تحمل الوزن الكافى الذى يجعلها مفهومة ، ولهذا فإنه يستخدم جسده لتأكيد المعنى الذى تفوهت به شفتاه.

من هذا نرى أنه يوجد خلف جميع أنماط السلوك التى تحاول أن تُظهر شعوراً بالـ " تفوق " عقدة نقص تدعوه إلى بذل مجهودات خاصة لإخفاء مشاعر النقص التى يعانى منها ، فهو مثل ذلك الشخص الذى يخاف بأن يوصف بقصر القامة فيقوم بالمشى على أطراف أصابع قدميه حتى يظهر بأنه أطول من حقيقته ، ويمكننا رؤية مثل ذلك السلوك عندما يحاول طفلان مقارنة طول كل منهما ،

فإن الطفل الذى يخاف من أن يفشل فى إثبات طول قامته سيقوم بشد جسمه إلى أقصى حد ممكن .. حتى يبدو أطول مما هو عليه فى الحقيقة ، ولو أننا سألنا هذا الطفل قائلين :

" هل تعتقد أنكَ قصير القامة ؟ ".

فإن الطفل لن يعترف أبدًا بأنه يعانى من مشاعر" النقص " بسبب قصر قامته ، وهذا أمر متوقع جدا.

من كل هذا نرى أنه يجب ألا نفترض أن الشخص الذى يعانى من مشاعر قوية بـ " النقص" هو شخص استسلامى ، هادئ ، قادر على التحكم فى نفسه ، ولا يهاجم الآخرين ، فإن مشاعر النقص تجد متنفسًا لها بآلاف الطرق والوسائل ، ولعل خير وسيلة لتوضيح ذلك هى القصة التالية :

كان هناك ثلاثة أطفال فى زيارتهم الأولى لحديقة الحيوان ، وبينما وقف الثلاثة أمام قفص الأسود ، حاول أحدهم الاختباء خلف الأم وهو يقول :

" أريد العودة إلى المنزل ، ومغادرة هذا المكان فورًا ".

ورغم أن الطفل الثانى وقف يرتعش من رأسه إلى أخمص قدميه وهو شاحب الوجه ، فإنه قال :

" أنا غير خائف على الإطلاق ".

و هنا نظر الطفل الثالث إلى الأسد بعنف وسأل أمه قائلاً :

" سوف أبصق عليه ؟ ".

إن الأطفال الثلاثة شعروا بالخوف . هذا أمر مؤكد ، ولكن كلا منهم عبَّر عن مشاعر الخوف بطريقته الخاصه والتى تتسق مع أسلوب حياته .

إن كل فرد منا يعانى من مشاعر "النقص" بدرجة مختلفة عن الآخرين ، وهذا لأننا كثيراً ما نجد أنفسنا فى مواقف لا نُحسد عليها ، ونتمنى لو أننا تمكنا

من تقوية موقفنا والاحتفاظ بشجاعتنا حتى نتخلص من مشاعر " النقص " هذه بالطريقة الوحيدة المتاحة لنا ألا وهى تحسين الموقف.

لا يوجد شخص – أيًّا كان – يستطيع تحمل مشاعر "النقص" لفترة طويلة ، ولو حدث وتعرض شخص لمشاعر النقص لفترة طويلة ، فإنه سيعانى من ضغط عصبى شديد يتطلب رد فعل سريعًا.

لكن دعنا نفترض أن الفرد يعانى من إحباط شديد .. حتى إنه لا يستطيع تخيل نجاح أى محاولة منه لتحسين موقفه ، إن مثل هذا الفرد سيظل غير قادر على التعايش مع مشاعر "النقص" ، وسيبذل أقصى ما فى وسعه للتخلص من هذه المشاعر.

لكن الطرق التى سيستخدمها مثل هذا الفرد لن تنجح ، ورغم أن هدفه هو " التفوق " على المصاعب التى تواجهه ، فإنه سيحاول إقناع نفسه – بل إجبار نفسه فى بعض الحالات – على الشعور بـ " التفوق " دون بذل أى محاولة حقيقية للتغلب على العقبات والصعوبات التى تعترض طريقه.

غير أن مشاعر "النقص" سوف تزداد كثافة وشدة ، هذا لأن الموقف الذى سبب تلك المشاعر مازال موجوداً ، وحيث إن جذور المشكلة مازالت موجودة ، فإن كل خطوة سوف تقودهم إلى المزيد من خداع النفس ، كما أن كل مشكلاتهم سوف تضغط عليهم بصورة أكثر إلحاحًا.

لو أننا نظرنا إلى ردود أفعالهم – بدون محاولة لفهمها – فإننا قد نظن أنها بلا هدف ، وأنها غير قادرة على تحسين الموقف ، ولكن عندما نتمكن من فهمها فإننا سوف نرى أنهم مشغولون – مثل أى فرد من أفراد المجتمع – بمحاولة الوصول إلى حالة يمكن لهم فيها الشعور بأنهم ملائمون ، ولكنهم فقدوا الأمل فى تغيير وضعهم.

إذا فهمنا ردود أفعالهم فإننا سنرى أنهم عندما شعروا بالضعف خلقوا مواقف تسمح لهم بالشعور بالقوة ، وهذا هو "الخطأ" ، فهم لا يدربون أنفسهم

حتى يصبحوا أكثر قوة وأكثر ملاءمة ، ولكنهم يدربون أنفسهم على الظهور بمظهر من هو أكثر قوة وأكثر ملاءمة .. حتى وإن كان ذلك المظهر الزائف لا يقنع أحد سواهم.

ولكن جهودهم فى خداع النفس لن تنجح بطريقة كاملة لأنهم عندما يشعرون بأنهم غير قادرين على مواجهة مشاكل العمل فإنهم سيعملون على تأكيد أهميتهم الزائفة بالتصرف كطاغية فى المنزل ، لكن وبرغم قيامهم بخداع النفس بهذه الطريقة فإن مشاعر "النقص" سوف تظل موجودة وسيتكرر ظهور هذه المشاعر القديمة مع تكرار المواقف التى سببت ظهورها ، حتى إنها ستشكل الأساس النفسى الدائم الذى تتكون منه نفسية هذا الفرد ، وتصبح فى النهاية ،"عقدة نقص Inferiority complex " .

ولعله من المناسب الآن أن نقوم بتعريف " عقدة النقص " :

إن " عقدة النقص " تظهر بوضوح فى وجود مشكلة يكون الفرد غير مستعد أو مهيئ لمواجهتها ، وهى تؤكد قناعته بعدم قدرته على حلها.

من هذا التعريف يمكننا أن نرى أن الغضب – مثله مثل الدموع والأعذار – ما هو إلا تعبيرٌ عن " عقدة نقص ".

وحيث إن مشاعر "النقص" ينتج عنها الكثير من الضغوط فإنه سيكون هناك دائمًا رد فعل فى محاولة لتعويض الشعور بـ"النقص" عن طريق التظاهر بالشعور بـ" التفوق " ولكن رد الفعل هذا لن يكون فى اتجاه محاولة حل المشكلة ذاتها.

بهذا تكون الحركة نحو محاولة التظاهر بـ "التفوق" .. حركة نحو الجانب عديم الفائدة من الحياة ، أما المشكلة الحقيقية فإنها ستبقى مركونة دون أى محاولات حقيقية للتعامل معها.

إن مثل هؤلاء الأفراد سيحاولون تضييق مجال حركتهم ، وسيكون همهم الأكبر هو محاولة تجنب الهزيمة بدلاً من محاولة إحراز النصر والنجاح ، وسيكون الانطباع المعروف عنهم هو التردد ، والجمود ، والتراجع أمام الصعوبات .

ويمكن لنا رؤية موقفهم هذا بوضوح أكثر فى حالات "الرهاب" وخاصة "رهاب الأماكن المفتوح (*) "Agora-phobia"، فإن أعراض ذلك المرض ما هى إلا تعبير عن اقتناعهم بأنه من الواجب عليهم عدم الذهاب لإماكن بعيدة وأن عليهم أن يبقوا فى الأماكن المعروفة لهم فإن الحياة مليئة بالأخطار ، ومن واجبهم أن يتجنبوا تلك الأخطار عندما يقتنع فردا ما بمثل هذه المواقف باستمرار فإنه لن يخرج من غرفته أبدًا .

ولعل أكثر الصور تطرفًا فى التعبير عن التراجع أمام صعوبات الحياة هى الانتحار ، فعندما يستسلم الفرد أمام صعوبات الحياة ، ويعبر عن اقتناعه ، بأنه لا يوجد ما يمكن عمله لتحسين الوضع من حوله ، فإن محاولة الوصول إلى " التفوق " عن طريق الانتحار يمكن فهمها ، عندها نفهم أن الانتحار ما هو إلا وسيلة للتأنيب والانتقام ، فإن ضحايا الانتحار دائمًا ما يضعون اللوم على الآخرين فهم يَرْون أن ثمة شخصًا آخر مسئول عن موتهم ، فهم كمن يقول :

" أنا كنت معرضًا للهجوم باستمرار ، ورغم أننى أكثر الأشخاص حساسية فى العالم فإنه قد تمت معاملتى بعنف وقسوة لا مثيل لها " .

و كما قلنا من قبل فإن كل الأشخاص العصابيين يقيدون – عن عمد – مجال حركتهم وحجم اتصالاتهم بالعالم الخارجى ، فهم يعملون على إبقاء مشاكل الحياة الأساسيه الثلاث – المهام أو الظروف الاضطرارية الأساسية الثالثة ، وهى العمل والعلاقات مع المجتمع والزواج – بعيدة عنهم بقدر الإمكان ويَقصُرون أنفسهم فى حدود مواقف معينة يشعرون أنهم قادرون على السيطرة عليها ، وهم بهذا قد وضعوا أنفسهم فى ما نسميه بـ "السجن الضيق" وأغلقوا الباب عليهم لحماية أنفسهم من البيئة المحيطة .

(*) خوف مرضى شديد من الأماكن المفتوحة فإذا دخل المريض غرفة مثلاً فإنه لا يستريح ويظل قلقًا حتى يتم إغلاق جميع منافذها (المترجم) .

وأيًّا كانت الطريقة التى يستخدمونها فى السيطرة على تلك المواقف المعينة – عن طريق العنف والتبجح ، أو عن طريق التباكى والاسترحام – فإنها تعود إلى الطريقة التى نشأوا عليها ، وهم سيختارون الطريقة الأكثر فاعلية ، وهم أحيانا يستخدمون مزيجًا من الطريقتين أو طريقة تلو الأخرى ، فى جميع الأحوال فإن الهدف هو الحصول على الشعور بـ " التفوق " دون العمل على تحسين الموقف الأصلى الذى سبب المشكلة.

و الآن لنأخذ فى الاعتبار حالة الأطفال الذين يعانون من الإحباط : إن مثل هؤلاء الأطفال يجدون من السهل عليهم السيطرة على الموقف عن طريق الدموع حتى إنهم يصبحون كثيرى البكاء والشكوى لسبب ولغير سبب ، ونحن نعلم أن تلك الوسيلة فى السيطرة على المواقف الصعبهة تؤدى مباشرة عندما يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ إلى ما نسميه بالمنخوليا **Melancholia** أو الاكتئاب (*) .

إن استخدام الدموع والشكوى الدائمة – وهو ما أسميه أنا بـ " القوة المائية " – يمكن أن يكون سلاحًا بالغ الفاعلية فى عرقلة " التعاون " والتحكم فى الآخرين.

إن الأشخاص كثيرى البكاء والشكوى مثلهم مثل من يعانون من الخجل ، أو الشعور بالذنب ، أو الحرج ، فنحن نستطيع أن نرى " عقدة النقص " على السطح ظاهرة بوضوح ، إن مثل هؤلاء الأشخاص على استعداد للاعتراف بضعفهم وعدم قدرتهم للاعتماد على أنفسهم ، ولكن ما يحاولون إخفاءه عن الجميع هو هوسهم بتحقيق هدفهم فى " التفوق " ورغبتهم فى أن يكونوا فى مقدمة الصفوف مهما كان الثمن.

من ناحيه أخرى فإن الأطفال الذين يتمادون فى التفاخر – بما يملكون ، وبما لا يملكون – يبدون كما لو أنهم يعانون من " عقدة التفوق " ، ولكن لو دققنا وفحصنا

(*) الاكتئاب هو ذهان وظيفى ، وهو حالة من حالات الاضطراب النفسى وتكون أكثر وضوحًا فى الجانب الانفعالى من شخصية المريض ، فيتميز الفرد بالحزن الشديد واليأس من الحياة ، ويقوم المبدأ النفسى القائل بـ" أن النية = الفعل" بدور فى تغذية الإحساس بوخز الضمير ، حتى إنه –فى بعض الحالات– يدفع المريض للتفكير فى الانتحار ، ونسبة الشفاء منه عالية نسبيا (المترجم) .

سلوكهم عن قرب – واهتممنا بتصرفاتهم وليس بما يصدر عنهم من كلمات – فإننا سوف نكتشف السر الذى يحاولون إخفاءه ألا وهو شعورهم بـ " النقص ".

إن ما يسمى بـ "عقدة أوديب" ما هو فى الحقيقة إلا " السجن الضيق " الذى حبس فيه الأشخاص العصابيون أنفسهم وأغلقوا الباب عليهم بغرض حماية أنفسهم من البيئة المحيطة ، فلو أن الفرد كان خائفًا من مواجهة مشكلة الحب فى العالم الخارجى فإنه لن ينجح فى تخليص نفسه من العصاب ، ولكن لو أنه قيد مجال حركته ، وحجم اتصالاته بالعالم الخارجى ، وقَصر هذه الاتصالات على دائرة العائلة الضيقة ، فإننا لن نتعجب بعد هذا إذا ما وجدنا أن رغباته الجنسية تظل محصورة فى دائرة العائلة الضيقة ، وبسبب انعدام مشاعر الأمان فإنه لم يحاول قط النظر إلى ما وراء تلك المجموعة الصغيرة من البشر – عائلته المباشرة – التى اعتاد عليها ، إنه خائف من فقدان السيطرة على الآخرين كما اعتاد السيطرة على أفراد فى عائلته المباشرة ، إن ضحايا "عقدة أوديب" كانوا أطفالاً تعرضوا لتدليل زائدة كما أنهم نشأوا وهم يعتقدون بوجوب الطاعة العمياء والتنفيذ الفورى لأى رغبة من رغباتهم ، وهم يعتقدون اعتقاداً قويا بعدم قدرتهم على اكتساب حب الآخرين من خِلال بذل مجهود فردى مستقل خارج حدود عائلتهم المباشرة.

ولهذا فإنه عندما يبلغ هؤلاء الأطفال مرحلة الرشد فإنهم يظلون مرتبطين بآبائهم ، وهم عندما يبحثون عن الحب لا يبحثون عن شريك مساو ومكافئ لهم ، ولكنهم يبحثون عن خادم ، ولكن ليس أى خادم وإنما الخادم الذى يمكن الوثوق من وجوده وتأييده الدائم لهم هو الوالدين.

ربما يكون بإمكاننا السعى لإحداث " عقدة أوديب " فى شخصية طفل ما فإن كل ما علينا أن نفعله هو أن نجعل الأم تقوم بتدليل هذا الطفل بطريقة مبالغ فيها ، كما أن عليها أن تقوض كل مظاهر الاهتمام التى يبديها الطفل بالآخرين ، أما والده فعليه أن يكون بارداً ومتبلداً تجاه الموقف كله.

إن جميع أعراض الأمراض العصبية تعطينا صورة واضحة لأفراد قاموا بتضييق مجال حركتهم ، عندما يتلجلج أحدهم فى الكلام فإننا نستطيع أن نرى موقفه وطريقته المترددة ، فإن بقايا قليلة من الاهتمام بالمجتمع مازالت داخل هذا الفرد ، وهى تدفعه للإتصال بالآخرين ، ولكن تقديره الضعيف لذاته وخوفه من الفشل لا يتفقا مع اهتمامه بالمجتمع من حوله ولهذا فإنه يتردد ويتلجلج فى حديثه.

إن الأطفال الذين يعانون من التأخر فى المدرسة ، والرجال والنساء الذين لا يملكون عملاً ثابتًا يرتزقون منه رغم تخطيهم سن الثلاثين ، والأشخاص الذين تجنبوا الزواج ومشاكله برُمتها ، والذين يستولى عليهم العصاب بطريقة تجعلهم يكررون الأفعال نفسها المرة بعد المرة ، وأولئكَ الأشخاص الذين يعانون من عدم القدرة على النوم والذين يكونون من الضعف بحيث تنعدم قدرتهم على مواجهة مهام الحياة .

إن كل هؤلاء يظهرون نوعًا ما من " عقدة النقص " تمنعهم من إحراز أى تقدم فى حل مشكلات الحياة.

إن الأشخاص الذين تتسم حياتهم الجنسية بأفعال مثل : العادة السرية والقذف المبكر والعنة والانحراف والشذوذ كلها تظهر تعريفًا خاطئا لـ " معنى الحياة " نتج عن شعور بانعدام الأهلية والكفاءة فى معالجة العلاقة بالجنس الآخر.

إن الهدف الملازم – هدف تحقيق وإثبات "التفوق" – سوف يظهر بوضوح إذا ما سألنا أنفسنا أسئلة مثل :

" لماذا تنتابنى مشاعر انعدام الأهلية والكفاءة ؟ ".

إن الإجابة عن مثل هذا السؤال بسيطة ، وهى تنحصر فى أن الفرد قد وضع أمامه هدفًا بالغ الصعوبة مستحيل التحقيق.

لقد سبق وقلنا إن الشعور بمشاعر "النقص" هو أمر طبيعى يحدث لجميع الأفراد ، بل إنه يعتبر السبب فى إحراز التقدم فى أحوال البشر ، فإن التقدم العلمى – مثلاً – ممكن عندما يتضح للناس مدى جهلهم وحاجتهم الشديدة لتطوير أنفسهم لمواجهة المستقبل ، وعلى هذا فإن التقدم العلمى ما هو إلا نتيجة لسعى البشر الدائم

لتحسين أحوالهم عن طريق معرفة المزيد عن الكون المحيط بهم وتطوير قدراتهم على التعامل معه.

ويبدو لي أن الحضارة البشرية كلها قد بنيت على شعورنا بالنقص ، فلو أننا تخيلنا وجود مجموعة من الزوار . الذين يراقبون كوكبنا بعدم اهتمام ، فإنه من المؤكد أنهم سوف يستنتجون أن الجنس البشرى - بكل مؤسساته ومعاهده وبكل سعيه الدائم نحو تحقيق الأمان وبمنازلهم التى تقيهم من المطر وبملابسهم التى تحمى أجسادهم وبشوارعهم الممهدة التى تجعل السفر أسهل . يشعر بأنه أضعف مخلوقات كوكب الأرض.

وسيكون هذا الاستنتاج من جانبهم غير بعيد عن الواقع فإن الجنس البشرى يعتبر بالفعل من أضعف المخلوقات التى عاشت على كوكب الأرض ، فنحن لا نملك قوة الأسد أو الغوريلا ، كما أن الكثير من الحيوانات مجهزة بصورة أفضل منا لمواجهة صعوبات الحياة بمفردها ، بعض الحيوانات تعوض الضعف الجسدى الذى يميزها بالعيش فى مجموعات مثل الإنسان ولكن الإنسان فى حاجة إلى أنواع أكثر تنوعًا واختلافًا وعمقًا من "التعاون" الذى تظهره بعض الحيوانات التى تعيش فى مجموعات.

أطفال الجنس البشرى - على وجه الخصوص - بالغو الضعف ، فهم فى حاجة شديدة للحماية لسنوات طويلة ، كما أنهم يحتاجون إلى عناية خاصة بهم ، وحيث إننا جميعًا كنا أطفالا فى وقت من الأوقات ، فإن هذا يعنى أننا كنا أضعف المخلوقات على وجه الأرض ، وأيضًا فإن هذا يعنى أن الجنس البشرى - بدون " التعاون " - سيكون تحت رحمة الظروف البيئية المحيطة.

من كل ما سبق نستطيع تفهم السبب الذى جعل الأطفال الذين لم يتم تدريبهم على "التعاون" متشائمين دائمًا ويعانون من " عقدة نقص " ، كما أننا نستطيع أن نرى أن الحياة ستشكل دائمًا مشكلة صعبة حتى للذين دَرَّبوا أنفسهم على " التعاون " مع الآخرين ، وأنه لن يوجد أبداً ذلك الفرد الذى يستطيع

تحقيق هدفه النهائى فى إحراز " التفوق " والسيطرة على البيئة المحيطة به ، فإن الحياة شديدة القصر وأجسادنا شديدة الضعف ومشاكل الحياة ، الثلاثة ستدفع بنا دائمًا فى اتِجاه الحصول على حلول أكثر إيجابية وشمولاً ، ولكننا لن نرضى أبداً بالإنجازات التى حققناها فى الماضى ، وسنسعى دائمًا إلى إحراز إنجازات أكبر ، وفى حالة أولئك الأفراد الذين دَرَّبوا أنفسهم على " التعاون " فإن هذا السعى الدائم سيكون مفيداً وموجهًا إلى تحسينات حقيقية فى وضعنا العام.

ورغم أننى أعتقد أن القلق لن يساور أى شخص لا يستطيع الوصول إلى هدفه النهائى لكن دعنا نتخيل وجود فرد وصل إلى وضع لا توجد فيه أى صعوبات يجب مواجهتها ، إن حياة مثل هذا الفرد ستكون مملة ، فإن كل شىء سيكون متوقعًا ومحسوبًا حسابُه قبل أن يحدث ، وعندما يُشرق الغد فإنه لن يأتى بأى فرص جديدة ، وسيكون عالمه بلا أمل فى مستقبل أحسن.

من هذا نرى أن اهتمامنا بالحياة ينبع أساسًا من عدم قدرتنا على التأكد ، فلو أننا كنا متأكدين من كل شىء حولنا ، ولو أننا كنا على معرفة شاملة بكل شىء يحيط بنا ، فإنه لن يكون هناك أى اكتشافات جديدة أو مناقشات علمية تؤدى إلى معرفة المزيد ، وسينتهى دور العلم ، والكون من حولنا سيكون مثل قصة سبق وأن سمعناها من قبل.

والفنون ، والديانات التى تمدنا بالقيم والمثل العليا التى نقتدى بها سوف تصبح عديمة المعنى ، ولهذا فإنه من حسن الحظ أن الحياة تواجهنا كل يوم بتحديات جديدة لا نهاية لها ، وهذا يجعل سعى الإنسان لتحقيق الأفضل بلا نهاية ، فنحن نستطيع دائمًا أن نجد مشاكل جديدة ، وأن نَخلقَ فرصًا جديدة لتحقيق المزيد من "التعاون" والمساهمة الإيجابية فى حياة الآخرين.

إن نمو وتطور الأشخاص العصابيين مسدود منذ البداية ؛ لأن الحلول التى يواجهون بها مشاكل الحياة هى حلول ظاهرية وسطحية ، وبالتالى فإن مشاكلهم الشخصية تكون عظيمة ، فإن الأفراد الطبيعيين يقومون باستخدام حلول شاملة

وإيجابية لمشاكلهم وهذا يمكنهم من الانتقال لمرحلة أعلى يواجهون فيها صعوبات جديدة ، ويصلون إلى حلول جديدة أيضًا ٠

بهذه الطريقة يصبحون أكثر قدرة على المساهمة الإيجابية فى تقدم مجتمعهم ، إنهم لا يتخلفون ، ولا يصبحون عبئًا على زملائهم فى الجنس البشرى ، فهم فى غير حاجة للمطالبة باعتبارات أو معاملة خاصة ، بل إنهم يواجهون الحياة بشجاعة واستقلالية بغرض حل مشاكلهم وعن طريق الحفاظ على التوازن بين شعورهم الاجتماعى وحاجتهم الخاصة٠

هدف تحقيق وإثبات التفوق

إن هدف " التفوق " هو هدف شخصى وفريد ، ويختلف من فرد لآخر ، وهو يعتمد على تعريف " معنى الحياة " الخاص بِهم ، إن هذا المعنى ليس مجرد كلمات وهو واضح فى أسلوب حياتهم ، والفرد لا يعبر عن هدفه بطريقة واضحة ومقننة تماماً بل هو يعبر عن هدفه بطريقة ملتوية وغير مباشرة ، ولهذا فإنه من الواجب علينا أن نخمن هدفه من الدلائل التى يتركها لنا ٠

إن فهم أسلوب حياة الفرد مثل فهم قصيدة شعر ، فإن الشعراء يستخدمون الكلمات فقط ولكن معانى هذه الكلمات تكون أعمق وأكثر من الكلمات نفسها ، وأعظم جزء من معانى هذه الكلمات يمكن استخراجه بالدراسة وعن طريق استخدام الغريزة والحدث ، فإنه من الواجب علينا أن نقرأ ما بين السطور لنفهم هدف الشاعر الحقيقى٠

بالطريقة نفسها التى نتعامل بها مع قصيدة الشعر فإنه من الواجب علينا أن نتعامل مع أكبر إبداعات الفرد ألا وهى فلسفته الشخصية فى الحياة ، إن علماء النفس يجب عليهم تعلم القراءة بين السطور واستخراج المعانى المخفية هناك٠

نحن نقرر " معنى الحياة " بالنسبة إلينا خلال السنين الخمس الأولى من وجودنا على الأرض ، ورغم أن هذا ليس حقيقة مجردة مثل الحسابات الرياضية،

فإن محاولات التحسس الدائم فى الظلام واختبار مشاعر جديدة لا نستطيع فهمها تمامًا ومحاولة فهم تلميحات الآخرين وشرحها بطريقة مناسبة لنا ، كلها يؤدى إلى التعريف الفريد الخاص بنا لـ " معنى الحياة "٠

وبطريقة مشابهة فإننا نقرر ماهية وطبيعة هدف " التفوق " ، وهو دافع قوى وميل شديد للحركة يستمر طوال حياة الفرد ، وعادة ما يكون الفرد غير واعٍ تمام الوعى بهدفه فى تحقيق وإثبات " التفوق " ، فهو يكون غير قادر على وصف وتعريف هدفه هذا ، فهو يعرف أهدافه الوظيفية ولكنه لا يعرف هدفه النهائى ، وحتى إذا كان الهدف النهائى محددًا بوضوح فإن هناك آلاف الطرق المؤدية لتحقيق هذا الهدف النهائى ، فعلى سبيل المثال إذا أراد أن يصبح فرد ما طبيبًا ، ولكن أن يصبح الإنسان طبيبًا تعنى الكثير من الأشياء المختلفة ، فهو قد يرغب فى أن يتخصص فى مجال بعينه من مجالات الطب ، وستظهر درجة اهتمامه بنفسه والآخرين فى حياته الوظيفية ، وسنرى بوضوح المدى الذى وصل إليه فى تدريب نفسه على مساعدة الآخرين ، وما الحدود التى وضعها لتلك المساعدات ، فإنه عندما جعل من مهنة الطب هدفًا له فإنه قد قام بذلك لتعويض بعض مشاعر النقص ، وعلينا أن نكون قادرين على تخمين نوعية هذه المشاعر وسببها من خلال سلوكه فى أثناء تأدية وظيفته وخارجها٠

إن الأشخاص الذين يختارون الطب كمهنة – غالبًا – ما يخرجون من بين أطفال واجهوا الكثير من حالات الوفاة – والموت عمومًا – خلال مرحلة الطفولة المبكرة وبهذا فإن الموت كان عنصرًا رئيسيًا فى تشكيل مشاعر عدم الأمان التى تركت انطباعًا لا يمحى عليهم ، فربما كان موت أحد الإخوة أو واحد من الأبوين هو السبب فى اختيارهم الطب كمهنة ؛ لأن حياتهم تطورت فى اتجاه محاولة إيجاد طريق يشعر من خلاله بالأمان فى مواجهة الموت ، مثال آخر عندما يحاول فردًا ما أن يتخذ من التعليم مهنة له – ونحن على علم بوجود أنواع كثيرة من المعلمين – فلو كان المعلم لا يملك الدرجة الكافية من الاهتمام بالمجتمع من حوله فإن هدفه فى تحقيق " التفوق " يكون عن طريق أن يصبح السمكة الكبيرة فى بحيرة مملوءة بصغار الأسماك ، فهو لا يشعر بالأمان إلا عندما يكون محاطًا بمن هو أضعف وأقل خبرة منه٠

من ناحية أخرى فإن المدرسين الذين يملكون درجة عالية من الشعور الاجتماعى والاِهتمام بالآخرين سيعاملون التلاميذ الصغار على أنهم مساوون لهم ، وستكون هناك رغبة حقيقية فى داخلهم للمساهمة فى رفعة وتحسين مستوى هؤلاء الأطفال.

ومن هذا يتضح أنه مهما اختلفت قدرات واِهتمامات المدرسين فإن سلوكهم هو الذى يشير بوضوح إلى حقيقة أهدافهم النهائية ، فعندما يكون الهدف محدداً بوضوح فإن إمكانيات الفرد الكامنة تكون محدودة بهذا الهدف ومناسبة له تماماً.

لكن الهدف المرحلى - البدائى - سيحاول دائمًا تغيير حدود هذه الإمكانيات الكامنة ليناسب التعريف الذى أعطاه ذلك الفرد لـ " معنى الحياة " وهدفه النهائى فى تحقيق وإثبات " التفوق ".

لهذا سيكون علينا دائمًا أن ننظر إلى ما هو تحت السطح ، فالفرد ربما يغير الطريقة التى حدد بها هدفه ، تمامًا مثلما يغير أحد المظاهر الخارجية لهدفه المعلن ، وبالتحديد وظيفته فى الحالة السابقة ، لهذا فإنه علينا فحص الوعى الكامن لهذا الفرد - اللا وعى - وما يحاول إخفاءه ، وعلى سبيل المثال : فإننا إذا أخذنا مثلثا غير منتظم (لا تتساوى أطوال أضلاعه) وقمنا بوضعه فى أوضاع مختلفة تظهر عدم انتظامه ، فإن كل وضع سوف يعطينا مثلثًا مختلفًا عن الوضعين الآخرين ، ولكننا نعرف بالتأكيد أن المثلث -هو هو ثابت- لم يتغير ، وهذا هو الحال مع الهدف المرحلى - البدائى - فإنه ثابت لا يتغير ولكن الذى يتغير هو وضع هذا الهدف المرحلى ، وبكلمات أخرى فإن مكونات الهدف المرحلى لم يتم التعبير عنها بطريقة كاملة من خلال أىٍّ من وجوه السلوك ، ولكننا نتعرف على الهدف المرحلى من جميع الأوضاع التى يتخذها.

إنه من غير الجائز إخبار فردٍ ما بأن سعيه لتحقيق " التفوق " يمكن بلوغه لو أنه قام بهذا الفعل أو ذاكٍ طبيعيا ، لأن السعى لتحقيق " التفوق" هو مسألة مرنة ، وكلما كان الفرد طبيعيًا وفى حالة صحية جيدة ؛ فإنه سيتمكن من إيجاد طرق جديدة ومختلفة للسعى نحو هدفه فى تحقيق "التفوق" كلما وجد أحد الطرق مسدوداً.

لكنَّ الأشخاص العصابيين هم وحدهم الذين يركزون أنظارهم على الهدف ويقولون :

" أنا أريد هذا .. ولن أقبل بديلاً عنه "٠

إن هناك عاملاً مشتركًا بين جميع الأهداف التى تسعى لتحقيق " التفوق " ، ألا وهو السعى للوصول إلى حالة ما يشبه الإله الخالق ، حتى إننا نجد بعض الأطفال الذين يعبرون عن هذا السعى بطريقة واضحة عندما يقولون :

" أنا أرغب فى أن أكون إلهًا "٠

الكثير من الفلاسفة تملكتهم الفكرة نفسها ، وبعض المعلمين يرغبون فى تدريب وتعليم الأطفال حتى يصبحوا على شبه الإله ، وفى العقائد القديمة يمكننا أن نرى الهدف نفسه بوضوح ، فالمؤمنون بهذه العقائد يحاولون تدريب وتعليم أنفسهم للوصول إلى درجة تجعل منهم أشباه الإله٠

وهذا المفهوم يظهر مرة أخرى – فى صورة أكثر تواضعًا – فى فكرة "السوبرمان" ، ولعل من الأمور التى تدعو إلى التأمل ما حدث لنيتشه فعندما أصابه الجنون وقام بإرسال خطاب إلى "ستريند برج" فإنه وقع هذا الخطاب باسم :

" المصلوب "٠

إن الشخص الذى يعانى من الجنون يعبر بصراحة عن هدفه فى إحراز "التفوق" بالوصول إلى حالة " شبه الإله " عندما يقول :

" أنا نابليون "٠

" أو أنا إمبراطور الصين "٠

إنه يعبر عن رغبته فى أن يكون مركزًا لاهتمام العالم كله ومحور تفكيره ، أن يكون على اتصال بالعالم أجمع يستطيع سماع جميع المحادثات ومعرفة كل ما يحدث ، إنه يرغب فى الحصول على القدرة على التنبؤ بالغيب وامتلاك قوى غير طبيعية ٠

ولعله يمكن رؤية ذلك الهدف بوضوح عندما يعبر الكثير عن رغبتهم فى معرفة كل شىء ، وفى الاستحواذ على مصادر الحكمة اللا نهائية ، أو فى الرغبة لأن تمتد وتطول حياتنا إلى الأبد – سواء كانت حياتنا على الأرض ، أو نتخيل عودتنا للحياة على الأرض مرات عديدة عن طريق تناسخ الأرواح – عن طريق الإيمان بخلودنا فى العالم الآخر.

إن كل هذه التوقعات مبنية كلها على رغبة فى الوصول إلى حالة " شبه الإله " ، فى التعاليم الدينية فإن الرب وحده هو الكائن الخالد إلى الأبد ، أنا هنا لا أناقش ما إذا كانت هذه الأفكار صحيحة أم لا فهى تدل على طريقة فهم للحياة وهى معانٍ تشملنا بطريقة أو بأخرى – الإله وأشباه الإله.

وحتى الذى لا يؤمن بوجود الله فإنه يرغب فى غزو فكرة الألوهية وفى أن يصبح مساويًا أو أعلى من الإله مرتبة إذا كان هذا ممكنًا ، ويمكننا اعتبار هذا هدفًا غير معتاد فى قوته لتحقيق "التفوق".

متى حدد الشخص هدفه فى إحراز " التفوق " فإن كل أفعاله تكون متسقة مع هذا الهدف فلا يكون هناك أى أخطاء فى أسلوب حياته ، فكل عادات وسلوك هذا الفرد مناسبة تمامًا للوصول إلى هدفه المعلن.

و أسلوب حياة جميع المجرمين والعصابيين ، ومدمنى الخمور ، والطفل المشكلة .. Problem child والشاذين جنسيا ، تعكس السلوك المناسب الذى يمكنهم – حسب تفكيرهم – من إحراز " التفوق ".

ويكون من غير الممكن نقد سلوكهم ذاته ، فهو السلوك الذى يجب عليهم الأخذ به لإحراز هدفهم فى " التفوق ".

فى إحدى المدارس كان هناك صبى ينظر إليه على أنه من أشد أفراد المدرسة كسلاً ، وعندما سأله معلمه قائلاً :

" لماذا لا تقوم بأداء واجباتك الدراسية بشكل أفضل ؟ ".

فأجاب قائلاً :

" إذا بقيت على ما أنا عليه من كسل فإنك ستخصص الكثير من وقتك لى ، أما الصبيان الآخرون الذين لا يسببون متاعب ويؤدون واجباتهم الدراسية بشكل حسن ومنتظم فإنهم لا يحصلون على الكثير من وقتك واهتمامك "٠

فطالما كان هدف هذا الصبى هو جذب انتباه معلمه والتحكم فيه ، فإن أفضل طريقة لتحقيق هذا الهدف فى " التفوق " الأسلوبُ الذى اتخذه هذا الصبى أسلوبًا لحياته وسيصبح التخلص من أسلوب الكسل أمرًا عديم النفع له فهو فى حاجة إلى كسله لإحراز هدفه ، فهو من وجهة النظر هذه على حق تمامًا فى تبنى مثل هذا الأسلوب فى الحياة وسيكون أحمقَ لو حاول تغيير أسلوب حياته هذا٠

هناك صبى آخر كان مطيعًا جدا ، ولكنه كان يبدو غبيا نوعًا ما ، فقد كان متخلفًا فى المدرسة ، كما أنه لم يكن حاد الذهن فى المنزل أيضًا ، وكان لهذا الصبى أخ أكبر منه بعامين وكان هذا الأخ يختلف فى أسلوب حياته تمام الاختلاف عنه ، فقد كان ذكيا جدا ممتلئًا بالحياة ولكنه كان يسبب الكثير من المتاعب بسبب وقاحته المستمرة ، ولقد سمعنا الصبى الصغير مرة وهو يقول :

" أنا أُفضِّل – ألف مرة – أن أظل غبيا .. على أن أكون فى وقاحتك "٠

من هذا نرى أن غباءه الظاهر ما هو إلا تعبير عن الذكاء ، فقد كانت هذه هى طريقته فى تحقيق هدفه فى " التفوق " ، وهى أن لا يسبب أى متاعب حتى يظل محبوبًا من الجميع ، فإنه عندما تظاهر بالغباء ، فإن الجميع لم يتوقع الكثير منه ، وبالتالى لم يطالبوه بأداء الكثير ، وحتى عندما ارتكب بعض الأخطاء فإنهم لم يلوموه على ارتكابها ، ومن هذا نرى أنه من الحماقة أن لا يتظاهر هذا الصبى بالغباء٠

حتى يومنا الحالى كانت المشاكل تعالج من خلال أعراضها فقط ، وعلم النفس الفردى يعارض تمامًا هذا الأسلوب فى كل من الطب والتعليم ، فعندما يتخلف الأطفال فى مادة مثل الحساب على سبيل المثال فإنه من غير المفيد أن نركز انتباهنا على هذا الجانب وحده فى محاولة لتحسينه ، فربما يكون هدف الأطفال هو محاولة

مضايقة المعلم للحصول على المزيد من وقته واهتمامه كما فى المثال السابق ، أو الهروب والتخلص من المدرسة نهائيا إذا ما تم فصلهم ، ولو أننا حاولنا منعهم من استخدام طريقة ما فإنهم سيجدون طريقة أخرى للوصول إلى هدفهم.

وسنرى الشيء نفسه مع الأشخاص البالغين الذين يعانون من العصاب ، ولنفترض على سبيل المثال أن أحدهم يعانى من صداع نصفى ، إن مثل هذا الصداع يكون مفيداً جدا بالنسبة إليه ويحدث غالبًا فى الوقت الذى يحتاجونه ، وبواسطة حالات الصداع هذه فإنهم يتمكنون من تجنب مشاكل الحياة ، فإننا سنجد أن حالات الصداع هذه تظهر عندما يكون من المفروض عليهم مقابلة أفراد جدد أو اتخاذ قرار حاسم أو ضرورى.

كما أن حالات الصداع هذه تساعدهم على التحكم فى من حولهم فى العمل أو المنزل على حدٍّ سواء ، فلماذا تتوقع منهم أن لا يستخدموا تلك الوسيلة الناجحة فى التحكم ؟ إن الألم الذى أعطوه لأنفسهم ليس إلا استثماراً حكيمًا يعود عليهم بالفوائد ، وربما يكون فى الإمكان إخافتهم – إلى درجة تقنعهم بالعدول عن استخدام هذا الأسلوب – عن طريق إعطائهم سببًا يصيبهم بالصدمة ، فإنه عندما يتسبب انفجار القنبلة فى إحداث صدمة للجنود فى ميدان المعركة " صدمة القذائف " (*) ، فإنه يمكن معالجة هؤلاء الجنود وإخراجهم من حالة " صدمة القذائف " هذه ، بتعريضهم لصدمة كهربائية أو عملية جراحية مزيفة.

صحيح أن العلاج الطبى يمكن أن يخفف من متاعبهم ، ويجعل من الصعب عليهم الاستمرار فى استخدام ذلك العرض – الصداع – الذى اختاروه كوسيلة لإحراز هدفهم ولكن إذا ما استمروا فى الاحتفاظ بالهدف نفسه فإنه حتى لو تخلصنا من أحد هذه الأعراض – وهو الصداع النصفى فى هذه الحالة – فإنهم سيعملون على إيجاد

(*) صدمة القذائف : هى اضطراب عصبى يصيب الجنود فى ميدان المعركة ويتميز بفقدان الذاكرة ، أو فقدان القدرة على الكلام أو فقدان البصر، أو بعض هذه الأعراض السابقة أو كلها مجتمعة (المترجم) .

عَرَض آخر يستخدمونه كوسيلة لإحراز هدفهم ، فلو أننا عالجنا حالات الصداع فإنهم سيصابون بحالات من الأرق وعدم القدرة على النوم أو غيرها من الأعراض ، فطالما بقى هدفهم كما هو بلا تغيير فإنهم سيستمرون فى محاولاتهم للوصول إلى تحقيقه.

بعض العصابيين يستطيعون التخلص من أعراض مرضية معينة بسرعة مذهلة واكتساب أعراض أخرى بالسرعة نفسها ، حتى إنهم يصبحون ذواقة مثل هواة جمع الأشياء – طوابع ، فراشات ، قطع العملة – يقومون دائمًا بزيادة حجم مجموعتهم الخاصة من الأعراض المرضية ، فإنهم إذا ما قرأوا كتابًا عن العلاج النفسى فإن هذا سيزودهم بالمزيد من المتاعب العصبية التى لم يجربوا الإصابة بها بعد ، ولهذا فإنه من الواجب علينا أن نبحث دائمًا عن الغرض الذى تُسْتَخْدَمُ هذه الأعراض المرضية فى تحقيقه وما هو مدى اتساق هذا الغرض مع هدف تحقيق " التفوق "؟!

والآن دعنا نفترض أننى أحضرت سلمًا خشبيا داخل الفصل ، ووقفت فوقه وجثمت فوق السبورة ، فإن أى شخص يرى هذا سوف يفكر فى نفسه قائلاً :

" دكتور آدلر قد أصابه الجنون ".

فإنهم لا يعرفون الغرض من وجود السلم الخشبى ولا السبب الذى من أجله قمت بتسلق السلم ، ولكن لو قدر لهم أن يعرفوا أن السبب فى جلوسى على هذا المكان المرتفع هو شعورى بالنقص ، وأن هذا الشعور بالنقص لا يتلاشى إلا إذا كنت جسديا فى وضع أكثر ارتفاعًا من باقى الأشخاص ، وأننى لا أشعر بالأمان إلا إذا تمكنت من النظر من عليائى عليهم.

وهم الآن لن يظنوا الجنون بى فأنا قد اخترت الطريقة التى تمكننى من الوصول إلى هدفى المعلن ، والسلم الخشبى يمثل أداة مناسبة للوصول إلى هذا الهدف ، كما أن مجهوداتى فى إحضار السلم وتسلقه تظهر قدرتى على التخطيط الجيد والتنفيذ.

ولكن تظل وجهة نظرى الخاصة فى فهم " التفوق " فإنها تدعو البعض للاعتقاد بجنونى ، فلو أنهم تمكنوا من إقناعى بأن هدفى المعلن هو هدف خاطئ ، فإن جهودى وتخطيطاتى سوف تختلف وتتغير ، ولكن إذا بقى الهدف كما هو ، واكتفوا فقط بأخذ السلم الخشبى منى فإننى سأحاول مرة أخرى الوصول لهدفى باستخدام مقعد بدلاً من السلم ، وإذا أخذوا المقعد منى فإننى سأحاول الوصول لهدفى بالوقوف فوق المكتب أو أى شىء آخر أجده أمامى وهكذا .

إن الوضع يكون مماثلاً مع كل الأشخاص الذين يعانون من الأمراض العصبية ، فإن الخطأ ليس فى الوسائل التى اختاروها وإنما الخطأ موجود فى هدفهم المعلن ، والذى يكون من المفروض علينا أن نحاول تحسينه إذا ما أردنا علاج المشكلة من جذورها ، وعندما نغير الهدف ، فإن عادتهم العقلية ومواقفهم القديمة سوف تتغير بالتبعية ، وسوف يكتسبون عادات عقلية ومواقف جديدة تتناسب مع هدفهم الجديد .

والآن دعنا نفحص حالة تلك المرأة التى أتت إلى عيادتى ، فهى تبلغ الثلاثين من عمرها ، وقد كانت هذه المرأة تعانى حالة حادة من القلق ، كما أنها كانت تشكو من عدم قدرتها على اكتساب الأصدقاء ، وقد كانت هذه المرأة غير ناجحة حتى فى قدرتها على الاحتفاظ بوظيفة مجزية وبالتالى فإنها كانت تمثل عبئًا على عائلتها ، كانت هذه السيدة تشغل وظائف صغيرة بين الحين والآخر كسكرتيرة ، وتقريبًا فى كل وظيفة من هذه الوظائف فإن رئيسها فى العمل تحرش بها جنسيا لدرجه أفزعتها وأجبرتها على ترك الوظيفة ، ولكن حدث ذات مرة أنها حصلت على وظيفة ولم يضايقها أو يتحرش بها أحد ، ولكنها شعرت بالإهانة حتى إنها تركت هذه الوظيفة أيضاً .

هذا وقد عولجت هذه المرأة لمدة ثمانى سنوات علاجاً نفسيا ، ولكن هذا العلاج لم ينجح فى تحسين علاقاتها الاجتماعية أو وضعها المالى ، وعندما رأيتها لأول مرة حاولت اقتفاء أثر ذكرياتها الأولى وأسلوب حياتها خلال السنوات الأولى من عمرها ، فإنه من غير الممكن فهم البالغ بدون فهم طفولته فهماً كاملاً .

كانت هذه السيدة أصغر أطفال عائلتها ، وكانت شديدة الجمال ، كما أنها كانت مدللة جدا إلى درجة يصعب تصديقها ، وكان والداها ميسورى الحال فى ذلك الوقت من طفولتها فوفرا لها كل أسباب النعيم والراحة ، وكانت كل رغباتها – مهما بلغت سخافتها – مجابة ، وعندما سَمِعت هذا قلت لها :

" لقد تمت تَنْشِئَتُكِ كأميرة فى إحدى الأسر المالكة ".

فردت ضاحكة وهى تقول :

-" هذا غريب ؛ لأن الجميع كانوا بالفعل ينادوننى بالأميرة ".

و عندما سألتها عن " أول ذكرى " قالت :

" عندما كان عمرى أربع سنوات كان هناك مجموعة من الأطفال يلعبون خارج منزلى ، وبين الحين والآخر كان هؤلاء الأطفال يقفزون وهم يصيحون قائلين : سوف تأتى الساحرة . سوف تأتى الساحرة ، وفى كل مرة قالوا هذا كان الخوف الشديد ينتابنى ، وعندما عدت إلى منزلى سألت إحدى السيدات العجائز التى كانت تقيم معنا عما إذا كان هناك فى الحقيقة شىء يسمى الساحرات ، فقالت لى : نعم ، فإنه يوجد ساحرات ولصوص وقطاع طرق ، وإنهم جميعًا سيحاولون إلحاق الأذى بى شخصيا ".

من هذا نرى أن أكبر مخاوفها هو أن تكون وحيدة ، وقد عَبَّرت عن هذا الخوف فى أسلوب الحياة الذى اتخذته ، فهى لم تشعر قط بأنها على القدر الكافى من القوة التى تمكنها من ترك منزل والديها والاستقلال بحياتها ، وأن هؤلاء الأشخاص فى منزلها – والديها وأخوتها ، وأقربائها – من الواجب عليهم جميعًا .. العناية بها وبكل احتياجاتها.

كما أنها روت لى قصة أخرى من طفولتها وفيها قالت :

" كان لدى معلم لتدريس البيانو ، وذات مرة حاول هذا المعلم تقبيلى ، فتوقفت عن العزف وذهبت لوالدى وأخبرته ، بعد ذلك فقدت الرغبة تمامًا فى تعلم العزف على البيانو ".

مرة أخرى نرى أنها قد دربت نفسها على الاحتفاظ بمسافة كافية بينها وبين جميع الرجال وبالتالي فإن نموها الجنسي كان يتفق مع هدفها في حماية نفسها من الوقوع في الحب فلقد شَعُرت أن الوقوع في الحب هو نوع من الضعف لا يتناسب مع هدفها النهائي في تحقيق " التفوق ".

عليَّ أن أذكر هنا أن الكثير من الأفراد يشعرون بالضعف إذا ما وقعوا في شباك الحب ويجب أن أعترف أيضًا بأنهم على حق في شعورهم هذا ؛ لأن الإنسان إذا كان في حالة حب فإنه يكون حساسًا وعاطفيا كما أن حبنا واهتمامنا بشخص آخر .. يفتح الباب أمام هذا الشخص لإلحاق الأذى بنا إذا ما خطر له أن يفعل هذا ، وكل الأفراد الذين يمنعهم هدفهم في " التفوق " من أن يكونوا ضعفاء أو مكشوفين ومعرضين للأذى من الآخرين يتجنبون الوقوع في شباك الحب ، كما أنهم يتجنبون العلاقات التي تؤدي بهم لأن يكونوا معرضين للأذية من قبل شخص آخر ، إن مثل هؤلاء الأشخاص غير مستعدين لتقبل وجود حب في حياتهم ، وإذا ما اقترب منهم شخص يمكن أن يقعوا في حبه فإنهم يشعرون بالتهديد ، ويكون رد فعلهم هو الضحك والسخرية من هذا الشخص حتى يتخلصون من شعورهم بالضعف.

هذه السيدة شعرت بالضعف أيضًا عندما واجهت مشكلة الحب والزواج ، وبالتالي فإنها تأثرت – أكثر مما يجب – عندما حاول بعض الرجال التقرب منها ولم تر بديلاً عن الهرب وترك الوظيفة.

ولقد تُوفِّيَ والداها بينما كانت لا تزال تعاني من هذه المشاكل ، وبوفاتهم تقلص حجم الحاشية الخاصة بهذه الأميرة ، ولكنها تمكنت من الركون إلى بعض الأقارب في مهمة العناية بها ، ولكن هذا الوضع كان غير كافٍ أو مقنع بالنسبة إليها ؛ لأن هؤلاء الأقارب ملوا مهمة العناية بها ، وتوقفوا عن الاهتمام بشئونها بعد حين ، وعندما شعرت بأنها لا تحصل على الاهتمام الكافي والذي تحتاجه أشد الحاجة ، فإنها وبختهم بعنف وأخبرتهم بمدى خطورة تركها وحيدة ، وكانت هذه هي طريقتها في حماية نفسها من موقف يدعوها إلى الاستقلال بحياتها !!.

أنا مقتنع بأنه إذا ما تركتها عائلتها وأقاربها وتوقفوا عن خدمتها والعناية الدائمة بها فإنها ستصاب بالجنون ، فإن الطريقة الوحيدة التى تتمكن بها من إحراز هدفها فى "التفوق" هو إجبار الآخرين على خدمتها والعناية بها وتجنيبها مواجهة كل مشكلات الحياة ، فكأننا نسمعها وهى تفكر لنفسها قائلة :

" أنا لا أنتمى إلى هذا الكوكب وإنما أنا أميرة من كوكب آخر ، وسكان هذا الكوكب البائس لا يستطيعون فهمى أو معرفة قدرى ومدى أهميتى ".

إنها لا تبعد الآن إلا خطوات قليلة عن الجنون ، ولكن طالما بقى لها القليل من المصادر المالية الخاصة بها وطالما تمكنت من إقناع بعض أقاربها وأصدقائها بتقديم الخدمات لها والعناية بها ، فإنها ستكون فى غير حاجة لقطع هذه الخطوات القليلة التى تفصلها عن الجنون.

دعنا الآن ندرس حالة أخرى توضح لنا وجوه التشابه والاختلاف ما بين " عقدة النقص " و" عقدة التفوق " ، فتاة فى السادسة عشرة من عمرها تعانى من هوس السرقة ، فقد كانت مصابة بداء السرقة منذ سن سبع سنوات ، كما أنها اعتادت على البقاء – إلى ساعة متأخرة من الليل – خارج المنزل منذ بلوغها الثانية عشرة مع أولاد أكبر منها سنا.

كان والداها قد انفصلا بالطلاق عندما كانت فى الثانية من عمرها ، كما أن طلاقهما كان مريراً ، وعندما تم الطلاق انتقلت – هى وأمها – للعيش فى منزل جدتها ، وكانت جدتها تحبها كثيراً فقامت بتدليلها بطريقة زائدة عن الحد ، وحيث إن مولدها حدث فى وقت كان الصراع فيه قد بلغ ذروته بين الأم والأب ، فإن أمها لم ترحب كثيراً بمولدها ، إن الأم لم تكن تحب ابنتها كثيراً ، وكان التوتر يسود العلاقة بينهما دائماً.

وعندما أتت تلك الفتاة لعيادتى فإننى تكلمت معها بطريقة ودية حتى اكتسبت ثقتها ، وعندها قالت لى :

" أنا لا أستمتع بسرقة تلك الأشياء ، كما أننى لا أحب كثيراً الخروج مع الصبيان ولكن على أن أثبت لأمى أنها غير قادرة على التحكم فى ".

وعندها سألتها قائلاً :

" أنتِ تقومين إذن بمثل هذه الأفعال للانتقام من أمك "٠

" نعم ، أعتقد هذا "٠

لقد كانت هذه الفتاة راغبة فى إثبات أنها أقوى من أمها ، ولكنها قامت باختيار هذا الهدف فقط لأنها شعرت بأنها أضعف من أمها ، فلقد أحست هذه الفتاة الصغيرة بمشاعر الأم وعرفت أن أمها لا تحبها فعانت من " عقدة نقص " ، وكانت الطريقة الوحيدة لإثبات تفوقها – التى فكرت فيها هذه الفتاة – هى أن تتسبب فى المتاعب٠

إن الأطفال عندما يرتكبون جرائم مثل السرقة أو النصب والاحتيال أو العنف ضد الآخرين ، فإنهم عادة ما يفعلون هذا بسبب الرغبة فى الانتقام٠

اختفت فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا واستمر اختفاؤها لمدة ثمانية أيام ، وعندما وجدوها أخيرًا فإنهم أحضروها أمام محكمة الأحداث ، وأمام المحكمة أخبرتهم بأن رجلاً مجهولاً قام باختطافها وتقييدها وحبسها فى غرفة لمدة ثمانية أيام ، ولكن أحدًا لم يصدقها ، وعندما حاول أحد الأطباء أن يتحدث معها على انفراد ليقنعها بأن تخبره بحقيقة ما حدث فإن حالة من الغضب الشديد قد انتابتها حتى إنها قامت بصفعه بسبب عدم تصديقه لروايتها٠

و عندما قمت أنا بفحص هذه الفتاة أظهرت اهتمامى الشخصى بها وبصالحها ، كما أننى سألتها عن ما يمكننى القيام به لمساعدتها وسألتها :

" ماذا تريدين أن تصبحى عندما تصلين لمرحلة البلوغ ؟ "٠

واسْتَمْرَرْتُ فى حديثى معها حتى ازدادت ثقة بى وعندها سألتها أن تقص على أحد أحلامها ، فقالت :

" كنت فى نادٍ ليلى وهناك قابلت والدتى ، وعندما رأيت والدى قادمًا من بعيد سألت أمى أن تساعدنى على الاختفاء حتى لا يرانى والدى "٠

كان الخوف تجاه والدها يملؤها فقد كان الشجار دائمًا بينهما ، وكان كثيراً ما يعاقبها .. وحيث إنها كانت تخاف العقاب فإنها عادة ما كانت تلجأ للكذب لتجنب هذا العقاب.

عندما نسمع عن شخص كثير الكذب فإن وراء هذا الكذب أبا - أو أما - شديد القسوة فإنه لا معنى لأن يلجأ شخص ما إلى الكذب إلا إذا كانت الحقيقة تضعه فى موضع الخطر أو تعرضه لعقاب شديد.

من ناحية أخرى فإننا نرى أن تلك الفتاة قد أظهرت بعض الـ " تعاون " مع والدتها. بعدها مباشرة اعترفت لى بأن أحدهم قد أغراها بالذهاب إلى النادى الليلى، وأنها قد أمضت الأيام الثمانية هناك.

كانت الفتاة خائفة من والدها ولكن فى الوقت نفسه فإن أفعالها كانت تنم على أنها قد قامت بها - هذه الأفعال - رغبة فى الانتقام منه ، لقد كانت هذه الفتاة تشعر بأنها مقهورة ومستعبدة وكانت هذه الأفعال تجعلها تشعر بالـ " تفوق " عليه لأنها كانت تشعر عندها بأنها قادرة على إيذائه.

كيف يمكننا أن نساعد الأشخاص الذين ضلوا طريق البحث عن " التفوق " ؟ إن هذا ليس بالأمر الصعب عندما نعرف أن السعى الحثيث لتحقيق " التفوق " هو أمر مشترك بيننا جميعًا ، وأننا إذا وضعنا أنفسنا فى مكانهم فإنه من الممكن أن نتعاطف مع الصراع الذى يعانون منه ، فإن الخطأ الوحيد الذى ارتكبوه فى سعيهم الحثيث نحو "التفوق".. هو أن هذا السعى لا يخدم أى هدف مفيد.

إن هذا السعى الحثيث لتحقيق " التفوق " هو الذى يحفز كل البشر ، وهو المصدر لكل مساهمة نقوم بها لرفعة الحضارة ، إن كل حياتنا كبشر تنشأ من مثل تلك الأفعال من أولها لآخرها ، ومن السالب للموجب ، ومن الهزيمة للنصر ، والأفراد الذين يتمكنون من التحكم الحقيقى فى مشاكل الحياة هم وحدهم الذين يظهرون

– فى سعيهم الحثيث نحو تحقيق " التفوق " – القدرة على المساهمة فى تحسين حياة باقى أفراد المجتمع.

لو أننا عالجنا مثل هؤلاء الأشخاص بهذه الطريقة ، فإننا سنجد أنه من السهل إقناعهم فإن كل ما يعتبره البشر ناجحًا وذو قيمة هو مؤسس فى الأصل على " التعاون " ، هذه هى البديهية الكونية للجنس البشرى ، فإن كل ما نسأله من السلوك والمثاليات والأهداف والأفعال وخصائص الشخصية هو أن تكون كل هذه الأشياء قادرة على خدمة هدف " التعاون " بين البشر.

و لا يوجد شخص محروم تمامًا من الشعور الاجتماعى ، وحتى الأشخاص العصابيون والمجرمون يعرفون هذا ، ونستطيع أن نرى أثر هذه المعرفة فى الألم والجهد والمشقة التى يتحملها فى محاولة لتبرير أسلوب حياته أو فى محاولة إلقاء اللوم على شخص آخر ، فهم قد فقدوا الشجاعة على العيش بطريقة مفيدة للجميع ، وهناك عقدة نقص داخلهم تخبرهم بأن : " النجاح فى التعاون هو أسلوب لن يصلح لك " ، فهم قد تحولوا عن مواجهة مشكلات الحياة الحقيقية ، وانغمسوا فى حرب وهمية .. ليثبتوا لأنفسهم أنهم أقوياء.

إن فى الأسلوب الذى نتخذه لتقسيم العمل مجالاً لمجموعة كبيرة من الأهداف ، وكما رأينا من قبل فإن كل هدف يحمل فى طياته بعض الخطأ ، وإننا إذا أردنا انتقاد أى هدف مهما بلغت مثاليته فإننا سنجد ما يمكننا من القيام بذلك ، ولكن " التعاون " بين البشر يحتاج إلى مختلف أنواع الامتياز ، فإنه إذا بدا لأحد الأطفال أن هدف " التفوق " يتحقق من خلال معرفة الرياضيات .. فإن هذا الهدف يتحقق بالنسبة إلى طفل آخر من خلال معرفة الفنون والرسم ، وبالنسبة لطفل ثالث من خلال القوة البدنية.

إن الأطفال الذين يعانون ضعف الجهاز الهضمى قد يؤمنون بأن المشاكل التى تواجههم تنبع أساسًا من صعوبات فى التغذية ، ولهذا فإن اهتماماتهم قد تتحول فى اتجاه الغذاء ؛ لأن هذا – فى رأيهم – قد يحسن من موقفهم ، ولهذا فإنهم قد يصبحون مهرة فى الطبخ أو خبراء فى التغذية.

فى كل هذه الأهداف الخاصة نستطيع أن نرى أنه قد تم استبعاد بعض الإمكانيات الخاصة بالفرد ، فإن هذا الفرد قد تدرب على تضييق الخناق على نفسه ، ويمكننا أن نفهم مثل هذا السلوك فى بعض الحالات الخاصة ، فعلى سبيل المثال فإن الفلاسفة يجدون من الواجب عليهم أن يبتعدوا بأنفسهم عن المجتمع بين الحين والآخر بغرض التفكير وكتابة الكتب ، وعلى هذا يمكننا القول بأن حجم الخطأ - والموجود فى أى هدف أيا كان - لا يكون عظيمًا إذا ما صاحب هذا الخطأ درجة كبيرة من الاهتمام الاجتماعى.

الفصل الرابع

الذكريات الأولى

مفاتيح الشخصية

إن الصراع من أجل الوصول إلى " التفوق " هو المفتاح لشخصية الفرد ، ونرى دلائل على هذا فى كل مراحل النمو النفسى للفرد ، ونستطيع أن نستخدم هذه الحقيقة فى فهم أسلوب الحياة الخاص بكل فرد على حدة ، ولكنَّ هناك نقطتين علينا أن نتذكرهما دائمًا ، أولاً : نستطيع أن نبدأ من حيثما شئنا ، فإن كل تعبير سوف يقودنا فى نفس الاتجاه نفسه ألا وهو الحافز الرئيسى ، أو الفكرة الأساسية التى بنيت من حولها الشخصية.

ثانيًا : يوجد أمامنا مخزون هائل ومتاح من المواد التى يمكن استخدامها ، فإن كل كلمة وكل فكرة وكل شعور وكل حركة تساهم فى فهمنا لمفاتيح شخصية هذا الفرد ، وأن أى خطأ نرتكبه فى تقدير أى مادة من تلك المواد المتاحة يمكن تصحيحه بالرجوع إلى باقى المواد.

نحن لا نستطيع أن نقرر بصفة نهائية معنى أحد هذه المواد (الجزئيات) ، بل إنه من الواجب علينا أن نرى الدور الذى تقوم به تلك الجزئية ، وكل الجزئيات (المواد) التى تقول الشىء نفسه ، وإذا ما أمعنا النظر فيه فإننا سنجد أنها هى التى توجهنا نحو الحل.

نحن مثل عالم الآثار(١٠٥) الذى يجد شظايا ، وبقايا من أدوات ، وحوائط ، ومبانى ، وآثارًا محطمة ، وأوراقا من البردى ، ومن خلال هذه الشظايا يتمكن من الاستدلال على طبيعة وشكل الحياة فى تلك الفترة البائدة.

و لكننا لا نتعامل مع أشياء بائدة وإنما نتعامل مع آلاف الجزئيات والمواد المرتبطة ببعضها البعض ، والتى تشكل الإنسان وشخصيته.

إن مهمة فهم إنسان ليست بالمهمة السهلة ، وعلم النفس الفردى يعتبر من أصعب فروع علم النفس التى يمكن ممارستها.

فإنه من المفروض علينا أن نصغى للمشكلة برمتها ، وأن نظل حذرين ومتشككين حتى يصبح مفتاح الشخصية واضحًا ، كما أنه من الواجب علينا أن نجمع الكثير من الإشارات والتلميحات التى تأتى بصورة عفوية من الطريقة التى يدخل بها الشخص غرفة ما ومن الطريقة التى يصافح بها الآخرين ومن أسلوبه فى الضحك والابتسام وطريقته فى المشى والكلام.

ربما جانبنا الصواب فى فهم واحدة من تلك النقاط أو الجزئيات ولكن باقى الجزئيات ستقوم بتصحيح فهمنا وتصويب الانطباع الذى نأخذه عن هذا الفرد.

يمكن اعتبار العلاج فى حد ذاته تدريبًا واختبارًا للقدرة على " التعاون " ، إننا يمكن أن ننجح فقط إذا ما كان اهتمامنا بالآخرين حقيقيا ، فيجب أن نطور قدرتنا على الرؤية من خلال عيونهم والسماع باستخدام آذانهم حتى نحصل على مساهمتهم فى تحقيق هذا الفهم المتبادل ، فحتى لو شعرنا أننا تمكنا من فهمهم فإنه لا يوجد دليل على صحة شعورنا هذا حتى لحظة تمكنهم من فهم أنفسهم.

فإن الحقيقة غير المهذبة وغير اللبقة لا يمكن أن تكون كل الحقيقة ؛ لأنها تفضح عدم فهمنا الكافى لتلك الحقيقة.

و لعل الفشل فى فهم هذه العبارة الأخيرة هو السبب فى أن الكثير من مدارس علم النفس طورت مفهوم " التحولات السلبية والإيجابية " ، وهى عوامل لا نصادفها فى العلاج باستخدام علم النفس الفردى.

من الطرق السهلة لكسب تعاطف وحب المرضى التساهل المستمر والتدليل الزائد لمن اعتاد منهم ذلك ، ولكن رغبتهم الدفينة فى السيطرة ستكون مختفية تحت السطح ولو أننا حاولنا الاستخفاف بهم أو تجاهلهم فإننا سنكتسب عداوتهم بسرعة حتى إنهم قد ينقطعون عن مواصلة العلاج ، وحتى إذا استمروا فى مواصلة العلاج فإنهم سيفعلون هذا بغرض تبرير أنفسهم وجعلنا آسفين على الاستخفاف بهم وتجاهلهم.

وعلى هذا فإنه من الواجب علينا أن لا نقوم بأى من التساهل المستمر والتدليل الزائد ، أو الاستخفاف والتجاهل ، ولكن علينا أن نظهر لهم الاهتمام الحقيقى الذى يجب أن يكون متبادلاً بين البشر فإنه لا مثيل لمثل هذا الاهتمام الحقيقى فى تحقيق الغرض.

إنه من الواجب علينا أن نتعاون معهم فى محاولة لاكتشاف أخطائهم ، لأن هذا سوف يحقق الفائدة لهم ، وللآخرين فى الوقت نفسه ، وإذا وضعنا هذا الهدف نصب أعيننا فإننا لن نواجه تلك التحولات السلبية والإيجابية ؛ لأننا لن نتصرف معهم باعتبارهم سلطة لها قدرة على الأمر والنهى ، كما أننا لن نضعهم فى موقف من فقد استقلاله أو أصبح غير مسئول.

من أكثر التعبيرات النفسية دلالة على شخصية الفرد – مفتاح لشخصيته – ذكرياته ، فإن الذكريات هى ما نحمله معنا دائمًا ليذكرنا بمحدودية قدراتنا وبالمعنى الذى نضفيه على الأحداث ، فإنه لا يوجد ما يمكن أن نطلق عليه " ذكريات بالمصادفة " ، فإنه من بين آلاف التعبيرات التى تمر بالفرد يختار أن يتذكر تلك التعبيرات التى تترك انطباعًا عليه وعلى مشاكله – إن مثل هذه الذكريات تمثل قصه حياته – وهى قصة يسترجعونها المرة بعد المرة ، بغرض تشجيع أنفسهم على التركيز فى هدفهم الأساسى ، أو يعدون أنفسهم – عن طريق الخبرات السابقة – لمواجهة المستقبل بطرق مجربة وموثوق بها.

إن استخدام الذكريات تهيئة المزاج الشخصى نحو تحقيق هدفٍ ما يمكن رؤيته، بوضوح فى السلوك اليومى للأفراد ، فلو أن فرداً ما عانى من عقبة ، أدت إلى تخاذله وتثبيط همته فإن مثل هذا الشخص يسترجع فى ذاكرته العقبات السابقة ، ولو كان هذا الفرد يعانى من المنخوليا فإن كل ذكرياته ستكون باعثة على التشاؤم والحزن ، أما إذا كان هذا الفرد مرحًا وسعيداً وشجاعًا فإنه يختار أن يتذكر مجموعة مختلفة من الذكريات ستكون كلها تتسم بالتفاؤل والسعادة ، بالطريقة نفسها فإنه إذا ما واجه مشكلة ما فإنه سيستدعى ذكريات تساعده على تشكيل الموقف الذى سيواجه به تلك المشكلة.

ومن كل هذا نرى أن الذكريات تخدم الغرض نفسه الذى تخدمه الأحلام ، فإنه عندما يكون على البعض اتخاذ قرارٍ ما فإن الكثير منهم يحلمون بأحد الامتحانات التى تمكنوا من اجتيازها بنجاح ، فهم هنا يَرْون أن القرار ما هو إلا امتحان ، ولهذا فهم يحاولون إعادة خلق الجو السابق والذى تمكنوا فيه من اجتياز الامتحان بنجاح.

و هناك تشابه فيما بين الأجواء المختلفة فى أسلوب حياة الفرد ، وبين توازن الأجواء فالأشخاص الذين يعانون من المناخوليا ..Melancholia لن يتمكنوا من الاحتفاظ بمرضهم هذا لو أنهم قاموا باستدعاء واسترجاع ذكريات سعيدة وناجحة فى حياتهم ، فهم كمن يقول لنفسه :

" لقد كنت أعانى من سوء الحظ طوال حياتى ".

وعلى هذا فإنهم يختارون أحداثًا معينة يمكن فهمها على أنها سوء حظ.

الذكريات الأولى وعلاقتها بأسلوب الحياة

إن الذكريات لا يمكن أن تكون معاكسة لأسلوب حياة الفرد ، بل لابد لها من أن تتفق معه اتفاقًا تاما ، فلو أن هدف " التفوق " كان يتطلب من فردٍ ما أن يشعر

بأن الجميع يحاولون الاستخفاف به وإذلاله فإنه سيختار أن يتذكر تلك الأحداث التي يمكن فهمها على أنها محاولات للاستخفاف به وإذلاله ، وعندما يتغير أسلوب حياته فإن ذكرياته سوف تتغير أيضًا ، وسيتذكر أحداثًا مختلفة ، أو على الأقل فإنه سيتفهم تلك الأحداث بطريقة مختلفة.

ومن هنا جاءت الأهمية القصوى لمعرفة ماهية الذكريات الأولى ، فالذكريات الأولى توضح الأصل الذى خرج منه أسلوب حياة الفرد فى أبسط صوره ، ويمكننا الحكم – من خلال تلك الذكريات الأولى – على طفولة ذلك الفرد ، وعلى ما إذا كان هذا الطفل قد تعرض لتدليل زائد أو إهمال وما مدى تدريب ذلك الطفل على " التعاون " مع الآخرين ؟ ومن مجموعة الأفراد التى يفضل الطفل " التعاون " معها ؟ وما المشكلات التى واجهته ؟ وكيف استطاع التغلب عليها.

إذا فحصنا الذكريات الأولى للأطفال الذين يعانون من ضعف البصر الذين دربوا أنفسهم على تفحص الأشياء التى حولهم بدقة ، فإننا سنجد أن معظم انطباعاتهم عن الحياة لها جانب بصرى ، وستكون لهم ذكريات أولى مثل :

" أخذت أنظر من حولى ... ".

أو سيصفون ألوانًا وأشكالاً مختلفة ، وبالمثل فإن الأطفال الذين يعانون من إعاقة جسدية سيعبرون عن رغبتهم فى المشى والجرى والقفز فى ذكرياتهم الأولى.

من هذا نرى أن الأحداث التى يتذكرها الفرد عن طفولته قريبة جدا من الاهتمام الرئيسى للفرد ، ولهذا فإنها ستمكننا من الاقتراب من معرفة اهتمامه الرئيسى ؛ وإذا ما عرفنا الاهتمام الرئيسى للفرد فإننا سنعرف هدفه الرئيسى وأسلوب حياته الشخصية .

و هذا ما يجعل الذكريات الأولى ذات أهمية خاصة فى إرشاد الأفراد إلى الوظيفة المناسبة لهم ، كما أن الذكريات الأولى توضح لنا طبيعة العلاقة بين الطفل وأمه وأبيه وباقى أعضاء العائلة.

وعلينا أن نذكر هنا حقيقة غريبة ألا وهى أنه من غير المهم ما إذا كانت هذه الذكريات دقيقة أم لا أو حتى ما إذا كانت تحتوى على أى قدر من الحقيقة ، فالشيء المهم هو أنها تمثل حكم الفرد ورأيه فى هذه الذكريات ، فعندما يقول الفرد :

" عندما كنت طفلاً كنت أتصرف بهذه الطريقة أو تلك ، وكنت أرى العالم بتلك الطريقة .. ".

و لعل أكثر الأجزاء دلالة هو البداية التى يبدأ الأطفال بها قصتهم فإن أول الأحداث التى يستطيعون تذكرها ذات دلالة خاصة ؛ لأنها توضح وجهة نظر الفرد الأساسية فى الحياة وأول تعبير مقبول عن موقفه منها ، وفى لمح البصر نستطيع أن نرى ما يَعُدُّه هذا الفرد نقطة بداية لنموه وتطوره ، ولهذا فإننى لم أعالج قط أى فرد دون أن أتحقق وأعرف ما يَعَدُّه هو أولى ذكرياته.

فى بعض الحالات فإن المريض لا يجيب على هذا التساؤل ، أو يدعى أنه لا يعرف أى الأحداث جاء أولاً ، ولكن مثل هذه المحاولات – فى حد ذاتها – لها دلالاتها القوية فهى تظهر رغبة الفرد الشديدة فى إخفاء الأساسيات التى بنى عليها فلسفته فى الحياة ، وأنه غير مستعد لـ " التعاون ".

وعلى وجه العموم فإنه يمكن القول بأن معظم الأشخاص مستعدون لمناقشة الذكرى الأولى ، بل إنهم يتعاملون معها على أنها مجرد ذكرى ، ولا يتمكنون من رؤية المعنى الخفى الكامن فى مثل تلك الذكرى ، وهذا طبيعى فمن النادر أن يتمكن أى شخص من فهم الذكرى الأولى ، ولهذا فإن الكثير منهم يعبرون عن غرضهم وهدفهم فى الحياة وعلاقاتهم بالآخرين ونظرتهم للبيئة المحيطة بهم بطريقة محايدة وطبيعية.

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الذكريات الأولى بما تتميز به من بساطة واختصار تسمح لنا بإجراء تحقيقات جماعية ، مثلاً يمكننا أن نسأل جميع طلبة أحد الفصول أن يكتبوا ما يَعُدُّونه أولى ذكرياتهم ، وبهذا نتمكن من الحصول على صورة مفيدة جدا لكل طفل.

تحليل الذكرى الأولى

سنقوم فيما يلي بذكر ما يَعُدُّه فرد ما أولى ذكرياته ، وسنحاول أن نتفهم معنى هذه الذكرى الأولى ، وأقرر هنا أنني لا أعرف أي شيء عن هؤلاء الأفراد بخلاف الذكريات التي أخبروني بها ، ومن هذا فإنه علينا أن نتأكد من صحة المعنى الذي نجده في هذه الذكريات الأولى عن طريق مقارنته بالانطباعات الأخرى الخاصة بشخصيتهم ، كما أننا نستطيع أن نتقبل المعنى على ما هو عليه ونقوم باستنتاج الباقي ، وعندها سنكتشف ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي ، وسنصبح قادرين على المقارنة بين الذكريات المختلفة ، وأهم من كل ما سبق فإننا سنصبح قادرين على رؤية ما إذا كان هذا الفرد يتحرك نحو " التعاون " أو بعيدا عنه ؟ هل هو جريء أو خجول ؟ هل يرغب في أن يعوله ويرعاه الآخرون ؟ أم أنه يريد الاعتماد على نفسه والاستقلال بذاته ؟ وأخيراً هل هذا الفرد مستعد لأن يعطي ويساهم ؟ أو أنه مستعد فقط لأن يأخذ من الآخرين وبلا مقابل ؟ .

الحالة الأولى :-

" حيث إنني كنت أنا وأختي ... ".

من المهم هنا أن نلاحظ من الأشخاص الذين يقومون ببطولة الأحداث في الذكرى الأولى لفرد ما ؟ فعندما يكون هناك أخت فإنه يمكننا استنتاج أن هذا الفرد كان يشعر بوطأة نفوذ تلك الأخت ، فإن الأخت قد ألقت بظلالها على أطوار نمو هذا الفرد ، وأن هناك صراعًا وتنافسًا أخويًا بينهما ، وهو ما سبب صعوبة وعقبة إضافية في طريق نمو وتطور هذا الطفل.

إن الأطفال لا يستطيعون أن يسمحوا لاهتمامهم الاجتماعي بالنمو إذا كانوا مشغولين بالصرا ع والتنافس مع إخوتهم.

ولكن دعنا نفحص الأمر بدقة أكثر فربما كانت العلاقة بينهما علاقة صداقة وتعاون .

" حيث إننى كنت أنا وأختى أصغر أعضاء العائلة ، فإنه لم يكن مسموحًا لى بالذهاب إلى المدرسة حتى تبلغ هى سن الذهاب للمدرسة ".

إن الصراع والتنافس الأخوى قد ظهر بوضوح الآن ، فهى كمن يقول :

" أختى منعتنى من التقدم !! ... لقد كنت أكبر منها ، ولكنهم أجبرونى على الانتظار حتى تصبح هى فى سن ملائمة ، لقد أعاق وجود أختى الصغيرة فرصى فى التقدم ".

لو كان هذا هو المعنى الحقيقى لمثل تلك الذكرى فإننا نستطيع أن نستنتج أن مشاعر هذا الفرد - سواء كان ذكرًا أو أنثى - نحو أخته الصغيرة هى :

" إن أخطر ما يواجهنى فى حياتى هو أن يحاول أحدهم أن يعوق ويقيد ويمنع تطورى ونموى ".

إن من يشعر بمثل تلك المشاعر هو فى الأغلب الأعم فتاة ؛ لأنه من غير المرجح أن يمنع الوالدان فتى من الذهاب للمدرسة حتى تصل أخته الصغرى إلى سن الدراسة.

" وبالتالى فقد بدأنا الدراسة معًا فى اليوم نفسه ... ".

نحن لا نعد هذا أحسن أسلوب لتنشئة فتاة فى مثل وضعها فإن إتباع مثل هذا الأسلوب قد يعطيها الانطباع أنه عليها أن تتقبل التخلف والانتظار لأنها الأكبر سنا ، وعلى أية حال فإن هذا هو ما فهمته هذه الفتاة ، فهى تشعر أنها قد أهملت وتم تجاهلها لتحقيق مصلحة الأخت الصغرى ، وهى تحاول الآن أن تجد من تلومه على هذا الإهمال والتجاهل ، وعلى الأرجح فإنها ستجد أن اللوم يقع على عاتق والدتها ، ولهذا فإنها - غالبًا - ستميل تجاه والدها وستحاول جهدها أن تصبح أثيرة ومفضلة لديه.

" ... أنا أتذكر بوضوح أن ماما أخبرت الجميع أنها شعرت بالوحدة الشديدة عندما ذهبت أنا وأختى للمدرسة لأول مرة ، حتى إنها قالت إنها قد ذهبت للبوابة عدة

مرات بحثًا عنا ، وأن مدة غيابنا بدت لها طويلة جدا حتى إن الخوف قد هَيَّأ لها أنها لن ترانا مجدداً "٠

إن هذا الوصف لسلوك الأم يظهرها على أنها تتصرف بطريقة غير ذكية على الإطلاق ولكن هذا هو ما تخيلت فتاتنا أنه شعور والدتها:

" ... وأن مدة غيابنا بدت لها طويلة جدا حتى أن الخوف قد هَيَّأ لها أنها لن ترانا مجدداً ..".٠

فمن الواضح أن الأم كانت عاطفية جداً ، وأن بناتها كنَّ على علم بحبها الشديد لهن ، ولكنه يمكن القول بأن الأم كانت قلقة وعصبية ، ولو تمكنا من الحديث مع هذه الفتاة فأنا واثق من أنها ستخبرنا الكثير عن تفضيل الأم للأخت الصغرى٠

إن تفضيل الأم للأخت الصغرى هو أمر طبيعي وشائع ، فإن الطفل الأصغر يكون دائمًا محل تدليل زائد وتفضيل عن الأطفال الأكبر منه سنا ٠

ويمكننى استنتاج أن الأخت الكبرى كانت تشعر بأنه قد تمت إعاقة تقدمها بسبب وجود أختها الصغرى ، وفى المستقبل نستطيع أن نتوقع رؤية الكثير من العلامات التى تدل على الغيرة والخوف من المنافسة ، ويجب ألا نستغرب إذا ما وجدناها تكره النساء اللاَّتى هن أصغر منها سنا ، إن بعض الناس يشعرون بالشيخوخة طوال حياتهم وأيّاً كانت المرحلة العمرية التى يمرون بها ، والكثير من النساء الغيورات يشعرن بأنهن أقل قيمة من النساء الأصغر سنا ٠

الحالة الثانية :-

" إن أول ما أذكره هو ... جنازة جدى ، كنت فى الثالثة من عمرى ... "٠

إن من قالت هذا لابد وأن تكون ... فتاة ، إن الموت قد ترك أثراً قويا فى نفسها فما الذى يعنيه هذا ؟

لقد أصبح الموت – من وجهة نظرها – يمثل التهديد الأكبر فى حياتها . إنه أعظم الأخطار التى تهدد بزعزعة حياتها الآمنة ، إن الأحداث التى مرت بها خلال مرحلة طفولتها جعلتها تستنتج المعنى الآتى :

" إن الأجداد معرضون للموت والفناء ".

ونستطيع أن نستنتج أنها كانت المفضلة والأثيرة عند جدها وأنه قام بتدليلها ، إن الجد غالبًا ما يقوم بتدليل أحفاده بطريقة مبالغ فيها ؛ لأن الجد – فى هذه المرحلة من حياته – لا يتحمل مسئولية رعاية أحفاده مما يعطيه الفرصة لتدليلهم ، كما أنه يرغب فى أن يتعلق الأطفال به ليثبت أنه مازال قادرًا على اكتساب الحب ، إن حضارتنا لا تجعل من السهل على الأشخاص الأكبر سنا الإحساس بقيمتهم وأهميتهم فى المجتمع ، ولهذا فإنهم كثيراً ما يبحثون عن أسهل الطرق لتأكيد قيمتهم وأهميتهم حتى من خلال الشجار مع كل من حولهم ، فى هذه الحالة نحن نميل إلى وجهة النظر التى تقول إن الجد كان يقوم بتدليل هذه الفتاة بطريقة مبالغ فيها ، وأن هذا التدليل الزائد هو الذى جعله يترك هذا الأثر العميق فى ذاكرتها ، وعندما مات كان موته ضربة مؤلمة لها فإنه قد تم نزع خادم وحليف قوى منها بصفة دائمة.

" أنا أتذكر بوضوح رؤيته – جدها – ملفوفًا فى أكفانه ، كان يرقد بلا حراك وقد بدا على وجهه شحوب الموتى ".

أنا أعتقد أنه كان من الواجب عدم السماح لطفلة فى الثالثة من عمرها برؤية شخص ميت خاصة أنه لم يتم إعدادها لمثل هذا الحدث ، فإنه كثيراً ما حدثنى الأطفال عن الانطباع والأثر العميق الذى تركته رؤية شخص ميت فى نفوسهم الغضة وأنهم لم يستطيعوا قط نسيان مثل تلك الواقعة ، إن فتاتنا لم تستطع نسيان جثمان جدها المسجى ، إن أمثال هؤلاء الأطفال يسعون للتغلب على التهديد الذى يمثله الموت ، ولهذا فإن طموحهم غالبًا ما يقودهم لأن يعملوا بالطب ، فهم يشعرون أن الطبيب مؤهل بصورة أفضل لمواجهة المرض والموت ، ولو أننا سألنا طبيبًا عن الذكرى الأولى فى حياته فإنها غالبًا ما ستكون ذكرى موت أحد المقربين إليه.

"... كان يرقد بلا حراك وقد بدا على وجهه شحوب الموتى ".

و هى ذكرى لشىء رأته بعينيها ولم تستطع أن تمحو هذه الذكرى من عقلها ، ويمكننا أن نقول إن هذه الفتاة من النوع البصرى وأنها تستكشف العالم المحيط بها باستخدام عينيها على وجه الخصوص.

" فى المدافن ، وبعد أن تم إنزال التابوت ، مازلت أستطيع أن أتذكر تلك الأحزمة وهى تسحب من تحت الصندوق ... ".

ومرة أخرى نجدها تصف ما رأته عيناها وهذا يؤكد صحة استنتاجنا بأنها من النوع البصرى.

" إن هذه التجربة قد ملأتنى بالخوف من مجرد ذكر أى شخص ذهب إلى العالم الآخر سواء كان قريبًا أو مجرد صديق ".

مرة أخرى نستطيع أن نرى الأثر العميق الذى خلفه الموت عليها ، لو تمكنت من الحديث معها فإننى سأسألها :

" ما المهنة التى تفضلين العمل بها عندما تصلين لمرحلة البلوغ ؟ ".

وغالبًا ما ستكون الإجابة :

" مهنة الطب ".

أما إذا رفضت الإجابة عن سؤالى أو تجنبت الرد فإننى كنت سأقترح عليها مهنة الطب أو التمريض ، وعندما ذكرت " الذهاب إلى العالم الآخر " فإننا نستطيع أن نرى نوعًا من التعويض عن الخوف من الموت.

إن ما تعلمناه من ذكرياتها هو أن جدها كان صديقًا حميمًا لها ، وأنها من النوع البصرى ، وأن الموت يلعب دورًا عظيمًا فى طريقة تفكيرها ، وأن تعريفها لـ "معنى الحياة" هو :

" الموت مفروض وحتمى علينا جميعًا "٠

ورغم أن هذا صحيح بلا شك فإننا لا نكون مشغولين بهذه الفكرة دائمًا ، ولا ندع فكرة الموت تسيطر علينا طوال الوقت٠

الحالة الثالثة :-

" عندما كنت فى الثالثة من عمرى ، فإن والدى .. "٠

من البداية نستطيع أن نرى أن ذكرى والدها تظهر أولاً ، ومن هذا نستطيع أن نفترض أن هذه الفتاة كانت تهتم بوالدها أكثر من والدتها ، ونحن نعلم أن الاهتمام بالوالد هو المرحلة الثانية من مراحل النمو دائمًا ، ففى المرحلة الأولى يكون الطفل مهتما بوالدته بسبب " التعاون " الوثيق بين الأم والطفل خلال العامين الأولين من حياة الطفل ، فالطفل فى حاجة دائمة لأمه ولهذا فإنه يلتصق بها بكل كيانه ، لو أن الطفل تحول بكيانه نحو الأب فإن هذا يعنى أن الطفل غير سعيد أو مكتفٍ بوضعه مع الأم ، ويكون هذا نتيجة لميلاد طفل جديد عادة٠

" لقد اشترى والدى اثنين من حيوانات حصان السيسى لنا "٠

من هذا يتضح أن هناك أكثر من طفل فى هذه العائلة ، ونحن نريد أن نعرف كل ما نستطيع معرفته عن الطفل أو الأطفال الآخرين٠

" لقد قاد والدى السيسى بلجامه إلى داخل المنزل ، وأختى التى تكبرنى بثلاثة أعوام ... "٠

لا بد وأن نعدل من استنتاجاتنا ، فإن الطفل الجديد أكبر من وليس أصغر من فتاتنا وهى الأخت الكبرى لبطلة هذه المشكلة ، ولعل السبب فى هذا أن الأخت الكبرى كانت مفضلة أكثر من الصغرى عند الأم ، وهو ما دفع الأخت الصغرى لذكر والدها وحيوانات السيسى أولاً وقبل أن تذكر الأخت الكبرى أو الأم٠

" لقد أخذت أختى بزمام اللجام الخاص بالسيسى وقادته بطول الشارع المطل على منزلنا ".

إن هذا يعد نصراً للأخت الكبرى ، فهى كمن يقول إن هذا الحصان الصغير هو لى ولى وحدى فقط.

" حاول حصانى الصغير اللحاق بحصان أختى وبدأ يجرى بسرعة ".

إن هذا ما يحدث عندما تتولى أختها الكبرى القيادة.

" سحبنى حصانى بسرعة فسقط على وجهى وتمرغت فى التراب ".

نهاية مهينة لتجربة كان من المتوقع لها أن تتسبب فى الفخر والسعادة وليس العكس ، إن الأخت الكبرى قد انتصرت ، وأحرزت نقطة غالية فى الصراع الدائر بين الأختين ، نحن متأكدون الآن أن بطلة مشكلتنا - الأخت الصغرى - تحاول أن تقول :

" إذا لم أكن أكثر حرصًا فإن أختى الكبرى ستنتصر على دائمًا ، وستمرغ وجهى فى التراب ، وإن الطريقة الوحيدة لتحقيق الأمن هى أن أكون أنا أولاً وفى مركز القيادة ".

نحن نعرف أن الأخت الكبرى قد انتصرت من قبل بأن نجحت فى جذب الأم إلى جانبها وأن هذا هو السبب فى تحول الأخت الصغرى نحو الأب.

" بالرغم من أننى قد أصبحت أحسن من أختى الكبرى فى ركوب الخيل فإننى لا أستطيع أن أنسى تلك التجربة المهينة أبدًا ".

لقد تأكدت - الآن - جميع شكوكنا ، فنحن نستطيع أن نرى آثار السباق الحامى الوطيس بين الأختين ، فإن الأخت الصغرى قد شعرت بألم الهزيمة وهى كمن يقول :

" أنا متخلفة دائمًا عنها ، وعلىَّ أن أحاول التقدم عليها ، بل إنه على أن أتقدم وأسبق الجميع ".

إنها من النوع الذى سبق أن وصفته ، وهو نوع شائع من بين من يحتلون المرتبة الثانية أو الأخيرة بين إخوتهم ، فمثل هؤلاء الأطفال لديهم أخ أو أخت أكبر منهم يحدد حجم الخطوة التى يجب اتخاذها - قدوة - ونوعها ، وهذا يجعلهم دائمًا راغبين فى الاستيلاء على القيادة من الأخ الأكبر ومتشوقين لأن يأخذوا بزمام الأمور بأى طريقة ، إن ذكريات بطلة قصتنا تؤكد موقفها فهى كمن يقول :

" أنا أشعر بأنى مهددة إذا ما حاول أحدهم أن يتفوق علىَّ ، ولهذا فإنه من الواجب على أن أظل فى المقدمة دائمًا ".

الحالة الرابعة :-

" إن أول ما أستطيع أن أتذكره هو تلك الحفلات والاجتماعات التى اعتادت أختى الكبرى أن تأخذنى إليها ، لقد كانت أختى الكبرى فى الثامنة عشرة من عمرها عند ولادتى ".

فى هذه الحالة فإن فتاتنا تتذكر نفسها على أنها جزء من المجتمع ، مما يسمح لنا بأن نتوقع أن تكون على درجة عالية من "التعاون" عنها فى الحالات الثلاث السابقة ، إن أختها الكبرى كانت تتصرف كما لو كانت والدتها - بسبب فارق السن بينهما - ولعلها كانت تدللها بصورة مبالغ فيها ، ولكن يبدو أنها قد نجحت فى توسيع الاهتمامات الاجتماعية للطفلة بطلة قصتنا بطريقة ذكية جدا.

" حتى لحظة مولدى كانت أختى الكبرى هى الفتاة الوحيدة فى العائلة المكونة من أربعة صبيان ، ولهذا فإن سعادتها كانت بالغة بمولدى ".

إن هذا ليس من الأمور الجيدة .. كما قد يظن البعض ، فعندما يتباهى أحدهم - الأخت الكبرى - كثيراً بطفل صغير فإن هذا الطفل يصبح أنانيا ومهتما بنفسه فقط ، ويصبح اهتمام هذا الطفل منحصراً فى الحصول على تقدير المجتمع لمجرد وجوده ، وليس للمساهمات التى يستطيع أن يقدمها للمجتمع.

" ... ولهذا فإنها قد اصطحبتنى معها فى كل مكان وأنا فى سن صغيرة جدا ، والشىء الوحيد الذى أستطيع أن أتذكره عن هذه الحفلات والاجتماعات هو أن الجميع كانوا يحاولون تشجيعى على أن أقول أى شىءٍ مثل النطق باسمى كاملاً ، وما شابه ذلك "٠

إن هذا من أكثر الأساليب التعليمية بعداً عن الصواب ، حتى إنها تؤدى فى كثير من الحالات إلى اللجلجة وغيرها من الصعوبات الخاصة بالكلام ، عندما يتلجلج الأطفال فإن هذا يكون بسبب الأهمية القصوى التى وضعها البالغون على ضرورة أن يتحدث الأطفال فى سن صغيرة ، فإنه بدلاً من التواصل مع الآخرين بطريقة طبيعية وبدون ضغوط فإنه تم تعليمهم بأن يكونوا على وعى بأنفسهم وأن يبحثوا ، بل وأن يطلبوا التقدير من الآخرين٠

" كما أننى أتذكر أننى عندما كنت ألزم الصمت خلال إحدى هذه الحفلات فإننى كنت أتعرض لكثير من النقد واللوم عندما نعود إلى منزلنا ، ولهذا فإننى أصبحت أكره الخروج ومقابلة الناس "٠

من الواجب علينا الآن أن نعيد تقييم فهمنا لذكريات هذه الفتاة ، فنحن نستطيع أن نرى الآن المعنى الخفى وراء تلك الذكريات ، فهى كمن تقول :

" لقد تم جمعى مع الكثير من الناس ، ولكننى وجدت أننى أكون غير سعيدة فى مثل تلك الاجتماعات ، وبسبب مثل تلك التجارب فقد أصبحت أكره هذه الطريقة فى " التعاون " وبدأت أفضل العزلة "٠

ولهذا فمن المتوقع أن نجد أن مثل هذه الفتاة لا تحب مقابلة الناس والاجتماع بهم حتى الآن ، لأنها تؤمن بأن الجميع يتوقع منها أن تتكلم طوال الوقت وأن تكون ذات أحاديث جذابة لافتة للأنظار ، لقد تم دفعها بعيداً عن الشعور بالمساواة والراحة بين زملائها البشر٠

الحالة الخامسة :-

" إن أهم أحداث طفولتى - عندما كنت فى الرابعة من عمرى - هو مجىء والدة جدتى فى زياره لنا ... "٠

لقد سبق أن لاحظنا أن الجدة عادة ما تقوم بتدليل أحفادها بطريقة مبالغ فيها ، ولكنه لم يسبق لنا بعد أن رأينا الطريقة التى تتعامل بها والدة الجدة مع الأحفاد٠

" عندما كانت والدة جدتى فى زيارة لنا قمنا بأخذ صورة جماعية للأجيال الأربعة الموجودة فى منزلنا "٠

إن هذه الفتاة مهتمة بشجرة عائلتها ؛ لأنها تتذكر بوضوح الزيارة التى قامت بها والدة الجدة والصورة التى تم أخذها لجميع أفراد العائلة ، ومن هذا يمكننا استنتاج أنها كانت شديدة الارتباط بعائلتها ، وإذا كنا على صواب فإننا سوف نكتشف أن قدرتها على "التعاون" لا تخرج خارج حدود عائلتها٠

" ... أتذكر بوضوح ذهابنا إلى البلدة المجاورة ، وهناك غيرت الثوب الذى كنت أرتديه ولبست ثوبًا أبيض مطرزًا ، وعندما وصلنا إلى محل المصوراتى .. "٠

أنا أعتقد الآن أن هذه الفتاة من النوع البصرى٠

-" تم أخذ صورة لى أنا وأخى الصغير أولاً قبل أن يتم التقاط الصورة الجماعية لنا جميعًا "٠

مرة أخرى نرى اهتمامها بالعائلة ، فأخوها جزء لا يتجزأ من هذه العائلة وهناك احتمال قوى فى أننا سوف نسمع الكثير عن العلاقة بينها وبينه٠

" لقد تم وضع أخى بجانبى على ذراع المقعد ، ووضعوا كرة حمراء بين يديه "٠

نرى الآن الهدف الحقيقى والرئيسى لهذه الفتاة ، فهى تقول إن أخاها مفضل عليها ويمكننا استنتاج أنها كانت غير سعيدة بمولد أخيها الصغير ؛ لأنه احتل موضع أصغر أفراد العائلة وأكثرهم تمتعًا بالتدليل الذى كان ملكًا لها حتى مولده ٠

" لقد قالوا لنا.. إن علينا أن نبتسم !!!".

إن ما تعنيه هو أنهم حاولوا إجبارها على الابتسام ، ولكنها كانت غير راغبة فيه ، لأنها كانت غير سعيدة ؛ فقد وضعوا أخاها فى أفضل مكان - مكان أعلى من مكانها - ووضعوا بين يديه كرة حمراء لامعة جعلته مميزًا عنها ، أما هى فلم يعطوها أى شىء .

" وعندما بدأنا فى أخذ الصورة الجماعية ، حاول الجميع أن يظهروا بأحسن مظهر ممكن إلا أنا ، كما أنى رفضت الابتسام ".

إنها فى طور الهجوم على عائلتها ؛ لأن هذه العائلة لم تعاملها بالطريقة التى تستحق أن تعامل بها ، فى هذه الذكرى الأولى تمكنت بطلة هذه الذكريات من أن تخبرنا بالطريقة السيئة - من وجهة نظرها - التى عوملت بها من قبل أسرتها.

" لقد ابتسم أخى ابتسامة واسعة عندما طلبوا منه ذلك ، مما جعله يبدو شديد الجاذبية حتى يومنا هذا ، فأنا أكره أن يتم أخذ صورتى ".

إن مثل تلك الذكريات تعطينا فكرة واضحة عن الطريقة التى يتعامل بها معظم الناس مع الحياة ، فنحن نتخذ من انطباع واحد ذريعة لتبرير الكثير من أفعالنا ، فنحن نستنتج منه ونبنى عليه ونتصرف كما لو كانت أفعالنا حقائق لا جدال فيها.

من الواضح أنها عانت من وقت تعيس خلال فترة أخذ الصورة وقبلها ، ولهذا فهى مازالت تكره أن يقوم أحدهم بأخذ صورتها ، وعمومًا فإننا نجد أن أى شخص يكره فعلاً من الأفعال فإنه يحاول تبرير هذه الكراهية عن طريق اختيار حدث من الخبرات التى مرت بهم فى الماضى وتحميل هذا الحدث وزر تلكَ الكراهية.

إن هذه الذكرى الأولى قد أعطتنا دليليْن رَئيسيَّيْن على شخصية من كتب تلك الذكريات ، الدليل الأول : إنها من النوع البصرى .

الدليل الثانى : إنها شديدة الارتباط بعائلتها، والفعل الوحيد المتضمن فى الذكرى الأولى يقع فى دائرة العائلة ، ومن المحتمل أنها فشلت فى التأقلم مع الحياة الاجتماعية وهذا هو الدليل الأهم على شخصية كاتبة الذكريات.

الحالة السادسة :-

" إن أول ما أستطيع أن أتذكره - عندما كنت فى الثالثة والنصف من عمرى - هو تلك الفتاة التى كانت تعمل عند والدى ، لقد أخذتنا هذه الفتاة أنا وابنة خالى إلى قبو الخمور وأعطتنا القليل من عصير التفاح المتخمر . لقد أُعجبنا بمذاق هذا العصير كثيراً ".

لعلها تعتبر تجربة فريدة أن نكتشف أن أحدهم يملك قبواً للخمور يحتوى على عصير التفاح ، إن هذا يعتبر تجربة استكشافية لإشباع الفضول ، ويمكننا أن نستنتج أن :

هذه الفتاة تستمتع بالتجارب الجديدة ، وهى تملك القدر الكافى من الشجاعة فى التعامل مع أحداث الحياة ، ومن ناحية أخرى فإنها قد تعنى أن هناك فى الحياة بعض الناس الذين يملكون إرادة أقوى من المعتاد وأن هذا البعض يستطيع أن يضللنا ويقودنا بعيداً عن الطريق السوى.

و على أى حال فإن بقية الذكريات ستدلنا على ما تعنيه هذه الفتاة.

" بعد قليل قررنا أن نحصل على المزيد من هذا العصير اللذيذ ، وبالفعل بدأنا فى الشرب مرة أخرى ".

من الواضح الآن أننا نتعامل مع فتاة شجاعة ترغب فى الاستقلال والاعتماد على نفسها.

" بعد فترة وجيزة شعرت بتخاذل فى ركبتى ، وقد أصبح قبو الخمور بأكمله مبللاً ؛ لأن العصير قد انسكب منا على الأرض ".

ها نحن نرى أحد دعاة المنع والتحريم فى مراحل نشأته الأولى.

" أنا لا أستطيع أن أحدد ما إذا كان لتلكَ الحادثة دخل فى كراهيتى لعصير التفاح وغيره من المشروبات المسكرة ".

مرة أخرى نرى تأثير حادثة واحدة صغيرة على تشكيل موقفنا من الحياة ، لو أننا نظرنا – إلى تلك الحادثة الصغيرة – نظرة موضوعية فإننا سنجد أنها غير مهمة بالقدر الكافى ؛ لأن يتخذ شخصًا ما مثل هذا الموقف ، ولكن فتاتنا عَدَّتها سببًا كافيًا لكراهية المشروبات المُسكِرة ، وربما اكتشفنا أنها من ذلك النوع الذى يستطيع أن يتعلم من أخطائه ، أيضًا هى من النوع المستقل الذى يحب أن يصحح نفسه بنفسه إذا ما وقع فى خطأ.

وهذه الميزة تستطيع أن تصف حياتها كلها ، فهى كمن يقول :

" نعم ربما أرتكب بعض الأخطاء بين الحين والآخر ، ولكن عندما أكتشف أن ما قمت به هو أمر غير سليم فإننى أصحح نفسى بنفسى ".

لو أن استنتاجنا سليم فإن هذه الفتاة ستكون ذات شخصية جيدة جدا تتصف بالنشاط والفاعلية والشجاعة فى سعيها نحو تحقيق أهدافها ، كما أنها ستكون دائمًا مستعدة لتحسين نفسها ووضعها فى المجتمع ، ستكون حياتها مفيدة ومثمرة لنفسها وللآخرين.

فى جميع الأمثلة السابقة كنا ندرب أنفسنا على فن الاستنتاج والتخمين بطريقة ذكية ، ولكن قبل أن نستطيع التأكد من صحة استنتاجاتنا فإنه علينا أن نفحص الخواص الأخرى الكثيرة لشخصية الفرد محل البحث ، دعنا الآن نفحص بعض الحالات التى يظهر فيها بوضوح " الترابط " بين تعبيرات الشخصية.

الحالة الأولى :

رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره أتى لى وهو يعانى حالة شديدة من القلق العصابى كان يشعر بالقلق عندما يبتعد عن منزله ، وبين الحين والآخر كان يجبر على

شغل إحدى الوظائف ، ولكن ما إن يصل إلى عمله حتى يبدأ فى الشكوى والبكاء طوال اليوم ولا يتوقف إلا عندما يعود مرة أخرى إلى منزله ليلاً ، فقد كان لا يزال يعيش مع والدته ، وعندما سأل عن أول ما يستطيع أن يتذكره من أحداث طفولته فإنه أجاب قائلاً :

" عندما كنت فى الرابعة من عمرى كنت أجلس بالقرب من النافذة أراقب باهتمام حركة المرور فى الشارع والناس وهم يعملون ".

إنه يرغب فى مشاهدة الآخرين وهم يعملون ، أما هو فإنه يريد أن يجلس بجوار النافذة ، ويكتفى بمراقبتهم ، لو أننا أردنا معالجته وتغيير أحواله فإننا لن نستطيع فعل هذا إلا عن طريق تحريره من الاعتقاد المسيطر عليه بأنه غير قادر على " التعاون " مع الآخرين فى مجال العمل.

حتى الآن كان يعتقد أن الطريقة الوحيدة للعيش هى عن طريق الاعتماد على الآخرين فى حل مشكلات الحياة التى تواجهه ، ولهذا فعلينا أن نعمل على تغيير نظرته للحياة ؛ لأن التوبيخ فى مثل هذه الحالات لا ينفع ، كما أن الأدوية والهرمونات لن تفلح أيضًا فى إقناعه.

لكن الذكرى الأولى تجعل من السهل علينا أن نقترح عمل (وظيفة) تكون محل اهتمامه ورضاه ، فحيث إن الاهتمام الرئيسى لهذا الرجل يتركز فى المشاهدة وحيث إننا اكتشفنا أنه يعانى من قصر النظر مما أجبره على توجيه المزيد من انتباهه للأشياء المرئية ، وعندما بلغ سن العمل فإنه أراد أن يستمر فى المشاهدة ومراقبة من حوله وعزف عن الاحتفاظ بوظيفة دائمة ، ولكنَّ هذين الشيئين ليسا على طرفى النقيض ، بل إنه يمكن التوفيق بين رغبته فى المشاهدة والمراقبة وبين وظيفة دائمة ، وهو ما حدث بالفعل فعندما تم شفاؤه فإنه قام بافتتاح متجر للأعمال الفنية ، وبهذا تمكن من المساهمة بطريقته فى رقى مجتمعه وفى تقسيم العمل الذى يتطلبه هذا الرقى.

الحالة الثانية :

رجل فى الثانية والثلاثين من عمره أتى بغرض العلاج فقد كان يعانى من الحبسة العصبية الهيستيرية(*) Hysterical aphasia ، فقد كان غير قادر على الكلام بصوت مسموع وكان أقصى ما يستطيعه هو الهمس ، وقد لازمته هذه الحالة لمدة سنتين حتى الآن.

لقد بدأت هذه الحالة فى الظهور عندما انزلقت قدمه فوق قشرة موز فسقط على الشباك الزجاجى لإحدى عربات الأجرة وأصابته حالة من التقيؤ استمرت لمدة يومين وبعدها بدأ يعانى من الصداع النصفى ، من الواضح أنه كان يعانى من ارتجاج فى المخ xx ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار أنه لم تكن هناك أى إصابات فى الحنجرة أو الحلق فإن ارتجاج المخ وحده غير كافٍ لشرح عدم قدرته على الكلام ، وقد استمر فى عجزه التام عن الكلام لمدة ثمانية أسابيع ، وبعدها كان كلامه لا يرتفع عن مستوى الهمس لمدة زادت عن عامين ، ولقد أصبحت هذه الحادثة موضع مساءَلة قانونيه لمعرفة من المسئول عن إصابته ولكن القضية تعتبر صعبة جدا لأنه يلقى بلوم الحادثة برمتها على سائق السيارة الأجرة وهو يقاضى الشركة المالكة للسيارة الأجرة بغرض الحصول على تعويض عن ما أصابه من ضرر ، ومن الواضح أن هذا الرجل غشاش ومخادع ولكن لا يوجد دافع قوى يدفعه إلى الكلام بصورة طبيعية ، بالطبع هناك احتمال أنه وجد صعوبة حقيقية فى الكلام بعد صدمة الحادثة التى تعرض لها ولكن استمراره فى الحديث عن طريق الهمس يرجع بالتأكيد إلى أنه لم يجد سببًا قويًا وكافيًا لتغيير هذه الطريقة.

تم فحص المريض بواسطة طبيب متخصص فى الحنجرة وبالطبع لم يجد الطبيب أى علة فى الحنجرة ، وعندما سُئِلَ هذا المريض عن الذكرى الأولى فى طفولته أجاب قائلاً :

(*) الحبسة العصبية الهيستيرية Hysterical aphasia هى اختلال عصبى لوظائف اللغة (المترجم) .

" مازلت أتذكر نفسى وأنا راقد على ظهرى فى مهدى الهزاز المعلق بواسطة خطاف وفجأة سقط المهد وانقلب ، وقد سبب لى هذا الكثير من الألم ".

لا يوجد شخص يحب السقوط وخاصة الأطفال ، ولكن هذا المريض يبالغ فى تأكيد حقيقة سقوطه ويركز على الأخطار التى تعرض لها نتيجة لهذا السقوط.

" فتحت أمى باب الغرفة ودخلت حال سماعها صوت سقوطى ، وقد أصابها الهلع الشديد ".

لقد استطاع أن يحصل على الانتباه الفورى والاهتمام من أمه عندما سقط ، ولكن هذه الذكرى يمكن تفسيرها أيضًا على أنها نوع من اللوم والتأنيب للأم لأنها لم تعتنى به بدرجة كافية لدفع الأخطار عنه.

بالطريقة السابقة نفسها فى التفكير ؛ يمكن تفسير ما حدث له مع سائق السيارة الأجرة ، فإنه يرى هنا السائق مخطئ لأنه لم يوفر له العناية الكافية التى تدفع الأخطار عنه ، فكل هؤلاء – الأم ، سائق السيارة ، الشركة التى تملك السيارة – مسئولون عن توفير الحماية له ، ومن هذا نرى أن هذا هو نمط وأسلوب حياة طفل تعرض للتدليل بطريقة مبالغ فيها ، ويحاول دائمًا أن يجعل الآخرين مسئولين عما يحدث له.

إن الذكرى التالية تؤكد لنا صحة ما توصلنا إليه :

" عندما كنت فى الخامسة من عمرى سقط فوقى – مرة أخرى من ارتفاع عشرين قدمًا – لوح خشبى ثقيل ، لمدة خمس دقائق كنت غير قادر على الكلام ".

إن صاحب هذه الذكريات ماهر فى فقد قدرته على الكلام وهو يجعل من السقوط سببا لرفض الكلام ، لقد أصبح خبيراً فى استخدام هذه الطريقة وعندما يسقط الآن فإنه يصبح غير قادر على الكلام بطريقة أوتوماتيكية.

(**) حالة تصيب من يتعرض لها بتلف مؤقت فى وظائف المخ وفقدان الوعى وتزايد غير طبيعى فى ضربات القلب وبرودة شديدة وأحيانًا يكون مصحوبًا بعجز على التحكم فى البول والبراز أيضًا . (المترجم)

ولا يمكن علاج مـثل هذا المريض إلا إذا تمكنا من إقناعه بخطأ هذه الطريقة فى التعـامل مع المجتمـع من حوله وإنه لا توجـد علاقة بين السـقوط والعجـز عن الكلام ، خاصة لمدة عامين كاملين بعد وقوع الحادثة.

وهو يكمل هذه الذكرى قائلاً :

" خـرجت أمـى من المنزل ورأتنى سـاقطًا على الأرض واللوح الخـشـبى فـوقى وتملكها قلق وهلع شديد ".

فى كلـتا الحـالتين تـسبب سقوطه فى جذب الانتباه نحوه وقد أسعده هذا كثيرًا ، فمن الواضح أنه ينتمى إلى ذلك النوع من الأطفال الذين يرغبون فى أن يكونوا دائمًا مـحط الأنظار ومـركـزًا لانتـباه واهـتمـام الجـمـيع ، لا عـجب وهذا هو حـاله أن يحـاول الحصول على تعويض بسبب سقوطه.

إنَ الكثـير من الأطفال الذين تعرضـوا للتدليل الزائد خلال طفولتهم قد يحـاولون القيام بمثل تلك الأفعال إذا مـا وضـعوا فى الظروف نفسـها ، ولكنهم لن يسـتخدموا فقـدان القدرة على الكلام كـآلية للحـصـول على التـعويض ، فمن الواضح أن هذه هى العلامـة المميزة لمريضنا فـهى جزء من نمط وأسلوب حيـاته وقد حصل على هذا الجزء من خلال الخبرات التى مرت عليه فى السابق.

الحالة الثالثة :

رجل فى السادسة والعشرين من عمره يشكو من عجزه على الحصول على وظيفة مناسبة ، لقد كان يعمل بالسمسرة منذ ثمانى سنوات بمساعدة والده ، ولكنه كان يكره هذه الوظيفـة وتخلص منها مؤخـرًا ، وقد حـاول الحصـول على نوع آخـر من الوظائف ولكن لم يوافقه الحظ ولم يَلْقَ أى نجاح فى محاولاته هذه.

كان ذلك المريض يشكو من الأرق أيضًا ، كما أنه فكر فى الانتحار مرات عديدة ، وعندما انقطع عن العمل بالسمسرة هجر البيت وذهب للعمل فى مدينة أخرى ولكنه عاد مرة أخرى عندما علم بأن والدته مريضة جدا.

من المعلومات السابقة عن هذا المريض يمكننا استنتاج أنه كان الطفل المدلل والمفضل لوالدته ، وأن والده حاول فرض سلطته عليه وأن حياته كانت عبارة عن رفض وثورة مستمرة ضد تزمت والده ، وعندما سألناه عن وضعه فى العائلة فإنه أجاب قائلاً :

" كنت أصغر أخواتى سنا ، كما أننى كنت الولد الوحيد بينهن "٠

كان لهذا المريض أختان وكانت الأخت الكبرى دائمًا ما تحاول التحكم فيه وإصدار الأوامر له ، ولم تكن الأخت الأخرى أحسن من الأولى حالاً ، وكان والده يضايقه كثيراً ويتذمر من أفعاله باستمرار ، ولهذا تملك مريضنا شعورٌ قويٌ بأن جميع أفراد العائلة يسيطرون ويتحكمون فيه ، وأن الصديق الوحيد هو أمه٠

لقد ذهب مريضنا للمدرسة حتى أصبح فى الرابعة عشرة من عمره وبعدها أرسله والده لمدرسة الزراعة العليا حتى يتمكن من مساعدته فى الزراعة – كان الوالد يخطط لشراء مزرعة صغيرة – عندما يتخرج ، كان أداء مريضنا فى المدرسة مقبولاً ، ولكنه قرر أنه لا يرغب فى العمل بالزراعة ، وكان والده هو الذى ساعده فى الحصول على وظيفة سمسار فى شركة سمسرة ، ولعله أمر مثير للعجب والدهشة أنه كان قادراً على الاستمرار فى هذه الوظيفة لمدة ثمانى سنوات ، ولكن السبب – كما قال – هو رغبته فى أن يقوم بكل ما يمكنه القيام به من أجل والدته٠

فى طفولته كان مهملاً وغير منظم وعانى كثيراً الخجل ، كما أنه كان يخاف من الظلام ومن أن يترك وحده بلا رفيق ، عندما نسمع بوجود طفل مهمل وغير مرتب فإنه من الواجب علينا أن نبحث عن من يقوم بالتنظيف والترتيب له ، وعندما نسمع بطفل يخاف من الظلام ولا يحب أن يترك وحيداً فإنه من الواجب علينا أن نبحث عن ذلك الشخص (أو الأشخاص) الذى سيستطيع جذب اهتمامه والذى سيواسيه ويسليه فى وحدته٠

فى حالتنا هذه ذلك الشخص كان والدته٠

لقد كان من الصعب عليه الدخول فى صداقات والاحتفاظ بها ، غير أنه كان قادرًا اجتماعيا بين الأغراب ، ولم تكن له أى علاقات عاطفية بالجنس الآخر فهو لم يكن راغبًا فى الحب والزواج فقد كان يَعُدُّ زواج والديه فاشلاً وغير سعيد مما يوضح لنا سبب رفضه للزواج.

كان والده مازال يمارس الضغوط عليه ليدفعه إلى الاستمرار فى ممارسة أعمال السمسرة ، ولكن ميوله الشخصية كانت تتجه نحو العمل فى الإعلان وكان مقتنعًا تمام الاقتناع أن عائلته لن تعطيه المال اللازم للتدريب ولتعلم هذه المهنة .

مما سبق نستطيع أن نرى أنه كان دائمًا يحاول أن يعادى ويقاوم والده فعندما كان فى شركة السمسرة ويكسب رزقه بعرق جبينه لم يخطر له أن يستخدم أمواله فى التدريب وتعلم مهنة الإعلان ولكنه بدأ يفكر فى ذلك الآن كطلب جديد يستطيع أن يضعه على والده.

كانت الذكرى الأولى تعكس بوضوح احتجاجات طفل مدلل على أبيه الصارم ، فهو يتذكر عمله فى المطعم الخاص بوالده ، فقد كان يحب غسل الأطباق ونقلها من منضدة لأخرى وقد أثارت طريقته هذه فى العبث بالأطباق غضب والده حتى إنه قام بصفعه أمام الزبائن لقد استخدم هذا الحدث ليثبت أن والده هو العدو ، وأن حياته كلها لم تكن إلا حربًا وصراعًا ضد ذلك العدو ، لكنه كان ومازال غير راغب فى العمل ، بل إننى أجرؤ على القول بأنه سيكون راضيًا كل الرضى إذا ما تمكن فقط من جرح وإيلام والده.

و يمكننا الآن شرح تفكيره فى الانتحار بسهولة ؛ فالانتحار من وجهة نظره ما هو إلا لوم وتوبيخ ، فهو عندما يفكر فى الانتحار كمن يقول :

" إن هذا حدث بسبب أبى ، كل هذا بسبب أخطائه ".

وعدم رضاه عن وظيفة السمسرة موجه ضد والده أيضًا فكل خطة تقدم بها الوالد رفضها الابن ، ولكنه مازال طفلاً مدللاً لا يستطيع الاستقلال ، وفى الحقيقة

هـو لا يرغب فى العمل أيا كان هذا العمل ، ومن ناحية أخرى ، هو لايزال يملك بعض القدرة على "التعاون" خاصة مع والدته.

لكن هل حالة الحرب والصراع الدائم مع والده تفسر عدم قدرته على النوم؟

دعنا نحاول الإجابة عن هذا التساؤل :

فعندما كان يصاب بالأرق طوال الليل كان هذا يعنى أنه يصبح غير مستعد للعمل فى صباح اليوم التالى ، ووالده يتوقع منه الذهاب إلى العمل ولكن الفتى متعب ويشعر أنه غير قادر على العمل ، بالطبع كان من الممكن أن يرفض ببساطة قائلاً:

" أنا لا أرغب فى العمل ، ولن أسمح لأى شخص أن يجبرنى على العمل ".

ولكنه مـهتم بوالدته وبالظروف المالية للعائلة ، ولو أنه رفض ببساطة العمل فإن عائلته ستظن أنه حالة مَيئوسٌ منها وسترفض إعالته ، ولهذا كان عليه أن يجد عذراً ولقد أمدته حالة الأرق اللعينة هذه بالعذر المطلوب.

فى البداية حاول المريض أن يقول إنه لا يحلم ، ولكن فيما بعد تذكر حلما متكرر الحدوث ، فهو يحلم أن هناك شخصاً يقذف بالكرة فى اتجاه الحائط وأن الكرة دائمًا ما ترتد بعيداً عن الحائط ، يبدو هذا وكأنه حلمٌ تافهٌ وعديم القيمة فهل من الممكن اكتشاف الصلة بين الحلم وأسلوب حياته ؟

عندما سألته :

" ماذا يحدث بعد هذا ؟ ".

أجاب قائلاً :

" عندما ترتد الكرة بعيداً عن الحائط فإننى أستيقظ ".

ها هو يكشف لنا عن تركيب مشكلة الأرق التى يعانى منها ، فهو يستخدم الحلم كالساعة المنبهة ليوقظ بها نفسه ، إنه يظن أن الجميع يحاول دفعه للأمام ، وأن يقود مسيرة حياته بدلاً منه ، وأن يجبره على القيام بأشياء لا يريد القيام بها ، فى كل مرة

يحلم هذا الحلم يستيقظ ويبقى مستيقظًا ، وهكذا يصبح غير قادر على العمل فى اليوم التالى . إن والده القلق يتعجل ذهابه للعمل لكن استخدام هذه الطريقة غير المباشرة – والملتوية – مكنه من أن يهزم والده ، قد نظن أنه بالغ الذكاء ؛ لأنه تمكن من اكتشاف مثل هذا السلاح ولكن لنتذكر أن حياته جدباء وغير مثمرة بالنسبة إليه ، وبالنسبة إلى الآخرين أيضًا وعلينا أن نساعده على تغيير حياته هذه.

عندما قمت بشرح الحلم والمعنى الخفى وراءه فإنَّ هذا الحلم توقف تمامًا عن الحدوث ، ولكنه قال لى إنه مازال يستيقظ خلال الليل أحيانًا ، إنه لم يعد يملك الشجاعة على الاستمرار فى استخدام هذا الحلم ؛ لأنه عرف المعنى الخفى وراءه ولكنه ما زال يحاول إرهاق نفسه ليلاً حتى لا يكون مستعدا للعمل فى اليوم التالى ، فما الذى يمكن القيام به لتقديم يد العون له ؟.

إن الطريقة الوحيدة الممكنة هى محاولة التقريب بينه وبين والده ، فطالما ظلت كل جهوده مركزة على محاولة مضايقة وهزيمة والده فإننا لن نتمكن من حل أىّ من مشاكله ، لقد بدأت – أنا – بأن اِعترفت بأن له بعض الحق فى الموقف الذى يتخذه خاصة من والده وقلت له :

" يبدو لى أن والدكَ مخطىء تمامًا ، فليس من الحكمة فى شىء أن يحاول باِستمرار استعراض – ممارسة – نفوذه عليكَ ، ربما يكون مريضًا فى حاجة إلى علاج ، لكن ما الذى تستطيع عمله ؟ ، فأنت لن تستطيع تغييره ، ولنفترض على سبيل المثال أن الدنيا تمطر بشدة فى الخارج فما الذى تستطيع عمله ؟ ، فإما أن تحمل مظلة وإما أن تستقل سيارة أجرة ولكن محاولة إيقاف المطر ومنع نزوله هى أمر عديم الجدوى فلا يمكن التغلب على الأمطار بهذه الطريقة ، فهل تصدقنى إذا ما قلت لك إن هذا هو ما تحاول القيام به الآن ، فأنت تضيع وقتك محاولاً منع نزول المطر ، وتفعل ذلك ؛ لأنكَ تعتقد أن هذا يظهر قوتكَ وأنكَ تنال من والدك بهذه الطريقة ، ولكن فى الحقيقة أنت تؤذى نفسك أكثر من أى شخص آخر ".

ثم قمت بشرح الارتباط غير الظاهر بين جميع المشكلات التى واجهته حتى الآن : شكوكه فى الوظيفة التى اختارها والده ، تفكيره المتكرر فى الانتحار ، هروبه من المنزل ، حالة الأرق التى لازمته ، وأظهرت له - فى كل مرة - الكيفية التى يعاقب ويؤذى بها نفسه فى محاولة لأن يعاقب ويؤذى والده.

أيضًا قدمت له هذه النصيحة :

" عندما تذهب للنوم الليلة ، تخيل أنكَ تريد إيقاظ نفسكَ من النوم بين الحين والآخر حتى تكون - فى الغد - متعبًا ، وطلبت منه أيضًا أن يتخيل أنه فى الغد أصبح متعبًا جدا حتى إنه كان غير قادر على العمل مما أثار غضب والده الشديد ".

كنت أريده أن يعمل على مواجهة الحقيقة إن كل اهتمامه مازال موجهًا نحو محاولة إغضاب والده ومضايقته وإلحاق الأذى به ، إن أى علاج نقدمه لهذا المريض سيصبح عديم الفائدة طالما استمر الصراع دائرًا بينه وبين والده ، إننا جميعًا نستطيع أن نرى أنه طفل مدلل جدا ، والآن يستطيع هو أيضا أن يرى هذه الحقيقة.

إن الوضع السابق يشبه إلى حدٍّ بعيدٍ " عقدة أوديب " ، فهذا الشاب تسيطر عليه فكرة مضايقة والده وإلحاق الأذى به ، وهو مازال شديد الارتباط بوالدته . إنها ليست علاقة جنسية ، ولكن أمه هى التى تحملته ، أما أبوه فكان غير متعاطف على الإطلاق . لقد عانى هذا الشاب من آثار التربية غير السليمة والفهم الخاطئ لوضعه.

إن الوراثة لا تلعب أى دور فى المشكلات التى يعانى منها ، فهو الذى قام بخلق مشكلاته بنفسه ومن خلال الخبرات التى مر بها ، إن مثل هذا الأسلوب فى الحياة - النمط الحياتى - يمكن تخليقه صناعيا فى أى طفل ، فكل ما علينا القيام به هو إعطاء الطفل أمًا تدلله وتتساهل معه وتشبع كل رغباته - مثلما فعلت هذه الأم - وأبًا قاسيًا شديد الترزمت - كما كان هذا الأب - وسنحصل بالتأكيد على فتى مثل هذا ، عندما يتمرد طفل على أبيه بصورة مستمرة ويفشل فى الاستقلال بحياته عن طريق حل المشكلات التى تواجهه بدون طلب عون من الآخرين يصبح من السهل علينا تفهم القرار الذى اتخذه هذا الطفل بتبنى مثل هذا الأسلوب فى الحياة.

الفصل الخامس

الأحلام

إن كل البشر يحلمون لكن فئة - قليلة جدا - منهم هى التى تستطيع فهم معنى هذه الأحلام ، ترى ماهية ذلك النشاط العقلى (الأحلام) .

لقد اهتم البشر - منذ قديم الأزل - بالأحلام ، وحاولوا دائما معرفة ما تعنيه ، وهناك فئات عديدة من البشر تؤمن بأن أحلامها لها معنى عميق ، وغريب ، و ذو علاقة قوية بالوقت الحاضر وما يحدث فيه ، ويمكننا تتبع هذا الاهتمام إلى أبعد العصور فى تاريخ الإنسان ، ورغم كل هذا فما زال البشر يجهلون مفهوم الأحلام وما هو ذلك الفعل الذى يقومون به عندما يحلمون ؟ وما السبب الذى يجعلهم يحلمون ؟؟ .

على حد علمى فإن هناك نظريتين فقط - عن شرح وتفسير الأحلام - يمكن وصفهما بأنهما مفهومتان وعلميتان ، وهما :

١ - المدرسة الفرويدية فى التحليل النفسى .

٢ - مدرسة علم النفس الفردى .

ومن بين هاتين المدرستين فإن مدرسة علم النفس الفردى هى الوحيدة التى يمكن لها أن تدعى أنها اتخذت مساراً يبتسم يالقدرة على الحكم على الأشياء بصورة صائبة وفطرة سليمة.

شرح وتفسير الأحلام فى الماضى

إن كل المحاولات السابقة لفهم الأحلام لم تكن علمية ، ولكنها تستحق أن ننظر إليها بعين الاعتبار ، على الأقل سوف تكشف لنا الطريقة التى نظر بها الناس - فى الماضى - إلى أحلامهم ، وما موقفهم وتصرفاتهم الناتجة عن نظرتهم هذه ؟

إن الأحلام ما هى إلا نتاج النشاطات الخلاقة للعقل ، ولو تفحصنا الطريقة التى فهم بها الناس - فى الماضى - دور الأحلام فإننا سنجد أنفسنا قريبين جدا من رؤية هدفهم الأساسى فى الحياة ، لقد شاهدنا - منذ بداية بحثنا- أنه قد تم افتراض أن الأحلام لها تأثيرٌ ما على المستقبل ، وأن المستقبل يتشكل من أحلام الماضى ، لقد شعر البشر أن روحًا مسيطرة وغامضة - مثل الآله أو أرواح الأجداد - ستتحكم فى عقولهم أثناء أحلامهم ، بينما شعر آخرون أنه من الممكن استخدام الأحلام كمرشد خلال الأوقات العصيبة.

كانت كتب الأحلام القديمة تقدم شرحًا للأحلام وتفسيرًا يوضح الكيفية التى تَكشِف بها الأحلام عن المستقبل ، وكانت القبائل البدائية تبحث عن الفأل الحسن والتنبؤات فى أحداث أحلامهم ، وكان اليونانيون والمصريون القدماء يذهبون إلى المعابد على أمل أن يحدث لهم حلم مقدس - رؤية - يغير مجرى حياتهم المستقبلة وكان ينظر لمثل هذا الحلم المقدس (الرؤية) على أنه علاج يشفيهم من كل المصاعب الجسدية أو العقلية.

كان الهنود الأمريكان يتحملون الكثير من الآلام للحصول على ما يريدون من أحلام باستخدام التطهير ، والصيام ، والحمامات الشديدة السخونة ، وكانت تصرفاتهم المستقبلية تعتمد على طريقة فهمهم لهذه الأحلام ، وفى العهد القديم كانت الأحلام تفهم دائمًا على أنها دليل على أحداث مستقبلية ، وحتى الآن فإن هناك بعض الأفراد الذين لازالوا يؤمنون بأن بعض ما رأوه فى أحلامهم الماضية قد تحقق ، فهم يؤمنون أن أحلامهم ذات دلالة خاصة ولها قوة التنبؤ بالمستقبل.

من الناحية العلمية تبدو وجهات النظر هذه سخيفة ، ومنذ البداية كان من الواضح لي أن الأشخاص الذين يقومون باستخدام الأحلام في وضع سيئ لا يسمح لهم بالتنبؤ بأحداث المستقبل ، على عكس الأشخاص الذين يستخدمون عقولهم وحواسهم في محاولة لتجنب صعوبات المستقبل ومشاكل الحياة القادمة فإنهم يكونون أكثر نجاحاً من النوع السابق.

فمن غير المقبول اعتبار الأحلام مرشداً أفضل للمستقبل عن استخدام العقل الواعي المدرك للظروف المحيطة به ، ومع هذا فلابد وأن يكون هناك سببٌ قوى لوجود هذه العادة - تأويل الأحلام وتفسيرها - ولعله من الممكن أن نجد بعض الحقيقة في هذه التفسيرات كما أنها يمكن أن تمدنا بالدليل الذى يكشف لنا عن شخصية الحالم .

لقد رأينا من قبل أن الناس ينظرون إلى الأحلام على أنها يمكن أن تكون حلولاً للمشاكل التي تواجههم ، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن غرض الفرد من الحلم هو البحث عن مرشد يقوده في مجاهل طرقات المستقبل وعن حل للمشكلات التي تواجهه ولكن علينا أن نأخذ في الاعتبار نوع الحل المطلوب والمكان الذى نستطيع أن نجد فيه ذلك الحل ، فمن الواضح أن أى حل تقدمه الأحلام سيكون أقل كَفَاءةً من أى حل نصل إليه بعد فحص وتدقيق وتحكيم لعقولنا ، ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن النوع الأول من الأشخاص يريدون حلا لمشكلاتهم وهم نيام.

وجهة نظر فرويد

إن فرويد يعالج الحلم على أنه يحمل معنى يمكن فهمه بطريقة علمية ، ومع هذا فإن طريقة فهم فرويد للأحلام قد أخرجتنا بعيداً عن النطاق العلمي ، فعلى سبيل المثال يفترض هذا الأسلوب وجود فرق بين الطريقة التي يعمل بها العقل خلال ساعات اليقظة وبين الطريقة التي يعمل بها خلال النوم ، فهو قد قام بوضع " الوعي " و"اللاوعي" في موقف تضاد ، كما أنه أعطى للحلم قواعده وقوانينه الخاصة به والتي لا تتفق

مع قواعد التفكير اليومى ، وفى رأيى أنه عندما تتواجد مثل هذه التناقضات فلابد من أن نستشف وجود مواقف غير علمية.

فى تفكير البشر البدائيين والفلاسفة القدماء نجد الرغبة فى معالجة المفاهيم شديدة التناقض على أنها متضادة ومتنافرة ، إن هذه الازدواجية فى التفكير يمكن أن نراها بوضوح فى الأشخاص العصابيين ، فإن البشر كثيراً ما يعتقدون أن اليسار واليمين هما متضادان كما أنهم يعتقدون أن الرجل والمرأة ، البارد والساخن ، الخفيف والثقيل ، القوى والضعيف ، كلها مفاهيم متضادة . من الناحية العلمية لا يوجد تضاد بين أزواج هذه المعانى فإنها كلها ليست أكثر من علامات على الميزان ؛ مرتبة طبقًا لبعدها أو قربها من مبدأ خيالى ، فالطيب والشرير ، والطبيعى وغير الطبيعى ، والعادى وغير العادى ، كلها ليست بالضرورة متضادات ، وأى نظرية تعالج مسألة النوم واليقظة ، وأفكار الأحلام وأفكار اليقظة على أنها متضادات تكون غير علمية.

هناك مشكلة أخرى فى الطريقة التى ينظر بها فرويد للأحلام ، فإن فرويد يضع جميع الأحلام على خلفية جنسية ، وهو بهذا يفصلها عن تطلعات ونشاطات الأشخاص العاديين ، ولو كانت وجهة نظره صحيحة لكانت الأحلام تعبيراً عن جزء من شخصية الفرد وليس الفرد ككل ، حتى الذين يؤمنون بنظرية فرويد فى وجود خلفية جنسية لمعظم الأحلام وجدوا أن هذه النظرة غير مناسبة لتفسير جميع الأحلام ، وكان فرويد قد اقترح إمكانية رؤية آثار الرغبات غير الواعية – اللا وعى – فى الموت.

الأحلام ما هى إلا محاولات للوصول إلى حل بسيط لمشكلات الحياة ، وهى – بهذا– تكشف نقص الشجاعة عند الفرد ، ولكن هذه النظرة الفرويدية نظرة تمثيلية – لإعطاء مثال – وهى لا تقربنا من اكتشاف حقيقة شخصية الفرد والكيفيه التى تنعكس بها شخصيته على أحلامه ، وهكذا فإننا سنجد أن حياة الأحلام مفصولة عن حياة اليقظة ، كما أن فرويد يؤمن بأن الحلم نفسه غير مهم ولكن الأفكار التى تتخفى وراء هذا الحلم .

فى علم النفس الفردى نصل إلى نتيجة مشابهة ، ولكننا نكمل ما ينقص التحليل النفسى الخاص بفرويد وهو الاعتراف بوعى الشخصية ، والوحدة بين الفرد وأفكاره وأعماله وأقواله.

و يمكننا أن نلاحظ هذا النقص فى نظرية فرويد عند إجابته عن الأسئلة المهمة والحساسة الخاصة بتفهم معنى الحلم ، مثل :

١ – ما الغرض من الحلم ؟

٢ – لماذا نحلم ؟

إن أطباء التحليل النفسى (أتباع مدرسة فرويد) يجيبون عن هذه التساؤلات قائلين :

" لإشباع رغبات الفرد التى لم يمكن إشباعها فى الواقع ".

و لكن هذه الإجابة لا تشرح جميع جوانب السؤال ، فأين الإشباع عندما ننسى الحلم ؟ أو عندما لا نستطيع فهمه ، إن كل البشر يحلمون ، لكن القليل منهم هم من يستطيعون فهم أحلامهم ، فما اللذة التى نحصل عليها من الحلم ، لو أننا فصلنا بين حياة الأحلام وحياة اليقظة ؟ إن الإشباع الذى يعطيه الحلم يبقى فى عالم الأحلام ، وبهذا تكون الأحلام عديمة الهدف والفائدة فى حياة اليقظة .

من وجهة النظر العلمية فإن الحالم والمستيقظ ما هما إلا شخص واحد ، وعلى هذا فإن الغرض من الأحلام يجب أن يكون منطبقًا على هذا الشخص فى كلتا الحالتين – الحلم واليقظة – معًا.

هناك نوع واحد من البشر يمكن معه أن نجد علاقة ارتباط بين تطلعات الفرد فى أحلامه وبين شخصية هذا الفرد ككل ، وهذا النوع هو الطفل المدلل تدليلاً مبالغًا فيه فإن أفراد هذا النوع دائمًا ما يسألون أسئلة مثل :

" كيف يمكننى الحصول على ما أريد ؟ ".

أو ...

" ما الذى يمكن للحياة أن تقدمه لى ؟ "٠

إن مثل هؤلاء الأفراد يبحثون عن إرضاء لنزواتهم فى أحلامهم وهم يفعلون ذلك فى كل جزئية من جزئيات سلوكهم ، ولو أننا فحصنا بدقة نظرية فرويد لوجدناها مبنية بأكملها على علم نفس الطفل المدلل الذى يشعر بأن رغباته أوامر يجب أن تطاع والذى ينظر للآخرين على أنهم لا يملكون حق الوجود إذا ما تعارض وجودهم هذا مع رغباته وشهواته فهو كمن يسأل قائلاً :

" لماذا يجب على أن أحب جارى ؟ وهل جارى يحبنى ؟ "٠

خلصنا – مما سبق – إلى القول بأن التحليل النفسى مبنى على دراسة شخصية الطفل المدلل وحدها ، ولكن تطلع الفرد لإشباع رغباته ما هو إلا جانب واحد من ملايين الجوانب التى يسعى الفرد لتحقيقها فى محاولة الوصول إلى" التفوق " ، ونحن لا نستطيع أن نتقبل هذا الجانب كدافع محورى لكل التعبيرات الصادرة عن الشخصية ، لو أننا تمكنا من اكتشاف الدافع الحقيقى والغرض من الأحلام فإن هذا سوف يساعدنا على فهم الغرض الذى تخدمه عمليه نسياننا للأحلام أو عدم قدرتنا على فهمها٠

وجهة نظر علم النفس الفردى

كانت أكثر المشاكل التى واجهتنى – منذ أكثر من ربع قرن – صعوبة هى دراسة ومحاولة فهم معنى الأحلام ، كنت أعرف أن حياة الأحلام لا تتعارض مع حياة اليقظة فهما تسيران معًا بطريقة متوازية فلو أننا تطلعنا – خلال اليقظة – لتحقيق " التفوق " فإنه من الضرورى أن نكون مشغولين بالمشكلة نفسها خلال النوم ، إن جميع الأفراد لهم الهدف نفسه فى أحلامهم وفى يقظتهم ، كما لو كان علينا أن نسعى لتحقيق " التفوق " حتى من خلال أحلامنا ، ولهذا فأنا أرى أن الحلم ما هو إلا ناتج من نواتج "أسلوب حياة " Life Style الفرد ، ودائمًا ما يتفق معها تمام الاتفاق٠

كيفية تطبيق أسلوب الحياة

إن الاعتبارات التالية سوف تساعدنا على فهم الغرض من الأحلام ، إننا نحلم، وفى الصباح ننسى أحلامنا ولا يتبقى منها شىء لكن هل هذا حقيقى ؟ هل حقيقة لا يتبقى أى شىء من أحلامنا ؟ ، إن الإجابة على هذا هى " لا " ، فإن ما يتبقى هو المشاعر التى أثارها وخلفها ذلك الحلم ، إن الصور التى خلفها هذا الحلم تلاشت، ونحن لا نفهم أى معنى لهذا الحلم ، ولم يتبق إلا تلك المشاعر ، وعلى هذا فإن الغرض من الحلم يكمن فى المشاعر التى أثارها هذا الحلم ، والحلم – فى حد ذاته – لم يكن إلا الوسيلة (الأداة) التى تم بها إثارة هذه المشاعر.

إن المشاعر التى يخلقها الفرد يجب أن تكون متسقة مع أسلوب حياته ، ولا يوجد فارق مطلق (حقيقى) بين أفكار الحلم وأفكار اليقظة ، فلا يوجد فاصل واضح بينهما ، فى عالم الأحلام نكون أقل اتصالاً بالواقع رغم عدم وجود انفصال حقيقى عن العالم المحيط بنا ، لو أن إحدى المشاكل ضايقتنا خلال اليقظة ، فإن نومنا سيتعرض لهذه المضايقة والاضطراب بسبب هذه المشكلة أيضًا خاصة إذا تذكرنا أنه يمكننا أن نمنع أنفسنا من الوقوع من على الفراش أثناء النوم – مما يدل على عدم وجود انفصال حقيقى عن العالم ، كثيرًا من الآباء والأمهات يستغرقون فى النوم رغم الضوضاء الشديدة المحيطة بهم ، ولكنهم يستيقظون بسب أقل الأصوات الصادرة عن أطفالهم . كل هذا يدل على أننا لا نفقد الصلة بالعالم المحيط بنا خلال النوم.

إن الذى يتغير هو الطريقة التى نشعر بها ، فرغم أن حواسنا لا تتوقف عن العمل فَإِنَّ اتصالنا بالعالم الخارجى يقل إلى درجة كبيرة ، عندما نحلم نكون بمفردنا فلا نتعرض لضغط المتطلبات الاجتماعية المعتادة كما أننا نكون غير مجبرين على التعامل بأمانة مطلقة مع المواقف المحيطة بنا.

إن نومنا يكون نومًا هادئًا لو أننا استطعنا التخلص من التوتر وتأكدنا من وجود حلول لمشاكلنا ، والحلم ما هو إلا كسر لهذا الهدوء فى النوم ، من هذا يمكننا

أن نستنتج أننا نحلم عندما نكون غير متأكدين من وجود حلول لمشاكلنا ، وفقط عندما نتعرض لضغوط الواقع خلال نومنا وللصعوبات التى نواجهها والتى يجب علينا أن نجد لها حلا.

دعنا الآن نفحص الكيفية التى يواجه بها العقل المشاكل خلال النوم ، وحيث إننا نتعامل مع موقف ناقص فإن المشاكل ستبدو أسهل ، كما أن الحلول لهذه المشاكل لن تفرض علينا أعباء كثيرة وستكون سهلة التنفيذ ، وسيكون هدف الحلم هو إثبات صحة "أسلوب الحياة "The Life Style الذى تبناه الحالم وإثارة نوعية خاصة من المشاعر تناسب هذا الأسلوب فى الحياة وربما سأل أحدهم :

" ولكن لماذا يحتاج أسلوب الحياة لأى إثباتات أو تأكيدات؟ فلا يوجد ما يهدد أسلوب الحياة ".

و الإجابة بسيطة : إن " أسلوب الحياة " مهدد دائمًا وفى مواجهة مع الواقع ، ومع المنطق السائد فى العالم الخارجى والفطرة السليمة ، ولهذا فإن الهدف الأول للأحلام هو الدفاع عن " أسلوب الحياة " ضد المنطق وضد حقائق الواقع المحيط بالشخص الحالم وضد الفطرة السليمة ، فعندما يواجه فرد ما مشكلة لا يرغب فى حلها طبقًا لقواعد المنطق والفطرة السليمة والواقع المحيط به فإنه يؤكد موقفه هذا عن طريق المشاعر التى يثيرها بواسطة أحلامه.

ربما بدا أن هناك تناقضًا بين هذا وبين حياة اليقظة ، لكن لا يوجد تناقض حقيقى فنحن نقوم بفعل الشىء نفسه عندما نكون فى حالة اليقظة ، فعندما يواجه شخص بمشكلة لا يرغب فى مواجهتها باستخدام المنطق والحكمة ، ولكنه يرغب فى مواجهتها باستخدام أسلوب حياته المعتاد ، فإنه يفعل كل ما فى وسعه ليبرر نمط حياته ويجعله يبدو مقنعًا ، وعلى سبيل المثال إذا كان هدف شخص ما هو الحصول على النقود بأسهل الطرق ودون أن يعمل أو يقدم مساهمة فعالة للآخرين فإن أول ما يمكن أن يخطر على باله هو المقامرة ، فهو يعلم أن الكثير من الناس قد خسروا أموالهم وتعرضوا لكوارث مالية بسبب المقامرة ، ولكنه يريد أن يغتنى بسرعة فماذا يفعل ؟ إنه يتخيل نفسه فى وضع يمكنه من اكتساب الأرباح الوفيرة من خلال

التنبؤ ، وبعدها يشترى عربة فخمة ، ويعيش عيشة البذخ ؛ لأنه يكون معروفًا للجميع بغناه ، من خلال هذه التخيلات استطاع أن يثير مشاعر تدفعه ؛ لأن يتشجع ويقوم بالعمل على تحقيق بعض هذه التخيلات ، وفى النهاية نجده قد ابتعد عن المنطق والفطرة السليمة وبدأ يقامر.

الشىء نفسه يحدث فى أكثر الأماكن شيوعًا ، لنفترض أننا فى محل عملنا ، وأن أحد الزملاء أخبرنا عن مسرحية شاهدها مؤخرًا ، وأنه قد امتدح المسرحية كثيرًا. إن أول ما نشعر به هو الرغبة فى التوقف عن العمل والذهاب لمشاهدة هذه المسرحية.

و لو أن أحدهم غارق فى الحب لأذنيه ، فإنه سيتخيل مستقبلاً سعيدًا له ولشريكه فى الحب ، وفى بعض الأحيان - إذا ما شعر بالتشاؤم - فإنه سيتخيل المستقبل تعيسًا ونكدًا ، وفى جميع الحالات فإنهم يستثيرون المشاعر المناسبة حتى إنه يمكننا أن نُحَدد نوع الشخص بمراقبة نوع المشاعر التى يثيرونها فى أنفسهم.

لكن إذا كان كل ما يتبقى من الحلم هو المشاعر ، فأين ذهب المنطق والفطرة السليمة ؟ إن هناك حالة عداء دائم بين عملية الحلم من ناحية ، والمنطق والفطرة السليمة من ناحية أخرى ، وسوف نجد أن الأشخاص الذين لا يحبون أن يقعوا تحت تأثير مشاعرهم والذين يرغبون فى أن يسير كل شىء فى حياتهم بطريقة علمية ، لا يحلمون غالبًا بل إن بعضهم لا يحلم على الإطلاق.

إن الآخرين لا يرغبون فى حل مشاكلهم بالطرق العادية المفيدة ، ولا يرغبون فى تطبيق الحلول التى تتسم بالمنطق والفطرة السليمة ، إن المنطق والفطرة السليمة ما هما إلا جزء من "التعاون" ، والأشخاص الذين يفتقرون إلى القدرة على استخدام "التعاون" لا يحبون اللجوء إلى الفطرة السليمة أو المنطق . إن مثل هؤلاء الأشخاص يحلمون كثيرًا ، فهم يرغبون بشدة فى أن ينتصر أسلوب حياتهم ، كما أنهم يرغبون أيضًا فى تجنب مشكلات الحياة.

من كل ما سبق نستطيع أن نستنتج أن الأحلام ما هى إلا محاولة للوَصل بين أسلوب حياة الفرد وحياته الحقيقية ، أى أن الأحلام هى الجسر الذى يصل بين

أسلوب الحياة الذى تبناه الفرد ومشاكله الحالية ، وبحيث يتمكن من التغلب على هذه المشاكل دون أن يُحدث أى تعديل فى نمط وأسلوب حياته.

إن أسلوب الحياة The Life Style هو المؤلف والمنتج والمخرج لأحلامنا ، وهو سيقوم - دائمًا - بإثارة المشاعر التى يحتاجها الفرد ، ولن نجد أى شىءٍ فى الحلم يختلف عن خصائص وسلوك هذا الفرد ، ولهذا علينا أن نعالج المشاكل بالطريقة نفسها سواء حلمنا أو لا ؛ فكل ما يفعله الحلم هو أنه يقدم تأكيدًا وتبريرًا لأسلوب الحياة الذى اخترناه بالفعل.

وإذا ثبتت صحة ما سبق وقلناه فإننا نكون قد وصلنا إلى مرحلة مهمة فى فهمنا للأحلام ، فى الحلم نحن نحاول أن نخدع أنفسنا فكل حلم ما هو إلا تخدير أوتوماتيكى أو تنويم مغناطيسى للذات ، الهدف منه خلق الجو المناسب الذى يجعلنا مستعدين لتقبل موقف معين ، ويمكننا أن نرى فى الحلم نوع الشخصية نفسها التى نجدها فى حياته اليومية لكننا نراها كما لو كانت فى معمل العقل تعد المشاعر وتجهزها كى ما تستخدم خلال حياة اليقظة اليومية ، وسنستطيع أن نرى الخداع الذاتى فى الوسائل التى يستخدمها خلال الحلم.

ماذا سنجد ؟ إن أول ما نجده هو مجموعة معينة ومختارة من الصور والحوادث ، ولقد سبق وذكرنا هذا الاختيار من قبل فعندما يتأمل الفرد ماضيه فإنه يجمع مجموعة معينة ومختارة من الصور والحوادث من بين كل الذكريات وهذا الاختيار يكون متحيزًا بمعنى أن هذه الاختيارات ستبقى فقط على كل ما يؤيد هدفه النهائى فى "التفوق" فهذا الهدف النهائى هو الذى يتحكم فى الذاكرة ، بالطريقة نفسها فإننا عندما نحلم نقوم ببناء الحلم بالصور والحوادث التى تؤكد وتثبت وتبرر أسلوب حياتنا ، كما أنها تكشف متطلبات أسلوب حياتنا عندما نواجه بمشكلة من مشاكل الحياة.

إن هذه المجموعة من الصور والحوادث هى التى تظهر معنى "نمط وأسلوب حياتنا .. " The Life Style ، خاصة فيما يتعلق بالمشاكل الراهنة التى تواجهنا ، فى الحلم يفرض أسلوب الحياة طلباته الخاصة وطريقته ، وإذا أردنا التغلب على

مشكلات الحياة بطريقة عملية فلابد من أن نلجأ إلى المنطق والفطرة السليمة ، ولكن أسلوب حياتنا هو الذى يرفض السماح بذلك.

الرمزية والتشبيه فى الحلم

ما المصادر الأخرى التى ينبع منها الحلم ؟ منذ قديم الزمن وحتى الآن وخاصة بعد فرويد الذى أكد أن الأحلام مبنية أساسًا من رموز وتشبيهات ، وكما قال أحد علماء النفس :

" نحن شعراء فى أحلامنا ".

فلماذا تتكلم الأحلام بلغة الشعر والرموز والتشبيهات ؟ إن الإجابة بسيطة لو أننا تمكنا من الكلام مباشرة بدون رموز و أمثلة وتشبيهات فلن نستطيع الهرب من المنطق والفطرة السليمة ، ولكن الرموز والتشبيهات يمكن إساءةُ استخدامها وتضمينها معانى مختلفة ، بل إنه يمكن أن نقول من خلالها شيئين مختلفين فى الوقت ذاته – ويكون أحدهما خاطئًا فى الأغلب الأعم – ويمكن عن طريقهما الوصول إلى نتائج غير منطقية، كما أنهما يستخدمان فى إثارة المشاعر ، فلو أننا – على سبيل المثال – أردنا تصحيح أو توجيه سلوك أحدهم لقلنا :

" لا تتصرف مثل الأطفال ".

إن هذا شَيْءٌ لا علاقة له بما أردناه ، ولكنه شيء ، موجه نحو المشاعر فقط ، وبهذا يدخل متسللاً عندما نستخدم الرموز والتشبيهات ، وفيما يلى مثال على ذلك :

إذا كان هناك رجل ضخم فى حالة غضب على رجل ضئيل فيقول له :

" أنت دودة يجب أن تُسحق بالأقدام ".

إنه يبرر غضبه باستخدام هذا النوع من التعبير.

إن التشبيه أداة رائعة للتعبير ، ولكننا يمكن أن نسيء استخدامه عندما

نستخدمه فى خداع الذات ، فعندما وصف الشاعر " هومير " الجيش اليونانى وهو يكتسح الحقول بالأسود فإنه قد أعطانا صورة رائعة لهذا الجيش ، ولكن هل نؤمن حقا بأنه وصف بدقة وأمانة الكيفية التى زحفت بها مجموعة من الجنود الفقراء المتسخين عبر الحقول ؟ إن الإجابة لا بالطبع ، فقد أرادنا أن نظن أنهم بدوا كالأسود نحن نعلم أنهم لم يكونوا حقيقة أسودا ولكن إذا وصف الشاعر الجنود بأنهم كانوا متعبين وفقراء ومتسخين ، وكيف أنهم حاولوا استجماع شجاعتهم لعبور هذه الحقول وتجنب الأخطار وآلاف التفاصيل المنطقية المماثلة ، فإننا ما كنا لنهتم بما يقوله مثل ذلك الشاعر.

إن التشبيهات والرموز تُستخدم للتجميل ولإعطاء صورة خيالية مبهرة ، ولكن يجب أن نصر على أن استخدام الرموز والتشبيهات هو أمر شديد الخطورة خاصة إذا ما كان فى يد فرد يتبنى أسلوب حياة خاطئ.

عندما يتقدم طالب لاجتياز امتحان ما فإنه يواجه مشكلة واضحة ومباشرة وبسيطة ، ويجب أن يعالجها بشجاعة ومنطق وفطرة سليمة ، ولكن إذا كان هذا الفرد يتبنى أسلوب حياة خاطئًا ، فإنه يميل إلى الهرب من مواجهة المشاكل عن طريق أن يحلم بأنه يحارب فى معركة رهيبة ، لقد صور هذه المشكلة الواضحة بطريقة رمزية . وبهذا يستطيع تبرير خوفه الشديد ، أو ربما يحلم أنه واقف على حافة الهاوية وأن عليه أن يتراجع ليتجنب المخاطر فى هذه المرة وَلد مجموعة من المشاعر كخطة لتجنب مواجهة المشكلة والفرار منها، وهو يخدع نفسه عندما يشبه الامتحان بالهاوية التى لا قرار لها.

بالطريقة نفسها يمكننا التعرف على خطة أخرى تستخدم عادة فى الأحلام ألا وهى أن نأخذ المشكلة الأصلية ونضغطها ونصغرها حتى لا يبقى منها إلا صلبها، وبعدها يتم التعبير عن صلب المشكلة بطريقة رمزية وتشبيهية ، و كما لو كان لم يحدث أى تغيير فيها.

ودعنا نأخذ على سبيل المثال طالبة أخرى تملك قدراً أكبر من الشجاعة وتتبنى وجهة نظر طويلة الأمد للحياة ، فهى ترغب فى حل مشاكلها وخوض الامتحان الذى يواجهها ولكنها لا تزال فى حاجة إلى التشجيع والتأييد لتزداد ثقة بنفسها ، فإن أسلوب حياتها يتطلب هذا ، فى الليلة السابقة على الامتحان تحلم أنها تقف على قمة جبل ، بهذا صورت موقفها بصورة بسيطة . فمن بين جميع الظروف والاعتبارات فى حياتها نجد أن أصغرها على الإطلاق ممثلاً ، فمشكلة الامتحان مشكلة كبيرة بالنسبة إليها ولكن باستبعاد الكثير من الاعتبارات الخاصة بهذه المشكلة (الامتحان) ، والتركيز على إمكانية النجاح فإنها تثير مجموعة من المشاعر لتستخدمها فى مساعدة نفسها ، فى الصباح تستيقظ وهى تشعر بأنها أكثر سعادة وشجاعة واستعداداً لمواجهه الامتحان ، لقد نجحت فى التقليل من شأن الصعوبات التى عليها أن تواجهها ، ولكن بالرغم من أنها قد أكدت نفسها فإنها كانت تقوم بخداع الذات ، فهى لم تواجه المشكلة بأجمعها بطريقة منطقية سليمة ، ولكنها قامت فقط بإثارة مجموعة المشاعر المناسبة التى تُهيِّئُ الجو لمزيد من الثقة بالنفس.

إن مثل هذه المحاولات أمر معتاد ، فالرجل الذى يرغب فى القفز عبر مجرى مائى صغير يقوم بالعد حتى ثلاثة قبل أن يقفز ، فهل هناك أهمية كبرى لقيامه بهذا ؟ وهل هناك ارتباط بين العد والقفز ؟ إن الإجابة هى "لا" بالطبع ، فلا يوجد أى ارتباط بينهما ، ولكنه عندما يقوم بالعد فإنه يثير مجموعة من المشاعر التى تهيئ الجو له لكى يتمكن من استجماع كل قوته.

إننا جميعًا نملك القدر الكافى من القدرات العقلية التى تسمح لنا بأن نشرح " أسلوب حياتنا " وأن نصححه وأن نطبقه ، وواحدة من أكبر قدراتنا العقلية هى قدرتنا على إثارة المشاعر المناسبة داخلنا ، ونحن نقوم بهذا العمل ليل نهار ولكنه يظهر بوضوح فقط من خلال أحلامنا .

سوف أقوم الآن باستخدام حلم من أحلامى لتوضيح الطريقة التى يقوم بها الفرد فى خداع ذاته ، خلال الحرب(*) كنت أقوم برئاسة إحدى المستشفيات

(*) ألفريد أدلر ولد فى عام ١٨٧٠ ، وتوفى فى عام ١٩٣٧ ، فلابد من أنه يتكلم عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨).

التى تعالج الجنود من آثار قنابل الصدمة الصوتية ، وعندما رأيت بعض الجنود الذين لا يستطيعون التأقلم مع ظروف الحياة حاولت أن أساعدهم قدر استطاعتى بإعطائهم مهامً سهلة ، لقد أراح ذلك الكثير من التوتر الذى كانوا يعانون منه.

وفى يوم جاء لى أحد الجنود وكان قوى البنيان صحيح البدن ، لكنه كان يعانى من الاكتئاب ، وبينما كنت أفحصه فكرت فيما يمكننى القيام به لمساعدته فلم يكن باستطاعتى إرساله إلى منزله ، فكل توصية من توصياتى كان من الواجب أن يتم التصديق عليها من قبل أحد الرتب العليا ، وكانت حالة هذا الجندى صعبة جدا ، وعندما حان الوقت قلت له :

" أنت مصاب بصدمة ، لكنكَ فى تمام الصحة والعافية ، كما أنكَ قوى البنيان سأقوم بإعطائكَ عملاً سهلاً حتى لا يدفعوا بك إلى جبهة القتال ".

ظهر الضغط والتوتر على الجندى عندما اكتشف أنهم لن يسمحوا له بالعودة لمنزله وقال :

" أنا طالب فقير كما أنه على أن أقوم بإعالة والدى ووالدتى المسنين من خلال عملى كمدرس ، وإذا لم أتمكن من ذلك فإنهما سيموتان جوعًا ".

كنت أتمنى لو أنه كان فى إمكانى إرساله لمنزله ، ولكنى كنت أخشى غضب الرتب العليا وأن يقوموا بإرساله إلى الجبهة الأمامية إذا ما أوصيت بإرساله لمنزله ، فى النهاية قررت أن أفعل أقصى ما أستطيع فعله بدون أن أخل بواجبات وظيفتى وذلك بأن كتبت أنه غير صالح لأى شيء خلاف مهام الحراسة.

عندما ذهبت إلى بيتى ليلاً ونمت عانيت من حلم فظيع فقد حلمت أننى قاتل وكنت أجرى هنا وهناك فى شوارع ضيقة ومظلمة ، وأنا أحاول أن أتذكر شخصية القتيل، لكنى لم أستطع ، ولكنى شعرت بأننى ارتكبت جريمة قتل ، وأن حياتى قد انتهت بسبب هذه الجريمة.

عندما استيقظت فى صباح اليوم التالى كان كل همى هو أن أتذكر شخصية القتيل ، وفجأة خطرت لى هذه الفكرة :

" إذا لم أعط هذا الجندى وظيفة مكتبية ، فربما يتم إرساله للخطوط الأمامية حيث يتعرض للقتل ، وبهذا أكون أنا القاتل "٠

ها أنت ترى كيف تمكنت من إثارة مجموعة معينة من مشاعرى بغرض خداع الذات ، فأنا لم أقتل أحداً بالطبع وحتى إذا تحققت نُبُوءتى ى وقتل هذا الجندى فإننى لن أكون المذنب ، ولكن نمط وأسلوب حياتى لم يسمحا لى بأن أخاطر بحدوث هذا له ، فأنا طبيب وأنا هنا لإنقاذ الأرواح ، وليس لتعريضها للخطر ، وذكرت نفسى أننى إذا أعطيته وظيفة سهلة فإن رئيسى ربما أرسله للجبهة ، وأنه لن يكون فى موقف أحسن بهذه الطريقة ، وانتهيت إلى قرار أننى إذا ما أردت مساعدته حقا فن على أن أتبع المنطق والفطرة السليمة وأن أتجاهل ما يمليه على أسلوب حياتى من تصرفات ، ولهذا أوصيت بأنه صالح للقيام بمهام الحراسة فقط٠

إن الأحداث التى تلت أكدت إيمانى بأنه من الأفضل دائمًا اتباع قواعد المنطق والفطرة السليمة ، فعندما قرأ رئيسى التوصية التى كتبتها عن هذا الجندى قام بشطبها وكتب :

" ستة أشهر خدمة مكتبية "٠

اتضح لى فيما بعد أنه قد تم رشوة هذا الضابط حتى يتساهل مع الجندى المذكور ، كما اتضح لى أن الجندى المذكور كان يكذب فى كل ما قاله لى وكان الغرض من القصة هو أن أعطيه وظيفة سهلة وأن أسهل ، مهمة الضابط المرتشى ، منذ هذا اليوم ملأنى الاعتقاد بأنه من الأفضل لى ألا أحلم على الإطلاق ٠

إن الأحلام مُصممة بحيث تخدعنا وتضللنا ، ولعل هذا هو السبب فى أننا نادراً ما نفهم أحلامنا ، لأننا لو تمكنا من فهم أحلامنا لفقدت الأحلام قدرتها على إثارة المشاعر التى تهيئ الجو الذى يسمح لنا بتأكيد وتبرير أسلوب حياتنا ، وسنفضل استخدام المنطق والفطرة السليمة ونرفض اتباع أحلامنا ، من هذا يمكننا

أن نستنتج أنه إذا ما تمكنا من فهم أحلامنا فإنها ستفقد الهدف والغرض الذى خُلقت من أجله.

كما قلنا من قبل فإن الأحلام هى الجسر بين مشاكل الحاضر الحقيقية وأسلوب حياتنا ، ولكن أسلوب الحياة يجب ألا يحتاج إلى أى جسور أو تأكيدات وإثباتات ، بل يجب أن يكون على اتصال مباشر بالواقع ، إن هناك مجموعة متنوعة ومختلفة من الأحلام وكل حلم يكشف نقاط الضعف فى أسلوب الحياة والتى تحتاج إلى تأكيد وإثبات ، ولهذا يجب أن نتفهم الأحلام ونفسرها بطريقة خاصة بكل فرد على حدة ، ولهذا يكون من المستحيل وضع معادلات عامة توضح معانى الرموز والتشبيهات الموجودة فى الأحلام ، فكل رمز فريد فى نوعه وخاص بهذا الفرد وحده ، والحلم ما هو إلا نتاج أسلوب الحياة الخاص بهذا الفرد ، والناتج عن فهم هذا الفرد للظروف المحيطة به.

وعندما أقوم بوصف بعضٍ الأنماط التقليدية من الأحلام فأنا أقوم بهذا من أجل المساعدة فى تحقيق فهمٍ عام للأحلام ومعانيها ، وليس لغرض توفير دليل حرفى دقيق يمكن اتباعه لتوضيح معانى الرموز والتشبيهات الموجودة فى الأحلام.

بعض الأحلام الشائعة

يحلم الكثير من الناس بـ"الطيران" ومفتاح فهم هذا الحلم - كغيره من الأحلام - يكمن فى المشاعر التى يثيرها ، فهذا الحلم يخلف من ورائه جوا من الشجاعة والشعور بالقدرة على الارتفاع والسمو فوق المصاعب ، هذا الحلم يصور التغلب على الصعوبات والتطلع نحو "التفوق" وقد أصبح سهلاً وبلا مجهود ، لقد مكننا هذا الحلم من أن نتخيل أنفسنا شجعانًا نتطلع إلى المستقبل وطموحين ، مثلنا مثل كل البشر الذين لا يستطيعون التحرر من طموحاتهم حتى وهم نيام ، إن هذا الحلم يقول :

" هل يجب أن أستمر ؟ أم لا ؟ ".

والإجابة المقترحة هى :

" استمر . لا توجد عقبات فى الطريق ".

قليل جدا من الناس من لم يمر بحلم "السقوط" ولو مرة واحدة على الأقل ، وهذا يظهر أن العقل البشرى مشغولٌ بالحفاظ على الذات وتجنب الهزيمة أكثر من انشغاله بالتغلب على الصعوبات التى تواجهه ، ويصبح هذا مفهوماً أكثر عندما نتذكر أن الأطفال يتم تحذيرهم وتوعيتهم بحكم العادات والتقاليد بأقوال مثل:

"لا تقف على الكرسى ..! ".

"لا تعبث بالمقص ..! ".

"كن حريصًا .. وابتعد عن النار ..! ".

فلقد أحطناهم دائمًا بأخطار وهمية ، ولكن إذا جعلنا من الفرد شخصًا خائفًا وجبانًا ، فإن هذا لن يساعده على التعامل مع الأخطار الحقيقية.

عندما يتكرر حدوث حلم مثل حلم أن يكون الفرد "مشلولاً" أو أن يكون "مفقوداً" فى قطار مثلاً ، فإن المعنى العام هو :

" سيكون من دواعى سرورى أن تمر هذه المشكلة بسلام ودون حاجة إلى أى تدخل منى ، سأغير طريقى أو أصل متأخراً أو أو ، حتى أتمكن من تجنب هذه المشكلة سأدع القطار يفوتنى ".

وعندما يتكرر حدوث حلم مثل حلم "الامتحان" تتملكهم دهشة شديدة ؛ لأن يجدوا أنفسهم يواجهون الامتحانات الدراسية فى هذه المرحلة المتأخرة من العمر ، أو أنهم يحاولون اجتياز الامتحان فى مادة نجحوا فى اجتياز امتحانها منذ فترة طويلة ، مع بعض الناس يكون معنى هذا الحلم هو :

" أنتَ غير مستعد لمواجهة المشكلة التى تعانى منها الآن ".

ومع مجموعة أخرى من البشر يمكن أن يكون معنى هذا الحلم هو :

" لقد تمكنت من اجتياز هذا الامتحان من قبل ، وستتمكن - بالمثل - من التغلب على هذه المشكلة التى تواجهك الآن "٠

من هذا نستطيع أن نرى أن الرمز الواحد يكون له معان مختلفة باختلاف الفرد والشيء المهم - والذى يجب التركيز عليه فى الحلم - هو ذلك "الجو الخاص" وتلك "المشاعر" التى يتركها الحلم من خلفه ، وكيف يتناسب هذا مع أسلوب ونمط حياة الفرد ككل٠

حالات للدراسة

الحالة الأولى

مريضة بالعصاب تبلغ الثانية والثلاثين من العمر ، هى الثانية من حيث ترتيب الولادة ، ومثلها مثل كل طفل ثان كانت شديدة الطموح ، فقد كانت دائمة الرغبة فى أن تكون الأولى وأن تحل كل مشكلاتها بطريقة لا تعرضها للانتقاد ، عندما أتت إلىّ كانت تعانى من انهيار عصبى فقد كانت على علاقة غرامية برجل متزوج وأكبر منها سنا ، وقد عانى هذا الرجل من الفشل فى أعماله وكانت ترغب فى الزواج منه ولكنه كان غير قادر على الطلاق من زوجته ، وراودها هذا الحلم :

" أنها قامت بتأجير شقتها إلى رجل بينما ذهبت هى إلى الريف ، وأن هذا الرجل تزوج بعد فترة قصيرة، وعندما أصبح غير قادر على دفع الإيجار - فهو لم يكن بالشخص الأمين أو الجاد فى عمله - فإنها أصبحت مرغمة على طرده من الشقة "٠

إننا نستطيع على الفور أن نرى الصلة بين هذا الحلم ومشاكلها الراهنة ، فهى كانت تنظر فى أمر الزواج من شخص فشل فى أعماله ، ومازال متزوجًا من امرأة أخرى ، كما أنه كان فقيراً ولا يستطيع إعالتها ومما زاد المقارنة قوة أنه دعاها للخروج معه للعشاء ، ولم يكن معه أى نقود٠

إن تأثير الحلـم هو إثارة مشـاعرها ضد الزواج من هذا الشخص ، فهى امرأة طموحة ولا ترغب فى أن تكون مرتبطة برجل فقير ، وهى تستخدم الرمز والتشبيهات وتسأل نفسها :

" لو أنه قام بتأجير شقتى ولم يستطع دفع الإيجار فماذا كنت سأفعل معه ؟ ".

والإجابة واضحة فى الحلم :

" أصبحت مرغمة على طرده من الشقة ".

ولكن هذا الرجل المتزوج لا يؤجر شقة منها ، والزوج الذى لا يستطيع إعالة أسرته يختلف عن الرجل الذى لا يستطيع دفع الإيجار ، ولكن لتخرج من دوامة الحيرة التى أوقعت نفسها فيها ، وفى الوقت نفسه تستمر فى اتباع أسلوب ونمط الحياة الذى تبنته طوال حياتها، فإنها تعطى نفسها الشعور " يجب على ألا أتزوجه" وهكذا تجنبت التعامل من خلال المنطق والفطرة السليمة مع المشكلة برمتها، واختارت أن تتعامل فقط مع جزء صغير من المشكلة لا وهى فى الوقت نفسه قللت من حجم مشكلة الزواج والحب ، كما لو أنه كان كافيًا التعبير عنها من خلال الرمز "عندما استأجر رجل شقتى ، ولم يستطع دفع الإيجار كان علىَّ طرده".

إن الطرق والأساليب التى يستخدمها علم النفس الفردى فى العلاج تكون موجهة نحو زيادة شجاعة الفرد فى مواجهة مشاكل الحياة ، ولهذا فمن الطبيعى أن تتغير الأحلام خلال مرحلة العلاج وتبدأ فى الكشف عن مواقف تُظهر قدرًا أكبر من الثقة بالنفس ، وهذا ما سنلاحظه فى الحالة التالية :

الحالة الثانية

كانت آخر أحلام إحدى المريضات والمصابة بالمناخوليا **Melancholia** قبل صرفها من المستشفى هو :

" كنتُ جالسة وحدى على مقعد خشبى ، وفجأة هبت عاصفة جليدية شديدة ولكن لحسن الحظ تمكنت من تجنب العاصفة بأن أسرعت بدخول المنزل حيث كان زوجى ، وهناك أخذت أساعده فى البحث عن وظيفة مناسبة فى عمود الإعلانات فى الجريدة "٠

كانت المريضة قادرة على شرح الحلم لنفسها ؛ فهذا الحلم يظهر بوضوح مشاعرها القوية نحو زوجها ورغبتها فى الصلح معه ، لقد كانت تكره زوجها فى البداية وكانت تشكو بمرارة من نقاط ضعفه وعدم قدرته على توفير عيشة رخية لهم فمعنى الحلم هو :

" أنه من الأفضل لى أن أبقى مع زوجى على أن أتركه وأتعرض للمخاطر الخارجية وحدى دون عون من أى شخص آخر "٠

فهى توفق بين نفسها وبين زوجها ، وزواجها كله يقع تحت ظلال النصائح التى يقوم عادة الأقارب بإعطائها لزوجين بينهما خلاف ، والأخطار التى يمكن أن تواجهها من كونها وحيدة تم تضخيمها بطريقة مبالغ فيها فهى مازالت غير مستعدة لـ " التعاون " بشجاعة واستقلال ٠

الحالة الثالثة

أحضروا لى صبيا فى العاشرة من عمرة كان مدرسه يشكو من أنه يتعامل مع زملائه من الأطفال بقسوة ووحشية ، كما أنه قام بسرقة بعض الأشياء فى المدرسة ووضع المسروقات فى مكاتب زملائه محاولاً أن يلقى اللوم عليهم ، إن مثل هذا السلوك يحدث عندما يشعر الطفل بالحاجة لإذلال الآخرين وليثبت أن الآخرين هم القساة والمتوحشون وليس هو . لو أن هذه هى طريقته فى التعامل مع الآخرين فإننا نستطيع أن نستنتج أنه قد تعلم هذا السلوك من عائلته أو من مُحيط هذه العائلة ، فلابد من أن يكون هناك شخص مقرب له حاول أن يزرع فيه الشعور بالذنب٠

إن هذا الصبى قام بإلقاء حجارة على سيدة حامل كانت تمشى فى الشارع . فى عمره هذا لابد من أنه يعلم عن الحمل ، وأستطيع أن أراهن أنه يكره فكرة الحمل فدعنا نبحث عن ما إذا كان لهذا الصبى أخ أو أخت أصغر منه ، فى التقرير الذى كتبه المدرس عبارة نعته فيها بأنه "مصدر المضايقة فى الحى بأكمله" ، فهو يضايق الأطفال الآخرين ويسبهم ويحكى قصصًا كاذبة عنهم بغرض إيذاء شعورهم وتلويث سمعتهم ، كما أنه أيضًا يطارد الفتيات الصغيرات ويضايقهن ، كل هذا يدل على أن أختًا صغرى هى التى تسبب وصولها لدنيانا فى مشاكل هذا الصغير.

وبالبحث نكتشف أن هذا الصبى هو الأكبر وأن له أختًا صغيرة فى الرابعة من عمرها ، وتقول أمه إنه يحب أخته الصغيرة بشدة وأنه يعاملها معاملة طيبة ، ورغم أن هذه المعلومة الأخيرة يصعب تصديقها فمن المستحيل أن يحب مثل هذا الصبى أخته الصغرى ، وسنكتشف فيما بعد أننا على حق ، كما أن والدته تدعى أن العلاقة بينها وبين زوجها فى أحسن حالاتها ، إن هذا من سوء حظ الصبى فمن الواضح أن والديه غير مسئولَيْن عن سلوكه الأعوج وأن هذا السلوك يأتى كنتيجة لطبيعته الفاسدة الشريرة أو عن طريق الوراثة من أحد الأجداد البعيدين.

كثيرًا ما سمعنا فى الحالات التى درسناها عن وجود زواج مثالى بين الوالدين وعن وجود طفل فظيع خرج من مثل ذلك الزواج المثالى ، وهناك الكثير من المدرسين والأطباء النفسيين والمحامين والقضاة شهودًا على إمكانية حدوث ذلك ، وفى الحقيقة فإن زواجًا مثاليا يمكن أن يكون مشكلة كبرى بالنسبة إلى صبى مثل فتانا هذا، فعندما يرى هذا الصبى أن والدته متفانية ومخلصة لوالده ، فإن هذا يضايقه كثيرًا ويثير حفيظته فهو يريد احتكار اهتمامات والدته وهو لهذا يكره مشاعر الحب والإخلاص بين والدته وأى شخص آخر فما الذى علينا أن نفعله ؟

لو أن الزواج السعيد المثالى سَبَبٌ عثرة للأطفال فإن الزواج غير السعيد الفاشل يكون سبب عثرة أكبر لهم ، ويجب علينا أن نُعَلِّمَ هذا الطفل " التعاون " منذ البداية ، كما أنه يجب علينا أن نعمل على تجنب التعلق الشديد - غير الصحى - بين الطفل وأحد الأبوين فقط ، إن هذا الطفل على وجه الخصوص تم تدليله بطريقة زائدة

عن اللزوم فهو يرغب فى الاحتفاظ باهتمام والدته ولذلك يقوم بأحداث الشغب هذه عن عمد محاولاً استرجاع اهتمام والدته.

كما أننا نكتشف صحة شكوكنا ؛ فالأم لا تعاقب الابن بنفسها أبدًا ، فهى تنتظر حتى يأتى والده ويعاقبه ، فهى ربما تشعر بالضعف ، وبأن الرجل هو الشخص الوحيد القادر على الثواب والعقاب وإعطاء الأوامر ، ومن ناحية أخرى فهى ربما تريد أن تبقى الصبى متعلقًا بها لأطول مدة ممكنة وتخاف من فقدان حبه ، وعلى أى حال فهى تبعد الطفل عن الاهتمام بـ" التعاون " مع والده والمجتمع ككل ، وستكون مسألة وقت قبل أن يدب الخلاف بينه وبين والده.

لقد عرفنا أن الأب يحب ويتفانى فى خدمة زوجته وأسرته ، ولكنه كان يكره العودة إلى منزله بعد العمل بسبب الصبى ومشاكله ، وكان يعاقبه بشدة وبطريقة متكررة وكانوا يقولون لنا إن الصبى لا يكره والده لكنه من المستحيل علينا تصديق ذلك ، فالصبى ليس غبيا ، كل ما هناك أنه قد تعلم كيف يخفى مشاعره.

إنه يحب أخته الصغيرة ، ولكنه لا يلاعبها ، وكثيراً ما قام بصفعها وضربها ، إن مكان نومه هو غرفة الطعام ، حيث ينام على سرير متحرك بينما تنام أخته فى سريرها الصغير فى غرفة نوم والديه ، إذا وضعنا أنفسنا مكان هذا الصبى لبضع لحظات وفكرنا بعقله ، فإن هذا السرير الصغير فى غرفة والديه سوف يضايقنا أيضًا ، تذكروا أننا نحاول أن نفكر ونشعر ونرى من خلال عيون هذا الصبى ، فهو يرغب فى أن يظل مركز اهتمام أبويه وخاصة والدته ، ولكن عندما يأتى المساء فإن أخته تصبح هى الوحيدة المقربة له ، وعليه أن يقاتل ليحتل مركزه السابق قرب والدته.

إن الصبى فى صحة جيدة فإن ولادته كانت طبيعية ، كما أنه قد تم إرضاعه لمدة سبعة شهور ، وعندما بدءوا فى إرضاعه باستخدام الزجاجة ، فإنه عانى لفترة طويلة من حالة قىء متقطع استمرت حتى بلغ الثالثة من عمره ، والغالب أنه كان يعانى من حالة ضعف فى المعدة ، وهو الآن يتغذى بطريقة جيدة ومتوازنة ، لكنه مازال يعانى بين الحين والآخر من متاعب المعدة ، وهو يعتبرها نقطة الضعف ، نحن الآن نستطيع فهم لماذا ألقى بالحجارة على المرأه الحامل (المعدة).

هو – أيضًا – صعب الإرضاء من ناحية غذائه ؛ فهو إذا لم يُعجب بالطعام الموضوع أمامه ، فإن والدته كانت تعطيه نقوداً وتدعه يذهب لشراء ما يحب ، وبالرغم من كل هذا فإنه كان يذهب للجيران ويشكو لهم من والدته وأنها لا تعطيه ما يكفيه من الغذاء ، ولقد تعلم استخدام هذه الحيلة باحتراف ، فهو يستخدمها لاستعادة مشاعر " التفوق " عن طريق تجريح الآخرين والتقليل من شأنهم.

و لعلنا الآن فى وضع يمكننا من فهم أحد أحلامه :

" كنت راعى بقر فى الغرب ، وقد قاموا بإرسالى إلى المكسيك ، وكان على أن أقاتل حتى أتمكن من العوده إلى أمريكا ، وعندما هاجمنى أحد المكسيكيين ضربته بقدمى فى بطنه ".

إن المشاعر التى يثيرها هذا الحلم هى "أنا محاط بالأعداء و على أن أقاتل" فى أمريكا ينظر إلى رعاة البقر على أنهم أبطال ، ولهذا يظن هذا الصبى أن مطاردة الفتيات الصغيرات وضرب الناس فى المعدة هو من الأمور البطولية ، ولقد رأينا بالفعل أن المعدة تلعب دوراً عظيمًا فى حياة هذا الصبى ؛ فهو يراها على أنها أكثر نقاط الجسد ضعفًا فهو نفسه يعانى من معدة ضعيفة كما أن والده يعانى أيضًا من مشاكل المعدة ويشكو منها دائمًا ، فالمعدة قد رُفِعت – فى محيطه العائلى – إلى مستوى عال وفى غاية الأهمية ، والصبى يهدف لإصابة الناس فى أكثر نقاطهم ضعفًا .

إن أحلامه وأفعاله تظهر جميعها نمط الحياة نفسه وأسلوبها الذى تبناه هذا الصبى ، فهو يعيش فى الحلم ، وإذا لم نتمكن من إيقاظه من هذا الحلم فإنه سيمضى فى حياته على المنوال نفسه ، ومعاركه لن تكون مع والده وأخته الصغيرة والأطفال الآخرين خاصة الفتيات ، ولكنها ستكون مع الطبيب الذى يحاول أن يوقف هذه المعارك ، وستقوم المشاعر – المتخلفة عن هذه الأحلام – بخلق الجو المناسب له ليستمر فى هذه المعارك الوهمية ، ويصبح بطلاً ، ويسيطر على الآخرين ، وإذا لم نستطع أن نقنعه ونظهر له أنه يخدع نفسه بهذه الطريقة فإنه لا توجد طريقة لعلاجه وتقديم العون له.

عندما تم شرح الحلم له في العيادة ، فإنه شعر أنه يعيش في بيئة معادية ، وأن الجميع يريد عقابه والاحتفاظ به في المكسيك ومنعه من العوده لأمريكا فإن الجميع أعداؤه ، وعند قدومه إلى العيادة في المرة التالية سألته :

" ماذا حدث لك منذ كنت هنا آخر مرة ؟ ".

" لقد كنت صبيا سَيِّئ السلوك ".

" ماذا فعلت ؟ ".

" لقد طاردت بعض الفتيات الصغيرات ".

إن هذا أكثر من اعتراف ؛ لأنه هناك نوعًا من التفاخر والهجوم ، نحن هنا في عيادة حيث يحاول الناس مساعدته ، ولكنه يصر على كونه صبيا سَيِّئ السلوك ، فهو كمن يقول :

" لا تتعشم حدوث أي تحسن ؛ فأنا سأقوم بضربكَ في معدتك أيضًا ".

ماذا نفعل مع مثل هذا الصبي ؟ فهو مازال يحلم ، وهو مازال يلعب دور البطل (راعي البقر) ، ويجب علينا أن نفقده هذا الشعور بالرضا الذي يملؤه عندما يلعب هذا الدور.

-" هل تعتقد أن هذا البطل الموجود في حلمك يمكن أن يقوم بمطاردة الفتيات الصغيرات ؟ ألا تعتقد أن هذا نوع سَيِّئ جدا من البطولة ؟! لو أنكَ أردت أن تكون بطلاً ، فإن عليكَ أن تطارد فتاة كبيرة وقوية ، أو ربما يجب عليكَ أن تتوقف عن مطاردة الفتيات كلية أليس كذلك ؟ ".

هذا هو أحد جوانب العلاج ، فيجب علينا أن نفتح عينيه على أخطائه ، ونجعله أقل تحفزًا ورغبة على الاستمرار في هذا الأسلوب في الحياة.

فالواجب علينا أن نبصق في شوربته (*) كما يقول المثل الألماني القديم ، وبعدها سوف يكره هذه الشوربة إلى الأبد ، والجانب الآخر من العلاج

(*) ترجمته في الإنجليزية هي spit in his soup ، ويعني بهذا محاولة أن نجعله كارهاً لما اعتاد أن يحبه من قبل (المترجم) .

هـو إعطائه الشجاعة على " التعاون " بأن نجعل لحياته معنى بطريقة مفيدة اجتماعيا ، فلا أحد يتبنى سلوكًا غير اجتماعى إلا عن خوف من الفشل إذا ما ظلوا فى الجانب الاجتماعى من الحياة.

الحالة الرابعة

امرأة فى الرابعة والعشرين من عمرها تقوم بأعمال السكرتارية تشكو من أن رئيسها يجعل حياتها غير محتملة بأوامره ونواهيه غير المعقولة ، كما أنها تشعر بعدم قدرتها على تكوين صداقات والاحتفاظ بالأصدقاء.

من واقع الخبرة فإن الفرد الذى لا يستطيع الاحتفاظ بالأصدقاء هو شخص يرغب فى السيطرة على الآخرين ، إن اهتماماته الحقيقية تتركز على نفسه . وهدفه الأساسى هو إظهار تفوقه الشخصى (إحراز " التفوق ") ، وربما يكون رئيس هذه المرأة من هذا النوع من الأفراد - أيضًا - فكلاهما يرغب فى التحكم فى الآخرين .

عندما يتقابل فردان من هذا النوع فإنه من المتوقع أن تظهر المتاعب ، فالمرأة هى أصغر إخوتها وأخواتها السبعة وأكثرهم تدليلا ، وكانوا ينادونها بـ " توم " لأنها كانت ترغب دائمًا فى أن تكون ولداً ، مما يجعلنا نظن أنها قد ربطت بين تحقيق هدفها فى "التفوق" وبين الذكورة ؛ فهى تظن أنه من أجل تحقيق السيادة والتحكم فى الآخرين وأن لا يتحكم فيها أحد ، فإن عليها أن تكون رجلاً.

إنها جميلة ولكنها تظن أن الناس معجبون بها فقط بسبب وجهها الجميل وهى فى خوف دائم من أن يحدث لها شىء ، فالأشخاص الجذابين - فى مجتمعنا - يجدون أنه من السهل عليهم أن يثيروا إعجاب الآخرين والتحكم فيهم عن طريق جاذبيتهم الجسدية وهذه المرأة تعلم هذا تمام العلم ، ولكنها تريد أن تصبح ولداً وأن تتحكم فى الآخرين بالطريقة التى يتحكم بها الذكر ، ولهذا فهى غير مهتمة بكونها أنثى جميلة.

إن أول ما استطاعت - هذه المرأة - تذكره هو أن رجلاً ما قد أخافها وأثار فزعها ، وهى تعترف بأنها لا تزال خائفة من الوقوع ضحية للصوص والمهاجمين ،

وربما يبدو غريبًا على اِمرأة ترغب فى أن تكون ذكرًا أن تعانى من مثل هذا الخوف ، ولكنه لا يوجد وجه للغرابة ، فإن مشاعر الضعف و" عقدة النقص " Inferiority complex " هى التى تملى عليها هدفها.

فهى تريد أن تصبح فى ظروف تمكنها من التحكم فى الآخرين وإخضاعهم ، وهى لهذا ترغب فى التخلص من كل الظروف الأخرى ، واللصوص والمهاجمون هم من هذه المجموعة من الظروف التى ترغب فى التخلص منها ؛ لأنها لا تستطيع التحكم فيها . إنها ترغب فى أن تكون قوية عضليا بطريقة سهلة وأن تلجأ إلى الظروف المخففة لو فشلت . إن عدم الاقتناع وعدم الرضا بالدور الأنثوى أمر شائع جدا حتى إننى أطلقت عليها اسم " الاحتجاج الذكرى أو الاحتجاج على الرجولة " The masculine protest وهى تكون دائمًا مصحوبة بمشاعر التوتر فهى كمن يقول :

" أنا رجل أقاتل ضد عيوب كونى امرأة ".

والآن دعنا نحاول اقتفاء أثر هذا الشعور نفسه فى أحلامها :

لقد كانت كثيراً ما تحلم بأنها وحيدة ، وحيث إننا نعلم أنها كانت طفلة مدللة فإن هذا الحلم يعنى "أن على الجميع أن يعتنوا بى ، ويراقبونى برعاية طوال الوقت ؛ لأنه خطر كبير على أن أترك وحيدة فمن الممكن أن يحاول الآخرون مهاجمتى وإخضاعى".

وفى حلم آخر تكرر مراراً كانت تفقد حقيبة يدها وهذا الحلم يعنى أن "على أن أكون حريصة فأنا فى خطر دائم من أن أفقد أشيائى" ، وهى لا ترغب فى أن تفقد أى شىء وخاصة قدرتها على التحكم فى الآخرين ، لقد اِختارت حادثة وحيدة فى حياتها – فقدان حقيبة يدها – وجعلت منها أهم حدث ، وها نحن نرى – مرة أخرى – كيف أن الأحلام قامت بتأكيد أسلوب الحياة عن طريق خلق وإثارة المشاعر ، فلم يحدث فى الواقع أن فقدت هذه المرأة حقيبة يدها ولكنها تحلم بأن هذا قد حدث والحلم يَخْلُقُ مشاعر جديدة ويثير مشاعر قديمة ،

وكل هـذه المشاعـر تـبـقى بعـد الحلم خالقـة الجـو المناسـب ، والـذى يؤكد أسـلـوبـهـا فى الحياة .

ويوضح الحلم التالى موقفها بوضوح أكثر " ذهبت إلى حمام السباحة ، وكان مـزدحـمًـا بالناس ، ولاحظ أحـدهـم أننى كنت أقف على رءوس الآخـرين وبدا لى أن بعضـهم كـان يصـرخ عندمـا شـاهـد هـذا كمـا أننى كنت فى خطر عظيم ؛ لأننـى كنت معرضة للسقوط ".

لـو أنـنى كنـت نحـاتًا لقمت بنحت تمثـال لهـا فى هـذا الوضـع بعـينه واقـفـة على رءوس الآخـرين ، فهـذا الـوضع يصـفـهـا بـدقة ، فـهى تسـتخـدم الآخرين كما يستخدم التمـثـال القاعدة التى يقف عليـهـا ، هـذا هـو أسـلـوب حـياتها ، وهـذه هى المشاعر التى تحـب هى أن تثيرها ، ولكـن رغم كل هـذا فـهى تـرى نـفسـهـا فى وضع غريب وهى تـعـتـقـد أنـه على الآخرين أن يقـدروا مدى خطـورة وضعها هـذا ! ، ويجب على الآخـرين أن يعتنوا بها ويـراقـبوها ويرعـوها طوال الوقت حتى تتمكن من الاستمرار فى الوقـوف على رءوس الآخـرين بسلام وفى أمـان تام !! ، إنها لا تـشعر بالأمـان الكافى لـتـقـوم بالسـباحـة فى مـيـاه الحمام وهذا هـو ملخص شـديد ومـركز لقصة حياتها.

أما هدفها النفسى فقد أصبح " أن تكون رجلاً على الرغم من كونها امرأة " وهى بالغـة الطمـوح - مثلهـا فـى ذلك مـثل مـعظم الأطفـال الذين يكون ترتيـبـهم الأخـيـر (الأصغر) بين إخوتهم - ولكنها تشتهى أن تبدو متفوقة بدلاً من أن تستجيب بطريقة مناسبة لموقفها الحقيقى بينما تطاردها مخاوف الهزيمة دائمًا.

إذا أردنا مسـاعدة مثل هـذه المرأة فـإنه يجب علينا أن نعقـد صلحًا بينهـا وبين الدور الأنثـوى للمـرأة والذى تعتـقـد أنـه يعوق سـعـيهـا نحو تحقيق هـدفها "التـفـوق" ، وأن نزيل مـخاوفـهـا وتقديرها المبالغ فيه للجنس الآخر (الرجل) ، كمـا أنه يجب علينا أن نساعدها فى الحصول على الشعور بالصداقة والمساواة بينها وبين الآخرين.

الحالة الخامسة

فتاة قُتِل أخُوها الأصغر فى حادثة عندما كانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وعندما سألنا هذه الفتاة عن ذكرياتها الأولى قالت :

" عندما كان أخى الصغير لا يزال رضيعًا كان يحاول أن يتعلم المشى فأمسك بمقعد محاولاً أن يساعد نفسه على الوقوف ، ولكن المقعد سقط فوقه "٠

نرى هنا أن هذه الفتاة متأثرة جدا بالأخطار المحيطة بنا فى هذا العالم والحوادث التى يمكن أن تنتج عن مثل هذه الأخطار٠

" لقد تكرر حدوث هذا الحلم الشديد الغرابة فأنا أمشى فى هذا الشارع وحيدة وهناك حفرة عميقة غير مغطاة فى هذا الشارع ، ولم أستطع رؤية هذه الحفرة ولهذا وقعت فيها ، كانت الحفرة مملوءة بالماء وعندما لمست المياه جسدى استيقظت مفزوعة ، وقلبى يدق بسرعة شديدة "٠

لعلنا نجد أن هذا الحلم ليس غريبًا جدا كما وصفته هذه الفتاة ، ولكن إذا كان عليها أن تستمر فى إزعاج نفسها بأحداث هذا الحلم فإنها تجد من الواجب عليها التفكير فى الحلم على أنه غريبٌ جدا وغامض وأن تفشل فى فهمه ، إن الحلم يقول لها : "كونى على حذر فهناك أخطار كثيرة لا تعرفين أى شىء عنها" ، ولكن هذا الحلم يقول لنا أكثر من هذا ، فهو يقول لنا " إنها لن تسقط إذا ما كانت بالفعل على الأرض" ، وحيث إنها تعتقد أنها فى خطر السقوط فلابد أنها تعتقد أنها فوق الآخرين ، كما فى المثال السابق :

و"أنا متفوقة على الجميع ، ولهذا فإنه من الواجب على أن أكون حريصة وإلا تعرضت للسقوط"٠

الحالة السادسة

عندما سئلت فتاة أخرى عن ذكرياتها الأولى أجابت قائلة :

-" أنا أتذكر أننى كنت شديدة الاهتمام بمراقبة مجمع من الشقق السكنية تحت البناء قريباً من مسكنى و ... "٠

يمكننا استنتاج أن مثل هذه الفتاة مهتمة بـ " التعاون " ، ورغم أن فتاة صغيرة مثلها لا يمكن أن يُتوقع منها أن تُشارك فى بناء مجمع سكنى ، ولكن مجرد الاهتمام الشديد الذى أظهرته أوضح لنا مدى المتعة التى تجدها فى الاشتراك فى مهام مشتركة مع الآخرين٠

-" ... وكنت لا أزال طفلة صغيرة أقف إلى جوار النافذة الطويلة جدا ، وأنا أتذكر كل هذا كما لو أنه قد حدث بالأمس القريب و ... "٠

إذا كانت تتذكر أن النافذة كانت طويلة ، فلابد وأن هناك تبايناً واضحًا بين مفهوم الطول ومفهوم القصر فى عقلها ، فهى كمن يقول "النافذة كانت طويلة وأنا كنت قصيرة" ولن يدهشنى إذا ما اكتشفت أن هذه الفتاة أقصر من المتوسط وأن هذا هو ما جعلها تهتم بالمقارنة بين الأطوال والأحجام ، وقولها إنها تتذكر ما حدث كما لو أنه قد حدث بالأمس القريب ما هو إلا نوع من المباهاة والمفاخرة٠

" ... وذات مرة كنت أركب فى سيارة مع بعض الأشخاص الآخرين و... "٠

إنها من النوع المتعاون كما كنت أظن ، فهى تحب أن تكون فى صحبة الآخرين٠

" ... ومضينا نقود السيارة حتى وصلنا إلى غابة ، وهناك خرج الجميع من السيارة ، وبدءوا فى الجرى واللعب فى جميع أنحاء الغابة ، وكان معظمهم أكبر منى سنا و ... "٠

ها نحن نرى مرة أخرى اهتمامها بقياس الفروق فى الحجم٠

" ... ولكننى تمكنت من الوصول فى الوقت المناسب ، وتمكنت من ركوب المصعد ونزلنا جميعًا إلى منجم عمقه عشرة أقدام ، وظن الجميع أننا إذا ما حاولنا النزول لأكثر من هذا فإن الهواء سيكون فاسدًا و ... ".

ها هى تصور أحد الأخطار ، ومعظم البشر يخافون من أشياء بعينها ، فالإنسان لا يتصف بالشجاعة الشديدة.

" ... ولهذا خرجنا بأمان ، واكتفينا من الغنيمة بالإياب و ...".

ها نحن هنا نرى التفاؤل فى كلماتها وهذا طبيعى فعندما يكون الفرد متعاونًا فإنه دائمًا ما يكون شجاعًا ومتفائلاً.

" ... بقينا فى الجوار لبضع دقائق ثم جرينا عائدين نحو السيارة ".

أنا مقتنع تمام الاقتناع أن هذه الفتاة مهتمة بـ " التعاون " ولكن لديها انطباعًا ورغبة فى أن تصبح أكبر وأطول ، وسوف نجد بعض التوتر بسبب هذا ، فهى كمن يقف على أطراف أصابعه، ولكن تأثير كل هذا سيضمحل بسبب حبها للآخرين واهتمامها بالإنجازات المشتركة التى يمكن أن تحدث عندما تتعاون مع الآخرين.

الفصل السادس

تأثير العائلة

دور الأم

منذ لحظة الولادة الأولى يسعى الطفل نحو الارتباط بأمه ، ويكون تحقيق هذا الارتباط هو هدف جميع تصرفاته ، فلشهور كثيرة قادمة سوف تلعب الأم الدور الأساسى والحيوى فى حياته ، وسيكون الطفل معتمداً بصورة كاملة عليها ، وفى مثل هذه الظروف يمكن لقدرة الطفل على " التعاون " أن تتطور وتنمو.

فالأم تعطى الطفل أول علاقة له بفرد آخر من الجنس البشرى ، وبالتالى تكون أول شىء يهتم به الطفل بعد ذاته ، فالأم هنا تمثل الجسر الأول الذى يربط بينه وبين الحياة الاجتماعية ، والطفل الذى لا يرتبط بأمه على الإطلاق - أو بأى شخص آخر يحل محلها - فلابد من أن يواجه الموت.

وبما أن هذه الرابطة حميمة جدا وبالغة العمق والتشعب ، فإن هذا يعنى عدم وجود أى صفات شخصية أو مميزات يمكن إرجاعها إلى تأثير عامل الوراثة خاصة بعد مرور بضع سنوات على استمرار وجود هذه العلاقة القوية بين الأم وطفلها ، فأى ميول يمكن أن تكون قد ورِثت تتغير وتتحول بالتدريب والتعليم وإعطاء القدوة الحسنة من الأم ، فإن مهارتها أو عدمها تؤثر على كل الإمكانيات المستقبلية للطفل ، ومعنى مهارة الأم قدرتها على " التعاون " مع طفلها ، وقدرتها على إقناعه بأهمية " التعاون " معها ومع الآخرين ، إن هذه القدرة لا يمكن تعليمها أو تدريسها كمجموعة من المبادئ والقواعد ؛ فهناك مواقف جديدة تنشأ كل يوم ، وهناك آلاف مؤلفة من النقاط التى يجب

عليها أن تعطى فيها رأيها وخبراتها الشخصية وفهمها وتوافقها مع حاجات الطفل الشخصية ، ويمكنها أن تكتسب هذه الخبرة والمهارة لو أنها كانت مهتمة اهتمامًا حقيقيا بابنها ويكسب حبه لها وبتوفير حياة آمنة له.

ونحن نستطيع أن نرى موقف الأم فى جميع نشاطاتها ، فعندما تلتقط الأم الطفل وتحمله وتتكلم معه وتنظفه وتغذيه ، فكل ما سبق ما هو إلا فرص لزيادة الارتباط بين الأم وطفلها ، وإذا كانت الأم غير ماهرة فى مثل هذه المهام أو غير مهتمة بإنجازها على الوجه الأكمل ، فإن الطفل سيلاحظ هذا وسيقاومها ، فلو أنها على سبيل المثال لا تعرف كيف تقوم بإعطاء الطفل حمامه فإن الطفل سيجد أن وقت الحمام هو وقت عصيب ولن يستمتع بالتجربة ولن يرغب فى تكرارها ، وبدلاً من أن يزداد ارتباطه بأمه فإنه سيحاول التخلص منها والابتعاد عنها. ولهذا يجب على الأم أن تكون ماهرة وخبيرة فى الطرق التى تستخدمها مع طفلها من الطريقة التى تضع بها الطفل فى سريره إلى الأصوات والحركات التى تصدر عنها وهى معه ، كما أنها يجب أن تكون ماهرة أيضًا فى مراقبتها له أو تركه وحيداً.

فمن الواجب عليها أن تأخذ جميع الظروف المحيطة به فى الاعتبار ، فمن هواء نقى وحرارة مناسبة للغرفة التى ينام فيها إلى تغذية سليمة وأوقات معينة للنوم والتغذية وعادات فى النظافة والنظام ، فهى فى كل مناسبة تعطى طفلها فرصة لكى يحبها أو يكرهها وسببًا لكى " يتعاون " أو يرفض " التعاون " معها.

لا يوجد سر غامض أو وصفة سحرية لاكتساب مهارات الأمومة ، فكل مهارة ما هى إلا نتيجة للاهتمام فى التدريب والتعلم ، ويبدأ الاستعداد لمرحلة الأمومة مبكرًا جدا فى حياة المرأة وتكون الخطوة الأولى واضحة فى موقف الفتاة من إخوتها الصغار ومن الأطفال عمومًا وفى اهتمامها بالأطفال الرضع والمهام اللازمة للعناية بهم.

ولهذا فإننى لا أنصح بتعليم الفتيان والفتيات المهام نفسها طوال الوقت كما لو أنه لن يكون هناك فارق بين ما سوف يطلب من الفتيان ، وما سوف يطلب

من الفتيات ، فإذا ما أردنا إنتاج جيل جديد من الأمهات الماهرات فإن علينا تعليم الفتيات وإعدادهن لمرحلة الأمومة ، وبحيث نجعلهن يحببن مهمة الأم ، وينظرن إليها على أنها نشاط خلاق ونافع للمجتمع بأكمله.

من سوء الحظ أن الحضارة الغربية لا تنظر لوظيفة الأم بالاحترام الكافى ، فالفتيان مفضلون على الفتيات ودورهم فى المجتمع أعلى وأعظم من دور الفتيات ... ولهذا فمن الطبيعى أن تكره الفتيات مهامهن المستقبلية ودورهن فى الحياة – فمن الطبيعى أن يكره أى شخص الأدوار الدونية – وأن لا تقنع بدور أقل من دور الفتيان وعندما تتزوج أمثال تلك الفتيات فإنها تظهر قدراً كبيراً من المقاومة وعدم الحب لدورها فى الحياة ، فهى لا تتطلع للقيام بدور الأمومة وهى غير مستعدة لاستقبال الأطفال فى حياتها.

هذا هو – فى رأيى – أعظم المشاكل التى تواجه مجتمعنا الحالى خاصة أنه لا يوجد من يقوم بأى مجهود كافٍ لمواجهتها ، ولكن علينا أن نتذكر أن وجود المجتمع الإنسانى بأكمله مرتبط بموقف المرأة من الأمومة.

فى كل مكان تقريبًا هناك عدم تقدير لدور المرأة فى الحياة ، بل إن الكثيرين ينظرون إلى دور المرأة على أنه دور ثانوى لدور الرجل ، حتى فى مرحلة الطفولة نجد أن الفتى ينظر إلى العمل المنزلى على أنه وظيفة الخدم والنساء فقط ، كما لو كان القيام بالمساعدة فى المنزل هو أمر ضد كرامة الرجل وعزة نفسه ، ومازالت الأعمال المنزلية ينظر إليها على أنها عمل شاق غير مرغوب فيه وتجبر المرأة على أدائه.

لو أن المرأة تمكنت من أن تنظر إلى بناء الأسرة والأعمال المنزلية على أنها " فنٌّ جميلٌ " تستطيع بواسطته – إذا أرادت – أن تضفى البهجة على حياة الآخرين ، فهى تستطيع أن تجعل منه مهمة مساوية فى أهميتها لمهام الرجل أو عملاً أحقر من أن يقوم به الرجل ، لهذا نجد الكثير من النساء يقاومون ويثورون ضد وظيفتهن فى الحياة فتحاول الواحدة منهن إثبات أنها مساوية للرجل فى كل شىء – وهو أمر واضح ولا يحتاج إلى إثبات – وأنها تستحق فرصة تطوير إمكانيتها المستقبلية ، ولكن الإمكانيات المستقبلية يمكن تطويرها فقط من خلال الشعورالاجتماعى،

وهذا الشعور الاجتماعى سوف يوجه المرأة فى الاتجاه الصحيح بشرط عدم وضع قيود على نموهن وتطورهن.

عندما لا يُعطى دور المرأة حق قدره فإننا نفقد التناغم الذى يجب أن يسود الحياة الزوجية ، وكل امرأة تنظر باحتقار لمهام الأمومة ستجد من الصعب عليها تعلم المهارات اللازمة للقيام بمهامها ، كما أنها ستجد أن محاولة فهم الأطفال والتعاطف معهم هى مهمة شاقة لا رغبة لها فى القيام بها ، أيضًا فإنها ستجد أنه من الصعب عليها الارتباط بأطفالها لأن هدفها فى " التفوق " سوف يمنعها من ذلك ، وهدفها لا يشابه هدف غيرها من الأمهات ؛ فهى غالبًا ما تكون مشغولة فى محاولاتها الدائمة لإثبات تفوقها الشخصى.

وعندما ننظر إلى الأمور من وجهة نظر أم تبحث عن التفوق الشخصى فإن الأطفال ينظر إليهم على أنهم عبءٌ ومضيعة لوقتها وتشتيت لجهودها المركزة لتحقيق هدفها ، وعندما نقتفى أثر الكثير من الفشل فى الحياة فإننا دائمًا ما نجد الأم التى لم تؤد وظائفها بطريقة كافية وسليمة ولم تعط طفلها ما كان فى حاجة إليه حتى يبدأ معركة الحياة وهو مستعد لمواجهة مشاكلها ، فعندما تفشل الأم ، وتكون غير راضية بالمهام الموضوعة على عاتقها، ولا تهتم بأطفالها فإن الجنس البشرى يكون فى خطر بالغ.

إنه لا يمكننا النظر إلى الأم على أنها المذنب الوحيد فى هذا الفشل ، فربما لم يتم تدريب الأم نفسها على " التعاون " ، وربما تكون تعيسة وتعانى من الكبت فى حياتها الزوجية ، وأيضًا ربما تكون مرتبكة وقلقة بسبب الظروف المحيطة بها وربما تكون حالتها النفسية قد وصلت إلى نوع من الشعور باليأس الكامل ، فإن هناك الكثير من الأوضاع التى يمكن أن تعوق النمو والتطور الصحى للحياة العائلية.

وعندما تكون الأم مريضة فإنها قد ترغب فى " التعاون " مع الأطفال ولكنها تشعر بأنها مرهقة وغير قادرة على القيام بهذا ، وعندما تكون الحالة الاقتصادية صعبة فإنه حتى الأشياء البسيطة مثل الملبس والمأكل والمشرب ، وحتى درجة حرارة الجو يمكنها أن تتسبب فى مشاكل كبيرة لها ولأطفالها.

إن ما يمر به الأطفال من خبرات لا يملى عليهم بالضرورة الأفعال التى يقومون بها ؛ ولكن ما يحدد شكل وطبيعة هذه الأفعال هو الاستنتاجات التى استخرجوها من مرورهم بهذه الخبرات ، وعندما نبدأ فى التحقيق فى ماضى الطفل ذى المشاكل Problem child فإننا غالبًا ما نجد أن العلاقة بين الطفل وأمه كانت مليئة بالكثير من الصعوبات ، ولكن يمكن رؤية النوع نفسه من الصعوبات لدى العديد من الأطفال الآخرين الذين نجحوا فى التعامل مع هذه الصعوبات وفى التغلب عليها.

وهذا يعود بنا للحديث عن وجهة النظر الأساسية لعلم النفس الفردى :

إنه لا توجد أسباب ثابتة تؤثر على نمو وتطور الشخصية ، ولكن الطفل يستخدم الخبرات التى يمر بها ليصل إلى هدفه ، عن طريق تحويل وتحوير فهمه الخاص لهذه الخبرات إلى أسباب تبرر النظرة التى ينظرها إلى الحياة.

و على سبيل المثال فإننا لا نستطيع أن نقول إن الطفل إذا ما تمت تغذيته بطريقة سيئة فإنه سيصبح مجرمًا ؛ لأننا يجب أن نرى أولاً ما هو الاستنتاج الذى خرج به هذا الطفل من تجارب الجوع التى مر بها.

إنه من الواضح لو أن المرأة كانت غير راضية عن دورها كأم ، فإن كلا من الأم والأطفال سيواجه الكثير من الصعوبات والضغوط ، ولكننا نعرف مدى قوة غريزة الأمومة ، وإن الدراسات والبحوث قد أوضحت أن ميل الأم لحماية أطفالها هو أكثر ميول الأم قوة ، وقد وجدنا أن غريزة الأمومة بين الحيوانات - مثل الفئران والقردة العليا- أقوى من الغريزة الجنسية ، ومن دوافع مثل الجوع أو الحفاظ على الذات ، وعلى هذا فإن مثل هذه الحيوانات إذا كان عليها أن تختار بين إشباع غريزة البقاء أو التكاثر ، وبين غريزة الأمومة ، فإنها تختار الأخيرة.

إن الأساس الذى بنيت عليه غريزة الأمومة هو - أساسًا - غيرُ جنسى ، ولكنه ينبع من هدف التعاون ، فإن الأم تعتبر الأطفال جزءًا من نفسها ، وهى تنظر إليهم على أنهم حلقة الوصل بينها وبين الحياة بأكملها ، وهذا يشعرها بأن لديها القوة والقدرة على منح الحياة والموت ، ونستطيع أن نجد فى كل أم الشعور بأنها

– من خلال أطفالها – قد استطاعت بالفعل أن تخلق شيئا ما ، وهذا يشعرها بأن لها بعض قدرات الآلهة.

ويمكن القول بأن رغبة المرأة فى أن تصبح أما ما هى إلا أحد جوانب السعى نحو تحقيق " التفوق " ومحاولة البشر التشبه بالآلهة.

كما أن هذه الرغبة تعطينا مثالاً واضحًا فى الكيفية التى يستخدم بها هذا الهدف من أجل البشرية ومن أجل الاهتمام بالآخرين وفى تناسق مع أعمق المشاعر الاجتماعية.

إن أى أم قد تبالغ فى شعورها بأن أطفالها ما هم إلا جزء لا يتجزأ منها وقد تستخدمهم فى تحقيق هدفها الشخصى فى إحراز " التفوق " ، فإنها ربما تحاول جعل الأطفال معتمدين عليها كل الاعتماد حتى يمكنها التحكم فى حياتهم، ويظلون مرتبطين بها إلى الأبد برباط لا يمكن فصمه ، ودعنى أصف لكم حالة هذه الأم التى تبلغ من العمر سبعين عامًا والتى كانت تعمل بالفلاحة :

كان لهذه الأم ابن يبلغ من العمر حوالى الخمسين ، وكان هذا الابن لا يزال يعيش معها ، وقد أصيب كلٌ منهما بداء الرئة (الالتهاب الرئوى) فى الوقت نفسه وتمكنت الأم من التعافى ، ولكن الابن نُقل إلى مستشفى حيث توفى ، وعندما تم إبلاغ الأم بوفاة ابنها فإنها قالت :

" كنت أعلم دائمًا أننى غير قادرة على توفير الرعاية والعناية اللازمة له حتى ينمو ويتطور بأمان ".

لقد شعرت هذه الأم بأنها مسئولة عن "كل" حياة ابنها ، فهى لم تحاول قطُّ مساعدته على أن يصبح عضوًا كاملاً فى المجتمع ، بل أرادت أن يظل مرتبطًا بها مدى الحياة ، إننا نستطيع الآن أن نفهم مدى فشل هذه الأم فى توسيع صلات ابنها بالمجتمع من حوله وبالتعاون معه على قدم المساواة.

إن علاقات الأم ليست بسيطة ، ولكن حتى صلتها بأطفالها لا تجوز المبالغة فى تأكيدها ، وهذا فى صالحها ، وفى صالح أطفالها أيضًا ؛ لأنه عندما تتم المبالغة

فى التـأكيـد على أى مشكلة فإن باقى المشـاكل يتم إهـمالهـا ، وحتى المشكلة التى تم التركيز عليها لا يمكن التعامل معها بفاعلية عندما نعطيها أهمية أكثر مما تستحقه.

إن الأم ترتبط بأطفالها وبشـريك حـيـاتهـا ، وبكل المجـتـمع المحـيط بـهـا ، وهذه الروابط الثلاثة يجب أن تعطى قدراً مُتَسَاوِيًا تمامًا من الاهتمام ، فكل منها يجب أن يواجه باستخدام الهدوء والمنطق السليم ، وعندما تركز الأم على الرابطة التى تربطها بأطفالها فإنها تصبح غير قادرة على تجنب تدليلهم بطريقة مبالغ فيها وهذا سيجعل من الصعب عليهم تحقيق نمو وتطور صحى مستقل كما أن قدراتهم على التعاون مع الآخرين سوف تتأثر أيضًا.

التصرف الصحيح هو : إنه على الأم بعد أن تنجح فى توثيق صلاتها بأطفالها أن تعمل على توسيع اهتماماتهم حتى تشمل الأب أيضًـا ، وسيكون من المستحيل عليـها إنجاز وتحقيق هذه المهمة إذا لم تكن هى نفسها مهتمة اهتمامًا حقيقيا بالأب ، كما أنه يجب عليها أيضًا أن توجه اهتمام الأطفال نحو بيئتهم الاجتماعية : مثل الأطفال الآخـرين فى العـائلة والأقـارب والأصـدقـاء وباقى أعـضـاء المجـتـمع عمـومًـا ، وكل هذا يضاعف من حجم مهمتها ؛ لأنها تعطيهم المذاق الأول من خبرة التعامل مع شخص يستحق الثقة ، كما أن عليها أن تجعلهم مستعدين لأن يشملوا بهذه الثقة باقى أفراد المجتمع.

لو أن الأم كانت مهتمة فقط بجعل الأطفال مرتبطين بها فإن الأطفال سيرفضون – فيما بعد– كل المحاولات التى تبذل لجعلهم مهتمين بالمجتمع وسينظرون إلى أمهم على أنهـا مـصـدر العـون والتـأييد وسـيشـعـرون بالعداء تجـاه أى شـخـص يحـاول منافستهم فى الحصول على حبها واهتمامها ، وكل اهتمام تحاول الأم أن تظهره نحو شريك حـياتها أو نحو الأطفال الآخرين فى العائلة سـيعتبر – من وجهـة نظرهم – حرمـانًا من مما كـان يمكن أن يتـمـتـعـوا هم به ، وكل طـفـل من أطفـالهـا ستكون له وجهة النظر القائلة :

" إن أمـى ملكى أنا وحدى فـقـط ولا يحق لأى شـخص آخـر أن يشاركنى فيها أو فى وقتها ".

إن معظم أطباء النفس المعاصرين قد أساءوا فهم الوضع ، فإن عقدة أوديب - طبقًا لما قاله فرويد فى نظريته- تفترض أن الفتى لديه الميل ؛ لأن يقع فى حب أمه ويرغب فى أن يتزوجها ، وأنه لهذا يكره أباه ويرغب فى قتله ، ولكن مثل هذا الخطأ لا يمكن أن يظهر لو أننا تفهمنا نمو وتطور الأطفال بطريقة صحيحة ، فإن عقدة أوديب تظهر فى الطفل الذى يرغب فى أن يظل مركز اهتمام أمه وأن يتخلص من أى شخص آخر ، إن مثل هذه الرغبة ليست رغبة جنسية ، وإنما هى رغبة فى الاستحواذ على الأم وفى التحكم الكامل فيها وفى جعلها خادمًا دائمًا له ، وهى ممكنة الحدوث للطفل الذى تعرض لكثير من تدليل أمه الزائد عن الحد والذى لا يشعر بأى اهتمام نحو باقى أفراد المجتمع .

هناك بعض الحالات الشاذة والفريدة فى نوعها ، وفيها حاول الصبى المرتبط بأمه فقط أن يجعل منها هدفًا لمحاولاته لحل مشكلة الحب والزواج ، ويمكننا تفسير موقف مثل هذا الصبى بأنه أصبح عاجزًا تمام العجز عن التعاون مع أى شخص غير أمه ، وأنه أصبح غير قادر على أن يثق بأى امرأة أخرى لأن تحبه وتهتم به وترعاه وتخدمه كما تفعل أمه ، وهكذا فإن عقدة أوديب ما هى إلا ناتج صناعى للأخطاء التى ارتكبت فى تنشئة الطفل ، ولا يوجد أى سبب على الإطلاق يجعلنا نفترض وجود غرائز مورثة تدفع لمثل هذا النمط من السلوك ، كما أنه لا يوجد أى سبب جنسى يدفع لمثل هذا النوع من الشذوذ.

عندما يوضع الطفل - المرتبط ارتباطًا شديدًا بأمه - فى موقف يجعله غير قادر على أن يظل قريبًا من أمه فإن الكثير من المشاكل تبدأ فى الظهور ، فعندما يذهب هذا الطفل إلى المدرسة أو عندما يذهب للعب مع أقرانه فى الحديقة ، فإن هدفه يظل دائمًا البقاء بقرب أمه ، وسيرفض بشدة كل ما يجعله ينفصل عنها ، كما أن مثل هذا الطفل تملؤه الرغبة فى اصطحاب أمه معه فى كل مكان حتى يتمكن من أن يظل محور تفكيرها واهتمامها الدائم ، وهناك العديد من الطرق التى يمكن لمثل هذا الصبى أن يتبعها لتحقيق هذا ، فبإمكانه أن يصبح طفلها المدلل الحنون والضعيف

الذى يحتـاج دائمًـا إلى حنانهـا ، أو يكون بإمكانه أن يكثـر من البكاء والنحيب كلمـا ابتعدت عنه ، أو يصبح شديد المرض فى كل مرة يحدث له ما لا يرضى عن حدوثه (من أجل إظهار مدى حاجته لحنانها ورعايتها) ، ومن ناحية أخرى فإنه قد يحاول أن يفتجر غاضبًا أو يرفض طاعتها ويجادلها فى كل صغيرة وكبيرة حتى يجذب اهتمامها . والكثير من الأطفال ذوى المشاكل ما هم إلا أطفال مدللون لازالوا يبحثون عن طريقة يصبحون بها مركز اهتمام الأم ويرفضون أى تعاون مع باقى أفراد المجتمع .

إنه من السخف والغباء أن تتخيل أن أحسن طريقة لعلاج الأخطاء التى ارتكبتها الأم .. هى نزع الأطفال منها وإعطائهم لمجموعة من الممرضات أو معاهد الرعاية ، فإننا عندما نحاول أن نجد من يحل محل الأم إنما نبحث عن من يستطيع القيام بلعب دورها ومن يستطيع أن يجذب اهتمام الطفل كما تفعل الأم ، ولهذا فإنه من الأسهل تدريب أم الطفل على القيام بهذا ؛ لأن الأطفال الذين ينشئون فى الملاجئ ومعاهد الرعاية كثيرًا ما يظهرون اهتمامهم بالآخرين فإن غياب الأم جعل الجسر بينهم وبين باقى البشر غير موجود .

لقد تم إجراء الكثير من التجارب على الأطفال الذين يعانون من قصور فى نموهم وتطورهم والموجودين فى مثل هذه المعاهد ، فيتم تخصيص ممرضة أو راهبة للعناية بهذا الطفل ، وأحيانا تم وضع الطفل مع أحد الأسر البديلة **Folter family** وكانت الأم ترعى الطفل اليتيم مع أولادها ، وكانت نتائج مثل هذه التجارب هى تحسن كبير فى حالة الطفل اليتيم وفى مستوى نموه وتطوره .

إن أفضل الوسائل لتنشئة مثل هذا الطفل اليتيم هى : إيجاد من يحل محل أمه وأبيه وتزويده بحياة عائلية متكاملة ؛ لأنه إذا كان علينا أن نأخذ الطفل من والديه فإن علينا أن نبحث عمن يقوم بدورهم بطريقة أفضل .

إن أهمية حب الأم ورعايتها لطفلها تصبح واضحة إذا ما عرفنا أن العديد من الأطفال ذوى المشاكل يخرجون من بين الأطفال الأيتام المحرومين من وجود الأم على وجه الخصوص .

إن دور زوجة الأب صعب للغاية ؛ لأن الأطفال من الزواج الأول يعادونها أشد العداء ، ولكن المشكلة ليست مستحيلة الحل ولقد رأيت الكثير من زوجات الأب اللائى أحرزن نجاحًا كبيرًا فى ملء دور الأم ، ولكنه على أن أعترف أن الكثير منهن لا يفهمن الموقف على حقيقته.

لو أن الأطفال الذين فقدوا أمهم ، وتحولوا إلى الأب بحثا عن الحب والاهتمام وأعطاهم الأب الكثير من التدليل ، عندما يتزوج الأب للمرة الثانية فإن الأطفال يشعرون أنه قد تم حرمانهم من حبه واهتمامه ، ويبدءون فى الهجوم على زوجة الأب ومعاداتها ، وتشعر زوجة الأب أن من حقها الدفاع عن نفسها وهنا تبدأ المأساة الحقيقية ، فإنهم يعتبرون هذا تحديا لهم ، و يزداد شدة هجومهم عليها ومعاداتهم لها ، إن المعركة مع الأطفال تكون دائما معركة خاسرة ، فإنه لا يمكن أبدًا اجتذاب الطفل إلى جانب " التعاون " بإعلان الحرب عليه ، فهناك أشياء لا يمكن الحصول عليها أبدًا باِستخدام الوسائل السابقة ، ويمكننى القول إنه يمكن توفير الكثير من الضغوط العصبية والجهود عديمة الجدوى لو أننا اعترفنا بأن " التعاون " و" الحب " لا يمكن اكتسابهما عن طريق القوة ، والغريب أنه فى هذا النوع من المعارك فإن الأكثر ضعفا هو الذى ينتصر دائما.

دور الأب

إن دور الأب له نفس أهمية دور الأم ، ورغم أنه يكون – فى بداية حياة كل طفل – أقل اتصالاً بهم من الأم فإنه فيما بعد يكون له تأثير كبير عليهم ، لقد سبق أن وصفنا بعض الأخطار التى تحدث عندما لا تستطيع الأم زيادة اهتمام أطفالها ليمتد ويشمل الأب ، فإن الطفل يعانى من اِنسداد خطير فى مشاعره ويصبح غير قادر على تنميتها وتطويرها لتشمل المجتمع من حوله.

أيضًا عندما يكون الزواج غير سعيد فإن الموقف يكون متفجرًا ومليئًا بالأخطار التى تهدد الأطفال ، فإن الأم قد تشعر بأنها غير قادرة على اعتبار الأب جزءًا حقيقيا

لا يتجزأ من حياة الأسرة ، وقد تملؤها هذه الرغبة فى الاستحواذ على الأطفال وإبعادهم عن أبيهم ، وأحيانا فإن كلا من الأب والأم يستخدم الأطفال كأحد الأسلحة المشروعة فى الحرب بينهما ، ويحاول كل منهما أن يربط الأطفال به وأن يجعل حبهم له (أولها) هو الحب الوحيد فى حياتهم.

عندما يلاحظ الأطفال وجود خلافات بين الأب والأم فإنهم يستغلون وجود هذه الخلافات بمهارة لصالحهم ، وهكذا فإن التنافس بين الأب والأم قد يشتعل إما فى محاولة للتحكم فى الأطفال وإما فى تدليلهم بغرض الاستحواذ على حبهم.

إنه من المستحيل تدريب الأطفال على " التعاون " فى مثل هذه الأجواء السابقة ، لأن أول ما يعرفه الطفل عن التعاون يكون بين الأب والأم ، وعندما يلاحظ أن هذا التعاون ضعيف بينهما فإنه يأخذ فكرة سيئة ومغلوطة عن طبيعة العلاقة مع الآخرين ، ويصبح من الصعب تعليمه المعنى الحقيقى للتعاون ، أيضًا فإن الفكرة الأولى عن الحب والزواج تتكون فى ذهن الأطفال من مشاهدة تصرفات الأب والأم والطريقة التى يتعامل بها - كلٌ منهما - مع الآخر ، ولهذا فإن الأطفال الذين يخرجون من زيجات غير سعيدة سيكبرون وقد انطبعت فى عقولهم صورة كئيبة ومتشائمة عن الزواج ، وعندما يصلون إلى مرحلة البلوغ فإنهم سيشعرون أن الزواج ما هو إلا رابطة غير صحية ستتحول - إن آجلاً أو عاجلاً - إلى معركة لا يكسبها أحد ، وسينتج عن هذا أن الطفل سيحاول تجنب الجنس الآخر أو سيعمل على وضع الحواجز والعقبات بينه وبينهم .

إن مثل هذه الأجواء السابقة تتسبب فى إعاقة حادة لنمو وتطور شخصية الأطفال ، فالزواج يجب أن يكون علاقة شراكة بين شخصين من أجل تحقيق رفاهيتهما ورخائهما المشترك ومن أجل الأطفال ومن أجل المجتمع أيضًا ، وعندما يفشل الزواج فى تحقيق المتطلبات السابقة فإنه يصبح غير قادر على مواجهة مشاكل الحياة.

حيث إن الزواج ما هو إلا شركة ، فإنه يجب ألا يحتل أحد الشريكين منزلة أعلى من الآخر ، ويجب التركيز على هذه النقطة بشدة ، فإنه لا توجد حاجة لوجود سلطة واحدة فقط داخل حدود الأسرة ، وإنى أعتبر أنه أمر سَيِّئ جدا أن يصبح أحد أفراد الأسرة مشهوراً أو ذا قيمة واضحة أكبر من قيمة الآخرين.

إذا كان الأب سريع الغضب وعصبيا وكان دائمًا ما يحاول الهيمنة والتسلط على باقى أفراد الأسرة فإن أبناءه الذكور سيحتفظون بوجهة نظر خاطئة عن واجبات وحقوق الرجل ، كما أن بناته سيعانون الأمرَّين ، وفيما بعد عندما تصل الواحدة منهن إلى مرحلة البلوغ فإنها ستتصور أن جميع الرجال طغاة ، وسيكون الزواج بالنسبة إليها ما هو إلا نوع من الخضوع والعبودية ، وفى بعض الأحيان - بعد الوصول إلى مرحلة البلوغ - فإنها قد تحاول أن تحمى نفسها من الرجال عن طريق خلق علاقات جنسية بغيرها من النساء.

أما إذا كانت الأم متسلطة ، وتحاول التحكم فى باقى أفراد الأسرة فإن الوضع سيصبح معكوسًا ، فإن البنات سيقلدون الأم وتصبح الواحدة منهن حادة وكثيرة النقد ولاذعة اللسان ، أما الصبيان فإنهم سيصبحون سلبيين ، ويتخذ الواحد منهم موقف الدفاع الدائم ، ويصبح خائفًا من النقد ومن محاولات الجنس الآخر التحكم فيه ، وأحيانًا تكون الأخوات والعمات والخالات كلهن من النوع المتسلط - وليس الأم فقط - ويحدث أن يتفق جميعهن (أو بعضهن) ويقفن صفًا واحدًا فى محاولة لإخضاع أحد الذكور فى الأسرة ، مما قد يصيبه بضرر دائمًا فقد يصبح متحفظًا وغير مستعد للتعاون والاشتراك فى الحياة الاجتماعية ، فإن الخوف يصيبه من أن جميع النساء لهن مثل هذه الطبائع ويتخذن الموقف الرقابى المتذمر نفسه من جميع الرجال ، ويصبح راغبًا فى تجنب الجنس الآخر كله ، لا يوجد من يحب النقد ولكن عندما يجعل الفرد من محاولة الهرب وتجنب النقد هدفه الرئيسى فى الحياة ، فإن كل علاقاته بالمجتمع ستتأثر ، وسينظر إلى كل حدث بمنظار خاص يتفق مع هدفه فى تجنب النقد ، فهو كمن يقول :

" هل أنا الغازى المنتصر ؟ أم أنا المهزوم ؟ ".

وفى ظل هذا التفكير فإنه سيصبح من المستحيل على الأفراد الذين ينظرون إلى جميع العلاقات مع الآخرين على أنها مواقف هزيمة أو نصر أن يدخلوا فى علاقة زمالة مع الآخرين.

إن دور الأب يمكن تلخيصه فى كلمات قليلة ، فيجب عليه إثبات صلاحيته كرفيق جيد لشريكة حياته ولأطفاله وللمجتمع من حوله ، كما أن عليه التعامل مع مشكلات الحياة - العمل والزمالة والحب والزواج - بطريقة مناسبة كما أن عليه أن يتعاون - على قدم المساواة - مع شريكة حياته فى رعاية وحماية الأسرة ، وعليه أيضًا أن يتذكر دائمًا أن دور المرأة له نفس أهمية دور الرجل ، ومهمته فى الحياة ليست خلع الأم من على العرش والجلوس مكانها وإنما العمل معها على قيادة سفينة هذه الأسرة إلى بر الأمان ، وأنه بالرغم من أن معظم -أو كل- دخل الأسرة يأتى منه فإن عليه أن يشارك الجميع فيه ، فيجب ألا يتظاهر بأن كل العطاء من عنده وأن كل الأخذ من الآخرين ، ففى الزواج المثالى تكون مثل هذه الحقيقة - أن الزوج يكسب دخل الأسرة - نتيجة لعملية تقسيم العمل داخل الأسرة ليس إلا.

والكثير من الآباء يستخدمون وضعهم الاقتصادى كوسيلة للتحكم فى أفراد الأسرة ونحن نعلم أنه يجب ألا يكون هناك من يتحكم فى الأسرة ، وأن كل مناسبة تَخْلُقُ مثل هذا الشعور بعدم وجود مساواة يجب تجنبها.

إن كل أب يجب أن يكون على علم بأن حضارتنا قد أعطت للرجل وضعًا متميزًا لا يستحقه ، وأنه كنتيجة لهذا فإنه عندما تزوج فإن الزوجة كانت خائفة من أن يتم التحكم فيها وأن توضع فى موضع دونى **Inferior position**، فيجب عليه أن يعرف أن زوجته ليست فى مستوى دون مستواه لمجرد أنها امرأة ، وأنها لا تستطيع أن توفر الدخل المادى الذى يستطيع أن يوفره هو ، وبصرف النظر عن قدرة المرأة على المساهمة فى إعالة أسرتها (ماديا) فإنه إذا كانت الحياة العائلية وظيفة تعاونية ، فإنه لن يكون هناك مجال للتساؤل عمن قام بتوفير المال وكيفية تقسيمه.

إن تأثير الأب على أطفاله مهم جدا فالكثير من الأطفال ينظرون إلى الأب طوال حياتهم على أنه القدوة التي يجب أن يحتذى بها أو على أنه العدو الأكبر ، والعقاب - خاصة العقاب الجماعى - يكون دائمًا ضار جدا للأطفال ، وأى تعاليم لا يمكن تدريسها عن طريق المحبة والتعاون هى تعاليم خاطئة ، ومن سوء الحظ أن يكون دور الأب هو معاقبة من يخطئ فى الأسرة خاصة الأطفال ، وهناك أسباب عديدة لقولى هذا :

أولاً : إن مثل هذا السلوك - جعل معاقبة الأطفال من اختصاص الأب وحده - يكشف إيمان الأم أن المرأة غير قادرة على تربية أطفالها وتقويمهم ، وأنها مخلوق ضعيف فى حاجة إلى ذراع الرجل القوى ، فعندما تهدد الأم طفلها قائلة :

" انتظر حتى يأتى والدكَ وسترى نوع العقاب الذى سيلحق بكَ "٠

فإنها بهذا القول قد أعدت طفلها لتقبل فكرة أن الأب هو السلطة النهائية التى لا نقض لحكمها وأن الأب هو القوة الحقيقية فى الحياة٠

ثانيًا : إن مثل هذا السلوك يجعل العلاقة بين الأب والأطفال غير مستقرة ، ويجعلهم يخافونه أكثر مما يحبونه ، وبدلاً من أن ينظروا إليه على أنه صديق جيد يمكن الاعتماد عليه فإنهم يتجنبونه ويخفون الأشياء التى تحدث فى حياتهم عنه٠

إن بعض الأمهات تخاف من فقد سيطرتهن على الأطفال إذا ما قمن بتوقيع العقاب عليهم ؛ لأنهن يعتقدن أن هذا سيقلل من حب الأطفال لهن ، ولكن تحويل الأب إلى أداة للعقاب ليس هو الحل أيضًا ، وطلبها العون من الأب سيجعلها تبدو شريكة له فى أفعاله ، والكثير منهن يستخدمن التهديد "سأخبر والدكَ" كطريقة لإجبار الطفل على الخضوع والطاعة ، فما الاستنتاج الذى يخرج به الطفل عن دور الرجل فى الحياة عندما يسمع مثل هذه التهديدات ؟٠

إذا كان الأب يقوم بواجبه على الوجه الأكمل فى مواجهة مشكلات الحياة ، فإنه سيصبح جزءًا متكاملاً من العائلة وزوجًا مخلصًا وأبًا صالحًا ،

ويجب أن يتعامل مع الآخرين ببساطة وأن يكون قادراً على خلق الأصدقاء ، فعندما يخلق الأب أصدقاء جدداً فإنه يجعل عائلته جزءاً من المجتمع الواسع الذى حولهم ، كما أنه لن ينعزل أو يتزمت فى التزامه بالأفكار التقليدية (العادات والتقاليد) ، والتأثيرات الخارجية للمجتمع ستجد طريقها إلى عقول أفراد الأسرة ، وستفتح الطريق أمام الأطفال لزيادة اهتمامهم الاجتماعى وتعاونهم.

إن الخطر الحقيقى يحدث إذا كان لكل منهما (الأب والأم) أصدقاؤه الخاصون به (أو بها) ، فإن عليهم الحياة ضمن المجموعة نفسها من الأفراد فى المجتمع وتجنب أن يحتفظ كلٌّ منهما بمجموعة خاصة من الأصدقاء ، وأنا لا أعنى بهذا أنه لا يجب عليهم عدم الخروج معًا ، ولكن يجب أن لا تكون هناك عقبات أو صعوبات أمام كونهم معا ، ومثل هذه الصعوبات تحدث إذا كان الزوج لا يرغب فى تقديم زوجته لمجموعته الخاصة من الأصدقاء (أو العكس) ، ففى مثل هذه الحالة يكون مركز اهتمام الأب والذى يمثل مركز حياته الاجتماعية خارج الأسرة ، من المفيد جدا لنمو وتطور الأطفال ، أن يتعلموا أن العائلة مَا هى إلا وحدة فى المجتمع الكبير وأن هناك الكثير من الأفراد الذين يستحقون الثقة خارج حدود الأسرة.

ومن العلامات الطيبة على قدرة الأب على " التعاون " أن يكون على علاقة طيبة مع والديه وإخوته وأخواته ، نحن نعلم بالطبع أنه كان عليه (الأب) أن يتركهم ويستقل بأسرته الجديدة ولكن هذا لا يعنى أن يتوقف عن حبه لهم وهم أقرب الناس إليه بعد أسرته ، ويحدث أحيانًا أن يتزوج شخصان وأن يكون كل منهما (أو أحدهما) مازال يعتمد على والديه مما يجعله يبالغ فى العلاقة التى تربطه بعائلة أبويه ، وعندما يتكلم عن "بيته" (أو "بيتها") فإنه سيقصد منزل والديه لأنه مازال يعتبر منزل والديه هو مركز الأسرة وبالتالى فإنهم سيعجزان عن تأسيس أسرة حقيقية خاصة بهما فقط ، وهنا تحولت المشكلة إلى تساؤل عن قدرة كل شخص فى هذه الأسرة على التعاون.

أحيانًا يصاب والدا الأب بالغيرة ، فهما يريدان معرفة كل شىء عن حياة الابن وكثيراً ما يتسبب هذا فى المشاكل للأسرة الجديدة ، فإن زوجته تشعر بأنه لا يوجد

من يقدرها حق قدرها ، كما أن الغضب يتملكها بسبب تدخل عائلة زوجها المستمر ، ويحدث هذا غالبًا عندما يتزوج الرجل ضد رغبة والديه ، وبصرف النظر عن صحة موقف الوالدين من هذا الزواج فإنه كان فى إمكانياتهما معارضة اختيار الابن قبل الزواج ... ولكن بعد الزواج فإنه عليهما أن يفعلا كل ما فى وسعهما لضمان نجاح هذه الزيجة . لقد فات أوان المعارضة.

إذا كان لا يمكن تجنب الخلافات العائلية فإنه على الزوج أن يتفهم الصعوبات وأن يدع القلق جانبًا ، فإنه يجب أن ينظر إلى معارضة والديه على أنها كانت خطأ من جانبهما ، وأن يفعل كل ما فى وسعه ليثبت أنه كان على صواب فى اختياره ، وأنا هنا أؤكد على ضرورة أن لا يستسلم الزوج والزوجة لرغبات والديهما ، بالطبع يكون الموقف أسهل إذا كان هناك تعاون وكانت الزوجة تشعر أن والدى زوجها يفكران فى صالحها وفى تحقيق رخاء ورفاهية هذه الأسرة الجديدة.

إن أهم الوظائف التى يُطلب من الأب أن يؤديها هى البحث عن حل لمشكلة العمل، ولهذا فإنه يجب تدريبه حتى يتمكن من الحصول على العمل المناسب الذى يمكنه من إعالة أسرته الجديدة ، الزوجة تساعد فى حل هذه المشكلة وأحيانًا الأطفال أيضًا خاصة عندما يتقدمون فى السن ، ولكن حضارتنا الغربية تضع المسئوليات الاقتصادية على كاهل الرجل بصفة أساسية ، ولهذا كان على الرجل أن يعمل بشجاعة وكان عليه أن يتقن أساسيات مهنته ويعرف ميزاتها وعيوبها وأن يصبح قادراً على التعاون مع الآخرين الذين يشاركونه هذه المهنة وأن يكتسب ويحتفظ باحترامهم.

وكانت مواقفه تعتبر القدوة التى يحتذيها أطفاله فى كيفية مواجهة مشكلات العمل ، ولهذا كان عليه أن يستعد بكل ما هو ضرورى للتغلب على هذه المشكلة بأن يجد عملاً مفيداً للبشرية ويساهم فى خيرها ورخائها ، وكان الأمر المهم هو أن يَعتبر الجميع (أو الأغلبية على الأقل) أن عمله هذا مفيد وضرورى ، نحن فى غير حاجة للاستماع لما يقوله ولما يعتقده ، وإنما المهم أن يكون هذا العمل مفيداً ويساهم فى الصالح العام.

دعنا الآن نعالج مشكلة الحب والزواج ، وخاصة فيما يتعلق ببناء عش الزوجية السعيد والحياة العائلية المفيدة ، إن الواجب الأساسى على الزوج هو أنه يجب أن يكون مهتما بشريكة حياته ، ويكون من السهل جدا اكتشاف ما إذا كان الزوج مهتما اهتمامًا حقيقيا بزوجته أم لا ، فإنه عندما يكون مهتما بها فإنه يهتم بالأشياء التى تهتم هى بها ، ويجعل من تحقيق الرفاهية والرخاء لها هدفًا تلقائيا له ، والحب والاهتمام ليسا هما الدليل الكافى لإثبات الاهتمام الحقيقى ، بل يجب أن يكون لديه أنواع عديدة من الحب والاهتمام بها ، قبل أن نعتبر أن اهتمامه بها حقيقيا ، كما أنه يجب أن يلعب دور الصديق الصدوق لها ، وأن يستمتع بمحاولاته لإسعادها ، وعندما يعتبر الشريكان أن رفاهيتهما ورخاءهما المشترك أعلى وأهم من الرفاهية والرخاء الفردى لكل منهما ، فإن " التعاون " بينهما يكون فعالا ، يجب على كل منهما أن يهتم بشريكه أكثر من اهتمامه بنفسه.

على الزوج ألا يظهر حبه واهتمامه بزوجته أمام الأطفال ، ورغم أن الحب بين الزوجين لا يمكن مقارنته بحب كل منهما للأطفال ، فهذان النوعان من الحب مختلفان تماما ولا يمكن لأحدهم أن يُضعف أو ينهى الآخر ، ولكن الطفل يشعر أحيانًا أنه مهدد عندما يرى والديه يظهران الحب والاهتمام ببعضهما أمامه ، ويصاب بالغيرة الشديدة التى قد تصل إلى حد الرغبة فى إثارة المتاعب بين والديه.

إن الشراكة الجنسية يجب ألا تؤخذ ببساطة ، كما أنه من المهم عندما يطلب من الوالدين شرح بعض المواضيع الجنسية أن تكون إجابتهما على قدر السؤال وألا يعطيا أى معلومات زيادة عن حجم فضول الطفل وقدرته على الفهم والمرحلة العمرية التى بلغها ، وأنا أكرر هذا ؛ لأننى أعتقد أن هناك ميلاً كبيراً نحو شرح معلومات زيادة عن ما يستطيع الطفل استيعابه بعمق ، ومثل هذا الميل يظهر اهتمامات ومشاعر يكون الطفل غير مستعد لها ، وهذه الطريقة ليست أفضل بكثير من الطريقة القديمة التى كانت تتطلب أن نكون مراوغين وغير صادقين مع الطفل وأن نحاول إخفاء كل ما يتعلق بالجنس عنه ، إن أفضل طريقة هى أن نكتشف القدر الذى يرغب الطفل

فى معرفته عن الجنس وأن نعطيه هذا القدر بأمانة ودون زيادة أو نقصان ، كما أنه يجب علينا أن نفرض على الطفل آراءنا الخاصة بما يجب أن يكون معلومات عامة عن الجنس.

إننا يجب أن نحافظ على ثقة الأطفال فينا وأن نحافظ على شعورهم بأننا نتعاون معهم بكل طاقتنا ، وأننا مهتمون بمساعدتهم وبإيجاد حلول لمشاكلهم ، عندما نفعل هذا فإننا سنكون على الطريق السليم ولن يجانبنا الصواب كثيراً.

إنه من الواجب عدم المبالغة فى قيمة وأهمية النقود ، كما أنه من الواجب عدم إظهار الخلافات المادية ، إن الكثير من النساء يكن أكثر حساسية من الرجال بخصوص هذه المسألة ؛ لأنهن لسن المصدر الذى اكتسب هذه النقود ، وقد تشعر المرأة بجرح عميق عندما يتهمها زوجها بالمبالغة فى الإنفاق أو التبذير ، إن المشاكل المادية يجب أن تحل عن طريق التعاون وفى حدود القدرة المادية للعائلة ولا يجوز أبداً أن تستغل الزوجة أو الأطفال تأثيرهم على الزوج لإجباره على إنفاق ما لا تطيقه قدرته المالية ، فيجب أن يكون هناك اتفاق مسبق على طريقة الإنفاق حتى لا يشعر أى فرد بأنه عالة على الأسرة أو أنه قد تمت إساءَةُ معاملته.

يجب على الأب ألا يظن أنه قادر على توفير مستقبل مضمون للأطفال عن طريق المادة وحدها ، ولقد قرأت ذات مرة مقالاً مثيراً كتبه أحد الأمريكان وفيه يصف كيف أن رجلاً ولد فى إحدى العائلات الفقيرة جدا وأتيحت له الفرصة لأن يغتنى فيما بعد ، فرغب بشدة فى حماية أطفاله وأحفاده من الفقر ، فذهب هذا الشخص إلى محام وسأله عن الطريقة التى يمكن بها تحقيق هذا، فسأله المحامى بدوره عن عدد الأجيال التى يرغب فى حمايتها من الفقر ، فأجابه الرجل بأنه راغب فى حماية عشرة أجيال من أحفاده ، وهنا قال المحامى :

" يمكنك تحقيق هذا ولكن هل تدرك أن أفراد الجيل العاشر سيكون لهم غالبا أكثر من خمس مئات من الأسلاف الذين ساهموا فى إنتاجهم بنفس قدر مساهمتك

فيهم ؟ هذا يعنى خمسمائة عائلة لهاالحقوق نفسها فهل يمكنك حقا إن تقول أن مثل هؤلاء الأفراد من صلبك وحدك ؟ "٠

وهذا يعطينا مثالاً آخر على الحقيقة التى سبق أن شرحناها فى أن ما نقوم به من أعمال لصالح أطفالنا وأحفادنا إنما هو فى الواقع لصالح المجتمع بأكمله ، فإنه لا يمكننا الهرب من الرابطة التى تربطنا بباقى أفراد الجنس البشرى٠

إن وجود سلطة داخل الأسرة هو أمر ضرورى جدا ولكن يجب توافر تعاون حقيقى ، فإنه يجب على الأب والأم أن يعملا معا فى تعاون وأن يتفقا على كل ما يتعلق بتعليم أطفالهما ، وأكثر الأشياء أهمية هى :

أنه لا يجوز لأى منهما (الأب أو الأم) إظهار أى قدر من التمييز فى المعاملة مع الأطفال٠

إن التمييز فى المعاملة هو أمر بالغ الخطورة ، ومعظم الإحباط الذى يحدث للطفل يكون مصدره هو الشعور بأن هناك طفلا (أخًا أو أختًا) آخر مفضلاً عليه ، ولكن على أن أقول إنه أحيانا يكون الطفل مخطئًا ولا يوجد أى سبب معقول لتبرير شعوره بالتمييز ، عندما تسود المساواة الحقيقية جو الأسرة فإنه لن تكون هناك أى فرصة لشعور أحد أفرادها بالتمييز٠

ولكننا نعلم أن هناك تمييزًا ، فالفتيان مميزون ومفضلون على الفتيات ، وهذا يجعل حدوث عقدة النقص شائع جدا بين الفتيات ، إن حساسية الأطفال شديدة جدا وحتى أفضل الأطفال وأكثرهم صلاحا يمكنه أن يخطئ ويضل فى طريق الحياة إذا شك فى أن هناك من هو مفضلٌ عليه٠

كثيرًا ما يحدث أن ينمو ويتطور أحد الأطفال بطريقة أسرع من غيره أو بطريقة أفضل بكثير من باقى الأطفال فى أسرته ، وهذا يجعل من الصعب على الأب والأم أن لا يظهرا المزيد من الحب والاهتمام بهذا الطفل الناجح ، ولكن على الأباء أن يتحلوا بالمزيد من الخبرة وبالمهارة الكافية لتجنب إظهار أى نوع من التمييز أو التفضيل وإلا سبب هذا الطفل الكثير من الإحباط وغطى على إخوته ،

وعندها سيتحول باقى الأطفال إلى حاسدين وحاقدين عليه ، كما أنهم سيفقدون الثقة فى قدراتهم الشخصية وقدرتهم على التعاون ستصاب بانتكاسة كبيرة.

وعلى أن أذكر هنا أنه من غير الكافى أن يقول الوالدان وأن يتحدثا عن أنهما لا يميزان ولا يفاضلان بين أطفالهما ، لكن يجب عليهما أن يكونا متنبهين لأى شكوك تظهر على أحد الأطفال وفى عقولهم الصغيرة.

الرعاية والإهمال

إن الأطفال سرعان ما يتحولون إلى خبراء فى اكتشاف طرق جديدة للحصول على الحب والاهتمام ، وعلى سبيل المثال فإن الطفل الذى تعرض لتدليل زائد يكون خائفًا من أن يترك بمفرده فى الظلام . إن هذا الطفل ليس خائفًا من الظلام فى حد ذاته، ولكنه يستخدم خوفه من الظلام للحصول على شخص بجانبه (الأب أو الأم) ، وكان أحد هؤلاء الأطفال المدللين يبكى دائمًا فى الظلام ، وفى إحدى الليالى عندما سمعت أمه بكاءه أتت وسألته :

" لماذا أنت خائف ؟".

" لأن الظلام شديد ".

ولكن أمه كانت مستعدة لمثل هذه الإجابة ؛ لأنها قد تعرفت وفهمت الغرض من سلوكه ، ولهذا قالت :

" والآن بعد أن أتيت وجلست بجانبك هل انخفضت شدة الظلام ؟".

إن الظلام فى حد ذاته عديم الأهمية ، فإن خوفه من الظلام يعنى شيئًا واحدًا فقط ألا وهو أنه يكره أن يبتعد عن أمه ، إن كل عواطفه وكل حبه واهتماماته وكل قوته الجسدية والعقلية موجَّهة نحو خلق وضع يُجبر الأم على البقاء بجواره ، فقد كانت كل اشتياقات هذا الطفل هى فى الحصول عليها بجانبه دائمًا ، ولا يهم نوع الوسيلة المستخدمة سواء كانت البكاء أو الصياح أو عدم القدرة على النوم ، أو الخوف من الظلام أو أى طريقة أخرى.

إن الخوف هو واحد من المشاعر التى جذبت اهتمام المعلمين وأطباء النفس ، وفى علم النفس الفردى فإننا لم نعد نهتم باكتشاف أسباب الخوف ، ولكننا نركز اهتماماتنا على اكتشاف وتحديد الهدف الذى يسعى الخوف إلى تحقيقه ، إن كل الأطفال الذين تعرضوا لكثير من التدليل الزائد يعانون من الخوف ، وهذا الخوف هو الذى يمكنهم من الحصول على المزيد من حب واهتمام الآخرين ، ولهذا فإنهم يقومون باستخدام هذا الشعور فى بناء أسلوب حياتهم ، بل إنهم يجعلون من الخوف حجر الأساس فى بناء أسلوب حياتهم ، فإنهم يستخدمونه لتحقيق هدفهم فى البقاء بالقرب من الأم ، والطفل الجبان المخلوع الفؤاد ما هو إلا طفل تم تدليله بصورة مبالغ فيها ، وأصبح راغبًا فى الحصول على المزيد.

وأحيانًا يصاب مثل هذا الطفل بكوابيس ويبدأ فى البكاء وهو نائم ، وهذه هى أحد الأعراض المشهورة عنهم ، وكان فهم هذا العرض مستحيل طالما أننا كنا نفكر فى أن النوم ما هو إلا عكس (ضد) الاستيقاظ ، ولكن الفكرة السابقة فكرة خاطئة فإن كلا منهما (النوم والاستيقاظ) ما هو إلا نوع مختلف من الشىء نفسه إن الطفل فى الأحلام يتصرف بالطريقة نفسها التى يتصرف بها وهو مستيقظ ، فإن هدفه فى الحصول على وضع أكثر ملاءمة له (التصاق والدته الدائم به) يوجه ويؤثر على جميع أعضاء جسده وعقله ، وبعد القليل من التدريب والخبرة يكتشف الطفل أكثر الوسائل نجاحًا فى تحقيق هذا الهدف ، وخلال النوم فإن أفكارا وصورا وذكريات مناسبة تأتى إلى عقله وتساعده على تحقيق هدفه ، إن الطفل المدلل قد اكتشف كيفية استخدام الأفكار التى تسبب الكوابيس ، فى الاحتفاظ بأمه إلى جانبه طوال الوقت ، وعندما يبدأ مثل هذا الطفل فى النمو ، فإنه يحتفظ بمثل هذه الأحلام القلقة ، فإن الخوف فى الأحلام ما هو إلا أداة تمت تجربتها واختبارها بنجاح فى الحصول على الحب والاهتمام ، وقد بدأت هذه الأداة فى التحول ، وتبلورت الآن فى شكل عادة.

إن استخدام القلق Anxiety أصبح شديد الوضوح والانتشار حتى إن العجب يتولانى عندما أسمع عن أحد هؤلاء الأطفال المدللين الذى لم يستخدم قط هذه

الطريقة السابقة ، إن هناك كما هائلاً من الطرق والحيل التى تهدف إلى جذب الانتباه ، فبعض الأطفال يجد أن الشراشف غير مريحة أو يصاب بالعطش ويطلب الشرب، أو قد يصاب بالخوف من اللصوص أو الوحوش الخيالية ، أو يصبح غير قادر على النوم إلا إذا جلس بجانبه أحدهم وبعضهم يحلم بأنه سقط من الفراش أو أنه قد تسبب فى ابتلاله ، إحدى الأطفال المدللين الذين قمت بالكشف عليهم وعلاجهم لم تكن تسبب أى متاعب خلال الليل !! ، وكانت أمها تقول إنها تنام الليل كله دون أن تستيقظ أو تسبب أى متاعب ودون أحلام ، وقد أثار هذا دهشتى وعندما أخبرتها بكل الحيل والطرق التى يمكن استخدامها لجذب انتباه الأم والالتصاق الدائم بها فإن هذه الفتاة الصغيرة لم تكن تستخدم أيا منها ، ولكن تفسير هذه الحالة خطر على بالى فسألتها :

" أين تنام ؟".

" فى الفراش بجوارى ".

إن المرض أحد الملاجئ التى يلجأ إليها الأطفال المدللون ؛ لأنه عندما يكون الواحد منهم مريضاً فإن كل رغباته تكون مجابة ويتم تدليله أكثر وأكثر ، وكثيراً ما يحدث أن يبدأ الطفل منهم فى إظهار أعراض الطفل المشكلة **Problem children** بعد أن يتعرض لأحد الأمراض ، وكنا نظن فى البداية أن المرض قد حوله إلى طفل مشكلة ولكن فى الحقيقة إنه عندما يتعافى فإنه يتذكر الحب والاهتمام والرعاية التى كانت تغمره عندما كان مريضا ، ويريد أن تستمر هذه المعاملة حتى بعد شفائه ، وحيث إن الأم لا يكون فى إمكانها تدليله بهذا الشكل بصفة مستمرة ، فإن الطفل ينتقم منها بأن يصبح طفلاً مشكلة **Problem children** .

أحياناً عندما يلاحظ باقى الأطفال مدى الحب والعناية والاهتمام التى يحظى بها الطفل المريض وكيف أنه يصبح مركزاً لاهتمام الجميع ورعايتهم ، فإنهم يرغبون ويتمنون المرض حتى إنهم أحياناً يقبلون عن عمد الطفل المريض على أمل أن تنتقل إليهم العدوى.

إحدى الفتيات أمضت أربع سنوات فى المستشفى ، ولاقت الكثير من التدليل والعناية والرعاية من الأطباء والممرضات ، وعندما عادت إلى منزلها كان يتم تدليلها أيضًا - فى البداية - ولكن بعد مضى بضعة أسابيع فإن هذه العناية والرعاية بدأت فى التناقص ، وعندما كان الأب (أو الأم) يرفض أى طلب لها فإنها كانت تضع إصبعها فى فمها وتقول :

" لقد كنت فى المستشفى لمدة طويلة ".

وأصرت باستمرار على أن تذكّر الآخرين بأنها كانت مريضة ، وحاولت دائما أن تخلق ذلك الوضع الملائم الذى وجدت نفسها فيه عندما كانت مريضة.

ونجد سلوكًا مشابهًا للسلوك السابق فى تصرفات البالغين ، فإننا نجد أنهم يحبون الكلام عن أمراضهم وعن العمليات التى أجريت لهم.

ومن ناحية أخرى فإن الأطفال الذين يتسببون فى مشاكل كثيرة للوالدين قد يتغيرون بعد تعرضهم لأحد الأمراض ، ويتحسن سلوكهم كثيراً ، ولقد رأينا من قبل أن الإعاقة الجسدية تمثل عبئًا على الأطفال ، لكننا رأينا أيضًا أنها لا تمثل تفسيرا كافيًا أو سببًا معقولاً لأن يتحول صاحبها إلى شخصية تحمل الكثير من الميزات السيئة ، ولهذا فإننا نشك بشدة فى أن مجرد الشفاء من الإعاقة الجسدية س_تسبب فى تحسن الميزات السيئة.

أحد الصبيان - كان ترتيبه الثانى فى الأسرة - كان يتسبب فى الكثير من المتاعب ؛ لأنه كان يكذب ويسرق ويفترى على زملائه (بلطجى) ، كما أنه كان لا يطيع والديه ، وقد تحير معلمه فى أسلوب معاملته ، حتى إنه اقترح إرساله لإحدى الإصلاحيات ، ولكن الصبى أصيب بمرض خطير فى الوقت نفسه وبدأ يعانى من السل فى مفصل الفخذ ، وأمضى ستة شهور فى جبيرة **Plaster cast**، وعندما تم شفاؤه فإنه تحول إلى صبى مهذب حسن السلوك ، إنه لا يمكن الاعتقاد بأن مرضه قد تسبب فى هذا التحول ، ولقد اكتشفنا أن هذا التحول كان نتيجة لأنه قد تعرف على أخطائه السابقة ، فهو كان يظن أن والديه يفضلان أخاه عليه ، فكان يشعر دائما

بأنه مرفوض ، وخلال مرضه اكتشف أنه قد أصبح مركزًا لاهتمام الجميع وحبهم ورعايتهم ، وحيث إنه كان على درجة كافية من الذكاء ، فإنه قد قرر التخلى عن أفعاله السابقة وعن فكرة أنه كم مهمل .

المساواة بين الأبناء

إن التعاون الذى يجب أن يحدث بين الأطفال - وبعضهم البعض - ذو أهمية كبيرة ؛ لأنه إذا لم يشعر الأطفال داخل الأسرة بأنهم جميعًا على قدم المساواة فإن الجنس البشرى لن يتمتع بالكثير من الشعور الاجتماعى ، إذا لم تشعر الفتيات والفتيان بأنهم على قدم المساواة مع بعضهم البعض ؛ فإن العلاقة بين الجنسين ستستمر فى إثارة مشاكل عظيمة ، والكثير يتساءلون :

" لماذا يكون هناك اختلاف وتباين شديد بين أطفال الأسرة الواحدة ؟".

ولقد حاول الكثير من العلماء شرح هذا الاختلاف عن طريق القول بأنه نتيجة لاختلاف الجينات المكونة لكل فرد ، ولقد رأينا من قبل عدم صحة هذا الرأى ، ودعنا نقارن بين نمو الأطفال ونمو الأشجار الصغيرة اليانعة.

لو كانت مجموعة أشجار تنمو معًا فى البقعة نفسها ، فإن كل شجرة منها تكون فى وضع وموقف مختلف تمامًا عن غيرها من الأشجار ، فلو أن إحدى هذه الأشجار تمكنت من النمو بسرعة ؛ لأنها كانت تتعرض لكمية أكبر من الشمس ، أو لأنها حصلت على تربة أفضل أو رى أكثر ، إن نموها وتطورها السريع قد أثر بصورة متزايدة على نمو وتطور باقى الأشجار ، لقد أصبحت هذه الشجرة تغطى عليهم جميعًا ، وجذورها امتدت فى كل مكان لتمتص غذاءهم ، وتسبب هذا فى أن باقى الأشجار تجمدت وتوقف نموها ، إن الشىء نفسه تقريبا يحدث فى الأسرة عندما يصبح أحد أفرادها بارزًا وشهيرًا .

لقد رأينا أنه لا ينبغى لأى من الأب أو الأم أن يحاول الهيمنة على الوضع فى العائلة ، وغالبًا عندما يكون الأب ناجحًا جدا - أو موهوبًا - فإن الأطفال يشعرون

بأنهم عاجزون عن تحقيق إنجازات مماثلة لإنجازاته ، وهذا يصيبهم بالإحباط ويضعف اهتمامهم بالحياة ، ولهذا فإن أطفال المشاهير والبارزين يمثلون خيبة أمل كبيرة لوالديهم ولباقى المجتمع ، ويحدث هذا لأن الأطفال قد رأوا استحالة تحقيق إنجازات عظيمة مماثلة ، وكنتيجة لهذا فإذا كان الأب - أو الأم - ناجحًا جدا فى وظيفته ... فإنه يجب ألا يتباهى كثيرًا بإنجازاته داخل حدود العائلة وخاصة أمام الأطفال ، وإلا فإن نمو وتطور الأطفال سوف يتأثر سلبيا .

المنطق نفسه ينطبق على الأطفال أنفسهم ؛ لأنه لو كان أحد الأطفال ينمو ويتطور بطريقة أفضل من الباقين فإنه من المرجح أن يحصل هذا الطفل على الكثير من الحب والاهتمام وأن يصبح المفضل ، وهو وضع وموقف سعيد بالنسبة لهذا الطفل ، ولكن باقى الأطفال يشعرون بهذا التمييز فى المعاملة ، ولا يمكن لأى كائن بشرى أن يتحمل التمييز أو التفرقة بدون أن يتضايق ويرفض محاولة وضعه فى مستوى أقل من غيره من أقرانه ، أحد هؤلاء الأطفال البارزين يمكن أن يتسبب فى تدمير حياة الآخرين ، وأنا لا أعتقد أننى أكون مبالغًا إذا قلت إن كل من حوله سيعانى من النقص فى التحفيز العقلى Mental stimulation خلال فترة نموه ، ورغم أنهم لن يتوقفوا عن محاولة تحقيق هدفهم فى التفوق - لأن محاولة تحقيق هذا الهدف لا تنتهى إلا بنهاية عمر الفرد - فإنهم سيجدون أنفسهم مضطرين إلى تغيير طرقهم إلى اتجاهات أخرى ربما تكون غير واقعية ، أو ما هو أخطر كأن تكون غير مفيدة اجتماعيا .

موضع الطفل فى الأسرة (ترتيبه)

إن علم النفس الفردى قد فتح الأبواب على مصراعيها أمام البحث العلمى عندما بدأ يدرس الميزات والعيوب النسبية لوضع الطفل فى الأسرة ، ولغرض دراسة هذا الموضوع فى أبسط صوره فإننا سنفترض أن الأب والأم متعاونان ، وأن كلا منهما يفعل ما فى وسعه من أجل تحقيق رفاهية الأطفال.

إن وضع كل طفل فى الأسرة مازال يمثل تأثيرًا قويا عليه ، وكل طفل ينمو ويتطور فى ظروف مختلفة تماما عن باقى الأطفال داخل أسرته ، وعلى هنا أن أكرر مرة أخرى أن موقف ووضع كل طفل يختلف تمامًا عن موقف ووضع غيره من الأطفال ، وأن أسلوب حياة كل طفل يعكس محاولاته فى التكيف مع ظروفه الخاصة.

الطفل الأكبر

إن الطفل الأكبر يمر بمرحلة يكون فيها الطفل الوحيد فى الأسرة ، ولكنه يجد نفسه – فجأة – مضطرا لأن يتكيف مع وضع جديد بعد مولد الطفل التالى له ، إنه يكون قد اعتاد على أن يحصل على كل اهتمام وحب ورعاية والديه فهو مركز العائلة ، وفجأة يجد نفسه مخلوعًا من على عرشه الصغير فبعد ميلاد طفل جديد لم يعد الطفل الأكبر مركز الاهتمام ، فإن عليه الآن أن يشارك حب واهتمام والديه مع منافسه الجديد (الأخ أو الأخت الصغرى) ، إن مثل هذا التغيير المفاجئ يحدث صدمة ذات تأثير طويل على الطفل الأكبر ، والكثير من الأطفال ذوى المشاكل والعصابيون والمجرمون ومدمنو الخمور والشاذون تبدأ مشاكلهم وصعوباتهم فى مثل هذه الظروف ، إن أمثال هؤلاء جميعًا كانوا "الطفل الأكبر" الذى شعر بصدمة عميقة وشديدة من جَراء وصول الطفل الجديد ، وملأه الشعور بالحرمان حتى إن هذا الشعور قد أصبح القالب الذى شكل كل أسلوب حياته.

بالطريقة السابقة نفسها فإنه يمكن للأطفال أن يفقدوا وضعهم فى الأسرة ، ولكن ربما كانت النتائج أقل حدة ولم يسبب هذا التغير الكثير من الضرر لمشاعرهم ، ويحدث هذا لأنهم قد مروا بخبرة " التعاون " ومشاركة حب واهتمام الوالدين مع طفل آخر ، ولأنه أيضًا لم يكن قط مركز اهتمام الجميع كما حدث مع الطفل الأكبر الذى لابد من أنه شعر بالصدمة الكاملة عندما تم إهماله نسبيا مع وصول القادم الجديد ، ويجب علينا ألا نتوقع منه أن يتقبل مثل هذا الموقف بسهولة ، أما إذا تمكن الوالدان من جعله واثقًا من حبهم له وإذا عرف الطفل أن وضعه آمن ، وأهم من كل ما سبق

إذا ما تم إعداده بطريقة كافية لوصول القادم الجديد وطلب منه التعاون فى العناية به ، فإن الأزمة ستمر بسلام ، ولكن يؤسفنى أن أقول إن هذا لا يحدث فى أغلب الحالات.

إن الطفل الجديد يأخذ بعض من اهتمام والديه وحبهما ولهذا يحاول الطفل الأكبر استعادة الأم مرة أخرى ، ويبدأ فى التفكير فى طرق لجذب انتباهها نحوه ، وأحيانًا نرى الأم موضع جذب وشد بين طفلين يحاول كلٌ منهما أن يحتل القدر الأكبر منها.

إن الطفل الأكبر أكثر قدرة على استخدام القوة الجسدية وعلى التفكير فى حيل جديدة ومبتكرة ، ويمكننا أن نتخيل أفعاله تحت هذه الظروف ، فإنه سيحاول أن يكون مصدر قلق لوالدته ، وسيعاندها ، وسيتصرف بطريقة تجعل من المستحيل عليها أن تتجاهله ، وعندما ينفد صبر الأم فإنه سيستخدم كل ما لديه فى معركة يائسة ، وعندما تمل أمه بسبب كثرة المتاعب التى يسببها فإنه سيبدأ فى الشعور بأنها لا تحبه ، لقد بدأت المعركة بهدف الحصول على المزيد من حب الأم ، ولكن عندما انتهت المعركة فإن الطفل يشعر بأنه فقد الكثير على عكس ما توقع فى البداية ، لقد شعر هذا الطفل فى البداية بأن هناك محاولات لتجاهله ، ولكن بسبب أفعاله فإنه يتم بالفعل تجاهله ، ويشعر الطفل بأنه كان على حق فى ظنه الأول ، فهو كمن يقول :

" كنت أعرف هذا : أن الآخرين على خطأ وأنا على صواب فى ظنى بأنهم يحاولون تجاهلى ".

ويصبح الطفل كما لو كان فى مصيدة حقيقية ، فكلما حاول الفكاك زاد موقفه سوءًا ، والظروف من حوله تؤكد صحة وجهة نظره فى موقفه فكيف يمكن له أن يتخلى عن هذه المعركة ، وكل حواسه تؤكد له أنه على صواب ؟.

فى مثل هذه المعارك يجب أن نتأكد أولاً من كل التفاصيل الخاصة بكل حالة على حدة ، وعلينا هنا أن نذكر أنه إذا حاولت الأم المقاومة فإن الطفل سيصبح عصبيا ولا يمكن التحكم فيه وكثير النقد وغير مطيع.

عندما يتحول الطفل ضد أمه ، فإن الأب عادة ما يعرض عليه الفرصة فى أن يستعيد مكانته السابقة لديه (الأب) ، ولهذا يصبح الابن الأكبر أكثر اهتماما بأبيه ويحاول أن يفوز بحبه واهتمامه ، وكثيرًا ما نجد أن الطفل الأكبر يفضل أباه عن أمه ، وعندما نجد مثل هذه الحالة فإنه يمكننا القول بأنها المرحلة الثانية من مراحل التحول : فأولا كان الطفل ملتصقًا بأمه لكنه تحول بعد هذا إلى الاهتمام والالتصاق بأبيه كنوع من التوبيخ والعقاب لها على رفضها إعطاء المزيد من الحب والاهتمام ، عندما يفضل الطفل أباه فإنه يمكننا القول إن الطفل قد عانى من نكسة . لقد شعر بالرفض والهجران ، ولن يستطيع أبدًا أن ينسى هذا ، وكل أسلوب حياته سيكون مبنيا حول هذا الشعور بالرفض.

إن مثل هذه المعارك تستغرق وقتًا طويلاً جدا - فى بعض الأحيان تستغرق الحياة كلها - فإن مثل هذا الطفل قد درب نفسه على الاستمرار فى القتال والمقاومة تحت أى ظروف ، وإذا حدث ولم يكن هناك أى شخص حولهم (مثل الأب فى الحالة السابقة) يعطيهم الحب والاهتمام ، فإن هذا الطفل يفقد الأمل ويتخيل أنه سيعجز دائمًا عن الفوز بحب واهتمام الآخرين ، ويصبح من النوع النكد والمتحفظ وغير الاجتماعى ، ويدرب نفسه على العزلة ، وتكون كل أفعاله وتعبيراته موجهة نحو الماضى "الماضى البعيد" عندما كان مركزًا لاهتمام الجميع.

لهذا السبب فإن الطفل الأكبر غالبًا ما يظهر - بطريقة أو بأخرى - اهتمامًا كبيرًا بالماضى ، فإن من أفضل الأشياء لديه تذكر الماضى والحديث عنه والإعجاب به ، كما أن الطفل الأكبر غالبًا ما يكون متشائمًا فيما يتعلق بالمستقبل ، وغالبًا عندما يفقد الواحد منهم قوته ومملكته الصغيرة التى كان يحكمها فإنه يصبح قادرًا - أكثر من غيره - على فهم أهمية السلطة والقوة ، ولهذا فإنه عندما يصل إلى مرحلة البلوغ يحب أن يشارك فى تطبيق القانون ، ويبالغ فى أهمية طاعة القواعد والقوانين ويصر على ضرورة تنفيذ كل شىء طبقا لمجموعة من الإجراءات والقواعد التى لا يمكن تغييرها ، وأن القوة يجب أن تكون فى يد من يستحقها.

إن كل ما سبق يمكننا من فهم التأثيرات السابقة على شخصية الطفل والتى تجعله يميل نحو التحفظ الشديد ، وعندما يتمكن الواحد منهم من إحراز مركز مرموق فإنه يصبح كثير التشكك فى الآخرين ويملؤه الاعتقاد دائما بأن هناك خلفه شخصا يحاول أن ينتزع مركزه.

إن وضع الطفل الأكبر يمثل مشكلة بالغة الخصوصية ولكنه من الممكن جدا تحويلها واستخدامها لصالح الطفل الأكبر ، فلو أنه تم تدريبه على " التعاون " قبل أن يولد الطفل الجديد ، فإنه لن يعانى من أى ضرر ، وكثيراً ما نجد أفرادا – من بين الطفل الأكبر– يرغبون فى حماية ومساعدة الآخرين ، فهو قد تدرب على تقليد الأب والأم ، ويقوم بلعب الدور مع الأطفال الأصغر منه فيعتنى بغذائهم ونظافتهم ويعلمهم ، ويشعر بأنه مسئول عن رفاهيتهم ورخائهم ، وأحيانًا يطور الواحد منهم قدراته ويصبح موهوباً فى التنظيم ، وهذا هو أفضل الحالات والأوضاع بالنسبة إلى الطفل الأكبر بالرغم من أنه يمكن المبالغة فى هدف مثل حماية الآخرين وتحويله إلى الرغبة فى زيادة الفترة التى يعتمد الآخرون فيها عليه (حتى يتمكن من التحكم فيهم لفترة أطول).

ومن واقع خبرتى السابقة فى أوروبا وأمريكا فإننى قد وجدت أن النسبة العظمى من الأطفال ذوى المشاكل تكون من بين الطفل الأكبر، ويكون الطفل الأصغر فى المرتبة الثانية بعده مباشرة ، ولعله من المفيد أن نلاحظ أن مثل هذه الأوضاع (الأكبر والأصغر) قد شكلت معظم المشاكل وأعظمها ، إن طرقنا التعليمية لم تنجح بعد فى حل الصعوبات التى تواجه الطفل الأكبر.

الطفل الثانى

إن الطفل الثانى من حيث ترتيب الولادة يكون فى وضع مختلف تمامًا ، وهو وضع لا يمكن مقارنته بوضع أى من الأطفال الآخرين ، فمنذ ولادته وهو يشارك طفل آخر فى حب واهتمام الوالدين ، ولهذا فإنه يكون أكثر قرباً من " التعاون " من أخيه

الأكبر ، وهذا لأن لديه مجموعة أكبر من البشر تحيط به مما يجعل وضعه أفضل بكثير (خاصة إذا لم يحاربه الطفل الأكبر) ، إن أكثر ما يميز وضع الطفل الثانى هو وجود قدوة تحدد له سرعة الانطلاق طوال فترة طفولته ؛ لأن وجود طفل يسبقه فى العمر وفى النمو والتطور يجعله - بصورة دائمة - متحفزاً لبذل المزيد من المجهود فى محاولة للحاق بمن يسبقه ، وهناك نمط معين ومحدد للطفل الثانى ويمكن التعرف عليه بسهولة فهو :

١ - يتصرف دائماً كما لو كان فى سباق وكما لو كان أحدهم متقدماً عليه خطوة أو خطوتين ، وأن عليه الإسراع لكى يتمكن من اللحاق به.

٢- يبذل أقصى ما فى وسعه للتقدم طوال الوقت ، وهو يتدرب باستمرار على التفوق على الطفل الأكبر وهزيمته.

و " العهد القديم " من الكتاب المقدس مملوء بقصص نفسية رائعة لهذا النمط من الطفل الثانى ، أكثرها شهرة قصة يعقوب :

لقد أراد يعقوب أن يكون الأول وأن يأخذ وضع عيسو وأن يهزمه ويتفوق عليه ، إن الطفل الثانى يضايقه الشعور بأنه خلف أحدهم ولهذا فإنه يبذل كل ما فى وسعه ليحتل مكانة الآخرين ، وهو كثيراً ما ينجح فى هذا ، فإن الطفل الثانى غالبًا ما يكون موهوبًا وأكثر نجاحًا من الطفل الأكبر ، ونحن هنا لا نحاول بالتأكيد اقتراح أن للوراثة أى تأثير فى هذا ، فإن السبب فى نمو وتطور الطفل الثانى وتقدمه هو أنه عمل بجدية أكثر ، وحتى عندما يصل الطفل الثانى إلى مرحلة البلوغ ويعيش خارج حدود الأسرة فإنه يحاول أن يستخدم قدوة تحدد له سرعة الانطلاق من بين الأشخاص المحيطين به ، فهو يقارن بين نفسه وبين أى شخص يعتقد أنه يحتل مكانة أو وضعًا أحسن منه ، ويحاول التفوق عليه.

إن مثل هذه الشخصيات لا توجد فى عالم اليقظة فقط ، بل إنها تتواجد وتترك بصمتها الواضحة فى عالم الأحلام أيضا ، لأننا نجد أن الطفل الأكبر كثيراً ما يحلم بأنه يسقط ، فهو على القمة ، ولكنه غير واثق من قدرته على الاحتفاظ بهذه القمة

(التفوق) ، ومن ناحية أخرى فإن الطفل الثانى يتصور نفسه دائمًا فى سباق ، فهو يجرى خلف قطار أو يتسابق فى أحد سباقات الدراجات ، وكثيرًا ما تكون هذه الأحلام المملوءة بالسرعة والمشغولية علامة واضحة وسهلة تمكننا من أن نخمن أن صاحب هذه الأحلام هو الطفل الثانى.

لكنه يجب علينا القول بأنه لا توجد قواعد ثابتة ومحددة ، فأنت فى غير حاجة لأن تكون الطفل الأكبر لكى تتصرف تصرفاته ، ويكون هذا لأن الموقف نفسه بكل ما يحمله من ظروف له أكبر التأثير ، وأن ترتيب الولادة ليس هو العامل الوحيد المؤثر فى العائلات الكبيرة يمكن أن يكون لأحد صغارها نفس وضع الطفل الأكبر ، ويحدث هذا عندما يولد طفلان فى زمن متقارب ، وبعد مرور فترة طويلة من ذلك يولد الطفل الثالث ، وبعدها يولد طفلان آخران ، فإن الطفل الثالث سوف يظهر جميع الخصائص المميزة للطفل الأكبر.

بالمنطق نفسه فإنه يمكن أن يظهر طفل له خصائص ومميزات الطفل الثانى بعد ميلاد أربعة أو خمسة أطفال ، أينما ولد طفلان بفارق زمنى بسيط بين كل منهما ، ويفاصل زمنى كبير بينهما وبين باقى الأخوة ، فإن الخصائص المميزة للطفل الأكبر والطفل الثانى ستظهر عليهما.

لقد سبق وقلنا إنه يحدث أحيانًا أن الطفل الأكبر يخسر السباق مع الطفل الثانى ، وقد يسبب هذا الكثير من المشاكل له ، ولكنه أحيانًا يتمكن من الحفاظ على وضعه والانتصار فى السباق ، وعندها فإن الطفل الثانى هو الذى سيتعرض للكثير من المشاكل.

وأصعب المواقف على الإطلاق عندما يكون الطفل الأكبر ذكرًا والطفل الثانى أنثى ؛ لأنه عندها يواجه خطر التعرض لهزيمة من أنثى ، وفى ظل ظروف المجتمع الحالى فإن هذا يعتبر عارًا كبيرًا ، إن التنافس بين الذكر والأنثى يكون أكثر حدة وأشد من التنافس بين ذكرين أو التنافس بين أُنْثَيَيْنِ.

وفى مثل هذا الصراع فإن الطبيعة تحابى الأنثى فإلى أن تصل لسن السادسة عشرة فإن معدل نموها سيكون أسرع بكثير من معدل نمو الذكر من الناحية الجسمانية والعقلية أيضاً ، وكثيراً ما يحدث أن الطفل الأكبر (الذكر) يستسلم ويقبل بالهزيمة ، ويصبح كسولاً ويصيبه الإحباط ، ويحاول تحقيق التفوق بوسائل خسيسة وملتوية أو عن طريق التفاخر الكاذب ، ويمكننى أن أؤكد أنه فى معظم هذه الحالات فإن الفتاة سوف تنتصر ، وسوف نراه يتخبط كثيراً فى طريقه ويضل الطريق ، بينما الفتاة تواجه مشكلاتها بشجاعة وتحلها بسهولة محققة تقدماً باهراً .

إن مثل هذه الصعوبات يمكن تجنبها ، ولكن علينا أن نتعرف على مواطن الخطر وأن نتخذ خطوات فعالة قبل أن يلحق به ضرر لا يمكن إصلاحه ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا فى ظل أسرة متماسكة ومتعاونة ويشعر كل فرد فيها بالمساواة وحيث لا يكون هناك داعٍ للتنافس والأطفال يشعرون بأن موقفهم داخل العائلة غير مهدد .

الطفل الأصغر

إن جميع أطفال الأسرة لهم من يتبعهم ماعدا الطفل الأصغر ، وهذا يجعل من الممكن لأى طفل منهم أن يفقد عرشه ماعدا الطفل الأصغر ؛ لأنه لا يوجد من يتبعه وأيضًا توجد قدوة تحدد له سرعة الانطلاق ، إنه الطفل الصغير – آخر العنقود – وأكثر أفراد الأسرة تعرضًا للتدليل ، ولهذا فإنه يواجه المشاكل التى يتعرض لها الطفل الذى حصل على قدر من التدليل الزائد والتى تكلمنا عنها فيما قبل ، ولكن لأنه يتعرض للكثير من التحفيز Stimulation بسبب كثرة المنافسة فإنه ينمو ويتطور بمعدل أعلى من العادى ، ويتقدم بسرعة أكبر من الأطفال الآخرين فى الأسرة .

إن موقف ووضع الطفل الأصغر ظل كما هو بلا أى تغيير منذ فجر التاريخ ، وسنجد فى أقدم الأساطير وصفًا مفصلاً للكيفية التى تمكن بها الأخ الأصغر

من التفوق على إخوته وأخواته ، وفى الكتاب المقدس هناك أمثلة كثيرة للطفل الأصغر الذى ينتصر دائما :

فيوسف الصديق نشأ معظم حياته وهو يحتل مكانة الطفل الأصغر ، هذا لأن بنيامين ولد بعده بسبعة عشر عاما وبالتالى فإنه لم يلعب أى دور فى نمو وتطور يوسف ، وأسلوب حياة يوسف يعتبر مثالا صادقًا ونمطيا لأسلوب حياة الطفل الأصغر ، فهو دائما يؤكد ويحاول إثبات تفوقه حتى فى أحلامه فإن الآخرين يجب أن ينحنوا أمامه ، لقد كسف بظهوره ضوء جميع إخوته الأكبر منه ، ولقد فهم إخوته معنى حلمه حق الفهم فلم يكن هذا بالشىء الصعب خاصة أن يوسف كان فى صحبتهم معظم الوقت ، كما أن موقفه منهم كان واضحا بالدرجة الكافية فى أحلامه ، لقد شعر الإخوه بالمشاعر التى أثارها يوسف فى حلمه ، ولهذا خافوا من وجوده وملأتهم الرغبة فى التخلص منه ، وهكذا تسببوا عن غير قصد فى أنه استطاع أن يحقق حلمه ، وفى المستقبل أصبح يوسف عماد العائلة بأكملها والمسئول عنها.

إن الطفل الأصغر غالبًا ما ينجح فى اتخاذ وضع عميد العائلة ، ولا يمكن أن يكون هذا محض مصادفة ، والناس كلهم قد عرفوا هذه الحقيقة وكثيراً ما حكوا القصص والأساطير عن قوة الطفل الأصغر ، وهم على صواب فإن الطفل الأصغر فى وضع يحسد عليه : فالأب والأب يساعدانه والإخوة والأخوات أيضًا ، وعندما يحصل على كل هذا التحفيز Stimulation فإن طموحاته ومجهوداته تمكنه من تحقيق هدفه فى التفوق خاصة أنه لا يوجد من يتبعه أو يحاول عرقلة تقدمه.

وبالرغم من كل ما سبق فإن الطفل الأصغر يشكل ثانى أكبر نسبة من بين الأطفال ذوى المشاكل ، والسبب فى هذا يكمن فى أن العائلة بأكملها كانت تدلله وتتساهل معه وتشبع جميع رغباته ، إن الطفل المدلل لا يستطيع أن يستقل بحياته أبدا ؛ لأن الشجاعة تنقصه ولن يتمكن من تحقيق النجاح بمجهوده الشخصى.

إن الطفل الأصغر شديد الطموح دائمًا ، ولكن أكثر الأطفال طموحا أكثرهم كسلاً ، فإن الكسل علامة على وجود طموح اختلط بالإحباط ، وكان هذا الطموح قويا

جدا حتى إن الفرد يرى أن تحقيق مثل هذه الطموحات هو درب من دروب الخيال ، فيفقد الأمل ويصاب بالكسل الشديد.

أحيانًا لا يعترف الطفل الأصغر بوجود أى طموحات ، ولكن هذا يحدث ؛ لأنه يرغب فى التفوق فى كل شيء وفى أن لا يسمح لأى شيء بأن يحده وفى أن يصبح فريدًا من نوعه ، وهذا يوضح حجم المعاناة التى يمكن أن يشعر بها الطفل الأصغر ومشاعر النقص التى تعذبه ، فإن كل من حوله أكبر منه سنا وأكثر قوة وأكثر خبرة.

الطفل الوحيد

عندما يكون الطفل وحيد أبويه فإنه يواجه مجموعة خاصة جدا من المشاكل ، فهو يعانى من وجود منافس ، ولكن هذا المنافس ليس بأخ أو بأخت فإن مشاعر المنافسة تكون موجهة ضد الأب ، فإن الطفل الوحيد يكون مدللاً بطريقة مبالغ فيها خاصة من قبل الأم ، فهى تخشى من أن تفقده وترغب فى الاحتفاظ به تحت جناحها طوال الوقت ، إن مثل هذه الابن يصاب بما يعرف بعقدة الأم **Mother complex** ، فهو مرتبط بأمه أشد الارتباط ويتبعها فى كل مكان ، ويرغب فى التخلص من والده وإخراجه من الصورة ، ويمكن منع حدوث هذا إذا كان التعاون كاملاً بين الأب والأم ونجحا فى جعل الطفل مهتما بهما معًا ، ولكن فى معظم الحالات فإن الأم هى التى تتولى الكثير من شئون الطفل بعكس الأب.

إن "الطفل الأكبر" يكون مشابهًا فى كثير من أوضاعه وحالاته لـ "الطفل الوحيد" فهو يحاول النيل من والده ويستمتع بمصاحبة من هو أكبر منه سنا. إن الطفل الوحيد غالبا ما يكون فى أشد الخوف من أن يُرْزَقَ أبواه طفلاً جديدًا ، وعندما يحاول أحد أصدقاء الأسرة أن يقول :

" يجب أن يكون له أخت أو أخ أصغر".

سنجد أن الطفل سيكره مثل هذا الاحتمال على الفور ، فهو يرغب فى أن يظل مركز اهتمام الجميع طوال الوقت ، وهو يشعر بأن هذا هو حقه المكتسب الذى يجب ألا ينافسه فيه أحد ، عندما يصل هذا الطفل إلى مرحلة البلوغ ويفقد وضعه كمركز لاهتمام الجميع فإن الصعوبات تبدأ فى الظهور.

ومن المواقف التى يمكن أن تهدد بالخطر نمو وتطور "الطفل الوحيد" إذا ما ولد هذا الطفل فى بيئة منطوية وغير اجتماعية ، وإذا كان الأب والأم غير قادرين - يجب الربط - على إنجاب المزيد من الأطفال ، فإن كل ما فى وسعنا هو محاولة حل مشكلات هذا "الطفل الوحيد" ، لكننا كثيراً ما نجد مثل هذا الطفل فى عائلة يكون بإمكانها إنجاب المزيد من الأطفال ولكن الأب والأم يكونان من النوع المتشائم ، فهم يشعران بأنهم غير قادرين ماديا على تربية أكثر من طفل ، ويكون جو الأسرة كله مملوءاً بالقلق ، ويعانى الطفل الوحيد بشدة.

لو كانت هناك فترة زمانية طويلة بين أطفال الأسرة فإن كل طفل سيصبح متميزاً ببعض الخصائص التى تميز "الطفل الوحيد" ، وهو وضع لا يحسد عليه أحد ، وعندما كان يسألنى الناس قائلين:

" ما الفترة الزمنية المثلى الواجب تركها بين الطفل والآخر ؟ ".

" هل من الأفضل أن يتم إنجاب الأطفال تباعًا ؟ أم يجب أن نترك فترات زمنية طويلة بين الطفل والآخر ؟ ".

و من واقع خبراتى فإنه على أن أقول إن الفترة الزمنية المثلى بين الطفل والآخر هى حوالى ثلاث سنوات ؛ لأن الطفل ذا السنوات الثلاث يستطيع التعاون مع أخيه الجديد ، فهو قد بلغ مرحلة من العمر تمكنه من فهم أن انضمام طفلٍ جديدٍ لأسرة لا يهدد وضعه بأى حال من الأحوال ، أما إذا كان الطفل أقل من هذا - عامين أو عامًا ونصف - فإنه يكون غير قادر على الفهم ولن يمكننا شرح القادم الجديد وسنعجز عن إعداده بطريقة مناسبة لهذا الحدث.

إذا حدث وكان الطفل ذكرًا فى أسرة كل أطفالها إناث ، فإنه سيواجه مستقبلاً مليئًا بالصعوبات ، فهو يعيش فى بيئة أنثوية معظم الوقت ؛ لأن الأب يكون غائبًا معظم النهار ، وكل ما يراه هو أمه وأخواته وربما بعض الخدم ، فيشعر بأنه مختلف عن الجميع وينمو ويتطور فى عزلة ، ويزداد شعوره بالعزلة إذا ما اتحدت الإناث ضده فى الرأى ، حيث إن كل نساء الأسرة يشعرن بأنه من الواجب عليهن أن يساهمن فى تنشئته أو إثبات أنه لا يوجد ما يدعوه للغرور ، وسيكون هناك الكثير من المعاناة والتنافس داخل هذه الأسرة ، وإذا كان الطفل فى عمر متوسط بين أخواته الإناث فإنه يكون فى أسوء وضع ممكن ؛ لأن مهاجمته تتم من الجانبين ، أما إذا كان أكبرهم سنا فإنه يكون فى خطر التعرض لمنافسة رهيبة من أخته ، وإذا كان الأصغر على الإطلاق؛ فإنه يتم تدليله بطريقة مبالغ فيها.

إن وضع الطفل الذكر فى أسرة كل أطفالها إناث هو وضع غير محبوب على الإطلاق ، لأن البيئة الأنثوية تختلف فى طبيعتها عن البيئة المختلطة ، ولكن المشكلة يمكن حلها ؛ إذا اشترك الجميع فى حياة اجتماعية نشيطة يقابلون فيها غيرهم من الأطفال ، وإذا لم يحدث هذا فإن الطفل الذكر سيبدأ فى التصرف مثل الفتيات.

إذا كان منزل الأسرة منزلاً غير تقليدى مفروشًا بما يناسب ذوق ساكنيه ، فإن المنزل الذى تتملؤه النساء سيكون نظيفًا جدا ومرتبًا وسيتم اختيار الألوان بعناية واهتمام شديد بالتفاصيل ، أما المنزل الذى يملؤه الرجال فإنه لن يكون على نفس الدرجة نفسها من النظافة والترتيب وسيكون خشنًا نوعا ما وممتلئًا بالضوضاء والأثاث المحطم.

إن الطفل الوحيد الذكر بين مجموعة من الإناث سينمو ويتطور ذوقه بطريقة أنثوية كما أن نظرته للحياة ستكون نظرة أنثوية أيضا.

من ناحية أخرى فإنه قد يقاوم الجو المحيط به بشدة ، ويحاول تأكيد رجولته بطريقة مبالغ فيها ، وعندها فإنه سيكون فى وضع الدفاع دائمًا ، مصممًا ، على أن لا تنجح إحداهن فى الهيمنة والسيطرة عليه ، وسيشعر برغبة شديدة فى تأكيد وإثبات فرديته و"تفوقه" ، وسيكون هناك بعض التوتر فى جو الأسرة ،

وسيحكم التطرف نمو وتطور هذا الطفل ؛ لأنه سيدرب نفسه على أن يكون إما قويا جدا وإما ضعيفا جدا .

والشيء نفسه يحدث مع البنت الوحيدة بين مجموعة من الذكور فإنها إما ستنمو وتتطور بطريقة أنثوية مبالغ فيها وإما بطريقة رجولية ، إن الشعور بالعجز وعدم الأمان سيملؤها طوال حياتها ، إن وضع وموقف مثل هذه الفتاة يستحق الكثير من البحث والدراسة ؛ لأننا لا نرى مثله كثيراً ، وقبل الحديث عنه فإنه يجب علينا أن ندرس المزيد من الحالات المشابهة .

فى كل مرة حاولت فيها دراسة البالغين وجدت أنه هناك انطباعات عنهم موجودة منذ عهد الطفولة المبكرة وأن هذه الانطباعات مازالت موجودة حتى الآن ، إن الوضع فى العائلة يترك أثرا لا يمكن إزالته على أسلوب حياة الفرد وكل صعوبة من الصعوبات التى تحدث فى النمو والتطور يكون سببها هو التنافس بين الأشقاء ونقص التعاون داخل الأسرة.

إذا نظرنا من حولنا فى حياتنا الاجتماعية أو فى العالم ككل ، وتساءلنا عن سبب كون التنافس والصراع بين الإخوة هو أكثر جوانب الحياة الاجتماعية وضوحا فإنه يجب علينا أن نعترف أن كل البشر فى كل مكان يسعون سعيًا حثيثًا لتحقيق هدفهم فى التفوق وفى التغلب على الآخرين ، إن هذا الهدف ما هو إلا نتيجة للخبرات التى مرت بنا خلال مرحلة الطفولة المبكرة وبسبب التنافس والصراع بين الأطفال الذين شعروا بأنهم ليسوا أعضاء متساوين مع باقى أفراد أسرتهم ، والطريقة الوحيدة للتخلص من كل هذه العيوب هو تدريب الأطفال على التعاون.

الفصل السابع

تأثير المدرسة

الوجه الجديد للتعليم

إن المدرسة ما هى إلا امتداد للأسرة ، فلو أن الوالدين كانت لهما القدرة على تعليم أطفالهم وإعدادهم بطريقة مناسبة لحل مشكلات الحياة ، لما كنا فى حاجة لوجود المدرسة ، وفى الماضى كان الطفل يتم تدريبه بطريقة شبه كاملة داخل حدود الأسرة ، فالحرفى كان يعلم أبناءه حرفته ويدربهم على كل المهارات التى تعلمها من والده ومن خبراته الطويلة ، ولكن فى أيامنا هذه فإن حضارتنا تلقى على كواهلنا بمتطلبات أكثر تعقيداً ، ولهذا فإننا فى حاجة لوجود المدارس لكى تخفف العبء من على كواهل الوالدين ونكمل العمل الذى بدأه الأب والأم ، فإن التكامل الاجتماعى يتطلب مستوى أعلى من التعليم من الذى نستطيع أن نوفره لهم (أطفالنا) داخل حدود المنزل.

فى أمريكا لم تمر المدارس بكل المراحل التى مرت بها المدارس فى أوروبا ، وفى بعض الأحيان لا تزال هناك آثار لبعض العادات والتقاليد المستبدة التى انتشرت هناك (فى أوروبا) ، فى تاريخ التعليم الأوروبى كان الأمراء والأرستقراطيون هم فقط الذين يحصلون على تعليم مدرسى نظامى ؛ فقد كانوا يُعتبرون الجزء الوحيد من المجتمع ذا القيمة ، أما الآخرون فكانوا بلا قيمة وكان يتوقع منهم أن يعملوا فى خدمة الجزء ذى القيمة من المجتمع ، وفيما بعد ازداد اتساع نطاق البشر الذين كان المجتمع يهتم بتعليمهم ، فإن المعاهد الدينية استولت على عملية التعليم ؛ حيث كان يتم اختيار

القليل من الأفراد ليتم تدريبهم على علوم اللاهوت وبعض الفنون والعلوم والالتزام الحرفى.

وعندما تطورت التكنولوجيا فإن طرق التعليم القديمة أصبحت غير مناسبة ، وبدأ الصراع يتجه نحو تعليم أوسع وأشمل ، فالمدرسون فى القرى والمدن الصغيرة كانوا يتكونون عادة من الحياك والإسكافية ، وكانت وسيلتهم فى التعليم هى استخدام العصىِّ وكانت النتائج بالغة السوء بالطبع ، أما المدارس الدينية والجامعات فكانت وحدها هى التى تعلم الفنون والعلوم وأحيانًا كان بعض الأباطرة لا يعرفون القراءة أو الكتابة.

وعندما أتت الثورة الصناعية أصبح من الضرورى أن يتعلم العمال القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب والرسم ، وهذا هو ما تسبب فى خلق وتأسيس المدارس الحكومية كما نعرفها الآن ، وتأسست هذه المدارس بغرض سد حاجة الحكومة من نوعيات خاصة من العمال ، وقد كانت حكومات ذلك العهد فى حاجة إلى العامل المتعلم المطيع المدرب على خدمة الطبقات العليا والقادر على حمل السلاح والانضمام للجيش عندما يتطلب الأمر هذا ، وكانت كل المواد التى تدرس فى هذه المدارس مخصصة لخدمة هذا الهدف ، وأنا – شخصيا – أتذكر هذه الفترة فى "النمسا" عندما كانت الأحوال السابق وصفها تسود البلاد عندما كان تدريب الطبقات الدنيا من المجتمع مصمم بحيث يُخرج أفرادًا مطيعين وقادرين على خدمة الطبقات الأعلى من المجتمع .

لكن فشل هذا النوع من التعليم كان يتزايد بوضوح فإن الحرية قد بدأت فى الازدهار ، والطبقة العاملة ازدادت قوة ، وأصبح لها الكثير من الطلبات ، وقد غيرت المدارس الحكومية من نفسها لكى تتلاءم مع هذه الطلبات الجديدة ، والآن فإن هدف التعليم هو تخريج أطفال يستطيعون التفكير باستقلالية لأنفسهم ، وأن يعطوا الفرصة فى التعرف على الآداب والفنون والعلوم ، بحيث ينمو الطفل وهو قادر على المشاركة فى الحضارة الإنسانية والمساهمة فيها .

فنحن لم نعد راغبين فى تعليم وتدريب الأطفال لكى يكسبوا معيشتهم فقط أو من أجل إنجاز مهمة فى أحد المصانع ، بل إننا فى حاجة إلى تخريج جيل جديد يستطيع العمل مع بعضه البعض من أجل تحقيق الصالح العام.

دور المعلم

إن كل من يحاول إصلاح التعليم وإعادة تشكيل النظام المدرسى إنما هو فى الواقع يحاول زيادة درجة "التعاون" فى الحياة الاجتماعية ، وهذا هو الغرض من وراء المطالبة بتدريب وتنمية الشخصية ، وإذا فهمنا الطلب السابق فى هذا الضوء فإن الأسباب وراء هذا الطلب تصبح واضحة ، لكن أهداف وطرق التعليم مازالت غير مفهومة تمامًا ، ويجب علينا أن نجد مدرسين يستطيعون تدريب الأطفال على العمل بطرق مفيدة وفى صالح كل البشر وليس على كسب معيشتهم فقط ، فيجب أن يكونوا على وعى بأهمية المهمة ، ويجب تدريبهم على إنجازها بكفاءة تامة.

أهمية التدريب على تنمية الشخصية

إن فاعلية هذا التدريب مازالت موضع بحث ، ولكن علينا أن نتجاهل النظام القضائى حيث إنه لا توجد محاولات منظمة وجادة لتصحيح طرق تدريب وتنمية الشخصية ، وحتى فى المدارس فإن النتائج غير مشجعة ، فالطفل يأتى إلى المدرسة وهو يحمل على كاهله عبء الفشل فى الحياة العائلية ويستمر فى ارتكاب الأخطاء نفسها بالرغم من كل المحاضرات والتدريب والتعليم الذى يلقاه ، ولهذا فإنه لا توجد طريقة غير تحسين مستوى المدرس نفسه وقدرته على الفهم والمساعدة فى تطوير الطفل فى المدرسة .

إن الكثير من أبحاثى وأعمالى قد تم داخل المدرسة ، وأنا أؤمن أن الكثير من المدارس فى "فيينا" تسبق العالم بأكمله فى هذا المضمار ، وفى أماكن أخرى فإن

هناك أطباء نفسيين يفحصون الأطفال ويعطون نصائح على كيفية رعايتهم ، ولكن ما جدوى كل هذا ؟ إذا لم يوافق المدرس على النصيحة ويتقبلها ، ويتفهم كيفية تنفيذها ؟.

فإن الطبيب النفسي يرى الأطفال مرة أو مرتين فى الأسبوع – فى بعض الأحيان مرة كل يوم – لكنه لا يعرف تأثيرات البيئة المحيطة والتأثيرات القادمة من العائلة والتأثيرات القادمة من خارج العائلة والتأثيرات القادمة من المدرسة نفسها ، فعندما يكتب الطبيب ملحوظة (تقرير) يطالب فيه بتحسين تغذية الطفل أو علاجه من الغدة الدرقية أو ربما أعطوا نصائح للمدرس بخصوص الكيفية التى يجب بها معاملة طفل بعينه ، فإن المدرس لا يعرف السبب الذى دفع الطبيب النفسى لوصف هذا العلاج كما أنه لا يملك الخبرة الكافية لتجنب الأخطاء التى قد تحدث ، إن المدرس لا يستطيع إنجاز أى شىء إلا إذا تعرف على شخصية الطفل وفهمها حق الفهم فنحن فى حاجة إلى تعاون وثيق بين الطبيب النفسى والمدرس ، كما أن المدرس يجب أن يعرف كل ما يعرفه الطبيب النفسى ، حتى يمكنه – بعد مناقشة مشكلة الطفل وفهمها – أن يساعد الطفل بدون أى مساعدة إضافية من الطبيب ، وإذا ما ظهرت أى مشكلة غير متوقعة ، فإن المدرس يكون على استعداد للتعامل معها بنفس طريقة الطبيب النفسى ويبدو لى أن أكثر الطرق العملية هى تشكيل مجلس استشارى يستطيع أن يقدم النصيحة مثل المجلس الذى أسسناه فى "فيينا" ، وسأصف هذه الطريقة فى نهاية هذا الفصل .

عندما يذهب الأطفال إلى المدرسة لأول مرة فإنهم يواجهون اختباراً جديداً فى حياتهم الاجتماعية ، وهذا الاختبار سيكشف بوضوح بعض النقائص التى حدثت خلال نموهم وتطورهم ، فإن عليهم الآن أن يتعاونوا فى محيط أكبر من الذى اعتادوا عليه ، فإذا كان الطفل قد تعرض لتدليل زائد فى المنزل ، فإنه سيكون على غير استعداد لترك العش الدافئ والحياة المحمية وأن ينضم إلى الأطفال الآخرين .

وهكذا فإننا سنرى منذ اليوم الأول حدود قدرات الطفل المدلل على الشعور بالمجتمع من حوله ، فإنه سيبكى ويطالب بالعودة لمنزله ، وسيكون غير مهتم بواجباته المدرسية أو مدرسيه ، وهو لن يصغى لما يقال له ؛ لأنه سيفكر فى نفسه طوال الوقت.

ومن السهل أن نرى أنه إذا ما استمر فى هذه الطريقة الأنانية فإنه لن يتقدم بطريقة طيبة فى المدرسة ، وكثيراً ما قال لنا الوالدان عن أن الطفل المشكلة هو طفل طبيعى جدا فى المنزل ، وأن المشاكل تبدأ فى الظهور عند ذهابه إلى المدرسة ، وهذا يجعلنا نستنتج أن الطفل يشعر أنه فى وضع أحسن كثيراً داخل العائلة فلا توجد اختبارات ، وكل أخطائه تكون غير ظاهرة ، أما فى المدرسة فإن هذا لا يحدث ولا يوجد من يسامحه ، ولهذا فإن الطفل ينظر على خبرته المدرسية على أنها هزيمة .

أحد الأطفال - منذ يومه الأول فى المدرسة - كان يسخر من كل ما يقوله المدرس ، وأظهر عدم اهتمامه بالعمل المدرسى حتى إن العاملين فى المدرسة ظنوا أنه متخلف عقليا ، وعندما تم عرضه علىَّ قلت له :

" إن الجميع فى المدرسة يتعجب من سبب ضحكك وسخريتك الدائمة ".

فأجاب قائلاً :

" إن المدرسة ليست إلا نكتة خلقها الوالدان ، فهم يرسلون الأطفال للمدرسة بغرض العبث بهم ".

كان هذا الطفل قد تعرض لكثير من الكيد والإغاظة فى المنزل وكان مقتنعًا تمام الاقتناع أن أى موقف جديد ما هو إلا محاولة للسخرية منه والعبث به ، ولحسن الحظ كنت قادراً على أن أظهر له أنه قد بالغ فى الحفاظ على كرامته ووقاره ومنزلته وأنه لا يوجد من يحاول العبث به فى المدرسة ، وكانت نتيجة هذا أنه بدأ يظهر الاهتمام بالعمل المدرسى وكان تقدمه الدراسى - فيما بعد - طيباً.

العلاقة بين الطفل والمعلم

إن مهمة المدرس هى التعرف على المشكلات التى تواجه الأطفال وتصحيح أخطاء الوالدين ، فإن المدرس سيجد أن بعض تلاميذه مستعدون لهذه الحياة الاجتماعية الأكثر اتساعا ، وأن الطفل قد تم إعداده وتدريبه - داخل العائلة - على الاهتمام بالناس من حوله ، ولكنه سيجد بعض الأطفال الذين لم يستعدوا لدخول هذه الحياة الاجتماعية الأكثر اتساعا (المدرسة) ، وعندما يكون الفرد غير مستعد لمواجهة مشكلة ما فإنه يتردد وينسحب .

إن كل الأطفال الذين يبدو عليهم البطء والتأخر - وغير المصابين بالتخلف - يقفون عاجزين أمام مشكلة التأقلم مع الحياة الاجتماعية الجديدة ، والمدرس فى أحسن وضع يمكنه من مواجهة هذا الموقف الجديد بالنسبة إلى الأطفال ومساعدتهم فى التغلب عليه .

ولكن كيف يستطيع المدرس مساعدة مثل هؤلاء الأطفال ؟

إنه من الواجب عليه (المدرس) أن يقوم بما يفترض على الأم أن تقوم به ، فعليه أن يخلق رابطة خاصة مع هؤلاء الأطفال ، وأن يكتسب اهتماماتهم وانتباههم ، فإن مستقبل الأطفال فى التأقلم يعتمد على جذب اهتماماتهم أولاً وقبل كل شىء ، فلا يوجد من يستطيع إنجاز هذا بواسطة الشدة أو فرض العقوبات ، فعندما يأتى الطفل الجديد إلى المدرسة ويجد أنه من الصعب عليه الارتباط بمدرسيه ورفقائه من التلاميذ فإنه لا يوجد ما هو أسوء من توجيه النقد والتوبيخ لمثل هذا الطفل ، فإن مثل هذه الطريقة فى معالجة الأمور ستؤكد لدى الطفل صحة شعوره فى عدم حب المدرسة.

ويبدو لى أننى لو كنت فى مكان هذا الطفل وتم توجيه النقد لى وتوبيخى باستمرار فى المدرسة فإننى كنت سأحجب اهتماماتى بعيداً عن المدرسين أيضًا ، وكنت سأبحث - دائمًا - عن طرق تسمح لى بالخروج من مثل هذا الموقف وتجنب المدرسة كلها بمن فيها من مدرسين وتلاميذ.

إن الأطفال الذين يشعرون بأن المدرسة هى بيئة غير سارة هم الذين يتهربون – فيما بعد– من أداء واجباتهم المفروضة عليهم ومن المدرسة ككل ويظهرون بمظهر من هو أقل ذكاء ويكون من الصعب التعامل معهم ويكون مستوى أدائهم بصفة عامة غير مُرضٍ .

ولكنهم فى الحقيقة ليسوا أقل ذكاء ، فالكثير منهم يملك قدرة عظيمة على الابتكار خاصة فى مجال خلق أعذار للتغيب عن المدرسة أو تزييف خطابات ينسبونها لآبائهم وأمهاتهم ، وفى خارج المدرسة فإنهم يجدون أطفالاً آخرين – غالبًا أكبر سنا منهم – لعبوا الدور نفسه من قبل ، ومن هذه الصحبة الجديدة يحصلون على الكثير من التقدير والاحترام والتفهم لما قاموا به ، وبهذا تصبح المدرسة خارج النطاق الذى يشعرون داخله بالانتماء وبأن لهم قيمة وبأن هناك من يستطيع أن يفهمهم ، وتصبح مجموعة الأطفال التى تطابقهم فى الميول هى كل ما يهتمون به .

ومن هذا نرى كيف تحول الأطفال فى مثل هذا الموقف – والذين لم يتم تقبلهم داخل الفصل كأعضاء مساوين لباقى أطفال الفصل – إلى حياة الإجرام .

زيادة اهتمام الأطفال بالعملية التعليمية

لكى ينجح المدرس فى الاستحواذ على اهتمام الأطفال فإن عليه أن يكتشف ما هى اهتمامات الطفل السابقة وأن ينجح فى إقناعه فى أن تحقيق النجاح يكون عن طريق استخدام اهتماماته السابقة وغيرها من الاهتمامات ، عندما يشعر الطفل بالثقة والقدرة على التعامل مع أحد جوانب الحياة فإنه يصبح من السهل توجيه اهتماماته إلى جوانب أخرى ، ولهذا علينا – منذ البداية – أن نكتشف الطريقة التى ينظر بها الطفل إلى العالم من حوله وأى الحواس الخمس الموجودة لديه تُسْتَخْدَمُ أكثر وأيُّها تم تدريبه إلى أقصى درجة .

فبعض الأطفال يهتمون أكثر بالرؤية والبعض الآخر يهتم أكثر بالإصغاء أو الحركة ... أو غيرها ، والأطفال الذين يهتمون باِستخدام عيونهم سيكون من السهل

توجيه اهتماماتهم إلى المواد التى تسمح لهم باستخدام عيونهم مثل الجغرافيا والرسم ، أما إذا قام المدرس بإلقاء الكثير من المحاضرات الشفاهية عليهم فإنهم لن يصغوا إليه ، فهؤلاء الأطفال غير معتادين على إعطاء انتباههم لكل ما هو سماعى وإذا لم تتح فرصة أكبر - لهؤلاء الأطفال - للتعلم باستخدام عيونهم فإنهم سيصبحون بطيئى التعلم ، وربما يأخذ الجميع عنهم انطباع أنهم غير موهوبين ولا يتمتعون بأى قدرات ، ويتم إلقاء اللوم على عوامل الوراثة .

إذا كان يجب توجيه اللوم لأحد على حالات الفشل التى تحدث فى المدرسة فإن المدرسين والآباء والأمهات - الذين لم يستطيعوا اكتشاف الطريقة السليمة لزيادة اهتمام الأطفال بالتعليم - هم الذين يجب توجيه اللوم لهم ، وأنا هنا لا أوجه الدعوى لتغيير تعليم الأطفال بحيث يجب أن يبدأ فى تشجيع التخصص المبكر ، ولكن أى اهتمام يبديه الطفل فى أى مجال يجب أن يستخدم فى دفعه نحو اهتمامات أخرى ، وهناك بعض المدارس الآن التى تدرس المواد المختلفة بطرق تجذب جميع حواس الطفل واهتماماته ، وهناك تمارين تستخدم النماذج والرسم بالإضافة إلى الطرق التقليدية فى الشرح ، ويجب تشجيع مثل هذه الاتجاهات وتطويرها أكثر .

إن أفضل الطرق لتدريس أى مادة هو ربطها بكل جوانب الحياة الممكنة حتى يستطيع الطفل أن يرى الهدف من تدريس مثل هذه المادة والقيمة العملية لما يتعلمه .

فكثيراً ما يبرز التساؤل القائل :

" أى الطرق أفضل ؟ تعليم الأطفال كيفية فهم الحقائق ؟ أم تعليمهم كيف يصبحون مفكرين أحراراً يستطيعون التفكير باستقلالية ؟ ".

ويبدو لى أنه لا حاجة لنا لاختيار إحدى الطريقتين دون الأخرى ، فإنه من الممكن دمج الطريقتين واستخدامهما معا ، وفى رأيى فهذا يحقق لنا ميزة عظيمة ، فعلى سبيل المثال : عندما يتم تعليم الأطفال الرياضيات عن طريق بناء البيوت بأن نجعلهم

يحاولون إيجاد القدر المطلوب من ألواح الخشب وغيرها من مواد البناء لبناء منزل يكفى لمعيشة عدد معين من البشر ... وهكذا ٠

كما أنه يوجد الكثير من المواد الدراسية التى يمكن تدريسها مع بعضها البعض بسهولة ، وهناك الكثير من المدرسين ذوى الخبرة الواسعة فى ربط نواحى الحياة المختلفة معًا ، فالمدرس يستطيع – على سبيل المثال – أن يأخذ الأطفال فى جولة على الأقدام بغرض اكتشاف الأشياء التى تهمهم أكثر من غيرها ، وفى الوقت نفسه يستطيع المدرس أن يشرح لهم ما يمرون به من نباتات مختلفة والتركيب البنائى لكل نبات وكيف تتم زراعته وما استخداماته وتأثيرات الجو المحيط والخصائص المادية للطبيعة المحيطة ، وتاريخ الزراعة البشرية وغيرها ، وعلىَّ هنا أن ألفت النظر إلى ضرورة أن يكون المدرس مهتما اهتمامًا حقيقيا وأصيلاً بتعليم الأطفال وإلا فشل مثل هذا الأسلوب فى التعليم ٠

التعاون والتنافس داخل الفصل الدراسى

كثيراً ما نجد أن الأطفال – عندما يأتون لأول مرة إلى المدرسة – مستعدون للتنافس فيما بينهم أكثر من استعدادهم للتعاون ، وللأسف فإن الاستعداد للتنافس يستمر خلال الدراسة ، وهذا كارثة حقيقية للأطفال ، فهى كارثة إذا ما حاول الأطفال بذل كل جهودهم لهزيمة ، والتغلب على الأطفال الآخرين ، وهى أيضًا كارثة عندما يتخلف الأطفال ويستسلمون ويتوقفون عن المحاولة ، وفى كلتا الحالتين سيصبح الطفل مهتما بنفسه فقط ، ولن يصبح هدفه الأساسى المساهمة ومساعدة الآخرين ، بل سيصبح مهتما بمحاولة تأمين كل ما يحقق نجاحه الشخصى فقط ، وكما أن العائلة يجب أن تكون وحدة واحدة لا تتجزأ وكل عضو فيها مساو لبقية الأعضاء ... فإن الفصل المدرسى يجب أن يكون كذلك أيضًا ، عندما يتم تدريب الأطفال بهذه الطريقة فإنهم سيصبحون مهتمين اهتمامًا حقيقيا بالآخرين ، وسيستمتعون بـ "التعاون" ٠

لقد رأيت الكثير من الأطفال صعبى المراس Difficult children ، والذين تغير موقفهم بطريقة كلية من خلال الاهتمام والتعاون مع زملائهم فى الدراسة ، وأحب أن أذكر هنا حالة أحد هؤلاء الأطفال على وجه الخصوص :

لقد أتى هذا الطفل من عائلة أشعره جميع أفرادها بأنهم يعادونه ، ولهذا توقع – هذا الطفل – أن يكون الجميع فى المدرسة معادين له أيضا ، كان مستواه المدرسى سيئًا وعندما سمع الأب والأم بهذا تم عقابه فى المنزل بواسطة كلٍّ منهما ، ولقد تكرر حدوث هذا كثيراً ، فالعديد من الأطفال يحصلون على شهادة شهرية سيئة ويتم توبيخهم بسببها فى المدرسة ، وعندما يأخذون الشهادة إلى المنزل تتم معاقبتهم مرة أخرى هناك ، إن معاقبة الطفل مرة واحدة يسبب الإحباط بما فيه الكفاية أما تكرار العقاب فما هو إلا قسوة لا داعى لها ، فلا عجب أن يتخلف مثل هذا الطفل وتقل إنجازاته كما أنه أصبح مصدراً للإزعاج داخل الفصل ، لحسن الحظ وجد هذا الطفل من يستطيع فهمه وتقدير ظروفه ، فإن أحد المدرسين تقرب منه وبدأ يشرح للأطفال الآخرين كيف أن هذا الطفل يعتقد أن الجميع أعداؤه وكانت هذه خطوة ذكية ، فقد وظف المدرس قدرات الأطفال الآخرين فى إقناعه بأنهم جميعًا أصدقاؤه ، وتسببت هذه الخطوة البسيطة فى تحسين سلوك الطفل ومستوى تقدمه بطريقة لا يمكن تصديقها .

يشك بعض الناس فى إمكانية تدريب الأطفال على فهم ومساعدة بعضهم البعض بالطريقة السابقة ، ولكن من واقع خبراتى فإن الأطفال يفهمون هذه الأشياء بطريقة أفضل من الكبار ، فذات مرة أحضرت إحدى الأمهات طفليها – طفلة فى الثانية من عمرها وطفلاً فى الثالثة من عمره – فى غرفتى ، وعندما تسلقت الطفلة الصغيرة إحدى المناضد المرتفعة أصبحت أمها فى حالة رعب حتى إنها فقدت القدرة على الحركة ولكنها صاحت قائلة :

" انزلى انزلى ".

لكن الطفلة الصغيرة لم تهتم بما قالته والدتها وتجاهلتها ، وعندها صاح الطفل ذو الأعوام الثلاثة – بلهجة آمرة – قائلاً :

" اجلسى مكانك ".

وعندها نزلت الطفلة من على المنضدة على الفور ، لقد فهم هذا الطفل ذو الأعوام الثلاثة أخته أكثر من الأم وعرف ما الذى عليه أن يفعله فى مثل هذا الموقف.

ومن أكثر الاقتراحات شيوعًا فى محاولة إنماء وتطوير الوحدة والتعاون بين الأطفال فى الفصل المدرسى هو السماح للأطفال بأن يحكموا أنفسهم ، ولكن علينا أن ننفذ هذا الاقتراح بمنتهى الحرص وتحت إشراف كامل من المدرسين وبعد أن نتأكد من أن الأطفال قد تم إعدادهم بطريقة مناسبة ، وإذا لم يتم هذا فإن الأطفال لن يأخذوا الموضوع بالجدية الكافية ، بل سينظرون إليه على أنه مجرد لعبة وبالتالى سيكونون إما أكثر صرامة وشدة من المدرسين وإما سيستغلون اجتماعاتهم لتحقيق بعض المكاسب الشخصية والميزات أو المجادلات العقيمة أو محاولة الانتقاص من قدر الآخرين وإظهار بعضهم البعض بمظهر الحماقة أو محاولة تحقيق "التفوق" ، ولهذا يكون من الواجب على المدرسين مراقبة مثل هذا النشاط عن قرب وتقديم النصح عند الضرورة.

تقييم تطور الأطفال

لو أردنا الحصول على صورة حديثة لمعيار تطور ذكاء الطفل وشخصيته وسلوكه الاجتماعى فإنه لا ينبغى لنا أن نتجنب الاختبارات من أى نوع ، وأحيانًا فإن اختبار مثل اختبارًا الذكاء (*) (I.Q.Test) ... قد يمثل حبل النجاة للطفل.

فقد كان لأحد الأطفال نصيب كبير من التقارير الشهرية السيئة حتى إن المدرس كان يرغب فى وضعه فى فصل دراسى أدنى ، وعندما تم إعطاؤه اختبار

(*) اختبار حاصل الذكاء أو (Intelligence Quotient Test (I.Q. Test ، وفيه يتم قسمة العمر العقلى (أو الإنتاجى) على العمر الحقيقى ويضرب الناتج فى مائة أى أن درجة الذكاء = (العمر العقلى / العمر الحقيقى) (المترجم) .

الذكاء فإن المدرس اكتشف أن التلميذ يستطيع التعامل بنجاح مع مستوى أعلى بكثير من المستوى الذى يحتله الآن ، وليس العكس كما كان يظن المدرس ، ولهذا يجب علينا أن نلاحظ أنه لا يمكن التنبؤ بالحدود التى يمكن لمستقبل الطفل أن ينمو فيها ، ومع هذا فإن اختبار الذكاء (I.Q.Test) يجب استخدامه فقط بغرض إلقاء الضوء على الصعوبات التى يواجهها الطفل وحتى نتمكن من إيجاد طريقة للتغلب على هذه الصعوبات ، من خلال خبراتى يمكننى القول بأن اختبار الذكاء الذى لا يشير إلى وجود تخلف عقلى فإنه يمكن دائمًا تطويره إذا ما اكتشفنا الطريقة الصحيحة ، فقد اكتشفت أنه عندما نسمح للأطفال باللعب مع اختبارات الذكاء فإنهم يصبحون معتادين عليها ، كما أنهم يكتشفون طريقة عملها وبزيادة خبراتهم معها تزداد درجاتهم وتتحسن ، وما هو أهم من كل ذلك فإن اختبار الذكاء يجب ألا يعتبر حكما ثابتا - محددا بواسطة الوراثة أو القدر - لا يمكن تغيره فى المستقبل .

كما أنه لا يجوز أيضًا إخبار الطفل أو والديه بنتيجة اختبار الذكاء ، فهم لا يعرفون الغرض من الاختبار ، وقد يجعلهم هذا يظنون أن نتيجة الاختبار ما هى إلا حكم نهائى ، وحيث إن أكبر المشاكل التى تواجه التعليم ليست محدودية قدرة الطفل ولكن هى ما يظنه الطفل حدوداً ثابتة لقدراته لا يمكن تغيرها ، فلو أن الطفل عرف بنتيجة اختبار الذكاء وكانت هذه النتيجة منخفضة على سبيل المثال فإن الطفل قد يفقد الأمل ويعتقد أن النجاح هو شيءٌ لا يمكن الوصول إليه ، والغرض من العملية التعليمية هو توجيه طاقتنا نحو زيادة ثقة الطفل بنفسه ونحو زيادة اهتمام الطفل بالآخرين من حوله وفى إزالة الحدود التى وضعها الطفل لنفسه من خلال فهمه لـ "معنى الحياة" .

إن الشيء نفسه ينطبق على التقارير المدرسية ، فلو أن المدرس أعطى الطفل تقارير سيئة ، فلربما اعتقد المدرس أنه بهذه الطريقة سوف يدفع الطفل إلى الاجتهاد أكثر ومحاولة الوصول إلى مستوى أحسن ، ولكن إذا كان الطفل قد عانى من نشأة متزمتة فى المنزل فإنه سيخاف من حمل التقرير إلى المنزل ، بل ربما ابتعد الطفل عن المنزل لفترة أو حاول تزوير التقرير ، بل إن بعض الأطفال قد حاول الانتحار

فى مثل هذه الظروف ، ولهذا فإن على المدرس أن يأخذ فى الاعتبار الكثير من المحاذير عندما يتبع مثل هذا الأسلوب ، ورغم أن المدرس لا يمكن أن يعتبر مسئولاً عن الحياة المنزلية للطفل وتأثيراتها عليه فإن عليه أن يأخذ هذه المحاذير السابقة فى الاعتبار.

لو كان والدا الطفل طموحين فربما أصابهما الغضب وقاما بتوبيخ الطفل عند حصوله على تقرير سيئ ، أما إذا كان المدرس أكثر طيبة ولينًا فربما شجع هذا الطفل على النجاح ، فعندما تكون التقارير السيئة من نصيب الطفل دائما ، ويسود الاعتقاد بأنه أسوء التلاميذ فى الفصل ، فإن الطفل نفسه يبدأ فى تصديق مثل هذا الاعتقاد، ويصدق أنها حقيقة لا يمكن تغيرها .

لكن علينا أن نعلم أنه حتى أسوء التلاميذ يمكن تحسين مستواهم ، وهناك أمثلة كثيرة وكافية بين معظم المشاهير من الناس تثبت أن الطفل المتخلف فى المدرسة يستطيع أن يستعيد توازنه وثقته بنفسه ، ويستمر حتى يصل إلى تحقيق إنجازات عظيمة .

ولعله من المهم أن نلاحظ أن الأطفال أنفسهم - وبدون الحاجة إلى تقارير شهرية - لديهم القدرة على الحكم بطريقة سليمة على قدرات بعضهم البعض ، فالأطفال يعلمون من هو أحسن واحد منهم فى مادة الحساب ، ومن هو أفضلهم فى الرسم ، ومن هو أمهرهم فى ممارسة الرياضات البدنية ، ومن هو أقواهم ذاكرة ويستطيع هجاء الكلمات ، وأكثر الأخطاء شيوعًا هو الاعتقاد بأنه لا يمكن تحسين مستوى الأطفال ، فالطفل يرى آخرين متفوقين عليه ويعتقد أنه من غير الممكن له اللحاق بهم ، لو تم تثبيت هذه الفكرة فى عقله ، فإن الاحتمال الأكبر أنه سيسمح لهذه الفكرة بأن تسود طريقته فى التفكير طوال حياته المستقبلية وستشكل موقفه من الحياة His attitude، وعندما يصل إلى مرحلة البلوغ فإن حساباته ستأخذ هذا الشكل أيضًا فإنه سيفترض دائمًا أن موقعه فى المؤخرة وراء غيره من الناس.

إن معظم الأطفال فى المدرسة يحتفظون بالترتيب نفسه فى كل الفصول التى يمرون بها ، فلو كان الطفل فى مقدمة الفصل الدراسى فإنه غالبًا ما سيحتفظ بهذا الترتيب خلال السنوات التى تلى هذا ، وينطبق الشيء نفسه على الطفل الذى يحتل ترتيبًا متوسطًا أو ترتيبًا متأخرًا فى الفصل ، ولا يجوز أن ننظر إلى هذه الحقيقة على أنها تُظهر من هو موهوب ومن هو متوسط الموهبة ومن هو غير موهوب ، إنها تظهر فقط الحدود التى وضعها الأطفال لأنفسهم ودرجة تفاؤلهم (أو تشاؤمهم) ومجال نشاطاتهم ، ومن الشائع بين الأطفال الذين يحتلون ترتيبًا متأخرًا فى الفصل أن يحدث لهم تغيير شامل ويبدءون فى إحراز تقدم مفاجئ ، من الواجب على الطفل أن يفهم حجم الخطأ الذى يرتكبه عندما يضع حدودًا لنفسه كما أنه على كل من المدرسين والأطفال أن يتخلصوا من أسطورة أن تقدم الذى يحرزه الأطفال مرتبطًا بعوامل الوراثة .

الطبيعة فى مواجهة نفسها

كما قلنا من قبل فإن أعظم الأخطاء التى يمكن ارتكابها هى : الاعتقاد بقدرة عوامل الوراثة على وضع حدود لنمو وتطور الأطفال ؛ لأن هذا يعطى المدرسين والآباء والأمهات الفرصة لشرح أخطائهم والعذر لعدم بذل المزيد من الجهد ، كما أنه يحررهم من مسئوليتهم فى التأثير على الأطفال .

إن كل محاولة لتجنب المسئولية يجب أن تتم مقاومتها ومعارضتها ؛ لأنه عندما يوافق المعلمون على أن الوراثة لها مثل هذا التأثير على نمو وتطور شخصية وذكاء الطفل فإنه لا يكون هناك أمل فى تحقيق أى نجاح فى العملية التعليمية ، ومن ناحية أخرى فإنهم (المعلمين) إذا أخذوا بعين الاعتبار أهمية موقفهم والنفوذ الذى يمارسونه على الأطفال فإنه لا مفر لهم من تحمل مسئولياتهم تجاه الأطفال.

أنا لا أشير هنا إلى عوامل الوراثة الجسدية ، فإن العيوب الجسدية التى تم توريثها هى مسألة لا تحتمل أى نقاش ، وأهمية مثل هذه المشكلة وتأثيرها على نمو

وتطور العقل يمكن فهمها عن طريق اِستخدام علم النفس الفردى ؛ فالطفل على وعى تام بحجم الإعاقة الجسدية التى يعانى منها ، ولكنه يحد من تطوره بالقدر الذى يراه يتناسب مع تقديره الشخصى لحدة هذه الإعاقة الجسدية ، فإن الإعاقة الجسدية فى حد ذاتها ليست هى التى تؤثر على العقل ولكن موقف الطفل من هذه الإعاقة (تقديره الشخصى) هو الذى يؤثر على نمو العقل وتطوره.

فلو أن الطفل كان يعانى من إعاقة جسدية فإنه من المهم جدا بالنسبة إليه أن نفهم أن هذا لا يعنى بالضرورة وجود نقص فى قدراته العقلية (ذكائه) أو الشخصية ، ولقد رأينا – فى الفصل السابق من هذا الكتاب – أن الإعاقة الجسدية نفسها يمكن أخذها إما على أنها حافز لبذل المزيد من الجهد والوصول إلى المزيد من النجاح وإما على أنها عقبة لا يمكن التغلب عليها وعلى أنها تحتم وجود نقص فى نمو وتطور الفرد.

عندما تقدمت بمثل هذه الفكرة السابقة لأول مرة ، اتهمنى الكثير من الناس باتباع أساليب غير علمية وبمحاولة تقديم معتقداتى الشخصية على الحقائق التى لا تتفق معها ولكنها كانت كلها استنتاجات قد توصلت إلى تكوينها من خلال ما مر بى من خبرات شخصية ومن خلال الأدلة المتراكمة التى أيدت مثل هذه الاستنتاجات.

والآن فإن الكثير من الأطباء النفسيين قد غيروا من آرائهم وبدءوا يتفقون معى فى وجهة النظر وفى الاعتقاد بأن الخصائص المورثة للشخصية ما هى إلا خرافة ووسوسة موجودة من آلاف السنين ، فكلما أراد الناس أن يجنبوا أنفسهم المسئولية فإنهم يأخذون بوجهة النظر المؤمنة بالقضاء والقدر وبأن الإنسان مسير وغير مخير فيما يحدث له ، وبالتالى ظهرت النظرية القائلة بأن خصائص الشخصية ما هى إلا شىء يتم توريثه ، وهى فى أبسط صورها : الاعتقاد بأن الطفل فى لحظة مولده يكون بالفعل قد تحدد مصيره فى أن يكون إما سيئًا وشريراً وإما صالحًا وطيبًا ، وبهذا الشكل يمكننا بسهولة إثبات خطأ المقولة السابقة والتى لا يمكن أن تنتج إلا عن رغبة قوية فى الهروب من المسئوليات .

وهكذا فإن " الشرير " و" الطيب " مثلها مثل كل الاصطلاحات التى تعبر عن الشخصية فإن معناها يتحدد من خلال ما تعنيه للمجتمع ، وهما نتيجة للتدرب فى البيئة الاجتماعية التى تضمنا مع إخواننا فى البشرية ، وهما يدلان ضمنا على حكم يقضى بأن سلوك الفرد إما :

١- متعاون ويساهم فى رفاهية ورخاء الآخرين " الطيب " ...... وإما

٢- غير متعاون ولا يساهم فى رفاهية ورخاء الآخرين " الشرير " .

قبل أن يولد الطفل فإنه لا توجد بيئة اجتماعية ، ولكن بعد مولده فإنه توجد احتمالات كثيرة لنموه وتطوره فى أىٍّ من الاتجاهين السابقين ، والطريق الذى يختاره سيعتمد على الانطباعات والمشاعر التى سيكتسبها من البيئة المحيطة به ومن صفاته الجسدية ومن الطريقة التى سيتفهم بها الانطباعات والمشاعر المكتسبة ، وأكثر وأهم من كل ما سبق ، من الطريقة التى سيتم تعليمه وتثقيفه بها.

وينطبق الشىء نفسه على الذكاء والقدرات العقلية التى يتم توريثها ، وبرغم أن الأدلة على هذا ما زالت غامضة وأقل وضوحاً فإنه يمكن القول بأن :

أقوى العوامل المؤثرة على نمو وتطور الذكاء والقدرات العقلية هو الاهتمام(*) القوى والمستمر.

وقد رأينا من قبل كيف أن "الاهتمام " يتأثر بعوامل كثيرة ليس من ضمنها الوراثة لكنه يضعف من خلال الإحباط المتكرر والخوف الدائم من الهزيمة ، وهناك حقيقة لا شك فيها وهى أن البناء الفعلى للمخ يكون موروثًا ، ولكن المخ ما هو إلا مجرد أداة تستخدم وهو ليس الأصل (المنبع) لأفكار العقل ، وإذا افترضنا عدم وجود عيوب خلقية فى هذه الأداة (المخ) لا يمكن إصلاحها ، فإن المخ يمكن تدريبه على تعويض الإعاقة ، وسنجد خلف جميع القدرات الخارقة اهتماماً مستمرا وجهداً مبذولاً على التدرب ، وليس الوراثة.

(*) المؤلف يقصد هنا الاهتمام بمعناه الشامل وليس الاهتمام بالآخرين فقط ، أى أن يهتم الطفل بكل ما يفعله ، فى البيت وفى المدرسة فى العمل وفى أوقات الفراغ ، وبكل من حوله من أفراد أيضًا (المترجم) .

وعندما نجد بعض العائلات التى ساهمت بعدد كبير من الأفراد الموهوبين فى أكثر من جيل ، فإنه لا يجوز أن نفترض أن للوراثة أى دخل فى هذا ، لكن يجب علينا أن نفترض أن نجاح أحد أفراد هذه العائلة أصبح حافزًا للآخرين من أفرادها للعمل بجد واجتهاد على تحقيق نجاح مماثل أو أكبر من نجاح الجيل الأول ، وأن الطموحات والعادات والتقاليد فى هذه العائلة جعلت الأطفال قادرين على متابعة اهتماماتهم وتدريب أنفسهم من خلال المحاولة والخطأ ، ولهذا فعندما نعلم أن الكيميائى العظيم "ليبج .. "Liebig كان ابنًا لصاحب صيدلية فلا حاجة بنا لأن نفترض أن قدراته الكيميائية كانت مورثة ، بل إننا سنكتشف عندما نفحص تاريخ حياته عن قرب أن البيئة المحيطة سمحت له بالاستمرار فى تتبع اهتماماته وأنه تعلم أشياء كثيرة جدا عن الكيمياء فى عمر مبكر نسبيا.

كان والدا "موزارت " Mozart مهتميْنَ جداً بالموسيقى ولكن موهبة موزارت لم تكن موروثة ، فإن والديه كانا يرغبان فى تنمية اهتماماته بالموسيقى كما أنهما قد زوداه بالكثير من التشجيع ، كانت البيئة المحيطة به موسيقية منذ سنوات عمره الأولى وقد وجدنا هذه الحقيقة (البداية المبكرة) منتشرة بين الكثير من الذين برزوا فى مجال تخصصهم ، فمنهم من لعب على البيانو فى سن الرابعة ، ومنهم من كتب قصصًا للآخرين من أعضاء عائلته فى سن مبكرة جدا ، إن اهتمامات مثل هؤلاء الأفراد كانت طويلة وممتدة ، كما أن تدريبهم كان تلقائيا ومتشعبًا ، فهم لم يفقدوا شجاعتهم ولم يترددوا أو يحاولوا التراجع قط.

ولن يتمكن المدرس من إزالة الحدود التى وضعها الأطفال على نموهم وتطورهم إلا إذا آمن بأن هذه الحدود غير ثابتة وغير دائمة ، وقد يتمكن المدرس من جعل حياته أسهل إذا ما قال للطفل :

" أنت غير موهوب فى الرياضيات ".

ولكن هذا سيسبب الإحباط له ، ولقد مررتُ شخصيا بمثل هذه التجربة ، فلعدة سنوات كنت أسوأ من فى الفصل فى مادة الرياضيات ، وكنت مقتنعًا تمام الاقتناع بأنى أفتقد الموهبة فى التعامل مع هذه المادة ، ولكن لحسن الحظ فقد وجدت نفسى-

فى يوم من الأيام - قادراً على حل إحدى المشاكل الرياضية التى أعجزت المدرس ، وكان لهذا النجاح غير المتوقع أثره الكبير فى تغيير موقفى من هذه المادة ، ففى السابق كنت قد سحبت اهتمامى بهذه المادة ، أما الآن فقد بدأت فى الاستمتاع بها من جديد وانتهزت كل فرصة أتيحت لى لزيادة قدراتى ، وكانت نتيجة هذا أننى أصبحت من أحسن طلاب الرياضيات فى هذه المدرسة ، وقد ساعدتنى هذه الخبرة على أن أرى خطأ النظريات القائلة بوجود مواهب خاصة أو قدرات مورثة.

التعرف على النوعيات المختلفة من الشخصية

إنه من السهل على أى شخص تم تدريبه على فهم الأطفال أن يميز بين الشخصيات المختلفة وأساليب الحياة المختلفة ، إن درجة " التعاون " التى يملكها الطفل يمكن أن تظهر فى طريقة جلوسه وفى الطريقة التى ينظر ويصغى بها ، وفى المسافة التى يبقيها الطفل بينه وبين الآخرين وفى السهولة التى يصاحب بها غيره من الأطفال فى قدرته على التركيز والانتباه ، فعندما ينسى الطفل المهام التى كلف بها وعندما يفقد واجباته المدرسية فإنه يمكننا أن نستنتج أنه غير مهتم بهذه الأعمال ، ويجب علينا أن نكتشف السبب الذى جعل المدرسة فى نظره شيئًا بغيضًا ، فعندما لا ينضم الطفل إلى الألعاب المشتركة مع الأطفال الآخرين فإنه يمكننا القول بأن هذا الطفل يشعر بالعزلة ويهتم بنفسه فقط ، وإذا كان الطفل يحاول دائمًا الحصول على المساعدة فى أداء واجباته فإنه يعانى من عدم الاستقلالية ومن الرغبة فى أن يعوله الجميع.

إن بعض الأطفال لا يعملون إلا إذا تم مدح وتعظيم ما يقومون به ، والكثير من الأطفال الذين تعرضوا للتدليل الزائد يؤدون واجباتهم المدرسية بكفاءة طالما جعلهم هذا يحصلون على المدح والتقدير من أساتذتهم ، أما إذا فقدوا هذا الوضع فإن المتاعب تبدأ، فهم غير قادرين على العمل إلا إذا كان هناك من يشاهد هذا العمل ويعطيه القدر الكافى من المدح والتقدير ، وعندما يفقدون هذا الوضع فإنهم يفقدون أيضًا اهتمامهم بأداء هذا العمل.

إن الرياضيات تمثل مشكلة ضخمة جدا بالنسبة إلى النوع السابق من الأطفال ، فعندما يُطلب منهم حفظ مجموعة من القواعد أو الجمل فإنهم يؤدون هذا بصورة تثير الإعجاب ولكن عندما يأتى الدور لحل إحدى المشكلات الرياضية بأنفسهم فإنهم يعجزون عن هذا تمام العجز.

وقد يبدو هذا كمشكلة صغيرة ، ولكن مثل هؤلاء الأطفال - الذين يطالبون دائمًا بالحصول على المدح والتقدير من الجميع - يشكلون أعظم خطر على رفاهية ورخاء الآخرين ، ولو استمر هذا الموقف بلا تغيير فإن مثل هؤلاء سيستمرون فى حاجتهم للحصول على المدح والتقدير وتأييد الآخرين طوال حياتهم ، وعندما تواجههم إحدى المشكلات فإن رد فعلهم سيكون محسوبًا بطريقة خاصة ترغم الآخرين على حل المشكلة بدلاً منهم ، وسيستمرون فى حياتهم دون تقديم أى مساهمات ، وسيظلون دائمًا عبئًا على غيرهم.

إن هناك نوعًا آخر من الأطفال ، ويرغب هذا النوع فى أن يكون مركز اهتمام الجميع ، وإذا لم يسمح له الآخرون باحتلال مركز الصدارة فإنه سيحاول الحصول عليه بإثارة المتاعب كأن يثير الشغب داخل الفصل أو يقود غيره من الأطفال إلى المتاعب ، وعلى وجه العموم فإنه سيعمل على أن يكون مصدرًا للإزعاج.

إن توبيخ أو عقاب طفل من النوع السابق لن يأتى بأى نتائج ، فإنه يجد متعته فى التوبيخ والعقاب ؛ فهو يفضل هذا على أن يتجاهله الآخرون ، حتى إنه ينظر إلى الألم الذى يسببه التوبيخ والعقاب على أنه ثمن بسيط للاهتمام الذى يحصل عليه.

مجموعة أخرى من الأطفال تنظر إلى العقاب على أنه تَحدٍّ شخصى ، فهم يعتبرونه مباراة يلعب فيها الطفل دور المنافس الذى يريد إثبات أنه يستطيع الصمود حتى النهاية ، وهم يستطيعون الانتصار دائمًا ؛ لأن النتيجة النهائية بين أيديهم ، ولهذا نجد الكثير من الأطفال الذين تحدث بينهم وبين المدرس خلافات يضحكون فى أثناء تلقيهم العقاب بدلاً من البكاء .

إن الطفل الكسول غالباً ما يكون شديد الطموح - إلا إذا كان كسله هذا نوعًا من الهجوم على الوالدين أو المدرسين ، إن النجاح كلمة يتفهمها الجميع بطرق مختلفة ، وقد نصاب بالذهول إذا ما اكتشفنا ما الذى يعتبره الطفل " هزيمة " ، بل إن الكثير من الناس يعتقدون أنه قد تمت هزيمتهم لا لشيء إلا لأنهم ليسوا فى المقدمة ، وحتى عندما يكون الفرد منهم ناجحًا جدا فإنه يعتبر نفسه مهزومًا لو أن أحدهم تمكن من إحراز نجاح أكبر من نجاحه ، والطفل الكسول لا يشعر بمشاعر " الهزيمة " الحقيقية ؛ لأنه لم يواجه اختباراً حقيقيا قط ، فهو دائمًا يتجنب المشاكل ويؤجل اتخاذ القرارات خاصة إذا كانت تتعلق بالتنافس مع الآخرين ، وكل من حوله متأكد من أنه قادر على التغلب على الصعوبات التى تواجهه إذا ما تخلى عن كسله ، لكنه يتخذ من الكسل واحة آمنة يلجأ إليها من أجل الاستمتاع بأحلام اليقظة قائلاً :

" لو أننى حاولت لتمكنت من إنجاز وتحقيق أى شىء " .

و عندما يفشل فإنه يقلل من أهمية هذا الفشل ويحتفظ بتقديره واحترامه لنفسه عن طريق القول :

" لقد فشلت بسبب الكسل وليس بسبب نقص قدراتى " .

و هناك نوع آخر من الأطفال الكسالى ، فعندما يقول المدرس لأحد هؤلاء الكسالى :

" لو أنك اجتهدت وعملت بإخلاص أكثر يمكنك بسهولة أن تصبح أذكى التلاميذ فى هذا الفصل " .

وهنا مربط الفرس فلو أن الطفل الكسول استطاع بالفعل أن يحقق مثل هذه السمعة التى لا بأس بها بدون أى مجهود ، فلماذا عليه أن يخاطر ، ويعمل باجتهاد وبإخلاص أكثر من أجل تحقيق شىء قد يفشل فى تحقيقه ؟ .

فلو أن مثل هذا الصبى توقف عن كسله وعمل باجتهاد وإخلاص ، فإن احتمال فشله فى الوصول لأن يصبح أذكى تلميذ فى الفصل مازال قائمًا ، فلماذا عليه إذن

أن يخاطر بسمعته فى امتلاك مواهب كامنة وعبقرية غير مكتشفة والتى أحرزها بالفعل ودون بذل أى مجهود ؟ .

وهناك ميزة شخصية أخرى للطفل الكسول وهى أنه عندما يبذل أقل مجهود فإنه يتم مدحه وإطراؤه على ما بذله ، فإن الجميع عندها يبدءون فى الاعتقاد بأن الطفل قد بدأ فى تغيير نفسه وإصلاح طريقته فى الحياة ويكون هذا سببًا فى حماسهم فى تشجيعه وحثه على الاستمرار فى بذل المزيد من الجهد ، وحتى لو كان الجهد الذى بذله يعتبر متواضعًا بالنسبة إلى الأطفال غير الكسولين ، وما كان ليلفت الأنظار إذا ما أتى منهم .

إن الطفل الكسول يعيش على توقعات الآخرين ، والكثير من الأطفال الذين تم تدليلهم بطريقة زائدة قد دربوا أنفسهم منذ نعومة أظافرهم على الحصول على كل شيء من خلال مجهود الآخرين .

هناك نوع آخر من الأطفال يسهل التعرف عليه ، وهو الطفل الذى يحاول أن يتولى زمام القيادة بين أقرانه ، ولكن من صفات القائد المثالى أن يحكم بغرض تحقيق الصالح العام أولا ، أما معظم الأطفال الذين يحاولون تولى زمام القيادة فإنهم يهتمون فقط بالوصول إلى مواقف تمكنهم من حكم الآخرين والسيادة عليهم ويكون هذا هو شرطهم للانضمام إلى أقرانهم ، إن مستقبل مثل هؤلاء الأطفال مظلم جدا فإنه من المحتوم عليهم أن يواجهوا الكثير من الصعوبات فيما بعد .

ومن الأشياء المضحكة والمبكية فى الوقت نفسه أنه كثيرًا ما يتزوج اثنان من النوع السابق أو يشتركان فى عمل تجارى أو علاقة اجتماعية ، وحيث إن كلا منهما يبحث عن الفرصة التى تمكنه من الحكم والسيادة و" التفوق " على الآخر ، أيضا فإنه كثيرًا ما يستمتع الأخ الأكبر (أو الأخت الكبرى) بمشاهدة الطفل الصغير المدلل يحاول التحكم فيه وإصدار الأوامر له كطاغية صغير فهو يستمتع بمشاهدة هذه التصرفات ويضحك عليها ويشجع الطفل المدلل على التمادى فيها ، ويمكننا بسهولة أن نرى أن هذا النوع من التصرفات لا يجوز تشجيعه على الإطلاق ؛ لأنه يساعد على نمو وتطور شخصية غير مفيدة للمجتمع .

من الطبيعى أن يكون هناك تباين شديد بين الأطفال ، وهدفنا لا يجوز أن يكون أبداً محاولة خلق مجموعة محددة ومتشابهة وعلى النمط نفسه من الأطفال ، كما أنه لا تجوز محاولة صب شخصياتهم فى قالب واحد جامد لا يتغير ، إن ما نرغب فى القيام به هو : منع نمو وتطور العادات التى تقود إلى الهزيمة والتى تخلق صعوبات لا داعى لها ، ويمكن تصحيح النمو والتطور الخاطئ بسهولة خلال مرحلة الطفولة وقبل أن تستحكم مثل هذه العادات ، وعندما لا يتم تصحيحها مبكراً فإن آثارها الاجتماعية على حياة الطفل عندما يصل إلى مرحلة البلوغ تكون خطيرة جدا وضارة ٠

هناك صلة مباشرة بين أخطاء الطفولة والفشل الذى يحدث للبالغين ، وفى بعض الحالات الحادة فإن الطفل الذى لم يتعلم " التعاون " قد يصبح عصابيا أو مدمناً للخمور أو مجرمًا أو ميالاً للانتحار فى المستقبل ٠

إن الطفل القلق العصابى يكون شديد الخوف من الظلام أو من الغرباء أو من المواقف الجديدة ، والمصاب بالاكتئاب (المنخوليا) يكون كثير الشكوى ، وحيث إننا لا نستطيع الوصول إلى كل الآباء والأمهات لمساعدتهم على تجنب الأخطاء التى يرتكبونها – وخاصة أن الآباء والأمهات المحتاجين إلى النصيحة أكثر من غيرهم يكونون الأكثر صعوبة فى الوصول إليهم وفى إقناعهم – فإنه علينا أن نصل إلى كل المدرسين ومن خلالهم نستطيع الوصول على الطفل وتصحيح الأخطاء التى ارتكبت بالفعل وتدريبه على الاستقلال والشجاعة وحياة " التعاون " ، فإن هذا فى نظرى أكثر الطرق التى تبشر بتحقيق مستقبل أحسن للبشر ٠

بعض الملاحظات على العملية التعليمية

إذا دخلنا أحد الفصول المدرسية الكبيرة فإنه يمكننا أن نلاحظ الفروق الكبيرة بين الأطفال ، ونستطيع التعامل مع هذه الفروق بطريقة أفضل لو أننا حاولنا تفهم شخصية كل طفل على حدة ، ولكن على أن أذكر هنا أن الفصول الدراسية الكبيرة

تمثل عيبًا خطيرًا ؛ لأن بعض مشاكل الأطفال تكون غير ظاهرة بوضوح ، ويكون من الصعب التعامل معها بطريقة مقبولة .

إن المدرس يجب أن يعرف كل تلاميذه معرفة شخصية ودقيقة وإلا فإنه سيصبح غير قادر على الحصول على اهتمامهم وتعاونهم ، وأنا أعتقد أنه من الأمور المفيدة جدا أن يحتفظ مدرس واحد بمجموعة معينة من الأطفال لعدة سنوات متتالية ، فى بعض المدارس يتم تغيير المدرس كل ستة شهور مما يحرم المدرس من الحصول على الفرصة الكافية للاختلاط بالأطفال ومعرفتهم معرفة شخصية ومعرفة مشاكلهم ومتابعة نموهم وتطورهم ، أما إذا تمكن المدرس من البقاء مع المجموعة نفسها من الأطفال لمدة ثلاث أو أربع سنوات فإنه سيصبح فى موقف أفضل يمكنه من أن يكتشف علاجًا للكثير من الأخطاء الموجودة فى أسلوب حياة الطفل ، كما أنها ستسهل عليه عملية تحويل الفصل إلى وحدة متكاملة ومتعاونة .

يجب القول إن السماح للطفل بتخطى عام دراسى هو أمر غير مستحب ؛ لأن هذا يضع المزيد من التوقعات والأعباء على كتفى الطفل ، وربما نسمح فى بعض الحالات للطفل بتخطى أحد الأعوام الدراسية إذا كان الطفل أكبر من أقرانه أو كان تقدمه العلمى أسرع منهم .

عندما يكون الفصل الدراسى وحدة واحدة متكاملة ومتعاونة فإن نجاح أحد أعضائه يكون ميزة نافعة وفى صالح الباقين ، وعندما تكون هناك مجموعة من الأطفال الأذكياء فى فصل فإن تقدم هذا الفصل يمكن أن يتزايد بصورة أفضل ويصبح من الظلم حرمانهم من وجود هذه المجموعة من الأذكياء بينهم ، ولكنى مازلت أنصح بأن الطفل الذى يتميز بذكاء غير عادى يجب إعطاؤه نشاطات أخرى تثير اهتمامه بالإضافة إلى النشاطات المعتادة مثل الرسم ، فإن نجاحه فى مثل هذه النشاطات سيزيد اهتمام باقى الأطفال ويشجعهم على التقدم .

من سوء الحظ أن بعض الأطفال يضطرون إلى إعادة العام الدراسى ، ويتفق الجميع على أن الطفل الذى يضطر إلى فعل هذا يمثل مشكلة فى المدرسة وفى البيت ، ونسبة قليلة من هؤلاء الأطفال تكرر أحد الفصول دون أن تتسبب فى أى

مشاكل ولكن معظمهم يسببون مشاكل لأنفسهم وللآخرين ، وحيث إن معظم زملائهم لا يظنون بهم خيرا فإن مثل هذه المجموعة من التلاميذ تحتفظ بوجهة نظر متشائمة بخصوص قدراتها ومستقبلها ، إن وجود مثل هذه المجموعة من التلاميذ يمثل سؤالاً صعبًا لا يمكننا الإجابة عنه أو تجنبه بإمكانياتنا الحالية ، ولكن بعض المدرسين قد تمكن من جعل الرسوب أمرًا غير ضرورى بالنسبة إلى الأطفال المتخلفين وذلك عن طريق استخدام الإجازات والأعياد الرسمية فى تدريبهم على تدارك الأخطاء فى أسلوب حياتهم ، وعندما يتم هذا فإن الأطفال يتمكنون من التقدم خلال الفصل التالى بنجاح ، وأنا أتفق مع هذه الطريقة ؛ لأنها تمكننا من مساعدة من يتخلف بإظهار الأخطاء التى ارتكبوها فى تقديرهم لقدراتهم ، كما أنها تمكنهم من التقدم باستخدام جهودهم الذاتية .

فى كل مرة رأيت أنه تم تقسيم الأطفال إلى مجموعتين : تلاميذ أذكياء وتلاميذ متخلفين ووضعت كل مجموعة منهم فى طريق مختلف ، فإننى قد لاحظت وجود حقيقة لا يمكن إنكارها ألا وهى :

فى المجموعة التى تضم الأطفال المتخلفين : فإن كل الأطفال المصابين بالتخلف العقلى قد تجمعوا مع الأطفال الذين أتوا من بيئة فقيرة .

فى المجموعة التى تضم الأطفال الأذكياء : فإن الأطفال الذين أتوا من أسر غنية يشكلون معظم المجموعة .

وهذه الحقيقة تبدو لى مفهومة بدرجة كافية ، ففى بيوت الفقراء يكون الأطفال غير معدين ولا مستعدين للمدرسة ، فالأب والأم يواجهان مصاعب كثيرة ، ولا يستطيعان إعطاء الأطفال ما يحتاجونه من الوقت والمساعدة لمواجهة مشكلات التعليم ، كما أنهما يكونان فى الغالب غير متعلمين مما يحد من قدراتهما على المساعدة .

وهذا ما يدفعنى إلى القول بأنه لا يجوز وضع الأطفال الذين لم يتم إعدادهم للمدرسة ضمن الأطفال المتخلفين ، فإن المدرس الكفء والذى تم تدريبه بطريقة جيدة سيعرف كيف يصحح ويكمل النقص فى استعدادات هذا الفريق من الأطفال كما أن هؤلاء الأطفال سيستفيدون من احتكاكهم مع الأطفال الذين تم إعدادهم بطريقة

أفضل ، أما إذا تم وضعهم مع الأطفال المتخلفين فإنهم يكونون على علم بسبب وجودهم فى هذا الوضع وبنظرة الاحتقار التى يرمقهم بها الأطفال الأذكياء ، وهذا يمثل بيئة خصبة لنمو الأحقاد ، ويصيب الأطفال بالإحباط ، ويجعلهم يوجهون سعيهم نحو " التفوق " إلى اتجاه خاطئ ٠

إن التعليم المشترك يستحق التأييد – كمبدأ – فإنه يمثل بيئة ممتازة لتعارف البنات والأولاد ولتعلم " التعاون " مع الجنس الآخر ، ولكن كل من يظن أن التعليم المشترك يحل كل المشاكل يكون قد جانبه الصواب ؛ لأن التعليم المشترك يخلق مشاكل من نوع خاص وإذا لم نتعرف على هذه المشاكل ونتعامل معها بحكمة فإن الخلافات بين الجنسين ستكون أعظم فى المدارس المختلطة ٠

وأحد هذه الصعوبات هى أن الفتيات يكون نموهن أسرع من الفتيان حتى سن السادسة عشرة ، وإذا لم يستطع الفتيان تفهم هذه الحقيقة وتقبلها ، فإنه سيكون من الصعب عليهم الحفاظ على ثقتهم واحترامهم لذواتهم ، فإن الفتيان يرون أن الفتيات قد سبقنهم ، ويسبب لهم هذا ألمًا وإحباطًا ، وفيما بعد فإنهم يصبحون خائفين من التنافس مع الجنس الآخر ؛ لأنهم سيتذكرون تلك الهزيمة دائمًا ٠

إن المدرس الذى يؤيد التعليم المشترك ، ويفهم بعمق مشكلاته ، يستطيع إنجاز الكثير ، ولكن المدرس الذى لا يؤيد هذا النظام ولا يهتم به سيفشل فى تحقيق أى إنجازات ٠

هناك صعوبة أخرى وهى أن الأطفال يجب تدريبهم بطريقة مناسبة والإشراف عليهم طوال الوقت ؛ لأن بعض المشاكل الجنسية قد تحدث ٠

إن تعليم الجنس فى المدرسة هو مسألة بالغة التعقيد ، فإن الفصل الدراسى ليس بالمكان المناسب لتعليم الجنس ، فعندما يتكلم المدرس مع فصل بأكمله يصبح عاجزًا عن تحديد ما فهمه كل طفل على حدة وعن تحديد ما إذا كان الطفل قد فهم المعلومة بالقدر الذى أراده المدرس ، وربما يثير المدرس اهتمامات فيه يكون الطفل غير مستعد لها وغير مستعد لتقبلها فى أسلوب حياته ٠

أمـا إذا طلب الأطفـال مـعـرفـة المزيد - بـصـفـة خـصـوصـيـة - فـإن علـى المعلم أن يعطى إجابات صـادقـة وشاملة لكل تساؤلاتهم ، وبعدها يمكن للمدرس أن يحكم بصدق على حجم المعلومـات التى يحتاجها الأطفال ويرشدهم إلى الطريق الصـحيح ، ورغم أنه من غير المفيد معالجة مسألة الجنس كما لو كانت أمراً غير مهم فإنه يعتبر عيباً أيضاً إذا مـا تكررت المناقشـات حـوله مـراراً ؛ لأن هذا سـيـسـبب المزيد من الخلط فى هذه العقول اليافعة .

وظيفة المجلس الاستشارى

إن هدف مـجلس الشـورى هو الوصـول إلى المدرسـين وتـأسـيس برنـامج مـدرسـى للخدمـات ، وقد كـان هذا هو هدفى عندمـا أسست المجلس الاستشـارى لأول مرة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً .

إن المجلس الاستـشـارى قد أثبت قيمته الكبيرة لعلم النفس الفردى فى " فيينا " وفى الكثير من المدن الأوروبية ، ولكن المثل العليا بدون وسـائل لتحقيقها تكون عديمة القيمة ، وبعد مرور خمسة عشر عاماً على هذه الخبرة فإنه يمكننى القول بأن المجلس الاستشـارى قد أثبت نجاحه الكامل وأنه قد أعطانا أفضل أداة للتعامل مع مشاكل الطفولة ومشاكل تعليم الأطفال كيف يصبحون مواطنين مسئولين.

و أنا مـقـتنع أن المجـالس الاسـتـشـارية سـتـحـقق نجاحًا أفضـل لو تـم ربطهم بعـلـم النفس الفـردى ، ولا يوجد أى سبب يمنع التعـاون مع علمـاء النفس الموجودين فى المدارس الأخـرى ، فـقـد كنت دائمًا أدعوى إلى تأسيس المجـالس الاسـتـشـارية المتـصلة بكل أنواع مدارس علـم النفس ، وأن نقـارن النتائج التى نحصل عليـها من كل منهم .

وقد تم وضع نظام وإجراءات بواسطة هذا المجلس الاستشارى قرر فيها المجلس وضع أخصـائيين نفسيين مدربين وذوى خبرة بالمشـاكل التى تواجه كلا من المدرسين والآباء والأمـهـات والأطفال ، علـى الأخـصـائيـين النفـسـيين أن يجلسوا مع المدرسين

ويناقشوهم فى المشاكل التى ظهرت لهم ، وعند زيارة المدرسة فإنه على أحد المدرسين أن يشرح بالتفصيل حالة الطفل والمشكلة التى يعانى منها (كأن يكون الطفل كسولاً مثلاً أو مشاغبًا أو كثير الخلاف مع غيره من الأطفال أو يسرق أو متخلفًا فى واجباته المنزلية) وعلى الأخصائى النفسى أن يقدم وجهة نظره ونتيجة خبراته ، ويتبع هذا مناقشة بين الجميع يتم فيها وصف الحياة العائلية ونمو وتطور شخصية الطفل والظروف المحيطة بالطفل عندما حدثت المشكلة لأول مرة وبعدها يبحث المدرس والأخصائى النفسى الأسباب الممكنة للمشكلة وكيفية التعامل معها ، وحيث إنهما خبيران بكل جوانب الموضوع فإنهما سيصلان لحل سريعا .

فى اليوم المقرر لزيارة الأخصائى النفسى يجب أن يكون كلٌ من الآباء والأمهات حاضرين مع الأطفال ، وبعد أن يتم اتخاذ قرار بين المدرس والأخصائى النفسى عن أحسن طريقة يمكن اتباعها فى التحدث للأب والأم والتأثير عليهما وإظهار أسباب فشل الطفل ، فإنه يتم استدعاؤهما وإذا كان لديهما معلومات عن المشكلة فإنه يجب مناقشتها مع الأخصائى النفسى وخلال هذه المناقشة فإن عليه أن يقترح ما يجب فعله لمساعدة الطفل فى التغلب على المشكلة ، وغالبًا ما يكون الأب والأم سعداء بهذه الفرصة ومستعدين للتعاون ، ولكن إذا حدث أن أظهر بعضهم المقاومة وعدم التعاون فإن على الأخصائى النفسى أو المدرس مناقشة حالات مشابهة والخروج باستنتاج منها يمكن تطبيقه على الطفل محل البحث ، وبعدها يمكن إحضار الطفل حيث تتم مناقشة بينه وبين الإخصائى النفسى على أن تكون هذه المناقشة خالية من أى إشارة للأخطاء التى ارتكبها الطفل وأن تكون مركزة على المشكلة نفسها ، وعلى الأخصائى النفسى أن يبحث عن الأحكام والآراء التى منعت الطفل من النمو والتطور بطريقة جيدة ، ولا يجوز أن يتم توبيخ الطفل بأى حال من الأحوال بل يجب الاستمرار معه فى حوار ودى حتى نتمكن من أن نتفهم وجهة نظره بطريقة واضحة أما إذا أراد الأخصائى النفسى الإشارة إلى الأخطاء التى ارتكبها الطفل فإنه تجب الإشارة إليها بطريقة افتراضية مقنعة (الادعاء بأن شخصًا آخر ارتكب هذا الخطأ مثلاً) وبعدها نسأل الطفل عن رأيه فى المشكلة الافتراضية ، وأن أى شخص لم يمر بمثل هذه

الخبرة سيكون فى أقصى درجات الدهشة عندما يكتشف حجم استجابة الطفل الطيبة، وكيف أن الطفل تفهم الوضع وغير موقفه بسرعة .

كل المدرسين الذين دربتهم على هذا العمل سعداء جدا به ويرفضون تركه ؛ لأن هذا التدريب جعل عملهم أكثر إثارة ، كما أنه جعل كل جهودهم ناجحة ، ولا يوجد من بينهم من يشعر بأن هذا التدريب قد أضاف عبئًا جديداً إليهم ، وهذا لأنه فى نصف ساعة – أو أقل – فإنه يمكن لأى منهم حل مشكلة كان يمكن أن تطارده لسنوات عديدة فى المستقبل.

إن روح التعاون فى المدرسة كلهًا سوف ترتفع وبعد وقت قصير فإن كل المشاكل الكبيرة والرئيسية سوف تختفى ، والمدرسين سيصبحون علماء فى النفس ؛ لأنهم سيتعلمون كيفية فهم وحدة الشخصية والوعى بكل جوانبها وطرقها فى التعبير وإذا برزت إحدى المشاكل خلال اليوم الدراسى فإن المدرس سيستطيع التعامل معها بنجاح ، وسيكون أملنا جميعًا قد تحقق عندما يصبح كل المدرسين خبراء مدربين فى علم النفس ويصبح وجود علماء النفس ، غير ذى جدوى .

وعلى سبيل المثال فإنه إذا واجه المدرس طفلاً كسولاً فى فصله ، فإنه سيقترح على الأطفال أن يناقشوا مسألة الكسل ، وسيبدأ المدرس المناقشة بسؤال :

" من أين يأتى الكسل ؟ ، ولماذا يكون بعضهم كسولاً ؟ ، ولماذا لا يتمكن الطفل الكسول من تغيير طرقه ؟ ، وما الذى يجب تغييره على وجه التحديد ؟ ".

و سيبدأ الأطفال كلهم فى الحديث عن المشكلة حتى يتمكنوا من الوصول إلى قرار ويجب ألا يعرف الطفل الكسول أنه محور هذه المناقشة ولكن المشكلة ستكون مشكلته ؛ لأنه جزء من الفصل ولهذا سيكون مهتما بها وبمعرفة كل ما يمكن معرفته عنها من خلال المناقشة ، أما إذا تمت مهاجمته فإنه لن يتعلم أى شىء ولكن إذا أصغى بهدوء لمناقشة تجرى حول المشكلة فإنه سيفكر فى السؤال بموضوعية وربما مكنه هذا من تغيير رأيه .

لا يوجد من يستطيع فهم عقول الأطفال مثل المدرس الذى يعلمهم ويعمل ويلعب معهم ؛ لأن مثل هذا المدرس يرى أنواعًا وأنماطًا متعددة من الأطفال ، وإذا كان على شىء من المهارة فإنه سيقيم علاقة مع كل واحد منهم ، ويكون مصير هؤلاء الأطفال – ومصير أخطائهم وما إذا كانت هذه الأخطاء سوف تستمر ، أو سيتم تصحيحها – بين يدى المدرس ، فهو – مثل الأب والأم – يعتبر الحارس على مستقبل البشرية وبالتالى فإن خدماته لا يمكن أبدًا إعطاؤها حق قدرها .

الفصل الثامن

البلوغ أو المراهقة

ما المراهقة ؟

إن هناك كتبًا كثيرة عن المراهقة وكلها - تقريبًا - تتعامل مع المسألة كما لو كانت تمثل أزمة خطيرة تهدد بتغيير شخصية الفرد بأكملها ، وهناك الكثير من الأخطار التى يمكن أن يتعرض لها المراهق ولكنه من غير الصحيح أن مثل هذه المخاطر يمكن أن تغير شخصية الإنسان ، إن المراهقة تجعل الأطفال - الذين على وشك البلوغ - يواجهون مواقف واختبارات جديدة ؛ لأن الطفل يشعر عندها بأنه يقترب من خط المواجهة مع الحياة ، ولهذا فإن الأخطاء - التى مرت دون أن يلاحظها أحد - فى أسلوب حياته تبدأ فى الظهور ؛ لأن المراهقة تجعلها مكبرة وواضحة بحيث لا يمكن تجاهلها.

البعد النفسى

بالنسبة إلى معظم الشباب الصغار فإن المراهقة تعنى شيئًا واحداً : إنه يجب عليهم إثبات أنهم لم يعودوا أطفالاً.

وربما أمكننا إقناعهم أنه يمكن أخذ الأمر ببساطة وعدم إعطائه كل هذه الأهمية وإذا تمكنا من فعل هذا فإننا سنتخلص من الكثير من الضغط الذى يمثله هذا الموقف ،

ولكن إذا شعروا بأنه من الواجب عليهم إثبات نضوجهم فإنهم سيستمرون فى إعطاء هذا الأمر الكثير من الأهمية.

إن معظم سلوك المراهقة ما هو إلا نتيجة للرغبة الشديدة فى إظهار الاستقلال والمساواة بالبالغين وإثبات أنهم قد استطاعوا بلوغ مرحلة الرجولة الكاملة (أو الأنوثة الكاملة) ، إن الاتجاه الذى يأخذه مثل هذا السلوك يعتمد على المعنى الذى نسبه الطفل إلى الكلمة راشد **Grown up** .

فإذا كانت كلمة "راشد" تعنى بالنسبة إليه أن يكون حرا من جميع القيود ، فإن الطفل سيحارب من أجل التحرر من كل ما يظنه قيوداً وممنوعات ، ولهذا يصبح من الشائع أن ينتشر مثل هذا السلوك بين المراهقين ، والكثير منهم يبدأ فى التدخين وفى استخدام لغة مختلفة وفى البقاء خارج البيت لساعة متأخرة ، وبعضهم يظهر معارضة شديدة وغير متوقعة للأب والأم ، واللذان يصبحان فى حيرة من أمرهما عن كيفية تحول الطفل المطيع - المفاجأة - إلى شخص ثائر ورافض لكل من حوله.

لكن الطفل لم يغير موقفه **His attitude** . فإن الطفل المطيع كان دائمًا معارضاً لوالديه ، ولكن هذه المعارضة لم تظهر إلا الآن عندما أصبح لديه حرية أكثر وقوة لممارسة هذه الحرية وعندها فقط شعر بأنه قادر على إعلان معارضته لهما بطريقة واضحة.

أحد الصبيان كان أبوه يتحكم فيه دائمًا وكان الصبى يَظهر بمظهر الهادئ المستسلم لمثل هذه المعاملة ، لكنه كان يكظم غيظه وينتظر بصبر فرصته للانتقام ، وعندما شعر بأنه قد بلغ الحد المناسب من القوة ، فإنه تحدى والده علنًا وعاركه وترك له البيت بعد أن ضربه ضربًا مبرِّحًا.

كثيراً ما يُعطى الصبى المزيد من الحرية والاستقلال خلال فترة المراهقة ؛ لأن الأب والأم يشعران بأنهما لا يملكان الحق فى مراقبة وحراسة الصبى طوال الوقت ، وإذا ما حاول الوالدان الاستمرار فى المراقبة فإن المراهق سيبذل الكثير من الجهد للفرار والتخلص من تحكمهما ، وكلما حاول الوالدان إثبات أنه مازال طفلاً

زادت محاولات المراهق لإثبات العكس ، ومثل هذا الصراع يخلق الجو المناسب لنمو وتطور موقف عدائى ، وبعدها نجد أمامنا صورة تقليدية نمطية لما يمكن أن نسميه ثورة المراهقة **Adolescent revolt** .

البعد الجسدى

إنه من غير الممكن وضع حدود جامدة على الفترة التى تستغرقها المراهقة ، ولكنها تستمر – عادة – من عمر أربعة عشر عامًا حتى العشرين ، ولكن – أحيانًا – يكون الأطفال فى سن المراهقة بالفعل عند عمر العاشرة أو الحادية عشرة ، فكل أعضاء الجسد تنمو وتتطور فى هذا الوقت وأحيانًا يواجه الطفل صعوبات فى النمو ، فربما يكون أقل نشاطًا أو براعة ، وربما يكون فى حاجة إلى العمل على تحسين توازنه وتناسق حركاته ، ولكن إذا تم تحقيره والسخرية من أفعاله وهو يحاول القيام بهذه الأعمال فإنه سيصبح مؤمنًا بأنه متخلف بالطبيعة ، فعندما نسخر وننتقد حركات الطفل فإنه يصبح أخرق وغير بارع .

إن الغدد الصماء تساهم فى نمو وتطور الطفل ، وخلال مرحلة المراهقة يزداد نشاط هذه الغدد ، ولا تعتبر هذه الزيادة فى نشاط الغدد الصماء تغيرًا جذريا ؛ لأن هذه الغدد كانت تعمل منذ ولادة الطفل تقريبًا ولكن إفرازات هذه الغدد تصبح كثيرة الآن مما يجعل الخصائص الجنسية الثانوية تبدأ فى الظهور ، فذقن الصبى تبدأ فى النمو ويزداد صوته خشونة ، وقوام الفتاة يمتلئ ، وتظهر عليها بوضوح مظاهر الأنوثة ، ويمكن للمراهق أن يخطئ فى فهم مثل هذه الظواهر والتغيرات .

تحديات البلوغ

أحيانًا يكون الطفل غير مستعد لحياة البالغين ، فقد يصيبه الذعر عندما يكتشف أنه يقترب من التحديات التى يواجهها البالغون مثل بناء مستقبل وظيفى وخلق

صداقات الحب والزواج ، وقد يجعله هذا يفقد أى أمل فى أن يكون قادراً على التلاؤم مع هذه الأوضاع الجديدة .

وعندما يكون المراهق وسْطَ صحبة كبيرة من الناس ، فإنه يكون متحفظًا وخجولاً كما أنه يفضل العزلة والبقاء فى المنزل ، وفى عالم الأعمال فإنه يجد نفسه غير منجذب لأى شيء ومتأكدًا من أنه سيفشل فى كل ما يحاول عمله ، وبالنسبة إلى الحب والزواج فإنه سيكون متحفظًا وخجولاً فى صحبة الجنس الآخر ومتخوفًا من مقابلتهم ، وعندما يوجه إليه أحدهم الكلام فإن حمرة الخجل تعلو وجهه وتضيع الكلمات منه ويعجز عن الرد ، ويزداد يأسه مع مرور الأيام.

فى بعض الحالات الشديدة فإننى قد وجدت أن مثل هذا الفرد يكون غير قادر على مواجهة مشكلات الحياة الثلاث ، وأنه لم يعد يوجد - من بين البشر - من يستطيع فهمه ، فهو لا ينظر فى اتجاه الآخرين ولا يكلمهم ولا يصغى لهم ، كما أنه لا يعمل ولا يَدرس وينسحب من العالم كله ويدخل فى عالم خيالى خاص به وحده ، وكل ما يتبقى منه هو بقايا نشاطاته الجنسية ، وتعرف هذه الحالة بالفصام أو الشيزوفرينيا وهى حالة تبرز أساسًا عن طريق الخطأ ، لو أمكننا تشجيع مثل هذا الفرد على إظهار حجم وطبيعة الخطأ الذى ارتكبه وإعطاءه طريقًا بديلاً ليسلكه فإنه يمكن علاجه وشفاؤه ، ورغم أن مثل هذا الأمر يكون بالغ الصعوبة بسبب الطريقة التى تمت تنشئته بها والحاجة إلى تصحيح كل جوانبها حتى يمكننا معالجته بطريقة سليمة ، فإنه يجب النظر لكل من ماضى وحاضر ومستقبل هذا الفرد بطريقة عملية وعلمية ، وليس باستخدام المنطق الذى يفكر به هذا الفرد .

إن كل أخطار المراهقة تحدث بسبب عدم حصول الفرد على القدر الكافى والمناسب من التدريب على مواجهة مهام الحياة الثلاث ، فإذا كان الطفل كثير التخوف ومتشائمًا بخصوص المستقبل فإنه سيكون من الطبيعى بالنسبة إليه أن يحاول مواجهة مشكلاته بالطريقة التى تحتاج وتستنفد أقل جهد منه ، لكن هذه الطرق السهلة تكون غير فعالة ، وكلما حاولنا التحكم فى هذا الصبى وتوجيه النقد له كلما زاد اعتقاده بأنه يقف على حافة الهاوية ، وكلما حاولنا دفعه إلى الأمام كلما حاول التراجع

إلى الوراء ، وإذا لم نتمكن من تشجيع هذا الفرد فإن أى مجهود سوف نبذله فى مساعدته سيكون مجهوداً ضائعًا ، بل ربما تسبب له فى الكثير من الأضرار فحيث إن مثل هذا الفرد يتميز بالتشاؤم والتخوف الشديد فإنه يجب علينا ألا نتوقع منه أن يشعر بأنه قادر على بذل أى جهد إضافى.

بعض مشاكل المراهقة

الطفل الذى تعرض لكثير من التدليل

إن الكثير من الفشل الذى يحدث فى مرحلة المراهقة يكون من نصيب الأطفال الذين تعرضوا لكثير من التدليل ، ويكون من السهل علينا أن نرى أن قرب مواجهة مسئوليات البلوغ يعتبر ضغطًا وعبئًا لا يمكن تحمله بالنسبة إلى الصبى الذى اعتاد الحصول على كل شىء من والديه دون بذل أى مجهود ، ولأنه يظل راغبًا فى الحصول على التدليل لكنه عندما يكبر فى السن يجد أنه لم يعد مركز اهتمام الجميع ويشعر أن الحياة قد خدعته وخيبت أماله ، فقد تمت تنشئته فى جو دافئ بطريقة صناعية ، والجو الخارجى الحقيقى شديد البرودة.

التمسك بمرحلة الطفولة

فى خلال هذه المرحلة فإن بعض الصبيان (والفتيات) يتمنون سرا أن يظلوا أطفالاً ؛ فنرى الواحد منهم يتكلم بالطريقة التى يتكلم بها الأطفال الصغار والرضع ويحاول اللعب مع من يصغرونه من الأطفال والتظاهر بأنه يستطيع أن يظل طفلاً إلى الأبد ، لكن الأغلبية العظمى يبذلون بعض الجهد فى محاولة التصرف بطريقة البالغين وإذا كانوا لا يملكون القدر الكافى من الشجاعة ، فإنهم يقدمون صورة كاريكاتيرية للشخص البالغ : كما لو كان طفل يحاول أن يقلد رجلاً بالغًا ، فهو يصرف النقود بلا حساب ، ويغازل الجنس الآخر ويتخذ عشاقًا.

الجرائم الصغيرة

فى بعض الحالات الأكثر صعوبة خاصة عندما يضل الصبى طريقة فى محاولاته لمواجهة مشاكل الحياة ولكنه يظل محتفظاً بنشاطه وقدراته الاجتماعية ، فإنه قد يلجأ إلى الجريمة ، وتزداد احتمالات حدوث هذا إذا كان الصبى قد ارتكب بعض المخالفات (الجُنَح) ولم يتم اكتشاف أمره مما جعله يظن أنه على قدر كافٍ من المهارة سيمكنه من النجاة مرة أخرى.

إن الجريمة تعتبر طريقة سهلة للفرار من مواجهة مشكلات الحياة الثلاث وخاصة من مشكلة كسب النقود.

ولهذا فإنه عندما يكون بين عمر أربعة عشر عامًا والعشرين (سن المراهقة) يكون هناك تزايد عظيم فى حدوث الجريمة ، ومرة أخرى فنحن هنا لا نواجه شيئًا جديداً ولكننا نواجه ضغطًا متزايداً كشف عن الأخطاء الموجودة بالفعل فى أسلوب حياة الطفل .

السلوك العصابى Neurotic behaviou

عندما يكون الطفل انعزاليا وأقل نشاطًا فإن طريق الهروب السهل - بالنسبة إليه - يكون هو السلوك العصابى ، وتكون مرحلة المراهقة هى المرحلة التى يبدأ فيها العديد من الأطفال المعاناة من الاضطرابات الوظيفية Functional disorders والأمراض العصبية ، وكل الأعراض العصابية تكون مصممة بحيث تمد الفرد المريض بمبرر لرفضه حل مشكلات الحياة الثلاث أو التعامل معها ودون أن يفقد الفرد شعوره بـ " التفوق " ، والأعراض العصابية تظهر عندما يواجه الفرد مشاكل اجتماعية يكون غير مستعد للتعامل معها بطريقة اجتماعية ، وتخلق صعوبة هذه المشاكل ضغطًا هائلاً ، وخلال مرحلة المراهقة يكون البناء الجسدى حساسًا بدرجة خاصة لمثل هذه الضغوط ، فكل الأعضاء تمكن إثارتها بسهولة مما يؤثر على الجهاز العصبى بأكمله ،

وحدوث مثل هذا الأمر يمكنه أن يمد الفرد بمبرر آخر وجديد يبرر به فشله وتردده ، ويبدأ الفرد - الذى تعرض لهذا الموقف - فى اعتبار نفسه غير مسئول عن مواجهة مشاكل الحياة بسبب معاناته ، وبهذا الاعتقاد يكتمل بناء مرض العصاب.

إن جميع الأشخاص العصابيين يظهرون دائمًا حسن نواياهم ، فإن الشخص العصابى يكون مقتنعًا بضرورة الشعور الاجتماعى وبضرورة مواجهة مشكلات الحياة ، ولكنه يعتقد أن حالته حالة خاصة تستوجب الاستثناء من هذا المطلب العالمى ، ويكون عذره هو مرض العصاب ، فهو كمن يقول :

" أنا أشتاق إلى حل كل مشكلاتى ولكن لسوء الحظ فإنه لا يمكننى القيام بهذا ؛ لأن المرض يمنعنى ".

وهذا هو الاختلاف بين العصابى والمجرم ، فالمجرم يظهر كثيراً نواياه السيئة ويكون واضحًا وصريحًا غالبًا ، وشعوره الاجتماعى يكون مكبوتًا ومختفيًا.

و من الصعب تقرير أيهما يسبب أكبر الضرر لرخاء البشرية :

١- الفرد ذو السلوك العصابى الذى تكون دوافعه ونواياه حسنة ولكن أفعاله تكون مملوءة بالأنانية والضغينة ومصممة بحيث تكون عقبة فى طريق التعاون مع باقى البشر.

٢ - المجرم الذى تكون عدوانيته ظاهرة والذى يتحمل الكثير من المشقة والألم ليكبت البقية الباقية من شعوره الاجتماعى.

التوقعات المتناقضة

ولعلنا نلاحظ الآن الانقلاب الواضح فى الأنماط الراسخة ، فالأطفال الذين كان يتوقع منهم الكثير قد فشلوا فى دراساتهم وفى أعمالهم ، بينما الأطفال

الذين كان يبدو عليهم عدم التمتع بأى مواهب أظهروا قدرات غير متوقعة وتفوقوا على المجموعة الأولى من الأطفال .

ولكن هذا لا يتناقض مع الأحداث السابقة ، فإن المجموعة الأولى من الأطفال والتى بدت قادرة على تحقيق الكثير أصبحت شديدة القلق وخائفة من أن تُخيب أمال وتوقعات من حولها وشكل هذا عبئًا كبيرًا على أكتافهم الصغيرة ، وكان من الممكن لهم تحمل هذا العبء عندما كان الجميع يؤيدونهم ويقدرون أعمالهم ، ولهذا استمر تقدمهم ، ولكن عندما أتى الوقت لبذل جهد لن يلقى التأييد والتقدير الكافى فإن شجاعتهم قد خانتهم وتراجعوا .

أما الآخرون (المجموعة الثانية من الأطفال) فربما حصلوا على دفعة قوية من الحرية مؤخرًا وأصبح الطريق واضحًا أمامهم لتحقيق كل طموحاتهم ، وقد ملأهم هذا بالكثير من الأفكار والمشاريع الجديدة ، وقدراتهم الخلاقة تزايدت واهتمامهم بكل جوانب الحياة الاجتماعية أصبح أكثر حماسًا وشفافية ، إنهم الأطفال الذين تمكنوا من الاحتفاظ بشجاعتهم ، والاستقلال بالنسبة إليهم يعنى فرصًا أوسع لإنجازات عظيمة ومساهمات فى تحقيق الرخاء للمجتمع وتحمل المخاطر ومواجهة الصعوبات حتى تحقيق النصر.

السعى وراء المدح والإعجاب

إن الطفل الذى شعر بالإهمال والتجاهل فى مرحلة مبكرة من حياته ربما يأمل الآن فى أن يحصل على التقدير المناسب من المجتمع خاصة بعد نجاحه فى تأسيس علاقات أحسن مع الآخرين ، والكثيرون منهم تتملكهم هذه الأفكار وتسيطر عليهم الرغبة فى الحصول على تقدير المجتمع ومدحه .

إنه من الخطر جدا على صبى أن يركز على الحصول على المدح والثناء ، والكثير من الفتيات تنقصهم الثقة بالنفس ويرين أن تقبل الآخرين وتقديرهم هو الوسيلة الوحيدة لإثبات قيمتهن الحقيقية ، إن مثل أولئك الفتيات فريسة سهلة لأى رجل يعرف

كيف يستميلهن بالإطراء والمديح ، ولقد شاهدت الكثير من الحالات لفتيات يشعرن بأنه لا يوجد من يقدرهن حق قدرهن فى المنزل ، ولهذا فإن الواحدة منهن تنشئ علاقة جنسية ليس من أجل إثبات أنها راشدة Grown up فقط ، ولكن فى محاولة لتحقيق الأمل العقيم فى أن تتمكن أخيراً من أن تحقق وضعًا تكون فيه مركز الاهتمام ، ويكون حولها من يقدرها حق قدرها .

و لنأخذ حالة هذه الفتاة على سبيل المثال :

إنها فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها خرجت من عائلة فقيرة جدا ، وكان لهذه الفتاة أخ أكبر منها ، ولكنه كان مريضًا خلال معظم فترة طفولتها ، وكانت الأم مجبرة على تخصيص الجزء الأكبر من اهتماماتها ووقتها للعناية به ، ولم تستطع إعطاء ابنتها الاهتمام الكافى ، وبالإضافة إلى هذا فإن الوالد كان مريضًا - خلال فترة طفولتها المبكرة - مما زاد من محدودية الوقت الذى حصلت عليه من أى منهما .

ولكن الوضع السابق مكّن الفتاة من ملاحظة وفهم معنى أن يكون شخص ما مركزًا لاهتمام الجميع ومحط رعايتهم ، وجعل هذا رغبتها تتزايد للحصول على وضع مماثل لوضع أخيها ، وكان من المستحيل الحصول على هذا الوضع داخل حدود أسرتها .

وفى هذا الوقت ولدت أخت صغيرة كما أن الوالد تعافى مما مكّن الأب والأم من تخصيص الكثير من الوقت لرعاية الصغيرة الجديدة ، وبالتالى شعرت فتاتنا بأنها الوحيدة التى لم تحصل على الرعاية والحب والتعاطف ، ولكنها كانت من النوع المثابر وتصرفت بطريقة طبيعية فى البيت والمدرسة وكانت من أحسن التلاميذ فى مدرستها ، وبسبب هذا النجاح فإن الجميع اقترح ضرورة استمرارها فى التعليم وتم إرسالها إلى مدرسة ثانوية وكان المدرسون هناك لا يعرفون أى شىء عنها .

فى البداية كانت فتاتنا غير قادرة على فهم الطرق التى يتم بها توجيه التعليمات فى المدرسة الجديدة وبدأت فى التخلف عن أقرانها ، وجعل هذا المدرس يزداد فى نقده

لها مما جعلها تشعر بالإحباط الشديد ، كانت الفتاة شديدة الرغبة فى الحصول على المدح والتقدير وعندما وجدت أنه لا يوجد من يقدرها فى المنزل أو المدرسة فإنه لم يبق لها شيء .

نظرت الفتاة حولها بحثًا عن رجل يمكنه أن يقدرها حق قدرها ويعطيها ما هى فى حاجة إليه من الرعاية والمدح ، وبعد عدة تجارب فاشلة فإنها ذهبت للعيش مع رجل لمدة أسبوعين وتزوجته ، وكانت عائلتها فى أشد القلق عليها ، وحاولت بشتى الطرق البحث عنها فى كل مكان ، وكما هو متوقع فإن الطلاق سرعان ما وقع لأنها كانت لا تزال تشعر بأنه لا يوجد من يقدرها لذاتها فقط وبدأ الندم ينتابها بسبب هذه التجربة .

وبدأت فكرة الانتحار تنتابها وتسيطر عليها ، حتى إن الفتاة أرسلت خطابًا إلى المنزل قالت فيه :

" لا تقلقوا من أجلى لقد تناولت السم ولكنى سعيدة تمامًا " .

فى الحقيقة فإن الفتاة لم تتناول أى نوع من السموم ويمكننا فهم السبب ، فإن الفتاة تعلم حق العلم أن عائلتها تحبها بشدة، وشعرت أنها مازالت قادرة على الحصول على تعاطفهم ، ولهذا فإنها لم تنتحر ، بل انتظرت حتى أتت أمها إلى مكان إقامتها وأخذتها معها إلى المنزل .

لو أن الفتاة كانت تعلم ما نعلمه عن أن كل جهودها موجهة نحو الحصول على المدح والتقدير من الآخرين لما خرجت علينا كل هذه المشاكل والصعوبات السابقة ، ولو أن المدرس فى المدرسة الثانوية كان على قدر من الفهم لظروفها لمنع هذا الفهم حدوث مثل هذه المشاكل ، فى الماضى كانت كل تقاريرها المدرسية تحمل مستوى الامتياز ، ولو أن المدرس لاحظ أن الفتاة كانت شديدة الحساسية بالنسبة إلى هذه النقطة وأنها كانت فى حاجة لمن يعالج هذه المسألة بطريقة أكثر حرصًا لما أصابها هذا الإحباط الشديد .

الحالة الثانية :

فى هذه المرة فإن الفتاة ولدت فى عائلة كان كل من الأب والأم ضعيف الشخصية . الأم كانت ترغب دائمًا فى الحصول على أبناء ذكور وأصابتها خيبة الأمل عند ميلاد الفتاة ، كانت هذه الأم تحط من قيمة دور المرأة فكان من المحتم أن تصل مثل هذه المشاعر إلى الفتاة بطريقة أو بأخرى ، ففى أكثر من مرة سمعت الفتاة أمها تخاطب والدها قائلة :

" إن الفتاة لا تتميز بالجمال أو الجاذبية ولن يعجب بها أحد عند تكبر ".

أو ...

" ماذا سنفعل بها عندما تتقدم فى السن ؟ ".

وبعد مرور عشر سنوات من العيش فى هذا الجو المسموم فإن الفتاة عثرت على خطاب من أحد أصدقاء والدتها يعزيها فيه .. بسبب إنجابها للفتاة وفيه قال إن الوالدة مازالت صغيرة السن ومازال أمامها الوقت لإنجاب صبى .

إنه من السهل علينا الآن تخيل مشاعر هذه الفتاة ، وعندما ذهبت لزيارة خالها فى الريف - بعد هذه الحادثة بعدة شهور - فإنها قابلت أحد الصبيان الريفيين ذوى الذكاء المنخفض وسرعان ما نمى الحب بينهما ، ورغم أن الصبى قد هجرها فيما بعد فإن الفتاة قد استمرت فى هذا السلوك وصاحبت غيره ، وعندما رأيتها كان لديها قائمة طويلة من العشاق لتحكى لى عنهم ، ولكنها لم تشعر قطُّ بأنها قابلت من يقدرها فى أىٍّ من علاقاتها السابقة .

كانت هذه الفتاة قد أتت لاستشارتى ؛ لأنها أصبحت تعانى الآن من القلق العصابى **Anxiety - neurosis** حتى إنها أصبحت غير قادرة على مغادرة المنزل وحدها .

وحيث إنها كانت غير راضية عن التقدير الذى حصلت عليه عن طريق إقامة علاقات مع الفتيان ، فإنها حاولت استخدام طريقة أخرى ، فهى قد بدأت

فى التصرف كطاغية صغير مع كل أعضاء أسرتها وتحاول تحقيرهم بسبب ما مرت به من آلام ومعاناة ، ولم يعد أى فرد فى العائلة قادرا على فعل أى شىء بدون إذنها ؛ لأنها كانت تبكى وتهدد بالانتحار ، وكانت مهمتى صعبة جدا ولكنى حاولت أن أجعل الفتاة تقدر وضعها العائلى حق قدره وأقنعتها أنها قد بالغت كثيرًا - خلال مرحلة المراهقة - فى حجم حاجتها للهروب من مشاعر الرفض .

المراهقة والجنس

إن كلا من الفتيات والفتيان يميل إلى المبالغة وزيادة قيمة علاقاته الجنسية خلال مرحلة المراهقة ، وينبع هذا من رغبتهم فى إثبات أنهم راشدون Grown up .

فلو أن فتاة ما كانت فى حالة ثورة ضد أمها على سبيل المثال وكانت تؤمن دائما أن الأم تحاول كبتها وتقييد حريتها ، فإنها ربما تحاول - على سبيل الاحتجاج - أن تقيم علاقات جنسية متعددة ، والفتاة هنا لا تهتم كثيرا بما إذا كانت أمها ستعرف أى شىء عن أفعالها هذه أم لا ، بل وربما تصبح أكثر سعادة لو أنها استطاعت أن تتسبب فى المزيد من القلق لوالدتها .

إنه أمر شائع أن تحاول الفتاة - بعد مشاحنات طويلة مع والدتها وأحيانًا مع والدها أيضًا - إقامة علاقات جنسية سريعة ، هذه الفتاة كان يظن أنها فتاة مستقيمة وصالحة وتم تنشئتها بأحسن الطرق ، ما كان لأحد أن يفكر أبدًا أن يقوم من هو مثلها بمثل هذه الأفعال ، ولكن الفتاة لا يمكن اعتبارها المذنب الحقيقى هنا ، فهى لم يتم إعدادها بطريقة مناسبة لمواجهة مشكلات الحياة ، فلابد من أنها قد شعرت بالإهمال والدونية ، وكان قيامها بمثل هذه الأفعال هو الطريق الوحيد فى نظرها للحصول على وضع أكثر قوة .

الاحتجاج على الرجولة The masculine protest

إن الكثير من الفتيات اللائى تعرضن لتدليل زائد عن الحد يجدن من الصعب عليهن التأقلم مع الدور الأنثوى المطلوب منهن القيام به ، فإن حضارتنا مازالت تعطى الانطباع أن الرجل أكثر " تفوقًا " من المرأة ، ونتيجة لذلك فإن الفتاة تكره فكرة كونها امرأة ، والآن تبدأ مثل هذه الفتاة فى إظهار ما سميته " الاحتجاج على الرجولة The masculine protest "، إن هذا الاحتجاج يعبر عن نفسه بطرق سلوكية كثيرة ومتنوعة ، فأحيانًا تظهر الفتاة الكراهية وتحاول تجنب الرجال ، وأحيانًا أخرى تحب الفتاة الرجال بالقدر الكافى ، ولكنها تكون محرجة وخجلى فى صحبتهم ولا تستطيع مبادلتهم الكلام ، كما أنها تكون مترددة للانضمام إلى مجموعات يحضرها الرجال ، إنها قد تشعر برغبة شديدة فى الزواج عندما تكبر ، ولكنها لا تقترب من الجنس الآخر ولا تتخذ من الرجال أصدقاء .

وفى بعض الأحيان فإن كراهية الفتاة للدور الأنثوى يتم التعبير عنها بوضوح فى مرحلة المراهقة ، فإن الفتاة تبدأ فى التصرف بطريقة أشبه ما تكون بطرق الصبيان، وتحاول تقليدهم خاصة فى معتقداتهم وطرقهم فى التصرف ، مثل التدخين وشرب الخمور والحديث بصورة فظة والانضمام لعصابات وكل ما يظهر تمتعها بالحرية الجنسية عموما ، وتكون حجتها فى اتباع مثل هذا السلوك هى أن الفتيان ما كانوا يهتمون بها إذا لم تتصرف بهذه الطريقة .

وأيضًا نجد كراهية الدور الأنثوى واضحة فى نمو وتطور الانحرافات الجنسية مثل الدعارة ، فإن العاهرة يملؤها الاعتقاد بأنه لا يوجد حقيقة من يحبها لذاتها ، وهى تؤمن أنها قد ولدت لتلعب دورًا دونيا Inferior role فى المجتمع وأنه من غير الممكن لها أن تكتسب حب أى رجل واهتمامه.

ولعل الظروف السابقة تمكننا من فهم لماذا تقبل المرأة أن يتم معاملتها بهذا الشكل ، ولماذا تحقر من دورها الجنسى ، ولماذا تعتبره مجرد وسيلة لكسب المال ؟ .

إن هذه الكراهية لدور الأنثى لا تبدأ خلال مرحلة المراهقة ولا تنبع منها ، بل إننا كثيراً ما نجد هذه الكراهية موجودة منذ نعومة أظافر الفتاة وإنها كانت دائما تكره دور المرأة رغم أنها - خلال فترة طفولتها - لم تكن فى حاجة للتعبير عن هذه الكراهية .

إن كل الأطفال يمكن أن يعانوا من الاحتجاج على الرجولة **The masculine protest** وليس الفتيات وحدهن فإن كل الأطفال (فتيات وفتيان) الذين يبالغون فى أهمية وقيمة دور الرجل ، يرون الرجولة كوضع مثالى ويملؤهم الشك فى قدراتهم على ملء هذا الدور والقيام بمتطلباته ، والضغوط التى يتم وضعها على الرجولة فى حضارتنا يمكن أن تتسبب فى الكثير من الصعاب للفتيان أيضاً خاصة إذا كانت الثقة تنقصهم من حيث هويتهم الجنسية ، فالكثير من الأطفال يعيشون لسنوات عديدة ولديهم الاعتقاد الغامض بأنه من الممكن تغيير نوعهم (ذكر أو أنثى) ، ولهذا يكون من المهم - عند بلوغ الطفل الثانية من عمره - أن يتم إبلاغه بطريقة محددة وحاسمة ما إذا كان ذكراً أو أنثى ومعاملته على هذا الأساس .

أحياناً إذا كان للصبى مظهر أنثوى ، فإنه يعنى الكثير من الصعوبات ، فالغرباء قد يخطئون فى تحديد جنسه وحتى الأصدقاء وأفراد العائلة فإنهم ربما يقولون :

" كان من الواجب أن تصبح فتاة فلا يوجد صبى بمثل هذا الجمال " .

إن مثل هذا الطفل قد يأخذ مظهره على أنه علامة على كونه غير مناسب للدور الذى يجب عليه القيام به ربما بدأ فى النظر إلى مشكلة الحب والزواج على أنها اختبار عسير ، إن الفتى الذى يكون غير متأكد من إمكانياته فى القيام بدوره الجنسى تكون لديه الميول - خلال فترة المراهقة - لتقليد الفتيات ، ويبدأ فى التصرف بأسلوب أنثوى ، ويأخذ الدور العقيم لفتاة تعرضت لكثير من التدليل.

سنواتنا السابقة

إن جذور إعداد شخصية الفرد وتشكيل موقفه من الجنس الآخر تبدأ فى السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياة الفرد ، فإن الرغبة الجنسية تكون ظاهرة وموجودة فى الأسابيع الأولى من الحياة ، ولكنه لا يجوز القيام بما يمكن أن يتسبب فى إنعاشها قبل أن نجد لها المتنفس المناسب ٠

وإذا لم يتم إنعاش وإثارة الدوافع والرغبة الجنسية ، فإنها ستعبر عن نفسها تلقائيا وسيكون هذا التعبير طبيعيا ولا يجوز أن يقلقنا ، وعلى سبيل المثال فإننا إذا رأينا الطفل الرضيع خلال عامه الأول يتفحص ويستكشف جسده ، ويتلمس كل أعضائه فإنه من الواجب علينا أن نستخدم قدراتنا فى التأثير على الطفل لتقليل هذه المحاولات وتقليل اهتمامه بجسده وزيادة الاهتمام بالعالم المحيط به ٠

وهو أمر يختلف تمامًا إذا لم نتمكن من إيقاف مثل هذه المحاولات فإنه يمكننا التأكد – عندها – من أن الطفل يتصرف بإرادة حرة وأنه ليس ضحية الدوافع والرغبة الجنسية ، ولكنه يستخدمها من أجل تحقيق أغراضه ، وبصفة عامة يكون غرض الطفل الرضيع هو جذب الانتباه نحوه ، فهو يشعر بمدى القلق والرعب الذى يسببه لوالديه ، ويعرف تمامًا كيف يتلاعب بمشاعرهما ، وكنتيجة لهذا فإنه عندما تفقد هذه العادة غرضها – جذب الانتباه – فإن الطفل يتوقف عنها تلقائيا ٠

ولهذا يجب أن نكون حريصين عندما نلمس الأطفال ، إنه لا يوجد ضرر فى معانقة الأطفال والوالدين بطريقة حميمة وفى تقبيلهم ، ولكن يجب أن نراعى أن لا نلمسهم بطريقة غير مناسبة تثير وتنعش رغباتهم الجنسية ، وكثيراً ما أخبرنى الأطفال – والبالغون أيضا – أنهم مازالوا يتذكرون المشاعر التى أثارها فيهم أول كتاب أو فيلم جنسى رأوه خلال مرحلة الطفولة ، ولهذا يجب حماية الأطفال من التعرض لمشاهدة مثل هذه الكتب والأفلام ؛ لأننا بهذا نتجنب الكثير من الصعوبات التى سبق الحديث عنها ٠

هناك شكل آخر من أشكال الإثارة وقد أشرنا إليه من قبل وهو الإصرار على إعطاء الأطفال كما كبيراً من المعلومات الجنسية غير الضرورية وغير المناسبة ، فالكثير من الأفراد في المجتمع يرغبون في إدخال التعليم الجنسي وأكثر ما يخافون منه هو أن ينمو الطفل وهو يجهل الجنس ، لكن إذا نظرنا إلى خبراتنا وخبرات الآخرين فإننا سنجد أنه لا داعي لخوفهم هذا على الإطلاق ، بل إنه من الأفضل الانتظار حتى يتزايد الفضول الطبيعي للطفل ويصبح راغباً في التعرف على هذه الأشياء .

وإذا كان الوالدان حساسين بالدرجة الكافية فإنهما سيتفهمان فضول الطفل حتى إذا لم يسمعا به ، وعندما يكون الطفل على علاقة طيبة وودودة بوالديه فإنه سيسألهم ببساطة وعندها فإن عليهما الإجابة ببساطة أيضاً وبطريقة يمكن للطفل فهمها دون عناء .

كما أنني أنصح الوالدين بعدم إظهار الكثير من عواطفهما تجاه بعضهما البعض أمام الطفل ، فالطفل يجب ألا ينام في الغرفة نفسها التي ينام فيها الوالدان وبالطبع فإنه من المرفوض تماماً النوم معهما في الفراش نفسه ، كما أنه يفضل أن تنام الفتاة في غرفة منفصلة عن الغرفة التي ينام فيها أخوتها الصبيان .

يجب أن يكون الوالدان حساسين لنمو وتطور أطفالهم ، ويجب ألا نخدعهم ، وعندما يكون الوالدان على دراية غير كاملة بنمو وتطور شخصية الطفل فإنه يصبح من الصعب عليهما معرفة ما الذي يتعرض له ، والأشياء التي تؤثر فيه.

توقع حدوث مرحلة المراهقة

من الشائع أن يتم إعطاء كل مرحلة من مراحل التطور والنمو البشري معنى خاصا ، كما أنه من الشائع أن ينظر إلى كل مرحلة على أنها نقطة تحول رئيسية ومهمة ، وهناك اتفاق علني على اعتبار مرحلة المراهقة مرحلة غريبة جدا وشديدة الخصوصية ، وهي النظرة نفسها التي ينظر بها الناس لسن اليأس عند المرأة .

إن هذه المراحل لا تجلب التغييرات الجذرية ولكنها مجرد استمرار للحياة ، وظهورها لا يمثل أى أهمية خاصة ، والمهم هنا هو ما الذى يجب على الفرد توقعه فى كل مرحلة ؟ وما المعنى الذى ينسبه إليها ، وما الطريقة التى درب نفسه بها على مواجهة هذه المرحلة ؟

فالكثير من الأطفال يكونون فى حالة ذهول عندما تبدأ مرحلة المراهقة ، ويتصرفون كما لو كان شبح مخيف قد ظهر لهم ، إذا استطعنا فهم ردود أفعالهم بطريقة مناسبة فإننا سنرى أن الأطفال لا يهتمون كثيراً بالجوانب الجسدية لمرحلة المراهقة - إلا ما يتعلق منها بما تتطلبه الشروط الاجتماعية من تكيف جديد لأسلوب حياتهم - وغالبًا ما تكون المشكلة فى أنهم يؤمنون بأن المراهقة هى نهاية كل شىء وأنهم فقدوا قيمتهم ، فهم قد فقدوا حقهم فى التعاون والمساهمة ، وأنه لا يوجد من يرغب فيهم ، وكل صعوبات المراهقة تخرج من هذا النوع من المشاعر٠

لو أنه تم تدريب الأطفال على اعتبار أنفسهم أعضاء متساوين فى المجتمع ، وجعلناهم يفهمون حق الفهم مهمتهم الضرورية فى المساهمة فى رخاء المجتمع وخاصة إذا ما تم تدريبهم على اعتبار الجنس الآخر رفيقًا مساوياً لهم فى الحقوق والواجبات ، فإن المراهقة سوف تعطيهم الفرصة لتطبيق حلولهم المستقلة والخلاقة لمشاكل الحياة ٠

أما إذا شعروا بأنهم أقل من الآخرين وعانوا من الآثار الضارة للنظرة الخاطئة للظروف المحيطة بهم ، فإنهم سيظهرون بمظهر غير المستعد لممارسة الحرية فى فترة المراهقة ، وإذا كان هناك من يتواجد ليجبرهم دائمًا على إنجاز كل ما هو ضرورى ، فإننا عندما نتركهم وحدهم وبدون هذا الشخص فإنهم سيترددون وسيكون الفشل هو نصيبهم ، إن مثل هؤلاء الأطفال سيكونون متكيفين مع ظروف العبودية فقط وإذا ما أعطيناهم حريتهم فإنهم سيتصرفون كالتائه الذى لا يعرف ما الذى يجب عليه أن يفعله ؟ .

الفصل التاسع

الجريمة وكيفية مَنعِها

محاولة لفهم العقل الإجرامى

إن علم النفس الفردى يستطيع أن يُساعدنا كثيرًا فى التعرف على جميع أنواع البشر وفى تفهم القاعدة المشتركة أو العوامل المشتركة بين أفراد الجنس البشرى مهما اختلفت أنواعهم ، فعلى سبيل المثال : نستطيع أن نجد أنواع الفشل نفسها ظاهرة فى سلوك المجرمين بقدر ظهورها فى سلوك كل من الأطفال نوى المشاكل ، والعصابيين والذهانيين ، والمنتحرين ، ومدمنى الخمور ، والشاذين جنسيا ، فكل هؤلاء فشلوا فى مواجهة مشكلات الحياة وفى منطقة محددة وملحوظة على وجه الخصوص ألا وهى الاهتمام بالمجتمع وبـ "التعاون" معه و"المساهمة" فيه ، وكل واحد من أولئك وهؤلاء قد فشل فى هذا بالطريقة نفسها تماماً، فهم غير مهتمين بزملائهم فى الجنس البشرى.

لكن - وحتى بعد كل ما سبق ذكره - فإننا لا نستطيع التمييز بينهم وبين باقى البشر ، فإنه لا يوجد فرد - أيا كان ومهما بلغ صلاحه - يمكن أن يُنظر إليه على أنه النموذج الكامل الأمثل لـ "التعاون" أو الشعور الاجتماعى ، والمجرمون لا يختلفون عن عامة المجتمع إلا فى حِدة وحجم فشلهم .

سعى الإنسان نحو التفوق

إن أهم الأشياء التى يجب فهمها عن المجرمين هو أنهم ممتلئون بالرغبة فى التغلب على الصعوبات فكلنا نسعى إلى الوصول لتحقيق هدف مستقبلى وتحقيق هذا الهدف سوف يساعدنا على الشعور بالقوة والتفوق وبأننا كاملين.

إن هذه النزعة أو الرغبة قد تمت الإشارة إليها على أنها سعىٌ نحو "تحقيق الأمان" والبعض سماه سعيًا نحو "الحفاظ على الذات" ، لكن أيا كان الاسم الذى نعطيه إياها فإننا سنجد أن جميع البشر ممتلئون بهذا الشعور (ألا وهو الصراع لكى يسمو فوق حالة النقص ويصل إلى وضع التفوق) وبهذا يكون قد حول الهزيمة إلى نصر وارتفع من أسفل إلى أعلى.

إن هذا الشعور يبدأ فى مرحلة مبكرة جدا من الطفولة ويستمر حتى آخر يوم فى حياتنا ، إن الحياة تعنى أن نستطيع الاستمرار فى الوجود على سطح هذا الكوكب ، وأن نستمر فى سعينا نحو التغلب على كل العقبات والصعوبات التى تواجهنا ، ولهذا فإننا يجب ألا نندهش إذا ما وجدنا هذه الطريقة فى التفكير سائدة بين المجرمين.

فى جميع الأفعال والمواقف التى يتخذها المجرمون من الحياة يتضح سعيهم الحثيث نحو الوصول إلى "التفوق" ونحو حل المشاكل التى تواجههم ونحو التغلب على الصعوبات التى تعترض طريقهم ، ولكن الذى يميز بينهم وبين باقى البشر ليس سعيهم الحثيث نحو تحقيق الهدف ، ولكن "الاتجاه" الذى يتخذونه فى محاولاتهم لتحقيق هذا الهدف ، وهم يتخذون هذا الاتجاه ؛ لأنهم لم يفهموا متطلبات الحياة الاجتماعية وأيضًا لأنهم غير مهتمين بإخوانهم البشر ، ولهذا كثيرًا ما نجد أن أفعالهم تتسم بالتخبط.

العلاقة بين البيئة المحيطة والوراثة والتغيير

إن الكثيرين ينظرون إلى الإجرام على أنه الاستثناء للسلوك الطبيعى بين البشر ، ويؤكدون على هذا بالقول بأن المجرمين يعانون من نوع من الإعاقة العقلية ، وعلى سبيل المثال فإن الكثيرين يبالغون فى أهمية عامل الوراثة ، فهم يعتقدون أن المجرم قد ولد شريراً بالوراثة وهو لا يستطيع إلا أن يستمر فى حياة الإجرام ، والبعض الآخر يقول :

" إن المجرم لا يستطيع أن يغير طبيعته إذا ما بدأ فى حياة الجريمة " .

ولكنَّ هناك كما هائلاً من الأدلة يثبت خطأ وجهات النظر السابقة ، وحتى إذا تقبلنا بعضها فإن هذا سيجعلنا عاجزين عن حل مشكلة الجريمة ، أما إذا أردنا وضع نهاية لهذه الكارثة الإنسانية (الجريمة) بأسرع ما يكون فإنه علينا أن نرفض أمثال هذه الأراء التى تحاول أن تضع كل اللوم على عوامل مثل الوراثة أو البيئة المحيطة ·

إنه لا يوجد عيب فى الوراثة أو البيئة المحيطة ، والأطفال الذين يولدون فى العائلة نفسها ، وفى البيئة المحيطة نفسها يمكن أن يكونوا مختلفين كل الاختلاف عندما يصلون إلى مرحلة البلوغ ، وكثيرا من المجرمين يأتون من عائلات لا غبار عليها بل إن بعضهم أتى من أكرم العائلات ، والعكس صحيح فإنه كثيراً ما يخرج شخص لا غبار عليه من عائلات ذات تاريخ فى السجون والإصلاحيات ويكون هذا الشخص ذا أخلاق حميدة وسلوك قويم·

الأكثر من هذا هو أنه أحياناً يحدث أن يغير المجرم من أسلوب حياته الأعوج ، ويستقيم إلى غير رجعة . ولقد عانى الكثير من علماء النفس المتخصصين فى دراسة الجريمة من محاولة تفسير سلوك السارق الذى يتوقف عن السرقة متى بلغ سن الثلاثين ، ويتحول إلى مواطن مثالى·

فلو أن الميول الإجرامية كانت عيبًا وراثيا كما يدعى البعض ، أو تأثيراً من تأثيرات البيئة المحيطة بالإنسان خلال طفولته كما ادعى البعض الآخر ، فإن حقيقة مثل الحقيقة السابقة تصبح مستحيلة الفهم ·

من وجهة نظرى فإنه لا توجد أى صعوبة فى فهم هذا التغير فى السلوك فتفسير هذه الظاهرة بسيط : إن الفرد يجد نفسه فى مواجهة ظروف أفضل ، كأن يتعرض لضغوط ومشاكل أقل أو لا يكون هناك الكثير من المتطلبات التى عليه الإيفاء بها ، وبهذا تختفى الظروف التى أجبرته على تبنى أسلوب خاطئ فى الحياة ، أو ربما يكون قد حصل على كل ما يريد من الجريمة ، فهى بهذا لم تعد تخدم هدفه فى الحياة أو ربما يكون قد وصل إلى مرحلة عمرية لا تسمح له بالاستمرار فى ممارسة الجريمة مما يعرضه للعقاب أكثر .

تأثيرات الطفولة وأسلوب الحياة الإجرامى

إن الأسلوب الوحيد لتقويم المجرمين هو اكتشاف ما حدث لهم خلال مرحلة الطفولة ومَنَعَهُم من أن يتعلموا "التعاون" ، إن علم النفس الفردى قد ألقى بعض الضوء على هذه المشكلة فعندما يبلغ سن الطفل الخامسة تكون نفسيته قد تشكلت وتكونت بطريقة شبه دائمة وتكون شخصيته قد بدأت فى التشكل والظهور ، وهنا تبدأ كل من الوراثة والبيئة المحيطة فى التأثير على نمو هذا الطفل ، ولكن علينا أن نتذكر أننا غير مهتمين بما يحضره الأطفال إلى هذا العالم ولا بالخبرات التى يواجهونها ، وإنما كل اهتمامنا يكون مركزاً على الطريقة التى يستخدمون بها هذه الأشياء ، وأهم ما يجب أن نركز عليه هو الاستخدام الأمثل لهذه الخبرات والخصائص التى أتى بها هؤلاء الأطفال إلى العالم وهذا لأننا نجهل كل شىء عن العجز أو القدرات الموروثة ، وكل ما يعنينا هو التركيز على الإمكانيات المستقبلية لهذا الطفل وتحقيق الاستخدام الأمثل لهذه الإمكانيات .

إن الظروف المخففة التى يلجأ إليها كل المجرمين هى أن لديهم قدرة محدودة على "التعاون" ، ولكنها غير كافية لتلبية طلبات المجتمع ، من هذا نرى أن المسئولية الكبرى تقع على عاتق الآباء . إن عليهم أن يتفهموا الكيفية التى يمكن بها توسيع

نطاق اهتمامات الطفل بالمجتمع من حوله حتى يشمل كل من يراه ، فإن على الآباء أن يتصرفوا بطريقة تجعل الأطفال يهتمون بالجنس البشرى ككل بقدر اهتمامهم بمستقبل حياتهم الشخصية ، لكن أحياناً يكون الآباء غير راغبين فى زيادة اهتمام أطفالهم بالمجتمع ، ويكون هذا نتيجة لكون الزواج غير موفق ووجود خلافات دائمة بين الأبوين ، أو ربما يكون السبب هو اعتزام الوالدين الطلاق ، وأحياناً تكون الغيرة بين الوالدين سبباً فى محاولة حصر اهتمام الطفل فى أحد الوالدين ، فيقوم هذا الوالد (الأب أو الأم) بتدليل الطفل بصورة مبالغ فيها حتى يصبح الطفل معتمداً عليه (أو عليها) بصورة كاملة ، وبالتالى تصبح قدرة ونمو هذا الطفل على "التعاون" محدودة للغاية.

إن اهتمام الطفل بغيره من الأطفال هو أمر فى غاية الأهمية لتحقيق أكبر قدر من "التعاون" والاهتمام الاجتماعى ، إذا كان أحد الأطفال هو المفضل لدى أبويه فإن باقى الأطفال سيرفضون صداقة هذا الطفل ، وسيعملون على إخراجه من دائرتهم الاجتماعية ، وإذا ما تفهم هذا الطفل الظروف المحيطة به بطريقة خاطئة فإن هذا سيكون نقطة البداية فى تكوين مجرم جديد.

إذا كان هناك طفل فى العائلة ذو قدرات خارقة فإن الطفل التالى له سيكون طفلاً ذا مشكلة (PROBLEM CHILD)، والعكس صحيح أيضاً فكثيراً ما يحدث أن يكون الطفل الثانى وديعاً وأنيساً وساحر الشخصية مما يجعل أخاه الأكبر يشعر بأنه محروم من العطف والحنان ، وهذا يجعل من السهل على الطفل الأكبر أن يَخدع نفسه ويصبح مهووساً ، فتتملكه فكرة أنه مهمل دون ذنب ، ويبدأ فى البحث عن أدلة لإثبات صحة وجهة نظره ، و يزداد سلوكه سوءاً بمرور الوقت ، وعندما تتم معاملته بعنف وحدة أكثر بسبب سوء سلوكه فإنه يتخذ من هذا دليلاً على صحة اعتقاده بأنه يعامل معاملة غير عادلة ، ولأنه يشعر بالحرمان فإنه يلجأ إلى السرقة وعندما يتم اكتشاف إحدى سرقاته فإنه يعاقب مما يعطيه دليلاً جديداً على صحة اعتقاده بعدم عدالة البيئة المحيطة به ، ويصبح لديه إثبات على أن الجميع لا يحبونه وأنهم كلهم ضده .

عندما يشكو الأبوان من ظروف مادية صعبة أمام أطفالهم فإن هذا قد يسبب الكثير من المصاعب في نمو وتطور قدراتهم على الاهتمام بالمجتمع من حولهم ، الشيء نفسه يمكن أن يحدث إذا ما كانوا كثيري الشكوى من أقربائهم أو جيرانهم ، أيضًا إذا كان الأبوان ينتقدان الآخرين بكثرة مُظهرين مشاعر الحقد والكراهية تجاه كل من يختلف عنهم في العقيدة أو الجنس أو اللون أو غيره فإنه من الصعب أن نتخيل وجود أطفال ذوي نمو صحي واهتمام بالمجتمع من حولهم في مثل هذه الأجواء المريضة ، بل إنني لن أندهش إذا ما انقلب هؤلاء الأطفال ضد آبائهم في نهاية الأمر.

عندما يتم وضع الكثير من الصعوبات والعقبات في طريق الاهتمام بالمجتمع من حولنا ، فإن كل ما يتبقى هو الأنانية وحب الذات ، ويمتلئ الطفل بشعور من اللامبالاة فهو كمن يقول :

"لماذا يجب علي أن أهتم بالآخرين ؟".

وعندما لا يستطيع الطفل مواجهة مشاكل الحياة بسبب تبنيه لوجهة النظر السابقة فإنه يبحث عن طريق سهل للخروج من تلك المشاكل ؛ فهو يعتقد أن الطريق السليم بالغ الصعوبة ، وهو لا يرى غضاضة في إيذاء الآخرين في سبيل الوصول إلى حل سهل لمشاكله فهو يعتبر نفسه في حرب وفي الحرب كل شيء مشروع .

والآن دعنا نأخذ في الاعتبار بعض الأمثلة التي توضح نمو وتطور الشخصية الإجرامية .

المثال الأول : في إحدى العائلات كان الطفل الثاني هو الطفل ذو المشكلة ، كان الطفل يتمتع بصحة جيدة ولم يكن يعاني من أي عجز وراثي ، وكان أخوه الأكبر هو المفضل في العائلة بسبب إنجازاته مما جعل الأخ الأصغر يحاول دائمًا اللحاق به كما لو كان في سباق دائم معهُ ، وكانت اهتمامات – الأخ الأصغر – الاجتماعية

معدومة فقد كان شديد التعلق بوالدته ويعتمد عليها بصورة دائمة فى كل احتياجاته ، كانت مهمة هذا الصبى فى التنافس مع أخيه مهمة صعبة ، فقد كان الأخ الأكبر متفوقًا فى دراسته بينما كان هو غير ناجح فى دراسته على الإطلاق.

و كانت رغبته فى إحراز "التفوق" شديدة الوضوح ، وكان قد اعتاد على إعطاء الأوامر والنواهى لإحدى العاملات فى المنزل وكثيرًا ما كان يسىء معاملتها حتى إنه كان يعاملها كما يعامل القائد العسكرى أحد جنوده ولكن الخادمة كانت مغرمة به ولهذا سمحت له بالاستمرار فى هذه المعاملة حتى بلغ الصبى العشرين من عمره.

كانت العصبية - والعجز- تتملكه فى مواجهة أبسط المشكلات ، وبسبب ذلك فإنه لم يتمكن من تحقيق أى شىء فى حياته ، ولكنه كان قادرًا على الحصول على بعض المال من والدته رغم أن والده انتقده كثيرًا لقيامه بهذا .

وعندما تزوج ازدادت الصعوبات التى تواجهه بالطبع ، ولكن كل همه كان إحراز السبق على أخيه الأكبر فى الزواج ، فقد كان ينظر إلى هذا السبق على أنه نصر مؤزر ، وهذا يوضح لنا مدى عدم ثقته بنفسه ، وحيث إنه كان غير مستعد للزواج أو مؤهل له فإن المشاحنات سرعان ما دبت بينه وبين زوجته ، وعندما أصبحت أمه عاجزة عن تقديم العون المالى له فإنه قام بشراء آلات بيانو بالتقسيط وباعها دون أن يسدد الأقساط مما تسبب فى دخوله السجن.

فى هذه الحالة نستطيع أن نرى جذور المشكلة التى تسببت فى تحوله إلى الإجرام ، فقد نشأ هذا الفتى فى ظل أخ أكبر منه وأكثر تفوقًا فى كل شىء ، مثله مثل شجرة صغيرة نمت فى ظل شجرة أكبر منها ، وقد أعطاه هذا الانطباع بأنه ضئيل وتافه ومهمل مقارنه بأخيه الأكبر.

المثال الثانى : فتاة فى الثانية عشرة من عمرها ، طموحة جدا ، ولكنها تعرضت لكثير من التدليل من كلا الأبوين ، وكان لهذه الفتاة أخت أصغر منها فى السن ، وكانت بطلة قصتنا تغار من أختها الصغيرة بشدة وكانت هذه الغيره تتضح على أشدها فى المدرسة والمنزل ، فقد كانت متنمرة لأى محاولة تظهر لتفضيل الأخت

الصغرى عليها مثل إعطائها حلوى أو نقوداً أكثر.

و فى يوم من الأيام قامت بسرقة بعض النقود من جيوب زملائها فى المدرسة وعندما تم اكتشاف أمرها عُوقِبت على هذا ، من حسن الحظ كنت قادراً على شرح الموقف لها مما حررها من اعتقادها الخاطئ بأنها عاجزة عن منافسة أختها الصغرى وفى الوقت نفسه قمت بشرح هذه الظروف المحيطة بها لعائلتها وهذا مكَنهم من تصحيح الصورة المنطبعة فى ذهن الأخت الكبرى وأنهم لا يفضلون الأخت الصغرى عليها ، وهذا وضع حدا للتنافس غير الشريف بين الأختين.

لقد حدثت هذه القصة منذ عشرين عامًا ، والأخت الكبرى الآن امرأة مخلصة وأمينة ومتزوجة ولها طفل ، ولم ترتكب أى أخطاء تذكر منذ ذلك الحين.

تركيب الشخصية الإجرامية

فى الفصل الأول من هذا الكتاب درسنا نمو وتطور الأطفال خاصة إذا ما كان هذا النمو أو التطور معرضًا للخطر ، ولكنى أحب أن ألخص ما سبق وقلته ؛ لأنه من المهم التأكيد على هذه الحقائق.

و لو أن علم النفس الفردى كان على صواب فيما اكتشفه ، فإننا سنتمكن من إرشاد المجرمين نحو سلوك وأسلوب حياة يعترف بـ "التعاون" إذا ما اعترفنا بتأثير مثل تلك المواقف عليهم .

إن الأنماط الرئيسية الثلاثة التى يمكن أن نصنف تحتها الأطفال الذين يعانون من صعوبات هى :

النمط الأول : الأطفال الذين يعانون من إعاقة جسدية .

النمط الثانى : الأطفال الذين تعرضوا لتدليل زائد عن الحد .

النمط الثالث : الأطفال الذين عانوا من الإهمال .

بدراســة المجـرمـين الذين كنت على اتصــال بهـم ، وبقـراءة وصـف الجـرائم التى ارتكبوها فى الكتب والجرائد ، فإننى قد حاولت التحقق من ، واختبار بناء الشخصية الإجرامية ، وقد وجدت أن علم النفس الفردى هو المفتاح لفهم أعمق ، ودعنى أعطى بعض الأمثلة على هذا .

القضية الأولى :

قضية كونراد ك ، الذى قام بقتل والده بمساعدة شخص آخر ، وقد كان الأب يهمل ويتجاهل ابنه وعامله بقسوة ، كما أنه أساء معاملة باقى أفراد العائلة ، وفى ذات مرة عندما قام بضربه فإن الصبى رد له الصاع صاعين ، فحاول الأب مقاضاة الابن ، وعندها قال القاضى :

"إن والدك شرير ويحب الشجار ، وأنا لا أرى أى حل لهذه المشكلة".

وها نحن نلاحظ أن القاضى نفسه قد قام بتوفير عذر للصبى فيما فعله ، وحاولت العائلة كلها إصلاح العلاقات بينها بلا جدوى ، وبلغ منهم اليأس أقصاه عندما اتخذ الأب لنفسه عشيقة لتعيش معه وطرد الابن من منزله ، فى الوقت نفسه نشأت صداقة بين الابن وأحد عمال التراحيل ذوى الميول العدوانية ، فقد كان هذا الرجل مودعا بالأعمال الوحشية مثل فقء عيون الدجاج ، وهو الذى اقترح عليه القيام بقتل والده وقد تردد الصبى فى البداية بسبب أمه ، ولكن عندما ساء الوضع، وبعد مداولات طويلة قرر الابن قتل والده بمساعدة عامل التراحيل .

نحن نرى هنا أن الابن كان عاجزًا عن الاهتمام حتى بأفراد أسرته ، ومظاهر نقص الاهتمام الاجتماعى واضحة فى هذه القضية ، وحيث إنه كان لا يزال شديد التعلق بوالدته فقد كان عليه أن يتخلص من البقية الباقية من اهتمامه بأمه قبل أن يشرع فى ارتكاب جريمته ، لقد كان فى حاجة إلى ظروف مخففة ، وعندما حصل على تأييد عامل التراحيل المتوحش أصبح قادرًا على ارتكاب الجريمة .

القضية الثانية :

قضية مارجريت زوان زيجر التى عُرفت باسم السفاحة التى تستخدم السم ، لقد كانت طفلة يتيمة ومنبوذة من أبويها وكانت تعانى من إعاقة جسدية ، هنا يقول علماء علم النفس الفردى إن حالتها الجسدية قد ساعدت على جعلها على ما هى عليه من اهتمام بالمظاهر وفى اشتياق دائم لجذب الانتباه ، كما أنها عُرفت بأنها كانت مؤدبة جدا إلى حد التملق .

بعد مغامرات كثيرة كادت أن تؤدى إلى خرابها ، حاولت ثلاث مرات أن تسمم بعض النساء على أمل أن تحصل على أزواجهن لنفسها ، قد شعرت بالحرمان وعجزت عن التفكير فى أى وسيلة أخرى تستعيد بها كرامتها المسلوبة .

كما أنها قامت أيضًا بادعاء الحمل ومحاولة الانتحار حتى تتمكن من السيطرة على عشاقِها من الرجال وفى سيرتها الذاتية تشهد بدون وعى - لصحة وجهة نظر علم النفس الفردى ، ولكنى أعتقد أنها لم تفهم العبارات التى كتبتها عندما قالت :

"عندما كنت أقوم بأى عمل شرير كنت أفكر فى نفسى (لا يوجد من يشعر بالأسف نحوى أبدًا فلماذا أقلق وأهتم بسبب بعض الأشخاص الذين آذيتهم ؟)".

بهذه الكلمات وصفت شعورها نحو الآخرين ، وفى هذه الكلمات نستطيع أن نرى كيف كانت تدفع نفسها نحو ارتكاب الجريمة ، فقد كانت تقود نفسها وتبحث عن ظروف مخففة ، وكلمات كهذه سمعتها كثيرًا عندما كنت أحاول أن أقنع بعضهم بأهمية "التعاون" والاهتمام بالمجتمع والآخرين ، وكان الرد الذى كنت أحصل عليه :

"ولكن الآخرين لا يظهرون أى اهتمام بى !! فلماذا على أن أهتم بهم ؟؟ ".

وكانت إجابتى واحدة دائمًا :

"على أحدهم أن يبدأ بفعل الصواب ، وإذا كان الآخرون غير مهتمين بـ "التعاون" فلا تدع هذا يمنعك من أن تكون البادئ ، فإن هذا لصالحك أنت على أى حال".

القضية الثالثة :

قضية الابن الأكبر لمستر ن. ل. ، لقد تمت تربية هذا الابن بطريقة سيئة ، كما أنه كان يعانى من قدم ضعيفة ، وكان يقوم بدور الأب لأخيه الأصغر – يمكن القول بأنه يحاول تحقيق هدفه فى "التفوق" من خلال هذه العلاقة – وربما كانت هذه العلاقة مدعاة للفخر والتباهى بالنسبة إلى الأخ الأكبر ، فيما بعد قام هذا الابن الأكبر بطرد أمه بطريقة وحشية ودفعها للتسول فى الطرقات .

يجب أن تاخذنا الشفقة بهذا الابن ، فهو لم يستطع أن يصل حتى لأمه باهتمامه الاجتماعى ، أى أن اهتمامه بالآخرين فشل فى أن يشمل حتى أقرب الناس إليه (أمه) ، لو تمكنا من معرفة هذا الابن عندما كان صغيراً لرأينا نموه وتطوره فى اتجاه الإجرام ، فلمدة طويلة ظل بلا عمل وبلا نقود ، كما أنه أصيب بمرض جنسى ، وفى يوم من الأيام بينما كان فى طريق العودة لمنزله بعد بحث طويل غير مثمر عن عمل قام بقتل أخيه الأصغر حتى يحصل على النذر اليسير من الدخل الذى كان يحصل عليه .

ها نحن نرى حدود استعداده لـ "التعاون" مع الآخرين ، فهو بلا عمل وبلا نقود ومصاب بمرض جنسى ، مما يجعلنا نصل إلى النتيجة التى تقول :

"هناك حَدٌّ للضغوط التى يستطيع أن يتحملها الفرد ، وإذا تجاوزت هذه الضغوط مقدرة هذا الفرد على التحمل ، فإنه يصبح غير قادر على الاستمرار ".

القضية الرابعة :

قضية طفل عانى من اليتم فى مرحلة مبكرة جدا من حياته ، وعندما تم تبنيه فإن الأم قامت بتدليله بطريقة مبالغ فيها وبالتالى نشأ هذا الطفل نشأة فاسدة ، ولكنه

كان داهية فى مجال الأعمال ، وكان يحاول أن يترك انطباعًا جيدًا على كل من حوله محاولاً أن يكون الأحسن دائمًا ، وكانت أمه بالتبنى تشجعه على تحقيق طموحاته هذه فقد كانت تؤمن به ، ولكنه تحول إلى كذاب ومحتال محاولاً الحصول على النقود بأى طريقة ممكنة ، وحيث إن أسرته - التى تبنته - كانت تنتمى إلى طبقة النبلاء فإنه تصنع الانتماء للطبقة الأرستقراطية وأنفق كل أموالهم بدون حكمة وفى النهاية طردهم من منزلهم .

ها نحن نرى نتيجة التنشئة السيئة والتدليل الزائد عن الحد ، فهو لم يدرب على الاهتمام بالمجتمع مما جعله غير صالح لتأدية أى عمل شريف ، حتى أنه اعتقد أن مهمته فى الحياة هى النيل من جميع أفراد المجتمع - بما فيها الأسرة التى انتشلته من اليتم - عن طريق الكذب والغش ، وحيث إن أمه بالتبنى كانت تفضله على أبنائها الذين من صلبها وعلى زوجها فإن هذه الطريقة فى المعاملة أعطته الشعور بأن له الحق فى أى شيء وكل شيء ، إن تقديره المنخفض لقيمته فى الحياة ظاهر فى أنه يعتقد أنه غير قادر على النجاح بالوسائل العادية .

الجريمة والجنون والجبن

قبل أن نستمر فى بحثنا أرغب فى توضيح شيء مهم ألا وهو خطأ الفكرة القائلة بأن كل المجرمين مجانين إلى حد ما ، إن هناك أشخاصًا مصابين بالذهان يرتكبون جرائم مختلفة ، ولكن جرائمهم مختلفة جدا فى طبيعتها ، ونحن لا نستطيع أن نحملهم المسئولية الجنائية عن جرائمهم ، فإن جرائمهم تأتى نتيجة لعدم فهمنا لهم وأيضًا بسبب الطريقة الخاطئة التى نعاملهم بها .

بالمنطق نفسه فإنه من الواجب علينا استثناء تلك المجموعة من الأشخاص الذين يقل مستوى ذكائهم عن المتوسط مما يجعلهم أداة طيعة فى يد المجرم المحترف ، فهم فى العادة أفراد بسطاء سذج يتم استغلالهم بواسطة أولئكَ الأشخاص الذين

يصورون لهم حياة الجريمة والمكاسب غير الشرعية فى صورة زائفة ، فهم يلعبون على وتر الطمع أو الطموح لدى هؤلاء السذج ، ثم يختفون تاركين أولئكَ السذج ليتحملوا تبعات الجريمة وحدهم.

الشيء نفسه يكون حقيقيا بالنسبة إلى الشباب الصغار الذين يتم نفسه استغلالهم بواسطة المجرمين الأكبر سنا والأكثر خبرة ، فالمجرم المخضرم هو الذى يخطط للجريمة والصغار السذج هم الذين يقعون فى فخ تنفيذها.

أيضًا يمكننا القول بأن كل المجرمين يتصفون بنوع من الجبن ، فهم يحاولون تجنب المشاكل التى يشعرون بأنهم لا يملكون القوة الكافية على حلها ، ونستطيع أن نرى جبنهم هذا فى الطريقة التى يمارسون حياتهم بها والجرائم التى يرتكبونها ، فهم يكمنون فى الظلام فى المناطق المعزولة وينقضون على ضحاياهم من حيث لا يتوقعون شاهرين أسلحتهم فى وجه الضحية المفزوعة قبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها ، وبتلك الطريقة الدنيئة يظنون بأنفسهم الشجاعة ، ولكننا نعرف الحقيقة فإنهم جبناء ويجب ألا تخدعنا تصرفاتهم الإجرامية فى تقبل وجهة نظرهم الخاطئة ، فإن الجريمة هى وسيلة الجبان فى تقليد الأبطال.

إن المجرمين فى سعيهم لتحقيق " التفوق " الشخصى يضلون الطريق ويسعون نحو هدف زائف ، ولكنهم يفضلون أن يفكروا فيما يفعلونه على أنه بطولة ، ونحن نعلم بالطبع أن هذه نظرة خاطئة للحياة وفشل ذريع فى استخدام المنطق السليم فى التفكير.

نحن نعلم أنهم جبناء وعندما يلاحظ المجرمون أننا نعرف أنهم جبناء فإن هذا يكون بمثابة صدمة كبيرة لهم ، فقد اعتادوا على تغذية غرورهم بأفكار مثل أنهم أذكى من الجميع وأنه من غير الممكن القبض عليهم أو اللحاق بهم .

ومع الأسف فإنه إذا دققنا النظر فى تفصيلات حياة العديد من الشخصيات الإجرامية فإننا سنجد أن كلا منهم – فى فترة ما من فترات حياته – قد استطاع ارتكاب العديد من الجرائم دون أن يلحق به أى نوع من العقاب ، وهذه الحقيقة

المؤسفة تجعلهم – عندما يتم القبض عليهم – يفكرون فى أنفسهم قائلين :

" هذه المرة لم أكن بالمهارة الكافية – ولعلنى قد ارتكبت بعض الأخطاء فى تخطيطى لارتكاب الجريمة – ولكن فى المرة القادمة سأكون أكثر حرصًا وحذرًا ، وسوف أثبت لهم جميعًا أننى أكثر ذكاءً منهم ، ولن يتمكن أحد من إلقاء القبض على مرة أخرى ".

وعندما يتمكنون من الإفلات بفعلتهم فى المرة القادمة ، فإنهم يشعرون بأنهم قد تمكنوا من تحقيق هدفهم الشخصى فى " التفوق " ، وشعورهم بـ " التفوق " يجعلهم يظنون أن كل زملائهم معجبون بهم ويقدرون قدراتهم أعظم تقدير.

إنه من الأهمية بمكان القضاء على هذه الأسطورة الشائعة عن شجاعة ومهارة المجرمين ولكن من أين نبدأ ؟؟ .

لعل أحسن الأماكن التى يمكن لنا أن نبدأ فيها محاولاتنا القضاء على هذه الأسطورة هى : الأسرة ، والمدرسة ، ومراكز الإصلاح ، وفيما بعد سوف أشرح بالتفصيل الكيفية التى يمكن لنا بها أن ننجز هذه المهمة.

أنماط المجرمين

سوف نجد أن المجرمين يمكن تقسيمهم إلى نمطين أساسيين :

النمط الأول : أولئك المجرمون الذين يعلمون الكثير عن الزمالة الواجب توافرها بين البشر ، ولكنه لم تتح لهم الفرصة قط لأن يختبروها ويتذوقوها ، أمثالُ أولئك المجرمين يتخذون موقفًا عدائيا من الناس والمجتمع ككل فهم يشعرون بأنهم منبوذون وأنه لا يوجد من يوفيهم حق قدرهم.

النمط الثانى : أولئك المجرمون الذين تعرضوا لتدليل زائد عن الحد خلال فترة طفولتهم ، ولقد لاحظت أن الكثير من المساجين قد أكدوا على هذه الحقيقة عندما اشتكوا لى قائلين :

" إن السبب فى اتجاهى نحو الإجرام هو والدتى التى كانت تدللنى وتستجيب لكل رغباتى بطريقة تفوق الوصف ".

و لعله من المهم والمفيد أن نقوم بتحليل المقولة السابقة ، ولكنى ذكرتها هنا فقط لأوضح أن المجرمين قد تمت تنشئتُهم بطريقة خاطئة لم تراع أهمية تدريب الفرد على " التعاون ".

أنا أعلم أن كل الآباء والأمهات يرغبون فى تنشئة أطفالهم ليصبحوا أعضاء صالحين فى المجتمع ، ولكن الكثير منهم لا يعرفون الكيفية التى يمكن بها تحقيق هذا الهدف ، فهم إذا حاولوا التشدد والتسلط على أبنائهم فإن الفشل سيكون مصيرهم المحتوم ، وإذا ما قاموا بتدليل الأطفال وجَعلِهم محور كل شىء فإنهم سيكونون قد زرعوا فى أطفالهم فكرة خاطئة تجعلهم يظنون أنهم مهمون وأن مجرد وجودهم ضرورى وذو أهمية خاصة ودون بذل أى مجهود من قبلهم كى ما يستحقوا هذه المكانة ، إن مثل هؤلاء الأطفال يفقدون القدرة على بذل المجهود المستمر والشاق لتحقيق هدف ما ، ويريدون من الجميع أن يعترف بأهميتهم وخصوصيتهم ، وهم غالبًا ما يتوقعون الحصول على ما يريدون دون مقابل أو جهد ، وعندما لا يجدون طريقة سهلة لتحقيق أهدافهم وأغراضهم فإنهم يضعون اللوم على أى شىء آخر عدا ذواتهم .

حالات للدراسة

دعنا الآن نفحص بعض الحالات لنرى ما إذا كانت تؤيد وجهات النظر السابقة :

الحالة الأولى : هذه الحالة من كتاب " خمسمائة من الحالات الإجرامية " من تأليف شيلدون وإليانور ت. جلوك ، وهى حالة جان المسلوق(*) ، وهو يشرح بنفسه بداية تكون وتشكل حياته الإجرامية قائلاً :

(*) " Hard-boiled JOHN " Five Hundred Criminal Careers "

" لم أكن أظن قط أنني سوف أصل إلى هذا الدرك الأسفل ، فحتى بلوغي سن السادسة عشرة كنت مثل أى مراهق آخر حولي ، فقد كنت أحب الرياضة ، وشاركت بالفعل في الكثير من الأنشطة الرياضية ، وكنت مغرمًا بالقراءة أيضا فاستعرت الكثير من الكتب من مكتبة البلدة ، كما أن خروجي ودخولي كانا في حدود المعقول فلم أسهر قط إلى وقت متأخر خارج البيت ، وتغير كل شيء فجأة ، أخرجني والدى من المدرسة، وألحقني بعمل ، وكان يستولى على أجرى كاملاً فيما عدا نصف دولار أسبوعيا سمح لي باستبقائها ".

إن "جان" يقوم بتوجيه الاتهامات الآن ، إذا تمكنا من سؤاله عن طبيعة العلاقة التي تربطه بوالديه ؟ وإذا ما تمكنا من الحصول على وجهة نظر محايدة لوضع عائلته، فإننا سنتمكن من اكتشاف حقيقة المواقف والأحداث التى مرت به ، ولكن علينا أن نتقبل مؤقتًا شهادته على أنها تأكيد لكون والداه لا يتمتعان بدرجة كافية ومناسبة من "التعاون".

" استمرت في العمل لمدة سنة كاملة ، وبعدها بدأت في الخروج مع إحدى الفتيات ، وكانت هذه الفتاة تهتم باللهو والمرح فقط لا غير ...".

إننا كثيرًا ما نجد أمثال تلك الفتاة الماجنة في حياة معظم المجرمين ، فهم لا يتعرفون إلا على الفتيات اللائى لا هم لهن إلا اللهو وإنفاق النقود ، وعلينا الآن أن نتذكر ما سبق وذكرناه من أن هذا الموقف هو مشكلة تختبر حجم ودرجة " التعاون " التى نتمتع بها ، فهذا الفتى يواعد فتاة لا تحب إلا اللهو وإنفاق النقود وكل ما يملكه هو نصف دولار أسبوعيا ، إن ما قام به لا يمكن أن يكون - بأى حال من الأحوال - حلا لمشكلة الحب والزواج فهناك فتيات أخريات - أكثر مناسبة لظروفه الاقتصادية - يمكنه الاختيار منهن ، وحيث إن تلك الفتاة لا تهتم إلا بالماديات فإنها غير مناسبة له ، ولكن هذا الفتى له أولويات أخرى في الحياة فهو يمشي في طريق خاطئ .

" لا يستطيع أحد أن يُشبع رغبات فتاة فى وقتنا هذا بواسطة نصف دولار أسبوعيا فقط ، ووالدى يرفض إعطائى المزيد من النقود ، لقد استشطت غضبًا بسبب رفضه هذا ، وأخذت أفكر بجدية فى طرق أخرى للحصول على النقود "٠

إن التفكير المنطقى هنا يجب أن يؤدى به إلى البحث عن وظيفة إضافية لكسب المزيد من النقود ، ولكنه يريد أن يكون كل شىء سهلاً ، وهو عندما يصر على الاحتفاظ بمثل هذه النوعية من الفتيات إنما يفعل هذا من أجل إشباع رغباته الشخصية وليس من أجل إيجاد حل لمشكلة الحب والزواج ٠

" فى يوم من الأيام قابلت ذلك الشخص الذى أتى من خارج مدينتنا ، وسرعان ما أصبحنا أصدقاء "٠

عندما يأتى شخص غريب لحياة فرد من الأفراد فإن قدوم مثل ذلك الشخص يكون بمثابة اختبار لشخصية هذا الفرد ؛ لأنه إذا ما كان هذا الفرد يتمتع بدرجة كافية من القدرة على " التعاون " فإن أى غريب – أيا كان – لن يتمكن من تضليله وإبعاده عن الهدف الحقيقى ، ولكن "جان " قد اتخذ طريقًا خاطئًا بالفعل جعل من السهل على ذلك الغريب أن يؤثر فيه ٠

" صديقى الجديد لص ماهر ، وهو فى غاية الذكاء ويعرف كل ما يجب معرفته عن عالم السرقة وما هو أكثر من هذا ، فإنه قد وعدنى باقتسام الغنائم إذا ما اشتركت معه وساعدته ، وبالفعل فقد قمنا بالكثير من السرقات ولم ينكشف أمرنا بعد ، ولهذا فقد قررت الاستمرار فى مساعدته "٠

نحن نعلم أن والديه يملكان المنزل الذى يقيمان فيه ، كما أن والده يعمل كرئيس عمال فى أحد المصانع ، وأن دخل العائلة يكفيها بالكاد ، وأن فتانا جان هو أحد الأطفال الثلاثة فى تلك العائلة ، وأنه حتى وقت ارتكاب جان لهذه الجرائم فإن عائلته بأكملها كانت ذات سلوك قويم(*) ، إن جان يعترف بأنه مارس الجنس لأول مرة عندما كان فى الخامسة عشرة من عمره ، ولعل البعض يعتقد هنا أن هذا الفتى يهتم

(*) لعل من المهم والمفيد أن نستمع لتفسير أحد العلماء اللذين يؤمنون بتأثير الوراثة فى حالة مثل حالاتنا هذه٠ (المؤلف)

بالجنس الآخر أكثر مما ينبغي ولكنى أقول لهم إن هذا الفتى لا يهتم بالآخرين إلا فى حدود ما يحقق متعته الشخصية فقط ، وإن اهتمامه بالجنس إذا كان له سبب آخر – غير الحصول على المتعة – فإن هذا السبب هو رغبته فى تمجيد الآخرين لقدراته الجنسية وليس عن اهتمام حقيقى أصيلا بأفراد الجنس الآخر .

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بعض النقاط التى تؤكد صحة ما سبق وذكرناه ، فعندما أراد هذا الفتى أن يظهر بمظهر الشخص الناجح وأن يجذب الفتيات إليه فإنه لم يحاول اجتذابهن إلا عن طريق إنفاق المال عليهن ، وارتداء الملابس المميزة – لقد كان جان يرتدى قبعة رعاة البقر ومنديلاً أحمر حول عنقه وحزامًا به مسدس حول خاصرته كما أنه اتخذ لنفسه اسم أحد الخارجين على القانون فى أيام الغرب الأولى. إنه فتى مغرم بالمظاهر الزائفة ، فهو يريد أن يظهر بمظهر البطولة ولم يعرف أى طريق آخر لتحقيق هذا الهدف ، لقد اعترف جان بكل الجرائم المنسوبة إليه وبجرائم أخرى لم تعرف عنها الشرطة شيئا ، فقد كان جان لا يحمل أى احترام لحقوق الآخرين فى الاحتفاظ بممتلكاتهم .

" أنا لا أعتقد أن للحياة قيمة بل إننى لا أحمل أى قدر من الاحترام للبشرية كلها فهم فى رأيى مذنبون مثلى أنا أو أكثر ".

أنا هنا أعتقد أن أقواله الأخيرة تنتمى إلى اللاوعى وأنها لا تستقر فى وعيه حقيقة بل إننى أعتقد أنه لا يفهم المعنى الحقيقى لما تفوه به ، فهو يشعر أن الحياة ليست إلا عبثًا ، ولكنه مع ذلك لا يفهم لماذا يشعر بالإحباط .

" لقد تعلمت أن لا أثق فى الناس ، ورغم ما يقال من أن اللصوص لا يسرقون من بعضهم البعض فإن تجربتى الشخصية قد أثبتت أن هذا غير صحيح ، ولكن دعنى أخبركم إننى إذا ما تمكنت من الحصول على كمية كافية من النقود فإننى سأكون شريفًا مثل أى شخص آخر بشرط أن يغنينى هذا الكم من النقود عن العمل إلى الأبد فأنا أكره العمل ولن أعمل أبدًا إذا ما أتيحت لى الفرصة ".

يمكننا ترجمة عبارته الأخيرة على النحو التالى :

" إن سوء الحالة الاقتصادية هو المسئول عن الجرائم التى ارتكبتها ، فلقد كنت مجبرًا على كبت رغباتى وهذا هو الذى حولنى إلى طريق الإجرام ".

أما جان فيكمل حديثه قائلاً :

" أنا لم أرتكب أى جريمة بسبب حبى للجرائم ذاتها ، ولكنه على أن أعترف بأن هناك لذة معينة أحصل عليها عندما أرتكب الجريمة وأتمكن من الإفلات من العقاب ".

إن "جان" ما زال يؤمن ببطولته ، ولا يرى الجبن الكامن فى سلوكه .

" عندما تم إلقاء القبض على ذات مرة كان فى حوزتى ما قيمته ١٤٠٠٠ دولار من المجوهرات ، لكننى تصرفت بغباء ذهبت لزيارة حبيبتى بعد أن قمت ببيع كمية صغيرة من المجوهرات تكفينا معًا ، ذلك عندما تم القبض على ".

إن أمثال جان ينفقون المال بسخاء على فتياتهن وبهذا يكون قد حصل على نصر سهل ، ولكنه يفكر فيه على أنه نصر مؤزر وغزوة جنسية حقيقية .

" إن هناك مدرسة داخل السجن . سأنضم لهذه المدرسة ، وسأعمل فيها بجد ليس بغرض إصلاح سلوكى ، ولكن لأجعل من نفسى شخصًا أكثر ذكاء وخطرًا أكبر على المجتمع ".

إن جان يعبر عن الكثير من المرارة التى بداخله تجاه الجنس البشرى ، فهو لا يريد أن يكون على أى صلة بالبشر ، فهو كمن يقول :

" لو كان عندى ابن لقتلته ، فلن أكون متهما بإحضار مخلوق آخر لهذا العالم ".

قد يتساءل البعض : كيف يمكننا أن نصلح من شأن مثل هذا الشخص ؟ .

والإجابة بسيطة فإنه ليس هناك سوى طريق واحد ألا وهو زيادة قدرة مثل هذا الشخص على " التعاون " ، فعلينا أن نظهر له خطأ تقديره للحياة.

ويمكننا إنجاز هذا إذا ما اقتفينا أثر المفاهيم الخاطئة التى شكلها خلال المراحل المبكرة فى طفولتـه ، أنا لا أعلم – على وجـه اليقـين – مـا حـدث فى هـذه الحـالة ، فالوصف الذى حصلنا عليه لا يتعامل مع النقاط الأساسية والمهمة ، ولكنَّ هناك شيئًا حدث فى طفولته جعل منه عدوا للجنس البشرى ، وإذا كان من الواجب على أن أخمن فإنه يمكننى القول بأن جان كان الأخ الأكبر وأنه لقى الكثير من الاهتمام والتدليل فى البداية – وهو ما يحدث عادة مع كل المواليد الأول – ولكن فيما بعد شعر بأنه كم مهمل وأن أحداً لا يحبه بسبب مجىء طفل جديد إلى العائلة.

إذا كـان ظنى صـحيـحًا فـإننا سـوف نكتـشف أنه حـتى شىء بسـيط مـثل هذا يستطيع أن يمنع نمو وتطور " التعاون ".

وقد حكـى لى جـان أنه قد تمت معاملـته بطـريقة سيئـة جدا فى إحـدى المدارس الإصلاحيـة التى تم إرسـاله إليهـا كـجزء من العـقوبة ، وعـندما ترك هـذه المدرسـة كان يملؤه شعـور بالكراهية تجاه المجتمع كله ، ويجـب أن أعلـق على هـذه الحكاية ؛ لأن كل معـاملة سيئة أو قاسية يلقاهـا المجرم فـى السجن أو الإصلاحية يعتبرهـا المجرم تحديا خـاصا له واختبـاراً لقوته ، الشىء نفسه تقريبًا يحدث عندما يسمـع المجرمـون أقوالاً مثل :

" يجب القضاء على هذه الموجة الإجرامية قضاءً مبرمًا ".

فإنهم (المجرمين) يرون مـثل ذلك القول تحـديا وحيث إنهم يرغبون فى الظهور بمظهر البطولة فإنهم يقبلون ذلك التحدى بسـعادة بالغة ، فـهم يشـعرون أن المجتمع يتحدى شجاعتهم وجرأتهم على الاستمرار فى حياة الجريمة ولهذا يستمرون بإصرار وعناد أكبر ، فـعندمـا يظن شـخصـا مـا أنه فى حـرب مع العـالم أجمـع ، فـإن مـثل ذلك التحدى يكون دافعًا أكبر له على الاستمرار بإصرار وعناد.

أيضًـا خـلال مـحـاولاتنا تعليم الأطفال المشكلة (PROBLEM CHILDREN) فإننا سنواجـه بمثـل هـذه العـقبة ؛ لأن تحـديهم هـو أكبـر الأخطاء التى يمكـن أن يرتكبهـا أى مـعلم ، فمثل هؤلاء الأطفال يتفهمـون ويتقبلون التـحدى بطريقة مغـلـوطة ويفكـرون فى أنفسهم قائلين :

" نعم لنرى من الأقوى ؟ ، ومن سوف يستطيع أن يصمد حتى النهاية ؟ ".

فهؤلاء الأطفال - مثلهم مثل المجرمين - متشبعون بفكرة القوة والشعور بها ، كما أنهم يعتقدون أنه من الممكن الإفلات من العقاب إذا كانوا على درجة كافية من المهارة والحذق.

وعلينا أن نعترف أن هذا يحدث كثيراً خاصة فى السجون والإصلاحيات ، فكثيراً ما يقوم العاملون فى السجن بتحدى المساجين ، وهذا فى رأيى سياسة خاطئة جدا وضارة للمساجين وللمجتمع ككل.

الحالة الثانية : سوف نقوم الآن بفحص حالة قاتل اتهم وأدين بقتل شخصين بطريقة بشعة وتم توقيع عقوبة الإعدام شنقًا عليه ، لقد اعترف هذا القاتل كتابة - فى مذكراته - بنواياه قبل أن يرتكب جريمته مما سيتيح لنا فرصة نادرة لنتفهم ونصف بالتفصيل نوع التفكير والتخطيط الذى يحدث فى عقلية المجرم.

إنه من غير الممكن لأى مجرم أن يرتكب جريمة ما دون أن يخطط لها ، وفى هذا التخطيط نجد التبريرات - والظروف المخففة - التى يسوقها لتبرير فعلته ، وفى كل ما قرأته من اعترافات وتخطيطات لجرائم - وهو كثير - لم أجد حالة واحدة تم فيها وصف الجريمة نفسها بوضوح وبساطة دون أن يسوق المجرم تبريرات عديدة أو ظروفًا مخففة يحلل بها جريمته ؛ فالمجرم دائمًا يحاول أن يلتمس لنفسه الأعذار.

وفى هذا نرى أهمية الشعور الاجتماعى ، فحتى المجرم سيحاول أن يوفق بين شعوره الاجتماعى وبين رغبته الشديدة فى ارتكاب الجريمة ، ولهذا فهو يعد نفسه للتخلص من هذا الشعور الاجتماعى ، وأن يحطم هذا القيد الذى يفرض عليه الاهتمام بالآخرين من حوله قبل أن يتمكن من ارتكاب جريمته.

وهذا هو ما حدث فى قصة "الجريمة والعقاب" لدستوفيسكى فإن روسكولينوف ظل راقداً فى فراشه لمدة شهرين يخطط ويفكر قبل أن يرتكب جريمة القتل ، وقد أخذ يدفع نفسه دفعًا ليبرر لنفسه ضرورة ارتكاب هذه الجريمة بأسئلة مثل :

" هل أنا نابليون ؟ أما أنا مجرد حشرة حقيرة ".

فإن المجرمين يخادعون أنفسهم ويدفعون أنفسهم دفعًا بأمثال هذه الخيالات وفي الواقع . فإن كل المجرمين على دراية وإدراك تام لنقائصهم ، وهم يعلمون تمام العلم بأن حياتهم عديمة الفائدة ؛ لأنهم يدركون المعنى الحقيقي للحياة المفيدة ، ولكنهم يرفضون ذلك المعنى بسبب جبنهم ، وهم جبناء ؛ لأنهم يفتقدون القدرة على الحياة بطريقة مفيدة.

إن مشاكل الحياة تتطلب " التعاون " وهم لم يتدربوا على " التعاون ".

لهذا عندما يحاول المجرمون إزاحة هذا العبء عن كواهلهم فإنهم يلجئون إلى الظروف المخففة كأن يدعي المرض أو العجز عن العمل أو عدم وجود وظائف إلخ ، ودعنا الآن ننقل نص اعترافات هذا المجرم - من مذكراته - قبل أن يرتكب جريمته :

" الجميع تبرأ مني وأنكرني حتى عائلتي ، فقد كنت كما مهملاً ومصدراً للاشمئزاز بالنسبة إليهم (فلقد ولد فتانا بأنف مشوهة) ، ملأ البؤس والشقاء كل حياتي ، لن أسمح لأي شيء بأن يقف في طريقي فأنا لا أستطيع تحمل هذه المعاملة وهذا البؤس والشقاء إلى الأبد ، سأعتزل الناس والمجتمع جميعًا ولكني جائع والمعدة الفارغة شيء لا يمكن تجاهله ".

ها هو قد خرج علينا بالظروف المخففة .

" لقد تنبأ لي الجميع بأنني سوف ألقى حتفي على المشنقة ، وعندها خطرت على بالي هذه الفكرة : ما الفرق بين الموت على حبل المشنقة والموت جوعًا ؟ !".

في حالة أخرى تنبأت أم بأن ابنها سيقوم بقتلها في يوم من الأيام ، وعندما بلغ هذا الابن السابعة عشرة من عمره قام بقتل خالته بدلاً منها .

وهذا يوضح لنا النُّبوءة والتحدى وقبول التحدى.

.. ..

و يكمل فتانا حديثه فى مذكراته قائلاً :

" إن نتائج أفعالى لا تهمنى كثيراً ، فإن الموت سيكون مصيرى على أى حال أنا لا شىء كما مهملاً نكرة والجميع يبتعد عنى ويتجنبنى ، وحتى الفتاة التى أحببتها تجفل مبتعدة عنى كلما اقتربت منها ".

إنه يرغب فى التقرب إلى هذه الفتاة ، لكنه لا يملك أى نقود أو ملابس مناسبة ، إنه نظر إلى الفتاة كشىء يمكن تملكه ويمكن الوصول إليه عن طريق النقود والملابس. وهذا هو حله لمشكلة الحب والزواج !! .

" يستوى لدى كلا الأمرين ، وسأجد وإما فنائى وإما خلاصى ".

إن كل أمثال فتانا هذا يحبون التطرف فى كل شىء ، فكل الأشياء لديهم إما بيضاء وإما سوداء ، فلا مجال لديهم لباقى الألوان وهم ينتقلون بين الشىء ونقيضه بمنتهى السهولة ولأتفه الأسباب ، فهم كالأطفال فإما أن يحصلوا على كل شىء وإما لا شىء كالخيار بين الموت جوعًا أو على حبل المشنقة ، وبين الحياة الرغدة الهنية التى لا تكدرها أى مشاكل.

" لقد خططت لكل شىء سوف أكون على أهبة الاستعداد يوم الخميس القادم . لقد حددت ضحيتى ، وفى أقرب فرصة سأتمكن من تنفيذ هذا العمل الكريه . إن هذا أمر ليس فى استطاعة كل شخص ".

إن فتانا يملؤه الاعتقاد بأنه بطل لكنه بطل فى نظر نفسه فقط عندما قال " إن هذا أمر ليس فى استطاعة كل شخص " ثم استل سكينًا وطعن به شخصًا من الخلف فى هجوم مفاجئ هذا ما يصفه بأنه " أمر ليس فى استطاعة كل شخص !! ".

" وكما يقود الراعى خرافه فإن آلام الجوع تقود الإنسان لارتكاب أفظع الجرائم ربما لن يتاح لى أن أرى فجر يوم جديد ، ولكن أنا لا أبالى ، فإن أسوأ شىء يمكن أن يحدث لأى إنسان هو أن يعذب جوعًا على الدوام ، لقد افترسنى مرض عضال ، وآخر عذاباتى عندما سيجلسون لمحاكمتى ، فأنا أعلم أنه على أن أدفع ثمن ما ارتكبته إن عاجلاً أو آجلاً لكنى أعتبر هذا أحسن من الموت جوعًا ، فإذا ما مت جوعًا فلن يتذكرنى أحد ، ولكن بهذه الطريقة سيتجمع العشرات لمشاهدة إعدامى وربما شعر بعضهم بالأسف من أجلى ، سأقوم بما اعتزمت القيام به رغم أن الخوف يملؤنى "٠

يبدو أن فتانا ليس بالبطولة التى توسمها فى نفسه ، وخلال التحقيق معه بعد ارتكاب الجريمة قال :

" بالرغم من أننى لم أطعنه فى قلبه . فإننى قد ارتكبت جريمة قتل ، وأعرف أن مصيرى المحتوم هو الشنق ، ولكنه (القتيل) كان يرتدى ملابس ثمينة رائعة الجمال ، وكنت أعلم على وجه اليقين أنه لن يكتب لى أبدًا أن أمتلك مثل تلك الملابس "٠

لقد غير فتانا من ادعاءاته ، فهو لا يدعى الآن أن الجوع هو الدافع لارتكاب الجريمة ٠

" لم أكن أدرك ما أفعله ، فلم أكن فى كامل وعيى "٠

سنجد دائمًا أمثال هذه العبارة السابقة - بشكل أو بآخر - فى اعترافات معظم المجرمين حتى إن بعضهم يعاقر الخمر لفترة طويلة قبل أن تواتيه الجرأة الكافية لارتكاب جريمته٠

إن كل هذا يثبت صحة القول بأنه على المجرم أن يتحرر من شعوره الاجتماعى قبل أن يتمكن من ارتكاب جريمته ، وأنا أعتقد أنه يمكننى إثبات صحة كل النقاط السابقة إذا ما توافرت لنا تفاصيل كافية عن حياة أى مجرم٠

أهمية التعاون

والآن دعنا نأخذ فى الاعتبار ما ذكرناه سابقًا من أن كل المجرمين – وكل البشر فى هذا الخصوص – يسعون لإحراز نصر ، أى الوصول إلى وضع يمكنهم من إثبات "تفوقهم" ، ولكن علينا أن نتذكر أن هناك تنوعًا شديدًا ومتباينًا فى هذا الهدف (التفوق) ، فهدف المجرم يكون فى إحراز "التفوق" بمفهومه الخاص والشخصى بمعنى ألا يساهم هذا "التفوق" فى إثراء وإفادة المجتمع من حوله.

إن حاجة المجتمع لـ " التعاون " تمتد إلى كل فرد من أفراده أيا كان . وكل فرد فى المجتمع فى حاجة إلى " التعاون " مع باقى أفراد المجتمع ، ولكن المجرمين لا يعرفون كيف يتعاونون بفاعلية مع المجتمع أو الأفراد.

وهدف المجرم من بلوغ " التفوق " يكون بحيث لا يستفيد أحد غيره من تحقيقه لهذا الهدف ، وهذا هو أهم ما يميز طريقة المجرم فى الوصول إلى " التفوق " ، وأهم ما أرغب فى توضيحه هنا هو : حجم ودرجة وطبيعة فشل المجرم فى " التعاون ".

فالمجرمون يختلفون عن باقى الأفراد فى قدرتهم على " التعاون " فبعضهم يفشل بطريقة أقل خطورة من البعض الآخر ، فبعضهم (المجرمون) يظل محبوسًا فى حدود الجرائم الصغيرة ذات الخطر المحدود ولا يتجاوزها أبدًا ، لكن البعض الآخر يفضل الجرائم الكبيرة ، وبعضهم يلعب دور القائد والبعض الآخر يلعب دور التابع ، ولكى ما نتفهم الاختلافات الموجودة بين المجرمين فلابد لنا من أن نتفهم طريقة وأسلوب حياة Life Style كل نوع منهم.

الشخصية وأسلوب الحياة والمهام الثلاث

سوف نكتشف أن الخصائص الأساسية المميزة لطريقة الحياة ملائمة ومفصلة بحيث تناسب الفرد عند بلوغه سن الخامسة ، ولعل هذا هو السبب فى أنها تكون صعبة التغيير ، فهى تمثل شخصية أحدهم الفريدة ، ويمكن تغيرها فقط إذا ما اعترف ذلك الفرد وتعرف على الأخطاء التى قام بها فى بناء هذه الشخصية.

ولعل هذا هو السبب الذى يجعل المجرمين - بالرغم من تعرضهم للعقاب الشديد عدة مرات والإهانات المتكررة والعزلة المفروضة عليهم وحرمانهم من الأشياء الكثيرة التى يتمتع بها باقى الصالحين من أفراد المجتمع - يتمسكون بعدم تغيير طرقهم فى الحياة والاستمرار فى ارتكاب جرائمهم الواحدة بعد الأخرى.

إن ما دفعهم إلى الجريمة ليس ضائقة مالية أو وضع اقتصادى سيئ . حقيقى أنه عندما تكون الأحوال الاقتصادية سيئة فإن عدد الجرائم يزداد ، كما أن الإحصائيات تظهر بالفعل أن عدد الجرائم يزداد بصورة اضطرادية مع زيادة أسعار القمح ، ولكن كل هذا ليس إثباتاً على أن الدافع الحقيقى للمجرم هو الوضع الاقتصادى بل أنا أذهب فى اعتقادى إلى ما هو أبعد من هذا ، فإن الوضع الاقتصادى يظهر محدودية السلوك الطيب لبعض الأفراد وضعف قدرتهم على " التعاون " مع باقى أفراد المجتمع وأن كل ما كان يفصلهم عن اللجوء إلى الجريمة هو الوضع الاقتصادى.

إن هناك الكثير من الناس الذين يتصرفون كأفراد أسوياء عندما تكون أحوالهم جيدة ، ولكن عندما تبدأ المشاكل فى الظهور - خاصة إذا ما كانت مشكلة لم يتوقعوا مواجهتها وغير مستعدين للتغلب عليها - فإنهم يتوجهون نحو الجريمة كحل سهل . إن هذا هو أسلوبهم فى الحياة وطريقتهم فى مواجهة المشاكل وأنه من المهم لنا أن نتفهم هذه الحقيقة.

إن علم النفس الفردى أجرى الكثير من الدراسات والتحقيقات التى تؤكد الحقيقة التالية : إن المجرمين غير مهتمين بباقى أفراد المجتمع من حولهم ، وأن قدراتهم على "التعاون" محدودة للغاية وأنهم عندما يصلون إلى هذه الحدود فإنهم يتحولون نحو الجريمة ، وتكون القشة التى تقصم ظهر البعير بالنسبة إليهم هى : الدخول فى مواجهة مع مشكلة صعبة لا يمكنهم التغلب عليها بسهولة.

إن مشاكل الحياة التى يواجهها كل البشر هى مشاكل لا يستطيع المجرمون حلها بنجاح ، ويبدو أن كل المشاكل لها بعد اجتماعى ، أى أن كل المشاكل فى حياتنا هى مشاكل اجتماعية وهذا يعنى أنه لا يمكن حلها إلا إذا كنا مهتمين بالآخرين من حولنا اهتماماً حقيقيا وأصيلاً .

لقد سبق وذكرنا باختصار فى الفصل الأول أن علم النفس الفردى قد علمنا أن نقسم مشاكل الحياة إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

أولاً : دعنا نأخذ فى الاعتبار مشكلة العلاقات الاجتماعية مع باقى أفراد المجتمع ، فإن المجرمين يكون لهم أصدقاء أحيانًا ، ولكن هؤلاء الأصدقاء من نوعيتهم نفسها ، فهم يشكلون عصابات يتوفر الولاء بين أفرادها لكن هذا يجعل مجال اهتمامهم بالآخرين محدوداً للغاية ، فهم لا يتخذون أصدقاء من بين أفراد المجتمع عمومًا ولا من بين الأفراد أصحاب الميول الطبيعية ، فهم يتصرفون كمجموعة من الغرباء فى أرض أجنبية ولا يمكن لهم أن يكنوا مشاعر طبيعية لباقى أفراد المجتمع.

ثانيًا : إن المجموعة الثانية من المشاكل تتضمن كل ما يتصل بالعمل ، فالكثير من المجرمين عندما تسألهم عن العمل الذى يقومون به تكون إجابتهم كالتالى :

" أنت لا تعلم مدى سوء الأحوال الوظيفية والأشغال هنا ".

فإن العمل بالنسبة إليهم تجربة بشعة وغير ملائمة لظروف حياتهم وهم غير مستعدين لتحمل أعباء هذه الوظائف أو حل الصعوبات التى تواجههم فيها.

فإن وظيفة مفيدة ومجزية تعنى الاهتمام بالآخرين والمساهمة فى تحقيق الرفاهية لهم ، ولكن هذا هو ما تفتقد إليه الشخصية الإجرامية فهو لا يملك روح " التعاون " ولا يعرف معنى المساهمة ، ويظهر هذا بوضوح مبكرًا فى حياة المجرم ، وهذا ما يجعل معظم المجرمين غير مستعدين أو مؤهلين لمواجهة متطلبات العمل ، فمعظم المجرمين غير مدربين ولا يتصفون بالمهارة وإذا ما فحصت ماضيهم فإنك سوف تجد أنهم كانوا غير ناجحين فى الدراسة وحتى ما قبل مرحلة الدراسة فإنه يظهر فى ماضيهم ما يشبه السد ، أغلق وأوقف اهتماماتهم وأظهرهم غير مستعدين لـ " التعاون ".

إن " التعاون " هو شيء يجب تعليمه وتدريسه والتدرب عليه ، وهؤلاء المجرمون لم يحصلوا قط على أى تدريب فى " التعاون " .

وهذا ما يجعلنى أقول إن المسئولية فى فشلهم فى حل مشكلة العمل لا تقع بأكملها على كواهلهم ، فإننا عندما نطالبهم بتحمل هذه المسئولية نكون كمن طلب الإجابة على أسئلة اختبار متقدم فى الجغرافيا من شخص لم يدرس جغرافيا فى حياته من قبل قط ، وعندما نفعل هذا فإن كل ما سنحصل عليه إما عجزٌ كامل عن الإجابة وإما إجاباتٌ خاطئة.

ثالثًا : إن المجموعة الثالثة من المشاكل تتضمن كل ما يتصل بالحب والعلاقات الزوجية ، إن علاقة الحب المفيدة والمثمرة تستدعى وجود مقادير متساوية من الاهتمام بالشخص الآخر من كلا الطرفين و" التعاون " التام بينهما ، ولعله من المدهش أننا لاحظنا عند فحص المجرمين الذين تم إرسالهم للسجون والإصلاحيات أن أكثر من نصفهم كانوا مصابين بأمراض جنسية ، وهذا يوضح أن الغالبية العظمى منهم يميلون إلى الحصول على حل سهل لمشكلة الحب والزواج ، فهم يعتبرون شريكهم فى ممارسة الجنس مجرد شيء يمكن تملكه وهم يعتقدون دائمًا أن الحب والجنس شيء يمكن شراؤه ، إن الجنس بالنسبة إليهم مجرد غزوة ومعركة يجب الانتصار فيها ، وهو وسيلتهم فى امتلاك الآخرين بدلاً من أن يحاولوا أن يكونوا جزءًا لا يتجزأ من علاقة صحية تستمر طوال الحياة ، نجد الكثير من المجرمين يقولون عبارات مثل :

" ما فائدة الحياة ؟ إذا كنت لا أستطيع الحصول على كل ما أبغيه ؟ ".

إن محدودية القدرة على " التعاون " فى مواجهة كل مشكلات الحياة هو عيب خطير ورئيسى ، فنحن فى حاجة إلى " التعاون " فى كل دقيقة من كل يوم ، وحجم قدراتنا على " التعاون " يظهر فى الطريقة التى نتحدث بها وفى الطريقة التى نصغى بها إلى الآخرين عندما يتحدثون وفى الطريقة التى ننظر بها إلى الأشياء ككل.

لو كنت على صواب فى ملاحظاتى السابقة ، فإن المجرمين يتكلمون ويصغون وينظرون بطريقة مختلفة عن باقى أفراد المجتمع ، فإن لهم لغة مختلفة.

وهذه الاختلافات ستعوق بالتأكيد نمو وتطور ذكائهم ، فعندما نتكلم فإن غرضنا هو أن يفهمنا الجميع فالفهم دالة ووظيفة اجتماعية ، فنحن نعطى الكلمات معنى عاما ونفهمها (الكلمات) بالطريقة نفسها التى يفهمها بها أى شخص آخر فى المجتمع ولكن فى حالة المجرمين فإن الأمر يختلف فإن لهم منطقهم الخاص وذكاءهم الخاص ويمكننا رؤية هذا فى الطريقة التى يحاولون بها شرح وتبرير جرائمهم ، فهم ليسوا أغبياء أو متحدى إعاقة وغالبًا ما تكون استنتاجاتهم ذات مغزًى ومعقولة إذا ما منحناهم الفرصة لتحقيق هدفهم الزائف فى " التفوق " الشخصى.

فالمجرم قد يقول :

" لقد رأيت شخصا يرتدى سروالاً أنيقًا جدا وأنا لا أملك مثله ، ولهذا إضطررت لقتله ".

إذا ما صدقنا مثل هذا المجرم واعترفنا بأن رغباته لها مثل هذا الحجم والأهمية وأنه لا حاجة له لأن يعمل ويتكسب بطريقة مشروعة ومفيدة فإن مثل الاستنتاج السابق يكون ذا مغزى ومعقولاً بدرجة كافية ، ولكنه غير منطقى على الإطلاق.

فى إحدى القضايا فى دولة المجر كانت مجموعة من النساء متهمة بقتل عدد كبير من الرجال بالسم ، وعندما تم إرسال إحداهن إلى السجن فإنها قالت :

" طفلى الصغير كان مريضًا جدا وراقداً فى البيت على الدوام ، ولهذا اضطررت إلى قتله بالسم ".

عندما استبعدت هذه السيدة " التعاون " فإن كل ما تبقى لها هو القتل ، إنها على درجة كافية من الذكاء ولكن نظرتها للأشياء والحياة ككل تختلف عنا ، وهذا يمكننا من فهم عقلية المجرم فعندما يرى المجرم أشياء جميلة وجذابة ويريد أن تكون له بطريقة سهلة فإنه يستنتج أن الطريقة الوحيدة السهلة للحصول على هذه الأشياء هى أن يغتصبها من هذا العالم المعادى له وهو عالم لا يحمل له

أى قدر من الاهتمام أو الاحترام ، فهو يعانى من آثار نظرته الخاطئة للحياة وتقديره الخاطئ لأهميته الشخصية ولأهمية الآخرين من حوله.

التأثيرات المبكرة على التعاون

فى هذا الجزء سوف أحاول دراسة الظروف التى تجعل الفشل فى " التعاون " أمرًا شائع الحدوث .

الجو العائلى

فى كثير من الأحيان تقع المسئولية على عاتق الوالدين ، لأن الوالدين قد يكونان على درجة غير كافية من المهارة تجعل الأطفال يرغبون فى " التعاون " معهما ، فربما تصرفا بطريقة متكبرة جدا جعلت الجميع غير قادرين على مساعدتهم ، أو لعلهم كانوا غير قادرين على " التعاون " ، ولعله يمكن رؤية ذلك بوضوح فى العائلات التعيسة والزيجات المحطمة فإن روح " التعاون " لا يتاح لها الفرصة للنمو والتطور بصورة طبيعية.

إن الرابطة الأولى التى تنشأ بين الأطفال تكون بينهم وبين الأم وربما تكون هذه الأم غير راغبة فى توسيع اهتمامات أطفالها لتشمل الأب والأطفال الآخرين وغيرهم من البالغين فى المجتمع من حولهم ، أو ربما يكون الطفل نفسه هو السبب فقد يشعر بأنه مركز العائلة والمحور الذى تدور حوله ، وعندما يبلغ الثالثة أو الرابعة من عمره يولد طفل جديد ويشعر الطفل الأول بصدمة فهو لم يعد المحور الذى تدور حوله العائلة ، لقد تم خلعه من على عرشه ، ولهذا يرفض " التعاون " مع أمه أو الطفل الجديد ، إن كل ما سبق عوامل مهمة جدا يجب أخذها فى الاعتبار ، حتى إننى أجرؤ على القول بأننا لو اقتفينا أثر المشاكل التى تعرض لها المجرمون فى قصة حياتهم لوجدنا أنها دائمًا ما تنتهى بنا فى التجارب التى مروا بها خلال الفترات المبكرة

من حياتهم الأسرية ، إن ما أثر عليهم حقيقة ليس البيئة المحيطة فإن الطفل قد أخطأ فى فهم الظروف المحيطة به داخل العائلة ولم يكن هناك من يشرح له حقيقة ما يجرى من حوله .

وتزداد الصعوبات التى يواجهها باقى الأطفال فى العائلة إذا كان أحدهم موهوبًا أو بالغ الذكاء ، فإن مثل هذا الطفل يجذب الأنظار والانتباه نحوه بشدة مما يجعل باقى الأطفال يشعرون بالإحباط وخيبة الأمل وهذا يدفعهم لرفض " التعاون ".

فباقى الأطفال يرغبون فى التنافس ولكنهم لا يملكون القدر الكافى من الثقة بالنفس للاستمرار فى التنافس مع الطفل الموهوب ، وكثيرًا ما تعرض لنا حالات تعرضت لمثل هذا الموقف التعيس ، ولم يكن هناك شخص بجانبهم ليرشدهم إلى طريقة استخدام قدراتهم وتطويرها ليبقوا فى حلبة المنافسة ، ومن بين هؤلاء الأطفال سنجد الكثير منهم يتحولون إلى مجرمين وعصابيين ومنتحرين .

عندما يصل الأطفال - الذين يفتقدون القدرة على " التعاون " - إلى مرحلة دخول المدارس فإنه يمكن أن نرى عجزهم على " التعاون " ظاهرًا بوضوح فى سلوكهم فى اليوم الأول للدراسة ، فإننا نجدهم عاجزين عن خلق الصداقات كارهين لمدرسيهم غير قادرين على التركيز ولا يستمعون إلى دروسهم ، وأكثر من هذا فإنه إذا ما تمت معاملتهم بأى شىء غير الحساسية التامة والتفهم الكامل ، فإنهم قد يعانون من صدمة خاصة عندما يتم توبيخهم أو عقابهم بدلاً من تشجيعهم وتعليمهم " التعاون ".

فلا عجب فى أن الكثير منهم يجدون الدروس بغيضة إلى أنفسهم وأن تظهر عليهم مظاهر عدم الاهتمام بالحياة المدرسية بسبب تعرضهم المستمر للتوبيخ مما يفقدهم ثقتهم بأنفسهم.

وغالبًا ما سنجد فى حياة المجرمين السابقين أنه فى حوالى الثالثة عشرة من عمره كان ضعيفًا فى الفصل ، وتم توبيخه ونقده بعنف لغبائه ، وهو ما تسبب فى تعرض حياته المستقبلة بأكملها للخطر ، أما اهتمامه بالآخرين فإنه يبدأ

فى الاضمحلال بسرعة كما أن تطلعاته تبدأ فى التوجه أكثر وأكثر نحو الجوانب الضارة من الحياة ونحو النشاطات غيرالمرغوب فيها وغير الاجتماعية.

الفقـــر

إن الفقر يجعل من السهل على الطفل أن يتفهم الحياة بطريقة خاطئة ، فإن الأطفال الذين يأتون من بيوت فقيرة يتعرضون لكثير من التمييز والتفرقة الاجتماعية خارج بيوتهم ؛ فإن عائلاتهم تعانى الكثير من الحرمان وتتعرض للكثير من المصائب والمحن والأطفال قد يضطرون للخروج إلى معترك الحياة والعمل مبكراً جدا بغرض مساعدة والديهم ، وفيما بعد يحتكون بأناس أغنياء يعيشون الحياة السهلة ويستطيعون شراء أى شىء يشتهونه ، وعندها يشعر الأطفال الفقراء بالغبن والظلم وعدم عدالة الظروف المحيطة ، وبالطبع فنحن نتعاطف مع مثل هذه المشاعر.

و لعل هذا يفسر ضخامة عدد المجرمين فى المدن الكبيرة حيث تكون الفروق شديدة الوضوح بين دخل الأغنياء الكبير وفقر الفقراء المدقع.

لا يمكن أن يأتى أى شىء حسن من الحقد والحسد ، لكن الأطفال – فى مثل تلك الظروف – يكون من السهل عليهم أن يخطئوا فهم الوضع مما قد يدفع بهم إلى الظن بأن تحقيق " التفوق " يكون عن طريق الحصول على النقود بأى طريقة وبدون العمل لإستحقاقها.

الإعاقات الجسدية Physical Disadvantages

كذلك فإن مشاعر " الدونية " يمكن أن تتركز حول الإعاقة الجسدية ، إن هذا أحد اكتشافاتى الشخصية ، وأنا أشعر بالذنب من أجل هذا ؛ لأنى قد مهدت الطريق لنظريات الوراثة فى كلٍّ من علم الأعصاب وعلم النفس.

ولكن حتى فى البداية عندما كتبت لأول مرة عن " دونية " الأعضاء (الإعاقة الجسدية) والتعويض العقلى فإننى لاحظت هذا الخطر الداهم ، فإنه لا يجوز وضع اللوم على الإعاقة الجسدية ، وإنما يقع اللوم كله على طرقنا فى التعليم ، فلو أننا اتبعنا الطرق الصحيحة لأصبح الأطفال ذوو الإعاقة الجسدية أكثر اهتمامًا بالآخرين وبأنفسهم على حد سواء.

إن الأطفال الذين يحملون عبء الإعاقة الجسدية يصبحون أنانيين فقط عندما لا يجدون أحداً بجانبهم ليساعدهم فى إنماء وتطوير اهتماماتهم بالآخرين.

هناك الكثير من البشر الذين يعانون من اختلال إفرازات الغدد الصماء ، ولكنى أحب أن أوضح أنه لا يمكن الجزم بصفة قاطعة - حتى الآن - بما هو المستوى الطبيعى لإفرازات أى غدة من الغدد الصماء ، إن مستوى أداء غددنا الصماء يتباين بدرجة كبيرة وبدون أن يحدث أى تأثير سَيِّئ على الشخصية ، ولهذا فإنه علينا أن نستبعد هذا العامل خاصة إذا كنا نرغب فى اكتشاف الطريقة الصحيحة لتحويل هؤلاء الأطفال لأعضاء ناجحين فى مجتمعنا وذوى اهتمام أصيل وحقيقى بالآخرين.

الإعاقات الاجتماعية Disadvantages Social

إن نسبة كبيرة جدا من المجرمين تأتى من الملاجئ ، وأنا أعتقد أن حضارتنا متهمة بأنها لم تحاول أن تزرع روح " التعاون " فى هؤلاء الأيتام ، أو أنها على الأقل لم تبذل المجهود الكافى فى ذلك ، بالطريقة نفسها فإن هناك الكثيرين من الأطفال غير الشرعيين الذين لم يجدوا أحداً يحاول اكتساب حبهم واهتماماتهم وتحويل هذا الحب وتلك الاهتمامات إلى باقى البشر ، فإن الأطفال غير المرغوب فيهم كثيراً ما يلجئون إلى الجريمة خاصة إذا أصبحوا على يقين بأنه لا يوجد من يحبهم أو يرغب فيهم .

أيضًا كثيراً ما نجد أن هناك نسبة غير قليلة من بين المجرمين لا تتمتع بأى قدر من الوسامة أو الجاذبية - ولقد استخدمت هذه الحقيقة كدليل ذو مغزى

على أهمية عامل الوراثة – ودعنا نضع أنفسنا للحظات فقط مكان أحد هؤلاء الأطفال الذين لا يتمتعون بالوسامة فإنه فى وضع لا يحسد عليه وقد يكون هذا الطفل نتاجًا للتزاوج بين مجموعتين أو عنصرين غير متوافقين من البشر أو نتاجًا لمجموعة من البشر تتعرض للتمييز العنصرى بالفعل فيخرج هذا الطفل غير الوسيم إلى الحياة بآفة تنخر فى مستقبله اليانع قبل أن يتشكل ، فهو لا يملك هذا الشىء الثمين الذى نملكه ونقدره جميعًا ألا وهو سحر وبراءة الطفولة ، ولكنه على أن أقول مرة أخرى إن كل هؤلاء الأطفال يكون من الممكن جدا تنمية وتطوير شعورهم الاجتماعى إذا ما تعاملنا معهم بالطريقة الصحيحة.

و لعله من الواجب أن أشير فى هذا الصدد إلى أننا أحيانا نجد من بين المجرمين من يتمتع بقدر عظيم من الوسامة والجاذبية ، فما الذى يمكن أن نظنه بهؤلاء ، فإننا إذا اعتبرنا المجرمين الذين لا يتمتعون بأى خصائص جسدية جذابة ضحايا للوراثة وما ينتج عنها من عيوب جسدية كالأيادى المشوهة أو الشفة الأرنبية فكيف لنا إذن أن نفسر وجود المجرم ذى الوسامة والجاذبية ؟ فى الحقيقة هم أيضًا ضحايا للوضع الذى نشأوا فيه فهم قد نشأوا أطفالاً مدللين بطريقة مبالغ فيها مما جعل من الصعب عليهم أن يطوروا اهتماماتهم بالآخرين وبالمجتمع من حولهم.

حلول لمشكلة الجريمة

ما الذى نستطيع فعله ؟ هذه هى المشكلة التى تواجهنا الآن ، فإذا كنت على صواب واستطعنا دائمًا أن نجد ذلك السعى الحثيث لتحقيق " التفوق " الزائف فى حياة كل المجرمين وأنهم لا يتمتعون بالاهتمام الكافى بالآخرين والمجتمع من حولهم ، وإنهم يفتقدون القدرة على " التعاون " ، فإن الإجابة على هذا السؤال هى أننا لم نستطيع أن نفعل أى شىء على وجه الإطلاق إلا إذا نجحنا فى الحصول على تعاونهم ومهما قلت وكررت فإننى لن أستطيع التأكيد على هذه النقطة المهمة بالدرجة الكافية :

فإننا سننجح فقط إذا ما تمكنا من إثارة اهتمام المجرمين بخير ورفاهية الجنس البشرى إذا جعلناهم مهتمين بغيرهم من البشر إذا استطعنا تدريبهم على التعاون " إذا اِستطعنا وضعهم على الطريق السليم لحل مشكلات الحياة باِستخدام " التعاون " أما إذا فشلنا فى القيام بذلك فإننا لم نستطع أن نفعل أى شىء على وجه الإطلاق.

نستطيع الآن أن نرى نقطة البداية فى معالجة المجرمين ، فإنه يجب علينا تدريبهم على "التعاون" فإن حبسهم فى سجون قليل الجدوى كما أن إطلاق سراحهم هو خطر على المجتمع ، وفى ظل الظروف الراهنة لا يمكن التفكير فى هذا فإن المجتمع تجب حمايته من المجرمين أولاً وقبل كل شىء ، وهذا يدعونا إلى التفكير: فإذا كان المجرمين غير مؤهلين للعودة إلى المجتمع والحياة فيه ، فما الذى يمكن القيام به لمد يد المساعدة لهم ؟.

قد أصبح من الواضح الآن أن المهمة ليست سهلة كما تبدو ، فنحن لن نستطيع جذبهم مرة أخرى إلى جانبنا إذا ما جعلنا الأشياء سهلة بالنسبة إليهم ، وحبسهم وجعل حياتهم صعبة ليس هو الحل كما أن مناقشتهم والجدال معهم ومحاولة إقناعهم بخطأ طرقهم السابقة أمر غير مجدٍ أيضًا ؛ لأن نظرتهم للعالم قد تشكلت على مدى سنوات طويلة جدا .

إذا أردنا إحداث أى تغيير حقيقى فيهم فإنه من الواجب علينا أن نحاول إيجاد جذور المشكلة والتعرف على السبب الذى جعلهم يفكرون بهذه الطريقة ، كما أنه يجب علينا اكتشاف المنطقة التى بدأ فيها الفشل والظروف المحيطة التى دفعتهم إلى هذا الفشل.

ونحن نعلم أن الخصائص الأساسية لشخصيتهم قد تشكلت بالفعل عند بلوغهم الرابعة أو الخامسة من العمر ، فى هذا العمر تكون أول أخطائهم فى تقديرهم لذواتهم وفى تقديرهم للناس من حولهم قد تبلورت وسنراها (الأخطاء) بوضوح فى حياتهم الإجرامية فيما بعد.

و هذه الأخطاء الأولى هى ما يجب علينا فهمه بعمق والعمل على تصحيحها ، فإنه من الواجب علينا البحث عن البوادر الأولى لتطور موقفهم من الحياة.

فيما بعد فإن المجرمين يحورون ويحولون كل خبرة يمرون بها إلى تبرير للموقف الذى اتخذوه من الحياة والمجتمع ككل ، وإذا كانت هذه الخبرات لا تبرر أفعالهم فإنهم يقومون بتحريفها وصبها فى قالب مغاير حتى تلائم أهدافهم الزائفة ، فلو كان موقف أحدهم من الحياة هو :

" إن الآخرين يسيئون معاملتى ويوجهون لى الإهانات بلا داع ".

فإنه سيجد الكثير من الأدلة التى تؤيد وجهة نظره السابقة ؛ لأنه سيبحث عن كل ما يثبت صحة ادعائه السابق وسيتجاهل وجود كل ما يتناقض مع هذا الادعاء ، فالمجرم يركز كل اهتماماته على نفسه - فقط - وعلى إثبات صحة وجهة نظره هو فقط لا غير، فإن له طريقته الخاصة فى النظر إلى الأشياء وفى الاستماع لما يقال وهو كثيراً ما يتجاهل الأشياء التى لا تتفق مع فهمه الخاص للحياة ، ولهذا فإننا نفشل فى محاولاتنا لإقناعه ، وعلينا أن نتمكن من فهم جذور المشكلة والمنبع الذى أتى منه فهمه الخاطئ للحياة ودفاعاته المستمرة عن وجهة نظره الخاطئة ، وأن نكتشف متى تبلور موقفه الحالى من الحياة لأول مرة.

عدم فاعلية العقاب الجسدى

إن العقاب الجسدى غير فعال ، لأنه يؤكد وجهة نظر المجرم فى أن المجتمع معاد له لأنه لا مجال لـ" التعاون " بينهما ، وربما تكون الخبرة الأولى للمجرم هى تعرضه لعقاب جسدى ربما فى المدرسة فحيث إنه كان غير مدرب على " التعاون " فربما أساء التصرف فى أحد الفصول أو لم يقم بأداء واجبه المنزلى على الوجه الأكمل وعندها تم توبيخه وعقابه ، إن مثل هذا العقاب لن يشجعه على " التعاون " بالطبع ، بل إنه سيشعر بأن الموقف قد ازداد سوءاً وأن الناس ضده ، وهذا سيجعله يكره

المدرسة ، فإن أى شخص يتعرض للتوبيخ والعقاب سيكره المكان الذى تقع فيه مثل هذه الأحداث.

إن الطفل سرعان ما يفقد القليل من الثقة بالنفس الذى يملكه ، كما أنه يفقد اهتمامه بالمدرسة وبالعمل المدرسي وبمدرسيه وبزملائه فى المدرسة ، ثم يبدأ فى التهرب (التزويغ) ويذهب إلى أماكن لا يستطيع أحد أن يجده فيها وفى مثل تلك الأماكن يجد أمثاله من الأطفال الذين مروا بخبرة مشابهة لخبرته.

و أمثال هؤلاء الأطفال يتفهمون وضعه حق الفهم ولا يخونه ، بل على العكس فإنهم يمدحونه ويمجدون ما قام به ثم يبدءون اللعب على وتر طموحاته بأن يعطوه الأمل فى تحقيق هدفه الزائف فى " التفوق " من خلال سلوك الطريق المعادى للمجتمع وحيث إن الطفل غير مهتم بالمتطلبات الاجتماعية للحياة فإنه يراهم على أنهم أصدقاؤه ويرى المجتمع ومن فيه على أنه العدو ، فهو يشعر بأنهم مثله وهو يشعر بأنه أحسن وأفضل فى صحبتهم ، وهذه هى الطريقة التى يتحول بها الآلاف من الأطفال إلى حياة الإجرام والانضمام إلى العصابات ، وهكذا فإننا إذا ما عاملنا هذا الطفل فى المستقبل بالطريقة نفسها (العقاب الجسدى) فإن هذا سيثبت له صحة وجهة نظره فى أن المجتمع هو العدو وأن المجرمين هم أصدقاؤه .

إنه لا يوجد أى سبب على وجه الإطلاق يجعل من المحتم على أمثال هذا الطفل أن يهزم فى مواجهة مشكلات الحياة (المهام الثلاث) ، فإنه من الواجب علينا أن لا نسمح له بأن يفقد الأمل وهذه مهمة سهلة ؛ فكل ما علينا فعله هو تنظيم المدارس والمدرسين بحيث يُعطَى أمثال هذا الطفل ثقة كافية بالنفس وقدراً ملائمًا من الشجاعة ، وسوف نتعامل بصورة تفصيلية مع هذه النقطة فيما بعد، لكننا استخدمنا هذا المثال الآن لنظهر كيف يتفهم المجرم العقاب كعلامة على أن المجتمع ضده ، فهو كمن يقول :

" ... هذا ما كنت أظنه دائمًا ".

إن العقاب الجسدى غير فعال لأسباب أخرى أيضاً فالكثير من المجرمين لا يهتمون بحياتهم ولا يعلقون الكثير من القيمة عليها ، بل إننى أجرؤ على القول بأن بعضهم يكون أقرب ما يمكن إلى الانتحار فى لحظات معينة من حياته ، والعقاب الجسدى - بما فيه الإعدام - لا يخيفهم كثيراً ، فإن فكرة التغلب و" التفوق " على الشرطة تسيطر عليهم لدرجة أنهم لا يشعرون حتى بالألم فهذا جزء من رد فعلهم لما يعتبرونه تحديا ٠

وبالمثل فعندما تتم معاملتهم بقسوة فى السجون أو توجيه الإهانات لهم فإن هذا يجعلهم أكثر جلداً واستعداداً للمقاومة ، كما أنه يزيد شعورهم بأنهم أكثر مهارة من الشرطة ٠

كما رأينا من قبل فإنهم يتفهمون كل شىء بطريقتهم الخاصة ، فهم يرون صلتهم بالمجتمع على أنها حرب مستمرة ؛ يدور فيها الصراع لإثبات من هو الأكثر تفوقاً ، وإذا اعتبرنا نحن (المجتمع) الصلة بيننا وبينهم (المجرمين) على أنها حرب فإننا نكون قد خضعنا لوجهة نظرهم وطريقتهم الخاصة فى فهم الأشياء ، فحتى الكرسى الكهربائى يمكن اعتباره على أنه تحد ، والمجرمون يتصورون أنفسهم فى معركة غير متعادلة ، وكلما زادت العقوبة كلما زادت رغبتهم فى إظهار "تفوق" دهاءهم ، وهذا يجعلنا نتفهم بصورة أفضل لماذا يظن المجرمون أن جرائمهم ليست إلا معركة فى الدهاء ولإثبات " التفوق " ، إن المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام كثيراً ما يقضون ساعاتهم الأخيرة مفكرين فى شىء واحد كيف كان من الممكن لهم تجنب انكشاف أمرهم فهم كمن يقول :

" إذا كنت فقط قد تمكنت من إخفاء الآثار التى تركتها خلفى فى مسرح الجريمة لما حدث شىء من كل هذا "٠

فإن ندمهم يكون على عدم كفاية حرصهم وقلة دهائهم فى ارتكاب الجريمة وليس ندماً على الضحية أو من قاموا بإيذائهم من المجتمع٠

التدريب على التعاون

لقد سبق وقلنا من قبل إنه لا داعى على الإطلاق لأن نسمح بوقوع ما يحدث لبعض الأطفال عندما يفقدون الأمل ويعانون من الإحباط وذلك الشعور العميق بأنهم أقل من الناس جميعًا وأنه من غير المجدى لهم أن يستمروا فى " التعاون " مع المجتمع للتغلب على مشكلات الحياة (المهام الثلاث) ، فإن المجرمين قد اختاروا الطريق الخاطئ فى التعامل مع مشكلات الحياة ، ومن الواجب علينا أن نظهر لهم خطأ اختياراتهم ولماذا كانت هذه الاختيارات خاطئة ؟ كما أنه من الواجب علينا أن نساعدهم على تطوير وتنمية شجاعتهم حتى يصبحوا مهتمين بالآخرين وبـ "التعاون" معهم.

إذا ما تم هذا فإن المجرمين سيفقدون معظم وأحسن التبريرات التى كانوا يسوقونها للدفاع عن أنفسهم وفى المستقبل لن يوجد طفل واحد سيختار أن يدرب نفسه على حياة الجريمة ، وفى كل قضايا المجرمين التى فحصتها وجدت تأثير أسلوب الحياة الخاطئ ظاهرًا بوضوح كفلسفة تظهر عجز المجرم على " التعاون ".

على أن أؤكد مرة أخرى أن هذه القدرة على " التعاون " يجب تدريسها وتعليمها لا مجال للتساؤل هنا عن ما إذا كانت القدرة على " التعاون " هى شئ يمكن توريثه ، فهناك احتمالات كامنة ترجح وجود "التعاون" وهذه الاحتمالات يجب النظر إليها على أنها موجودة منذ لحظة الميلاد (مورثة) ولكنها شائعة الوجود فى كل البشر ولتنميتها وتطويرها (القدرة على التعاون) يجب تدريبهم وتمرينهم عليها.

إن كل وجهات النظر الأخرى عن الجريمة تبدو لى عديمة الصلة إلا إذا استطاعوا تقديم الأدلة على وجود أشخاص تم تدريبهم على " التعاون " ولكنهم ظلوا متمسكين بأن يصبحوا مجرمين على الرغم من ذلك ، أنا لم أقابل فى حياتى كلها أمثال هؤلاء الأشخاص كما أننى لم أسمع عن وجود من التقى بهم.

فإن الحماية من التأثيرات السيئة للجريمة يكون عن طريق الوصول إلى درجة مناسبة من " التعاون " ، وإذا لم نعترف بذلك فلا ينبغى علينا أبدًا أن نأمل فى تجنب مآسى الجريمة.

إن قيمة " التعاون " يمكن تدريسها بالطريقة نفسها التى ندرس بها علم الجغرفيا وهذا لأنها حقيقة ولن تكون هناك أى مشكلة فى تدريس الحقائق ، إذا حاولنا إجراء اختبار للأطفال أو البالغين فى علم الجغرافيا ولم يكونوا على استعداد فإنهم سيفشلون (سيرسبون) والشَّىْءُ نفسه يحدث عندما يواجهون مواقف تتطلبْ معرفة بعلوم "التعاون" وهم على غير استعداد فإنهم سيفشلون أيضًا ، إن كل مشاكلنا تتطلب معرفة بعلوم " التعاون ".

لقد وصلنا إلى نهاية بحثنا العلمى فى مشكلة الجريمة ، ويجب علينا الآن أن نتمتع بقدر كاف من الشجاعة لمواجهة الحقائق ، فبعد آلاف مؤلفة من السنين فإن الجنس البشرى لم يجد بعد الطريقة الصحيحة للتعامل مع مشكلة الجريمة ، فكل الطرق التى استخدمت من قبل تبدو عديمة الجدوى ونتائج هذه الكارثة مازالت باقية معنا إلى الآن ، وأبحاثنا العلمية تخبرنا بالسبب ، فلم يحاول أحد أن يتخذ الخطوات الصحيحة لتغيير أسلوب الحياة Life style الإجرامى ولمنع تطور المواقف الخاطئة من الحياة ، وباختصار لا توجد طريقة فعالة حتى الآن ، لكننا نعرف ما يجب علينا فعله ، فإنه من الواجب علينا تدريب المجرمين على " التعاون ".

نحن نملك المعرفة والآن نحن نملك الخبرة أيضًا ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن علم النفس الفردى قادر على تعريفنا بطريقة التعامل مع كل مجرم وإصلاحه ، لكنها ستكون مهمة هائلة : أن نأخذ كل مجرم على حدة ونعالجه بطريقة خاصة بحيث ننجح فى تحويل وتغيير أسلوب حياته.

فى حضارتنا الحالية فإن معظم الناس تنفذ قدراتهم على " التعاون " لو أن الصعوبات التى تواجههم زادت – فى شدتها – عن درجة معينة ، وقد وجدنا أنه خلال الأوقات الاقتصادية الصعبة يتزايد عدد المجرمين بطريقة ملحوظة ، ولهذا إذا أردنا التخلص التام من مشكلة الجريمة بهذه الطريقة فإنه علينا أن نقوم بمعالجة معظم البشر أو – على أقل تقدير – نسبة ضخمة منهم ، ولن يكون من العملى أن نضع هدفًا مثل هذا نصب أعيننا وأن نحول كل مجرم إلى عضو نافع فى المجتمع.

بعض المقاييس العملية

إن هناك الكثير الذى يمكن فعله ، فإذا لم نتمكن من تحويل كل مجرم إلى عضو نافع فى المجتمع فإنه يمكننا - على الأقل - أن نقوم بما يخفف العبء عن هؤلاء الذين لا يتمتعون بالقدر الكافى من القوة لمواجهة الصعوبات المتزايدة الشدة.

فمثلاً بالنسبة إلى مشكلة البطالة ونقص وجود مهارات وظيفية فإنه من الواجب علينا أن نجعل من السهل على كل شخص راغب فى العمل الحصول عليه ، فإن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها الإيفاء بمتطلبات الحياة فى مجتمعنا ، وبحيث يتمكن البشر من الاستمرار دون أن يفقدوا قدرتهم على " التعاون ".

لو تم هذا، فإنه لا شك لدى فى أن عدد المجرمين سينخفض ، ورغم أنى لا أعرف ما إذا كان الوقت مناسبًا الآن لإجراء مثل هذه التحسينات - خاصة فى ظل الوضع الاقتصادى الراهن - فإننى متأكد من ضرورة العمل بجدية على تنفيذها فى أقرب وقت .

كما أنه يجب علينا تدريب الأطفال بصورة أحسن لتحقيق مستقبل وظيفى أفضل وهذا سيجعلهم يواجهون المستقبل وهم أكثر استعداداً له ؛ لأنهم سيملكون اختيارات أكثر من بين الوظائف المعروضة عليهم ، إن مثل هذا التدريب يمكن إعطاؤه لنزلاء السجون أيضًا وأنا على علم بأن خطوات قد اتخذت بالفعل فى هذا الاتجاه ولكنى أعتقد أنه يمكن زيادة تلك المجهودات المبذولة ومضاعفتها ، أنا أعلم أنه من غير الممكن إعطاء كل مجرم على حدة العلاج المناسب له ، ولكن حتى تدريبهم وعلاجهم جماعيا سوف يفيدهم كثيراً ، كما أننى اقترح عقد مجموعات للمناقشة فى المشكلات الاجتماعية تضم بعض المجرمين وأن نحاول الاستفادة من وجودهم فى الحصول على إجابات لمشاكلنا المشتركة.

فإنه من الواجب علينا أن نوقظ عقولهم النائمة من سباتها الطويل يجب علينا أن نحررهم من التأثيرات السامة لفهمهم الخاص (الخاطئ) لمعنى الحياة والعالم

من حولهم ، كما أنه من الواجب علينا أن نحررهم من ضعف إيمانهم وثقتهم بقدراتهم الكامنة .

يجب أن نعلمهم ألا يَحدوا أنفسهم بحدود من أى نوع أن نهدئ مخاوفهم من المواقف والمشاكل الاجتماعية التى يجب عليهم مواجهتها ، وأنا على يقين من إمكانية الحصول على نتائج عظيمة من مثل هذه الطريقة فى العلاج.

كما أن على المجتمع أن يتجنب كل ما يعتبر إغراء وغواية للمجرمين أو الفقراء والمحرومين من البشر ، فلو أن هناك تناقضًا واضحًا ومَرئيا بين مستويات الدخل الاقتصادية فى مجتمع ما ، فإن هذا لابد من أن يضايق الذين لا يملكون شيئًا من حطام الدنيا ويدفعهم للحسد والغيرة ؛ لهذا فإنه علينا القضاء على التفاخر بالجواهر والملبس وغيرها فإنه من غير الضرورى أبدًا - بل إنه من المرفوض- أن يُظهر المرء ثراءه بتلك الصورة الفظة.

لقد تعلمنا خلال علاجنا للأطفال المعاقين والمنحرفين أنه من غير المجدى على الإطلاق تحديهم واختبار قوتهم ، لأن هذا يجعلهم يظنون أنهم فى حرب مع البيئة المحيطة بهم وما ينتج عن هذا من مواقف سلبية ، الشىء نفسه يحدث مع المجرمين ففى جميع أنحاء العالم نستطيع أن نرى كيف تقوم الشرطة والقضاة وحتى القوانين بتحدى المجرمين ، وهذا التحدى المستمر يُخرج أسوأ ما فيهم ، فإن المجرم يجب ألا يهدد أبدًا ويكون من الأحسن لو كنا متحفظين وكتومين معهم بحيث لا نذكر أسماءهم ولا نشهر بهم ، إن موقفنا من الجريمة هو موقف خاطئ ، فإنه من الخطأ الاعتقاد بأن أيا من التشدد أو التساهل يستطيع تغيير المجرمين.

إن المجرمين يكون من الممكن تغييرهم فقط لو تمكنوا من فهم حقيقة موقفهم بطريقة أفضل.

من الواجب علينا - بالطبع - أن نحتفظ بإنسانيتنا فيجب ألا نتصور أن المجرمين سيصابون بالهلع والخوف إذا ما لوحنا لهم بعقوبة الإعدام ، فكما رأينا من قبلُ

فإن عقوبة الإعدام تضيف عامل الإثارة إلى لعبة التحدى ، وحتى عندما يصل المجرم إلى مرحلة تنفيذ الإعدام فإن كل ما يفكر فيه هو تلك الأخطاء التى ارتكبها وأدت إلى القبض عليه.

سيكون من المفيد أيضًا تحسين قدراتنا على حل الجرائم التى ترتكب والعمل على زيادة العدد الذى يتم حله منها ، فعلى حد علمى فإن ٤٠ ٪ على الأقل من المجرمين لا يتم الكشف عنهم أبداً ، وهذه الحقيقة هى كل ما يدور فى عقل المجرم ، وكل المجرمين مروا بمثل تلك الخبرة عندما ارتكبوا جريمة ولم يتم كشف أمرهم ، ورغم التقدم الذى تم إحرازه فى هذا الخصوص فإنه ليس بالقدر الكافى.

إنه من الأهمية بمكان أن لا تتم إهانة المجرمين أو تحديهم فى السجن أو بعد فترة سجنهم كما أن زيادة عدد ضباط إطلاق السراح المشروط officers probation أمر مفيد جدا خاصة لو تم اختيارهم بدقة وطبقًا لشروط مشددة ، فأمثال هؤلاء الضباط يجب تدريبهم بطريقة مكثفة ، وتعليمهم كل شىء عن مشكلات المجتمع وعن أهمية "التعاون".

طريق الوقاية A Preventive Approach

إننا نستطيع أن ننجز الكثير لو أن تلك الاقتراحات طُبقت ولكن كل ما سبق لن يستطيع تخفيض عدد الجرائم بالقدر المرغوب فيه ، لحسن الحظ فإننا نملك وسائل أخرى عديدة ومتاحة وهى وسائل عملية جدا وناجحة أيضًا ، فإننا لو تمكنا من تدريب أطفالنا حتى يصلوا إلى درجة مناسبة وسليمة من " التعاون " وإذا ما تمكنا من تطوير وتنمية اهتماماتهم الاجتماعية فإن عدد المجرمين سينخفض بدرجة ملحوظة ، وستظهر تأثيرات ذلك فى المستقبل القريب ، فأولئك الأطفال الذين أنقذناهم من الوقوع فى حبائل الجريمة مهما تعرضوا لمتاعب أو صعوبات فإن اهتمامهم بالآخرين لن يمكن تدميره بالكامل وقدراتهم على " التعاون " واجتياز مشاكل الحياة ستكون متطورة جدا وأكثر من جيلنا الحالى.

إن معظم المجرمين يبدءون حياتهم الإجرامية مبكرًا جدا - غالبًا ما يحدث هذا خلال فترة المراهقة - وغالبًا ما تكون جرائمهم متكررة أكثر فيما بين العمر ١٥ إلى ٢٨ سنة ، ولهذا فإننا إذا ما نجحنا فإننا سنشاهد نتائج هذا النجاح بسرعة أكثر من هذا أنا متأكد أننا إذا ما علمنا الأطفال بالطريقة الصحيحة فإن هذا سيؤثر بطريقة إيجابية على حياتهم المنزلية بأكملها ، فإن الأطفال المستقلين الذين يتطلعون إلى المستقبل بشوق والذين يتميزون بالتفاؤل والذين تم تدريبهم وتعليمهم بطريقة جيدة سيكونون خير مصدر لعون وراحة آبائهم ، إن روح " التعاون " سوف تنتشر فى جميع أنحاء العالم وسيشهد البشر تطورًا اجتماعيا يصل بهم إلى أعلى الدرجات ، وفى الوقت نفسه الذى نهتم فيه بالتأثير على الأطفال يجب ألا ننسى محاولة التأثير على الوالدين والمعلمين.

إن السؤال الوحيد الباقى هو : كيف نختار أفضل النقاط لمهاجمة هذه المشكلة ؟ ، وما أفضل الطرق لتعليم الأطفال كيفية مواجهة مهام الحياة والمشكلات التى ستواجههم فيما بعد.

ربما نستطيع تدريب كل الآباء والأمهات لكنى لا أعتقد أنها فكرة جيدة فإن الوصول إلى الآباء والأمهات مشكلة صعبة ، وأولئك الذين يحتاجون إلى التدريب أكثر من غيرهم هم بالذات الأكثر صعوبة فى الوصول إليهم ، ولهذا يجب علينا البحث عن طرق أخرى فربما استطعنا جمع كل الأطفال وحبسهم فى مكان ما ومراقبتهم والإشراف عليهم طوال الوقت ، ولكن هذا ليس بطريقة أفضل من الطريقة السابقة.

إن هناك طريقة عملية وممكنة التطبيق وتعد بالوصول إلى حلول حقيقية ، فإننا يمكن أن نستخدم المدرسين كأدوات لتحقيق التقدم الاجتماعى ، فيمكننا تدريبهم على تصحيح الأخطاء التى يتم ارتكابها فى العائلة كما أنه يمكننا تدريبهم على تطوير اهتمامات الأطفال الاجتماعية وجعلها (الاهتمامات) تمتد نحو الآخرين وتشملهم.

إن هذا هو التطور الطبيعى لدور المدرسة ؛ لأن العائلة لن تستطيع تعليم الأطفال وتدريبهم على كل المهام التى يتوقع منهم مواجهتها فى المستقبل ، والبشر قد أسسوا

المدارس على أنها امتداد لذراع العائلة الذى يرعى ويعلم أفرادها ، فلماذا لا نستخدم المدرسة لزيادة اهتمامات البشر الاجتماعية ولزيادة " التعاون " بينهم وزيادة اهتمامهم فى رفاهية البشر ككل ؟.

سوف نرى أن أنشطتنا يجب أن تكون مؤسسة على الأفكار التالية وسأقوم بوصف هذه الأفكار باختصار شديد ، إن كل المزايا التى نتمتع بها فى حضارتنا الحالية أصبحت ممكنة من خلال الأفراد الذين ساهموا فى الماضى فى رفاهية المجتمع ، لو كان هؤلاء الأفراد غير متعاونين ولا يهتمون بالآخرين ولم يضعوا مساهماتهم موضع استفادة الجميع لكانت حياتهم بلا جدوى ولاختَفْوا من على وجه الأرض دون أن يتركوا أثرًا ولبقى فقط عمل الذين ساهموا فى رفاهية المجتمع فإن أرواحهم تبقى خالدة إلى الأبد ، فلو جعلنا مما سبق أساسًا لتعليم أطفالنا فإنهم سينشئون وقد نمى بداخلهم حب "التعاون" وحب العمل التعاونى ، وعندما تواجههم الصعوبات فإنهم لن يضعفوا ، بل سيظهر معدنهم الحقيقى القوى الذى سيتغلب على أكثر المشكلات صعوبة ويحلها بطريقة تسمح للآخرين بأن يستفيدوا من نتائج هذا الحل.

الفصل العاشر

مشكلة العمل

خلق التوازن بين المهام الثلاث فى الحياة

إن القيود الثلاثة التى تربط البشر تمثل المشكلات الثلاث الأساسية فى الحياة ، ولا يمكن حل أى من هذه المشاكل بطريقة مستقلة فكل واحدة منها تتطلب فهمًا سليمًا وناجحًا للمشاكل الأخرى لكى يمكن التعامل معها بفاعلية.

القيد الأول : هو أننا نعيش على سطح كوكب الأرض بما فيه من موارد وخصوبة أرضه وثروته المعدنية ومناخه وجوه المحيط به إلخ ، وكانت مهمة البشر دائمًا هى محاولة الحصول على الإجابة الصحيحة للمشكلات التى تمثلها حالة هذا الكوكب وحتى اليوم فإننا لا نستطيع أن نقول إننا قد وجدنا الإجابة الشافية ، وفى كل فترة زمنية نجح الإنسان فى حل تلك المشكلات نجاحًا محدوداً ، مما ترك المجال مفتوحًا للتحسينات.

إن أحسن الوسائل لحل المشكلة الأولى (مشكلة العمل) يأتى من الحل الخاص بالمشكلة الثانية (مشكلة المجتمع) ، فإن الرابطة الثانية التى تربطنا هى كوننا جميعًا ننتمى إلى الجنس البشرى ، وضرورة أن نتعايش معًا فى نوع من الزمالة مع الآخرين.

إن موقفنا وسلوكنا سيختلف تماما لو أننا كنا نعيش وحدنا فوق سطح الأرض ، ولكننا نعلم أنه من الواجب علينا أن نأخذ الآخرين فى الاعتبار ، ونلائم بين أنفسنا

وبينهم وأن نزيد اهتمامنا بهم ، والحل الأمثل لهذه المشكلة هو الصداقة والاهتمام الاجتماعى والتعاون ، وعندما نحل هذه المشكلة الثانية ، فإننا نكون قد اتخذنا خطوات عملاقة فى اتجاه حل المشكلة الأولى.

إن تعلم الجنس البشرى لـ " التعاون " هو الذى مكنهم من اكتشاف " تقسيم العمل " Division of labour، وكان هذا الاكتشاف هو الحارس الحقيقى والضامن لرفاهية ورخاء البشر ؛ لأن الحفاظ على الحياة البشرية يصبح مستحيلاً لو أن كل فرد من الأفراد حاول أن يحصل على كل ما يحتاجه بنفسه وبدون اللجوء للتعاون.

إن تقسيم العمل هو الذى مكننا من أن نستفيد من جميع أنواع القدرات المتوافرة على التدريب وأن ننظمها بحيث يمكن لكل واحدة منها أن تسهم فى رخاء الجميع وأن تشعر بالأمان ، كما أن هذا يزيد الفرص المتاحة لكل أفراد المجتمع ، وبالرغم من أنه لا يمكننا الادعاء بأننا قد أنجزنا كل ما يمكن إنجازه ، ولكن " تقسيم العمل " Division of labour لم يبلغ بعد قمة نموه وتطوره.

ولكن كل محاولة لحل مشكلة العمل يجب أن تحدث فى هذا الإطار من التقسيم وبجهود مشتركة من أجل المساهمة فى تحقيق الصالح العام.

إن بعض الناس يحاول تجنب مشكلة العمل ، عن طريق أن يشغل الواحد منهم نفسه بأمور تبتعد كثيراً عن المجالات المعتادة للاهتمام البشرى ، ولكننا سنجد دائماً أنه عندما يتجنب أحدهم المشكلة فإنه يكون فى الواقع مطالبًا بأن يتولى إعالته باقى رفاقه ، بطريقة أو بأخرى سيكون مثل هذا الفرد متطفلاً على الآخرين وبدون أن يقدم أى مساهمة من ناحيته ، إن هذا هو أسلوب حياة الطفل الذى تعرض لكثير من التدليل ؛ فعندما تواجهه مشكلة فإنه يطالب بأن يحلها الآخرون ودون بذل أى مجهود من ناحيته ، كما أن أمثال هذا الفرد يعتبرون السبب الرئيسى الذى يعوق التعاون الناجح بين أفراد الجنس البشرى لأنهم يمثلون عبئًا ثقيلاً على أكتاف كل من يحاول حل مشكلات الحياة.

القيد الثالث هو أنه لا يمكننا أن نكون إلا رجلاً أو امرأة ، ودورنا فى استمرارية الجنس البشرى يعتمد على طريقتنا فى التعامل مع الجنس الآخر وعلى الطريقة التى نؤدى بها دورنا الجنسى ، لا شك أن العلاقة بين الجنسين تمثل مشكلة ومثل باقى مشاكل الحياة فإنه لا يمكن حلها بمعزل عن غيرها من المشاكل ، إن الحل الناجح لمشكلة الحب والزواج يحتاج إلى الحصول على عمل (وظيفة) يساهم فى تحقيق الصالح العام ، كما أن هذا الحل يحتاج أيضا إلى علاقات قوية ووطيدة بالآخرين ولقد رأينا ذلك من قبل ، وكذلك فإن على هذا الحل أن يستجيب لمتطلبات المجتمع وتقسيم العمل وهذا الحل هو " الزواج الأحادى " **Monogamy** .

إن قدرة الفرد على التعاون تصبح واضحة – بطريقة خاصة – فى أسلوب معالجته لمشكلة الحب والزواج.

إن هذه المشاكل الثلاث لا تحدث منفصلة أبداً ، فإنها جميعًا تلقى بظلالها على بعضها البعض ، وحل أحدها يساعد على حل المشكلتين الأخريين ، وفى الحقيقة يمكن القول إنهم ليسوا إلا ثلاثة مظاهر للمشكلة نفسها أو ثلاثة وجوه لموقف واحد ألا وهو ضرورة عمل البشر على الحفاظ على النوع واستمراره فى البيئة التى تواجد فيها.

إن وظيفة الشخص يمكن استغلالها أحيانًا كعذر لتجنب حل مشكلتى العلاقات الاجتماعية والزواج ، فكثيراً ما يحدث أن يبالغ الشخص فى انغماسه فى العمل ، وفى أحيانٍ أخرى تستخدم كعذر لفشل الحياة الزوجية ، عندما ينغمس أحد الزوجين بطريقة مبالغ فيها فى أعماله ويفكر فى نفسه قائلاً :

" أنا لا أملك وقتى وليس عندى أى وقت لزوجتى ، ولهذا فأنا غير مسئول عن تعاستنا ".

ويكون مثل هذا الموقف شائعًا خاصة بين العصابيين من البشر ؛ فهم يحاولون تجنب مشكلتى العلاقات الاجتماعية والزواج ، فلا يحاولون التقرب من الجنس الآخر كما أنهم لا يحاولون الاهتمام بغيرهم من البشر ، لكنهم يشغلون أنفسهم ليل نهار

بعملهم ، ويفكرون فى هذا العمل طوال اليوم ويحلمون به طوال الليل ، فهم يحاولون الوصول بأنفسهم

وتظهر هذه الأعراض مثل متاعب المعدة أو حرقان القلب أو غيرها ، وهذا يجعلهم يشعرون بأن مثل تلك المتاعب السابقة تعتبر عذرًا كافيًا لتجنب مواجهة مشكلتى العلاقات الاجتماعية والزواج ، فى حالات أخرى يحاول الفرد تغيير مجال عمله باستمرار وأيا كان موقعهم الحالى ، فإنهم يتطلعون إلى وظيفة أخرى تكون أكثر مناسبة لهم ، أما الحقيقة فهى : إنهم لا يستطيعون الالتصاق بالوظيفة نفسها مدة طويلة، بل يجدون من الواجب عليهم الاستمرار فى حالة التنقل هذه.

التدريب المبكر

تأثيرات المنزل والمدرسة

إن الأم هى التأثير الأول والرئيسى فى نمو وتطور حياة طفلها الوظيفية ، فإن الجهود المبذولة فى تدريبه خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى لها تأثير حاسم على نطاق نشاطات الطفل الأساسية عندما يصل إلى مرحلة البلوغ ، لو حدث وطُلِبَ منى النصح والإرشاد فى المجال الوظيفى ، فإن أول ما أسأل عنه دائمًا هو : السنوات الأولى من حياة الفرد وما الذى كان يثير اهتمامه خلالها ، فإن ذكرياته الخاصة بهذه الفترة تكشف بوضوح وبطريقة حاسمة عن الوظيفة التى درب نفسه عليها باستمرار ، فهى تكشف مثله العليا وكيف تلاءمت هذه المثل مع عالمه العقلى ، وسأعاود دراسة أهمية الذكريات الأولى فيما بعد.

إن الخطوة التالية فى تدريب الفرد تتم بواسطة المدارس ، وأنا أعتقد أن مدارسنا تعطى الآن اهتمامًا أكبر لمستقبل التلاميذ الوظيفى ولتدريبهم العملى (اليدوى) الذى يركز على استخدام الأذن والعين واستخدام الحواس والعقل ، فإن هذا التدريب مهم جدا ، إن لم يكن أهم من تعليمهم المواد العلمية الأكاديمية.

ويجب ألا يفوتنا أن تدريس المواد الأكاديمية هو أمر مهم أيضاً لتطوير مستقبل الطفل الوظيفى ، وكثيراً ما نسمع الناس يقولون :

" لقد نسيت تماماً كيفية استخدام اللغة اللاتينية والفرنسية التى تعلمتها فى المدرسة".

ولكن هذا لا ينفى ضرورة تعلم مثل هذه المواد ، فلقد وجدنا من خبراتنا السابقة أن دراسة مثل هذه المواد – فى الماضى – هو أحسن طريقة لتدريب كل وظائف العقل المختلفة ، إن بعض المدارس الحديثة تركز على الأعمال اليدوية وهم بهذه الطريقة يوسعون من خبرات الأطفال ويزيدون من ثقتهم بأنفسهم.

تصحيح الأخطاء المحتملة الوقوع

إن هناك الكثير من البشر الذين يستطيعون اختيار أى وظيفة ، ورغم هذا فإنهم غير راضين أو مقتنعين بحالهم ، فإن ما يريدونه ويرغبون فيه حقيقة هو : طريقة سهلة ومضمونة لتحقيق " التفوق " ، فهم لا يريدون مواجهة مشكلات الحياة ففى اعتقادهم أن الحياة تكون ظالمة إذا ما طلبت منهم مواجهة أى مشكلات على وجه الإطلاق ، إنهم أولئك الأطفال المدللون الذين لا تكتمل سعادتهم إلا إذا تولى الآخرون إعالتهم.

هناك مجموعة أخرى من الأطفال تكره أن تكون فى موضع القيادة ، فأكثر ما يهتمون به هو إيجاد قائد يتطلعون إليه مثل طفل آخر أو أحد البالغين الذى يُمَكنهم ويسمح لهم بأن يتبعوه ، إن مثل هذا التطور غير حميد ومكروه ويكون من الأفضل لو عَملنا على عدم تشجيع مثل هذه الميول الاستسلامية ؛ لأننا إذا لم نتمكن من وقفها فى مرحلة الطفولة ، فإن أمثال هؤلاء الأطفال سيصبحون غير قادرين على تحمل تبعات دور قيادى فى المستقبل وسيختارون وظائف تجعلهم تابعين مدى الحياة حيث يكون عملهم دائماً روتينيا وكل ما يطلب منهم عمله يكون محكوماً بالقواعد والإجراءات والقوانين.

إن الميل لتجنب العمل ولأن يكون الفرد شارد الذهن أو كسولاً تبدأ مبكرًا فى حياة الفرد عندما نرى مثل هؤلاء الأطفال يسلكون مثل ذلك الطريق الخاطئ ، فإنه يكون من الواجب علينا اكتشاف الأسباب - بطريقة علمية - التى أدت بهم إلى ذلك وأن نحاول تصحيحهم بالوسائل العلمية.

إذا كنا نعيش على سطح كوكب يمدنا بكل ما نحتاجه دون الحاجة إلى العمل أو بذل أى مجهود فلربما أصبحت صفة مثل الكسل من الصفات المحمودة ، ويكون الشخص الذى لا ينتج أصلح الأشخاص ، ولكن العلاقة بيننا وبين كوكب الأرض مختلفة تمامًا عن ذلك ، فإن هذا الكوكب لن يسمح لنا أن نستمر فى الحياة إلا إذا عملنا وأنتجنا على الدوام ، ولهذا فإن الإجابة التى تتفق مع المنطق هى أنه من الواجب علينا أن نعمل وأن نتعاون وأن نساهم ، ولقد شعر البشر بهذه الحقيقة غريزيا وها نحن الآن نرى ضرورة تطبيق هذه الحقيقة من الجانب العلمى أيضًا.

الميول والطموحات الأولى

إن التدريب الذى يتلقَّاه الطفل فى المراحل المبكرة من حياته يظهر بوضوح فى العباقرة ، وأنا أعتقد أن وجود العبقرى يستطيع أن يلقى الضوء على المسألة بأكملها ، فمن بين كل العباقرة فإن العبقرى الذى ساهم كثيرًا فى تحقيق الصالح العام هو الذى يستحق ذلك اللقب ، فأنا لا أتخيل وجود عباقرة لم يتركوا أشياء أفادت البشر من خلفهم ، فالفنون هى إنتاج أكثر الناس تعاونًا بين البشر ، والعباقرة العظام رفعوا مستوى حضارتنا ، فهومير Homer مثلاً قد ذكر فى أشعاره ثلاثة ألوان فقط وكان على هذه الألوان الثلاثة أن تفى فى التعبير عن باقى الألوان وكل أنواع الظلال ودرجاتها المختلفة ، فمن الذى علمنا أن نقدر العلاقات الموجودة بين الألوان المحيطة بنا الآن ؟ يجب أن نعترف أنها أعمال الفنانين والرسامين.

كما أن مؤلفى الموسيقى قد قاموا بتنقية وتحسين قدراتنا على السمع لدرجة غير عادية فعندما نغنى الآن فى مقاطع متداخلة ومتوافقة - بدلاً من الطريقة الفجة

التى اعتاد أن يغنى بها أجدادنا - فإن هذا يتم بفضل الموسيقيين والملحنين الذين علمونا كيفية فعل هذا ، فهم الذين أثروا عقولنا وعلمونا أن ندرب آذاننا وأصواتنا.

ومن الذى عمق مشاعرنا وعلمنا كيف نعبر عنهم بوضوح ، وكيف نفهمهم بطريقة أكمل ؟ إنهم الشعراء ، فهم قد أثروا لغتنا وجعلوها أكثر مرونة وتكيفا مع جميع أغراض الحياة.

إنه لا مجال للشك فى أن العباقرة هم أكثر البشر تعاونًا ، وربما فقدنا القدرة على تتبع حجم تعاونهم فى بعض مواقفهم أو نواحى سلوكهم الفردى ، ولكننا نستطيع أن نرى حجم هذا التعاون بوضوح إذا ما نظرنا إلى حياتهم ككل ، فلم يكن من السهل عليهم أن يتعاونوا - كما هو الحال بالنسبة إلينا - لأنهم اختاروا طريقًا صعبًا مملوءًا بالعقبات ، فكثيرًا ما بدأ الواحد منهم طريق حياته بإعاقة جسدية حادة وفى كل العباقرة - تقريبًا - سنجد نوعًا من العيوب الجسدية ، لكن الانطباع السائد هو أنه رغم البداية السيئة التى بدءوا بها حياتهم ، فإنهم قد كافحوا كفاحًا مريرًا حتى تغلبوا على صعوباتهم ، ولكن الأمر الأكثر وضوحًا هو أنهم اهتموا بغيرهم من البشر فى مرحلة مبكرة جدا من حياتهم ودربوا أنفسهم بشدة خلال مرحلة الطفولة الأولى على " التعاون " والمساهمة فى حياة الآخرين ، فهم قد زادوا من حدة حواسهم حتى يشعروا - عن قرب - بمشاكل العالم ويتفهموها حق الفهم ، وهذا التدريب المبكر يمكننا من أن نستنتج أن فنونهم وعبقرياتهم كانت من صنعهم ، وأنهم قد خلقوها خلقًا فى داخلهم ، فهى لم تكن ميراثًا أو عطية غير مستحقة ، فإن الطموح قد ملأهم والنعم والخيرات انهالت علينا بسبب طموحاتهم.

رعاية المواهب

إن هذه الطموحات المبكرة هى أحسن أساس للنجاح فى المستقبل ، ولنفترض أننا تركنا فتاتين صغيرتين فى الثالثة أو الرابعة من عمرهما وحدهما ، وإنهما بدآ فى خياطة قبعة لعروستيهما ، وعندما نرى الفتاة الأولى تقوم بهذا ، فإننا

سنمدح مجهوداتها ، ونقترح عليها طرقًا أفضل لتحسين شكل القبعة ، سيشجع هذا الفتاة الأولى الصغيرة وسيحفزها أكثر على مضاعفة مجهوداتها وتحسين مهاراتها ، ولكن لنفترض أننا قلنا للفتاة الصغيرة الثانية :

-" لا تستخدمى الإبرة فإنك ستتسببين فى أذية نفسك ، فلا حاجة بك لصنع مثل هذه القبعة أنا سأخرج وأشترى لك قبعة أفضل مما يمكن أن تصنعيه ".

إن مثل ذلك القول سيدفع الفتاة الثانية للاستسلام والتخلى عن جهودها المزمعة إذا ما قارنا بين هاتين الفتاتين فى المستقبل فإننا سنجد أن الفتاة الأولى نمت وطورت حسها الفنى وأصبحت مهتمة بالأعمال اليدوية ، بينما الفتاة الثانية ستكون على العكس تمامًا ، فإنها لن تعرف معنى الاستفادة بوقت فراغها ، وستظن دائمًا أنه يمكنها شراء أشياء أفضل من التى يمكن أن تصنعها بنفسها.

التعرف على اهتمامات الأطفال

تعبيرات الطفولة

يكون نمو الأطفال وتطورهم أكثر بساطة إذا ما عرفوا منذ البداية طبيعة العمل الذى يحبون أن يقوموا به فيما بعد ، لو سألنا الأطفال :

" ما العمل الذى تحب أن تقوم به عندما تكبر ؟ ".

فإن معظم الأطفال سيعطون إجابة عن هذا السؤال ، ولكن تلك الإجابة لن تأتى بعد تفكير وتمحيص ، ولكنها غالبًا ما سوف تأتى بصورة عفوية ، فعندما يقولون إنهم يريدون أن يصبحوا طيارين أو سائقى قطارات ، فإنهم لا يعرفون سبب اختيارهم لهذه المهن ، وتكون مهمتنا هى محاولة التعرف على الدوافع المختفية وراء تلك الاختيارات ، وأن نكتشف الاتجاه الذى تميل نحوه جهودهم وما الذى يحفزهم للعمل ؟ ما نوع هدفهم ؟ وما الطريق الذى سيسلكونه لتحقيق هذا الهدف ؟

إن الإجابة التى سنحصل عليها سوف تظهر لنا على وجه التحديد نوع الوظيفة التى يبدو أنها تحقق لهم " التفوق " ، ومن هذه الوظيفة يمكننا أيضًا تحديد مجالات أخرى لنساعدهم بها فى الوصول إلى هدفهم.

إن الطفل فى سن ١٢ أو ١٤ سنة يجب أن يكون لديه فكرة واضحة جدا عن المهنة التى يحب أن يشغلها ، ولهذا أكون فى شدة الأسف عندما أسمع عن أطفال فى هذا العمر وليست لديهم فكرة عن المهنة التى يحبون أن يشغلوها ، إن هذا النقص الواضح فى الطموح لا يعنى أنهم غير مهتمين بأى شىء فربما يكون العكس هو الصحيح ، ولكن تنقصهم الدرجة الكافية من الشجاعة لإعلان طموحاتهم ، فى مثل هذه الحالات يجب علينا بذل المزيد من الجهد لاكتشاف حقيقة اهتمامهم الرئيسى ومدى علمهم به ، بعض الأطفال حتى بعد انتهائهم من الدراسة الثانوية فى سن السادسة عشرة تكون الحيرة ما تزال تتملكهم فى معرفة نوع الوظيفة التى يحبونها ، وغالبًا ما يكون هؤلاء التلاميذ أذكياء جدا ولكنهم لا يعرفون كيف ستستمر حياتهم فى المستقبل ونحن نستطيع تعريفهم على أنهم طموحون جدا ، ولكنهم لا يتمتعون بالقدر المناسب من "التعاون" ، فهم لم يكتشفوا بعد مكانهم فى التخصص " تقسيم العمل " ، وهم لا يستطيعون إيجاد طريقة عملية توصلهم إلى طموحاتهم فى الوقت المناسب.

ولهذا فإن سؤال الأطفال فى مرحلة مبكرة جدا من العمر عن ما يرغبون فى القيام به من وظائف فى المستقبل هو أمر مرغوب فيه ، وأنا كثيرًا ما أقوم بطرح هذا السؤال فى الفصول الدراسية حتى يتمكن الأطفال من أخذه فى الاعتبار والتفكير فيه فلا ينسون أبدًا هذه المشكلة ، أو يحاولون إخفاء الإجابة والاحتفاظ بها لأنفسهم ، وأنا أيضًا أقوم بسؤالهم عن السبب فى اختيارهم للوظيفة التى قاموا باختيارها ، وتكون إجاباتهم ذات دلالة بالغة عادة ، حتى إننى أجرؤ على القول بأن نمط حياة الطفل وأسلوبه يمكن استنتاجهما من خلال نوع الوظيفة التى اختارها.

فمن خلال اختيار نوع الوظيفة يوضح الطفل – لنا – الاتجاه الرئيسى لكل مجهوداته ولكل ما يعتبره غاليًا وذا قيمة فى الحياة ، ولهذا فإنه من الواجب علينا

أن ندعه يقرر بحرية تامة - ما يعتبره هو - المهنة المثالية والمناسبة له ، وعندما يصل إلى السن الذى يستطيع فيه مزاولة هذه المهنة ، ويمضى كل وقته وهو يساهم فى زيادة رفاهية ورخاء الآخرين ، فإنه يكون مساويًا فى الأهمية لأى فرد آخر مهما كانت الوظيفة التى يشغلها.

فإن المهمة الأساسية والوحيدة فى حياة الفرد هى : أن يدرب نفسه على إعالة نفسه ، وأن يسعى لامتهان المهنة التى يحبها فى إطار تقسيم العمل Division of labour .

من الممكن أن تستمر اهتمامات عدد كبير من الرجال والنساء فى الاتجاه نفسه الذى دربوا أنفسهم عليه فى السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياتهم ، وأن لا يستطيعوا نسيان ذلك أبداً ، ولكن الذى يحدث أنهم قد شعروا باضطرارهم - بسبب ظروف اقتصادية أو عائلية - لاتخاذ وظيفة لا تثير اهتمامهم ، وهذا مؤشر آخر على قوة تأثير وأهمية التدريب فى مرحلة الطفولة.

الذكريات الأولى

إن استخدام الذكريات الأولى مهم جدا خاصة فى الإرشاد الوظيفى ، فلو أننا رأينا اهتمام الطفل بكل ما هو مرئى - فى ذكرياته الأولى - فيمكننا استنتاج أنه سيكون فى المستقبل أكثر مناسبة فى وظيفة تمكنه من استخدام عينيه بكثرة ، وإذا ذكر الطفل الكيفية التى يتكلم بها أحد الأشخاص أو الطريقة التى يَسمع بها صوت الجرس عندما يدق أو الريح عندما تعصف فإنه يمكننا استنتاج أنه سيكون فى المستقبل أكثر مناسبة فى وظيفة تمكنه من استخدام أذنيه بكثرة مثل الموسيقى ، وإذا رأينا - فى ذكرياته الأولى- انطباعات كثيرة عن الحركة ، فإنه يمكننا استنتاج أنه سيكون فى المستقبل أكثر مناسبة فى وظيفة تتطلب العمل اليدوى أو الترحال ؛ لأن مثل هذا الفرد سيكون فى حاجة إلى النشاط والحركة أكثر من غيره.

لعب الأدوار

عندما نراقب الأطفال فإننا كثيراً ما نراهم يُعدون أنفسهم لما سيصبح وظيفتهم في عالم البالغين ، فالكثير من الأطفال يظهرون اهتمامًا كبيراً بالتقنية وبالأشياء الميكانيكية وهذا يُبَشر بوظيفة مجزية إذا ما تمكنوا من تحقيق طموحاتهم.

كما أن الألعاب التي يقوم بها الطفل - لشغل أوقاته - يمكن أن تعطينا فكرة قوية عن ما يهتم به ، فأحياناً عندما يرغب الطفل في أن يصبح مدرسًا فإننا نراه يجمع الصغار من حوله ، ويتظاهر بأنه يعلمهم ويلعب معهم كما لو كان هو المدرس وهم التلاميذ.

والفتاة التي تتطلع للأمومة سوف تلعب بعروستها وتُدرب نفسها على الاهتمام الأكبر بالأطفال الرضع ، وهذا الاهتمام بلعب دور الأم يجب تشجيعه عن طريق إعطاء الفتيات عرائس صغيرة للعب بها ، وقد يشعر بعض الناس بأن إعطاء الفتيات عرائس هو أمر غير مستحب ؛ لأنه يشتت اهتمام الفتاة ويبعده عن الواقع ، ولكن هذا غير صحيح ، فإن لعب الفتيات بالعرائس ما هو إلا تدريب ذاتي للتعرف على دور الأم ووظائفها ، ومن المهم جدا أن يبدءوا هذا في مرحلة مبكرة من حياتهن.

على أن أكرر مرة أخرى هنا أهمية دور المرأة في المساهمة في الحياة البشرية ، فإن دور الأم بالغ الأهمية ، فلو أنها اهتمت بحياة أطفالها ومهدت الطريق لهم ليصبحوا أعضاء نافعين في المجتمع ووسعت مداركهم واهتماماتهم بالمجتمع من حولهم وبالتعاون مع الآخرين ، فإن عملها هذا سيكون ذا قيمة عظمى لا تقدر بثمن ، إن عمل المرأة لا يعطى حق قدره أبداً ، وكثيراً ما ينظر إليه على أنه وظيفة غير جذابة وعديمة القيمة ، وحيث إن المقابل المادي - لوظيفة الأم - يكون بطريقة غير مباشرة كما أن المرأة تتخذ من الأمومة وظيفة رئيسية لها ، فإنها تكون - غالبًا - في وضع عدم استقلال اقتصادي ، لكن علينا أن نتذكر أن نجاح العائلة يعتمد - بطريقة متساوية - على عمل كلٍّ من الأم والأب فعمل الأم مهم جدا سواء كانت تعمل أمًّا فقط أو تشارك في العمل خارج المنزل.

بعض التأثيرات على الخيارات الوظيفية

عندما يتعرض الطفل لمواجهة مشاكل مثل المرض أو الموت دون سابق إعداد أو تدريب فإنه غالبًا ما يطور اهتمامًا عميقًا بمثل هذه الأمور (المرض والموت) ، وهذا يدفعه لاختيار مهنة مثل الطب أو التمريض أو الكيمياء ، وفي رأيي فإنه من الواجب تشجيع مثل هذه الاختيارات ؛ لأنني قد اكتشفت أن الطفل الذي يحمل مثل هذا الاهتمام ثم يتحول إلى مهنة كالطب يكون قد بدأ تدريبه في مرحلة مبكرة جدا كما أن حبه لمهنته يكون عظيماً .

ولكن المرور بتجربة مثل الموت يكون له أحيانًا رد فعل مختلف عن ما سبق ، فقد يتحول الطفل بطموحاته نحو محاولة هزيمة الموت من خلال الفن أو الأدب أو عن طريق الانغماس في التدين.

إن أكثر الطموحات شيوعًا هو الطموح أو السعي للتفوق على باقي أعضاء العائلة خاصة الأب أو الأم ، وهذا يمكن أن يكون مفيدًا جدا فنحن نكون سعداء عندما نرى الجيل الجديد يتفوق على القديم ، وعندما يريد الابن أن يتفوق في إنجازاته على ما حققه والده في المهنة نفسها فإن خبرة الأب تمد الابن ببداية جيدة.

عندما يولد طفل في عائلة يعمل فيها الأب كضابط شرطة فإن طموح الابن سيكون في العمل في سلك المحاماة أو القضاء ، وإذا كان الأب يعمل في مستشفى فإن الابن سيطمح في الحصول على عمل كطبيب أو جراح ، وإذا كان الأب معلمًا في مدرسة فإن الابن سيرغب في أن يصبح أستاذًا في الجامعة.

إذا ما تم إعطاء النقود قيمة وأهمية كبرى داخل العائلة ، فإن الطفل سينظر إلى مشكلة العمل من خلال ما يدره هذا العمل من نقود فقط لا غير ، وهذا خطأ فظيع ؛ لأن مثل هذا الطفل لن يتبع طموحاته واهتماماته الحقيقية التي تمكنه من المساهمة بفاعلية في صالح المجتمع ، حقيقي أنه من المفروض على كل شخص أن يتكسب معيشته ولكنه حقيقي أيضًا أنه هناك الكثير من الناس الذين يهملون الاهتمام بهذه النقطة مما يجعلهم عبئًا على الآخرين ، ولكن إذا حول الطفل كل اهتماماته نحو

كسب النقود ، فإنه يصبح من السهل عليه أن يفقد الطريق المؤدى إلى التعاون وأن ينظر فقط إلى ما يحقق مصلحته الشخصية ، فإذا ما تحول كسب النقود إلى هدف فى حد ذاته فإن الفرد يفقد اهتمامه بالمجتمع ، ويمكن أن يفكر فى كسب النقود عن طريق وسائل غير مشروعة وغير اجتماعية ، مثل السرقة والنصب واغتصاب حقوق الآخرين.

إذا احتفظ الفرد بقدر ضئيل من الاهتمام بالمجتمع مختلطًا بهدفه الأساسى فى كسب النقود فإنه ربما تمكن من كسب الكثير من النقود ، ولكن نشاطاته لن تكون ذات فائدة كبيرة للمجتمع ، فإنه من الممكن للفرد أن يصبح غنيا وناجحًا باتباع هذا الطريق ، فحتى الطريق الخاطئ يمكن أن يبدو ناجحًا فى بعض جوانبه.

أنا لا أستطيع أن أعد أى شخص يسلك الطريق القويم طوال حياته بأن يحقق النجاح الفورى ، ولكنى أستطيع أن أعده بأن يتمكن من الاستمرار فى الاحتفاظ بشجاعته ورأسه المرفوعة ، وأن لا يفقد ثقته واحترامه لذاته.

ما الحل ؟

إن طريقتنا فى معالجة الطفل المشكلة **Problem child** هى محاولة التعرف على اهتماماته الحقيقية الرئيسية ، ومن خلال هذه الاهتمامات يصبح من السهل علينا أن نشجع ونساعد الطفل ، وفى حالة الشاب الذى لم يستطع بعد أن يحدد اختياره الوظيفى أو البالغ الذى يواجه مشكلة مهنية فإن اهتماماتهما الحقيقية والرئيسية يجب اكتشافها واستخدامها كأساس للإرشاد الوظيفى بالاشتراك مع المجهودات الخاصة بالبحث عن الوظيفة المناسبة لهما ، ولن يكون هذا سهلاً دائمًا ؛ فإن معدلات البطالة العالية السائدة الآن هى أمر يدعو إلى القلق فهى ليست الوضع المثالى لزيادة وتحسين "التعاون" ، ولهذا فأنا أؤمن أنه على كل شخص تَفَهَّم أهمية "التعاون" أن يبذل أقصى جهده للتخلص من البطالة فى المجتمع ، وأن يعمل على توفير وظائف لأى شخص يرغب فى العمل.

يمكننا أيضًا تحسين الموقف عن طريق زيادة تطوير مدارس التدريب ، ومدارس التقنية (المدارس الفنية) ، ومدارس تعليم البالغين ، فالكثير من العاطلين عن العمل غير مدربين وغير مهرة ، وبعضهم لا يحمل أى اهتمام للمجتمع من حوله ويشعر بأنه عاجز وعديم الفائدة ، وحيث إن وجود مثل هؤلاء يعتبر عبئًا ثقيلاً على المجتمع ، فإنه من الواجب مساعدتهم كى نساعد أنفسنا على التخلص من هذا العبء .

و هذا يجعل من السهل علينا فهم تحول نسبة كبيرة من هؤلاء العاطلين عن العمل إلى الإجرام ، كما أنهم يشكلون نسبة كبيرة من العصابيين والمنتحرين فإن كونهم غير مدربين جعلهم يتخلفون عن باقى البشر .

و لهذا فإنه على كل الأباء والمعلمين وغيرهم مِن مَن يهتمون بمستقبل تحسين وتطوير البشرية أن يعملوا على التأكد من حصول كل الأطفال على تدريب أفضل يؤهلهم لاحتلال مكانة خاصة فى تقسيمة العمل .

الفصل الحادى عشر

الفرد والمجتمع

رغبة البشر فى الاتحاد

إن التوحد – الاتحاد الكامل – مع باقى البشر هو واحد من أقدم الطموحات البشرية . إن اهتمامنا بالآخرين هو الذى مكن الجنس البشرى من التقدم والنمو ، والعائلة ما هى إلا منظمة يكون فيها الاهتمام بالآخرين ضروريا ، ومنذ فجر الحضارة كان هناك ميل غريزى بين البشر لأن يتجمعوا فى عائلات.

و قد استخدَمت القبائل البدائية رموزًا عامة لتُجمع بين أفرادها وتربط بين من ينتمون إليها ، وقد أعطتهم هذه الرموز نوعًا من الشعور بأن لهم شخصية مشتركة ، فقد كان الغرض من هذا الرمز هو أن يوحدهم فى " التعاون ".

دور العقيدة الدينية

إن أبسط الديانات البدائية كانت عبادة الطوطم Totem، فإحدى المجموعات البشرية عبدت السحلية بينما عبدت مجموعة أخرى الثور أو الثعبان ، هؤلاء الذين عبدوا الطوطم نفسه عاشوا معًا وتعاونوا ، واعتبر كل عضو فى المجموعة نفسه أخًا لباقى الأعضاء ، وكانت مثل هذه العادات البدائية وسيلة من أحسن الوسائل التى اخترعها البشر ليحصلوا على تعاون مستمر من الآخرين .

وفى الاحتفاليات التى أقاموها كشعائر لهذه الديانات البدائية فإن كل شخص يعبد السحلية مثلاً يشترك مع زملائه فى هذه الديانة فى مناقشة أمور أخرى مثل الحصاد أو كيفية الدفاع عن النفس ضد الحيوانات المتوحشة أو عوامل البيئة والمناخ ، فقد كان هذا هو معنى الاحتفال.

وكان الزواج يعتبر شأنًا من الشئون الخاصة بالمجموعة ككل ، فقد كان زواج أى رجل وامرأة يتضمن ويهم الآخرين ، فكل رجل كان عليه أن يبحث عن شريكة لحياته من خارج المجموعة أو الطوطم الذى ينتمى إليه وبانصياع وطاعة لمجموعة خاصة جدا من العادات والتقاليد .

وحتى فى أيامنا هذه فإنه من المهم أن لا نعتبر أن الحب والزواج أمر خاص بين الرجل والمرأة فقط ، بل هو شأن من الشئون العامة التى يجب أن يشترك فيها المجتمع كله عقلاً وروحاً .

إن الزواج يتضمن مسئولية محددة حيث إنه يعتبر خطوة تمت بموافقة ومباركة المجتمع كله ، ومن الشئون التى تهم المجتمع كله أن يولد له أطفال أصحاء تتاح لهم الفرصة لأن ينموا وينشئوا فى جو صحى مملوء بروح التعاون ، ولهذا يجب أن يكون المجتمع مستعدا لمساعدة ومساندة كل زيجة ، وقد يبدو لنا الآن أن الأنظمة الاجتماعية البدائية بما تضمنته من طواطم Totems واحتفالات عظيمة وعادات وتقاليد معقدة للتحكم فى الزيجات هى أمر سخيف ولكن أهميتها فى ذلك الوقت كانت أمراً لا يمكن إنكاره أو المزايدة عليه ، أما هدفها الحقيقى فقد كان زيادة "التعاون" بين البشر .

إن أهم الواجبات التى فرضتها الديانات البدائية هى " حب الجار " وهنا نرى مرة أخرى محاولة زيادة الاهتمام بزملائنا فى الجنس البشرى ، ولعل معرفة وجهة النظر العلمية فى هذه النقطة جعلتنا نؤكد القيمة العظمى التى حاولت تلك الجهود الأولية أن تدعمها وترسيها .

إن الأطفال الذين تعرضوا لتدليل زائد عن الحد دائماً ما يسألون أسئلة مثل :

" لماذا يجب على أن أحب جارى ؟ وهل جارى يحبنى ؟ "٠

و هم بمثل هذه الأسئلة يكشفون حقيقة النقص الفاضح فى قدرتهم على"التعاون" واهتمامهم المحصور فى ذواتهم ، ومثل هؤلاء الأفراد - غير المهتمين بزملائهم فى المجتمع - سيواجهون أشد الصعوبات فى حياتهم المستقبلة ، كما أنهم سيتسببون فى الكثير من الإيذاء للآخرين ، ومن أمثال هؤلاء ينبع الفشل البشرى٠

إن هناك الكثير من الأحزاب الدينية والسياسية التى تحاول بطريقتها الخاصة زيادة "التعاون" ، ومن ناحيتى فأنا أتفق مع كل جهد بشرى يَعتبر " التعاون " هو الهدف الرئيسى والنهائى ، فلا حاجة هنا للشجار والنقد والتجريح بينهم ، فإنه ليس من بيننا من يعرف الحقيقة المطلقة ، وهناك طرق عديدة ومختلفة تقود إلى الهدف نفسه ٠

الحركات السياسية والاجتماعية

نحن نعلم أنه يمكن إساءة استخدام أحسن الطرق فى السياسة ، ولكن لن يتمكن أحد من إنجاز أى شىء من خلال السياسة - أو غيرها - إذا لم يتعاون منذ البداية ، فإنه من الواجب على كل سياسى أن يكون تحسين أحوال المجتمع هو هدفه الرئيسى والنهائى ، وهذا يعنى دائمًا وجود وتوافر درجة عالية من " التعاون " ، وحيث إننا غالبًا ما نكون غير مجهزين أو مؤهلين للحكم على قدرة أى سياسى أو أى حزب فى تحقيق التقدم والرفاهية لنا ، فالأفراد يحكمون من خلال ذواتهم ومن خلال نمط الحياة وأسلوبها الذى اختاروه لأنفسهم ، ولكن إذا نجح أحد الأحزاب السياسية فى الحصول على تعاون الناس فإن الناس لن يستاءُوا من نشاطات هذا الحزب ٠

و يكون الشىء نفسه صحيحًا بالنسبة إلى الحركات الاجتماعية ، فلو كان هدفهم - من يقود مثل هذه الحركات الاجتماعية - هو تنشئة الأجيال الجديدة بطريقة تجعلهم أعضاء نافعين فى المجتمع ، فإن هذه الحركات الاجتماعية يمكنها أن تتبع العادات

والتقاليد الخاصة بها والتى تدعو إلى ثقافتها الخاصة كما أنه يمكن لها أن تحاول التأثير على القوانين لتتفق مع طريقة هذه الحركات الاجتماعية فى التفكير ، ويجب علينا ألا نعادى جهودهم فى هذا المجال ، الحركات الطبقية تعتبر أيضًا حركات جماعية تهدف إلى التعاون وإذا كان هدفها هو تحسين حال وإصلاح المجتمع فإنه من غير الواجب اتخاذ أى موقف منهم أيضًا .

وهكذا فإن كل الحركات السياسية والاجتماعية يجب الحكم عليها فقط من خلال قدراتها على تطوير وتحسين قدرات أفراد المجتمع على التعاون وزيادة الاهتمام بالآخرين ، وسنجد أن طرق زيادة التعاون متعددة ومختلفة ، وربما تكون بعضها أحسن من الأخرى ، ولكن إذا كان " التعاون " موجوداً فإنه من غير المفيد مهاجمة أى طريقة بحجة أنها ليست أحسن الطرق .

نقص الشعور الاجتماعى والفشل فى التواصل

الاهتمام بالذات

سوف نبحث الآن موقف الأفراد الذين لا يكون لهم أى دافع فى الحياة يحثهم على الاستمرار إلا الاهتمام بذواتهم ، إن هذا الموقف هو أكثر العقبات – التى يمكن أن تواجه أى فرد – خطورة بالإضافة إلى خطره على تقدم المجتمع أيضًا ، فمن خلال اهتمامنا بالآخرين تتطور قدراتنا البشرية ، أن نتكلم مثلا أو أن نقرأ أو أن نكتب كلها أفعال تفترض وجود رابطة قوية بالآخرين ، واللغة نفسها ما هى إلا نتيجة للاهتمام الاجتماعى الموجود بين أفراد المجتمع ، والفهم هو أيضًا موضع مشاركة بين شخصين على الأقل فهو ليس دالة خاصة ، فعندما نفهم شيئًا ما فإن هذا يعنى أننا قد استوعبناه بطريقة مشتركة بيننا وبين الآخرين ، فكأننا ربطنا أنفسنا بواسطة مادة مشتركة مع الآخرين واستسلمنا للخبرة الشائعة بين كل البشر .

لكن هناك مجموعة من البشر يلهثون خلف اهتماماتهم الخاصة وحدها ، ويبحثون عن "التفوق" الشخصى لهم فقط ، فهم قد أعطوا معنى خاصا للحياة ؛ فالحياة

فى رأيهم موجودة بغرض خدمتهم فقط ، ولكن التفهم المشترك غير موجود بين أفراد هذه المجموعة ، ولكنه رأى شخصى لا يشترك فيه أى فرد آخر فى العالم ، ولهذا نجد إن مثل هذا الفرد يكون غير قادر على التواصل مع زملائه فى الجنس البشرى ، وغالبًا ما نرى الطفل الذى نشأ وترعرع وكل اهتماماته مركزة على نفسه فقط يحمل على وجهه صورة الضياع والشعور بالذنب أو تطل من وجهه تلك النظرة الخاوية التى تثير الشفقة.

ونستطيع أن نرى صورة مشابهة لتلك الصور السابقة على وجوه المجرمين والمرضى العقليين فهم لا يستخدمون عيونهم فى التواصل مع الآخرين ؛ لأن فهمهم للعالم المحيط بهم يختلف عن فهمنا له ، حتى إنه فى بعض الأحيان لا ينظر أمثال هؤلاء الأطفال والبالغين إلى غيرهم من الأفراد المحيطين بهم ، بل يشيحون النظر بعيداً عن الجميع ويلتهون بالنظر إلى الأشياء التى من حولهم.

الأمراض العقلية

إن هذا الفشل نفسه فى التواصل مع الآخرين يظهر فى أعراض عصابية أخرى ، ويكون ظاهراً بصورة شديدة الوضوح فى أعراض مثل التلجلج ؛ واحمرار الوجه اللاإرادى المتكرر، والعجز الجنسى أو القصف المبكر ؛ فكلها أعراض تكشف عدم القدرة على التواصل والتلاحم مع الآخرين ، وتنتج عن النقص فى الاهتمام بهم.

إن المرض العقلى يمثل أعلى درجة من درجات العزلة Isolation، والأمراض العقلية ممكنة العلاج خاصة إذا تمكنا من زيادة اهتمام المريض بمن حوله ، ولكن هذا سوف يعنى أنه سيبتعد أكثر عن باقى المجتمع ، فيجب أن يكون الطبيب المعالج على درجة عالية جدا من المهارة حتى يتمكن من علاج مثل هذه الحالات ، إنه يكون من الواجب علينا أن نكسب المريض ونعيده إلى " التعاون " ، ويمكننا إنجاز هذا بالصبر والطيبة والعلاج بطرق صديقة (ودودة).

لقد تم استدعائى ذات مرة لعلاج فتاة مصابة بالفصام (شيزوفرينيا(*) Schizo phrenia) ولقد عانت الفتاة من هذه الحالة لأكثر من ثمانى سنوات ، وقد أمضت العامين الأخيرين منها فى إحدى المصحات العقلية ، كانت هذه الفتاة تنبح مثل الكلب تبصق وتمزق ملابسها ، وحاولت ذات مرة أن تأكل منديلها .

أمثال هذه التصرفات قد أوضحت لى بُعدها التام عن الاهتمام بالآخرين من البشر ، فهى أرادت أن تلعب دور الكلب ، وكانت تقول أشياء مثل:

" كلما تعرفت على البشر أكثر ، كلما زادت رغبتى فى أن أصبح كلبًا " .

و لقد حاولت التحاور معها لمدة ثمانية أيام متصلة رفضت خلالها الرد على ، ولكنى لم أيأس ، وواصلت الحديث معها ، وبعد مرور شهر كامل من المحاولات المستمرة بدأت فى التحدث بطريقة مرتبكة ومتخبطة ، فقد بدأت تشعر بأنى صديق لها وشجعها هذا .

عندما يتم تشجيع مريض من النوع السابق ، فإنه لا يعرف ماذا يصنع بهذه الشجاعة ، فإن حجم المقاومة والرفض التى بداخل المريض تجاه الآخرين كبيرٌ جدا وسيتضح هذا فى سلوكها عندما تعاودها الشجاعة ، وكيف استمرت فى الرغبة فى عدم التعاون ، فهى مثل الطفل المشكلة ستبذل كل ما فى وسعها لتصبح مصدر ضيق وإزعاج ، ستحطم أى شيء تصل له يداها ، أو تضرب من يقترب منها .

فعندما تكلمت مع الفتاة مرة أخرى قامت بضربى وفكرت مليا : ماذا أفعل كرد فعل لهذا ؟ فرد الفعل الوحيد الذى قد يفاجئها هو عدم إبدائى أى قدر من المقاومة حتى دفاعًا عن النفس ، وحيث إن هذه الفتاة لم تكن تملك الكثير من القوة الجسدية فإننى قررت أن أدعها تضربنى وواصلت النظر نحوها بطريقة وبودة . لم تكن الفتاة تتوقع هذا ، فقد حرمها رد فعلى السلبى من التحدى الذى كانت تبحث عنه .

(*) الفصام أو الشيزوفرينيا: يتم تصنيفه ضمن فئة الأمراض النفسية المعروفة بالذهان PSYCHOSIS وهو أكثرها انتشارًا ، ويتسم المريض بالتبلد فى ردود أفعاله والانفصال والتفكك (الضحك بدون سبب مثلاً أو عدم ظهور أى انفعال عندما يستدعى الأمر) ، وإهمال مظهره ، وعدم الشعور بالخجل ، والهلوسة والهذيان أحيانًا ، والإصرار على الانسحاب من العالم وعدم الاهتمام به (المترجم) .

ولكنها ظلت لا تعرف ماذا تصنع بهذه الشجاعة ، فقامت بتحطيم النافذة مما تسبب فى جرح يدها ، ومع ذلك لم أقم بتأنيبها أو توبيخها ، وبدلاً من ذلك قمت بتضميد يدها الجريحة ، إن الوسيلة المعتادة فى مواجهة مثل هذا العنف كانت حبسها فى غرفتها لمدة طويلة وهى وسيلة بالغة الخطأ فى العلاج ، فيجب أن نتصرف بطريقة مختلفة إذا رغبنا فى كسب مثل هذه الفتاة لصفنا ، فإنه من الخطأ أن نتوقع أن يتصرف المريض العقلى بطريقة طبيعية ، إن معظم البشر تضايقهم وتزعجهم تصرفات المرضى العقليين ؛ لأنها لا تشبه تصرفاتهم ، ولكنى أقول لهم دعوه – المريض العقلى – يفعل ما يشاء ، لأنه لا توجد طريقة أخرى لمساعدته .

بعد هذا تعافت الفتاة ، ومر عام كامل والفتاة مازالت بصحة وعافية ، وفى أحد الأيام عندما كنت فى طريقى لزيارة المصحة العقلية التى كانت تحتجز هذه الفتاة قابلتها تسير فى الشارع المؤدى إلى المصحة وبادرتنى هى قائلة :

" ماذا تفعل ؟ ".

فأخذتها من يدها قائلاً :

" تعالى معى فأنا ذاهب إلى المصحة التى عشتِ فيها لمدة عامين ".

وعندما وصلنا هناك سألت عن الطبيب الذى كان مسئولاً عن علاجها وطلبت منه أن يحدثها بينما ذهبت أنا لفحص مريض آخر ، وعندما عدت وجدت الطبيب مرتبكًا ومنزعجًا، وبادرنى هو قائلاً :

" إنها فى تمام الصحة ، ولكن هناك شيئًا واحدًا مازال يضايقنى فهى مازالت تكرهنى ".

مازلتُ أرى هذه الفتاة من وقت لآخر وهى مازالت تتمتع بالصحة والعافية لأكثر من عشر سنوات الآن ، كما أنها تعمل بنجاح وتكسب معيشتها ، وعلاقاتها مع الآخرين مرضية ، ومن يراها الآن لا يصدق أبدًا أنها كانت تعانى من مرض عقلى فى يوم من الأيام.

إن هناك حالتين فقط : الاكتئاب أو المناخوليا Melancholia، وجنون الهُذاء أو البارانويا Paranoia، وفى حالة البارنويا يكون المريض موهومًا فيتهم كل البشر ، فهو يظن أن كل فرد فى المجتمع متورط فى مؤامرة ضده ، وفى حالة المناخوليا فإن المريض يتهم نفسه فهو يقول أشياء مثل :

" لقد تسببت فى الضرر للجميع " . أو ....

" لقد خسرت كل نقودى ، وسيتعرض أطفالى للموت جوعًا بسببى " .

ولكن علينا أن نتذكر أنه حتى عندما يتهم الفرد المريض نفسه ، فإنه فى الحقيقة يوجه الاتهام للآخرين وهذا الاتهام الذى يوجهه لنفسه ما هو إلا قناع يخفى نواياه ودعنا نأخذ فى الاعتبار الحالة التالية :

وهى حالة امرأة من الطبقة العليا ذات النفوذ فقد تعرضت هذه المرأة لحادثة منعتها من الاستمرار فى مباشرة حياتها الاجتماعية ، وكان لديها ثلاث فتيات شابات تزوجن وتركن منزل الوالدة ، وقد عانت والدتهن من الوحدة فى المنزل خاصة أنها فقدت زوجها فى الوقت نفسه تقريبًا ، لقد تعرضت هذه السيدة لكثير من التدليل فى حياتها السابقة ، وقد حاولت تعويض ما فقدته بموت زوجها وغياب بناتها بالقيام بجولة حول العالم ، ولكن هذه الأسفار المتعددة لم تنجح فى منحها الشعور نفسه بالأهمية الذى اعتادت عليه ، وبدأت تعانى من أعراض المناخوليا ، بينما كانت فى واحدة من هذه الأسفار مما دفع أصدقاءها الجدد لهجرها .

إن هذا المرض محنة عظيمة لكل من يعانى من أعراضه ولكل المحيطين بالمريض من أقارب وأصدقاء أيضًا ، وبعد الحادثة بعثت هذه السيدة رسالة تستدعى فيها بناتها للحضور ، ولكن كلا منهن كان لها عذرها القوى الذى أجبرها على عدم تلبية الدعوة ، وعندما عادت مريضتنا إلى منزلها بعد الحادثة كان أكثر ما تردد من كلمات على لسانها هو :

" إن فتياتى الثلاث قمن برعايتى على أكمل وجه خلال فترة نقاهتى فى المستشفى" .

بينما فى الحقيقة فإن البنات الثلاث لم يقمن بزيارتها فى المستشفى ، بل تركوا مهمة رعايتها لإحدى الممرضات ، وعندما عادت إلى المنزل بعد خروجها من المستشفى كانت زيارتهن لها قليلة ومتباعدة ، وكلماتها السابقة ما هى إلا طريقتها الخاصة فى توجيه الاتهام لبناتها الثلاث ، وكل من حولها كان يعلم ذلك .

إن المناخوليا تشبه فى طبيعتها غضبة شديدة طويلة ، أو ثورة عارمة مستمرة مع رغبة فى توبيخ الآخرين بغرض الحصول على تأييدهم وتعاطفهم ورعايتهم رغم ما يبدو من انخفاض روح المريض المعنوية بسبب شعوره بالذنب .

وغالبًا ما تكون الذكريات الأولى فى حياة المريض المصاب بالمناخوليا شيئًا مثل ما يلى :

" كنت أرغب فى الاستلقاء على الأريكة ولكن أخى كان نائمًا عليها فأخذت أبكى كثيرا حتى تركها لى ".

فالمريض بمثل هذا النوع من الأمراض على أتم استعداد للانتحار لا لشىء إلا جعل الآخرين يشعرون بالأسف ، ولهذا فإن على الطبيب أن يهتم أولاً بمنع تدهور الحالة ووصولها إلى هذا الحد (الانتحار) ، وعلى الطبيب أن لا يسمح بتوافر الأعذار التى تمكنها من هذا ، ولهذا عندما تعاملت مع أمثال المريضة السابقة كانت القاعدة الأولى فى العلاج هى " لا تفعلى ما لا ترغبين فى فعله " .

و قد تبدو القاعدة السابقة شيئًا بسيطًا لا قيمة له ولكنى أؤمن بأنها قوية بالدرجة الكافية للوصول إلى جذور المشكلة ، فالمريض حر فى أن يفعل ما يريد فمن سيتهم؟ ومِن مَن سينتقم؟ وعلى أى شىء سيكون الانتقام ؟ ، فإذا كانت المريضة تريد الذهاب إلى المسرح فعليها الذهاب إلى هناك ، وإذا كانت تريد إجازة فلتفعل هذا ، وفى طريق ذهابها إلى هناك إذا – اكتشفت أنها غير راغبة فى الإجازة- فعليها العودة من حيث أتت إذا شاءت.

فهذا هو أحسن المواقف التى يمكن أن يتعرض لها أى شخص ، فالمريض – فى هذا الوضع – يكون أقرب ما يكون إلى الإله يستطيع أن يفعل ما يشاء ، وهذا يشبع

حاجته لإثبات "التفوق" ، ومن ناحية أخرى فإن إجباره على التمتع بمثل هذا الحجم من الحرية لا يتناسب مع أسلوب حياته ، فهو يرغب فى الهيمنة والسيطرة على الآخرين عن طريق توجيه الاتهامات لهم باستمرار ، ولكن عندما يبدأ الآخرون فى الموافقة على كل ما يصدر عنه فإنه يكون قد خسر هذا الأسلوب فى السيطرة عليهم ، إن الطريقة السابقة فعالة جدا وأنا لم تحدث معى حالة انتحار واحدة بين كل المرضى الذين كانوا تحت رعايتى.

ومن المفهوم بالطبع أنه يكون من الأفضل للجميع أن يكون هناك شخص مخصص لمراقبة مثل هذا النوع من المرضى ، فطالما توافر وجود شخص متفرغ لمراقبتهم فإنه لا خوف عليهم من الانتحار ، وأنا أعترف بأن بعض حالاتى لم تتم مراقبتها بالدرجة التى كنت أرغب فيها.

وعندما كنت أسأل المريض عن ما يرغب فى فعله ، فكثيراً ما حصلت على الإجابة التالية :

" أنا لا أرغب فى فعل أى شىء ".

وكنت على استعداد لمثل هذه الإجابة ؛ لأننى سمعتها من قبل مراراً :

" اتفقنا . امتنع عن القيام بكل ما لا تريد القيام به ".

" أنا أرغب فى البقاء فى فراشى طوال اليوم ".

و أنا على يقين أننى إذا سمحت له بالبقاء فى فراشه كما قال فإنه سوف يصبح غير راغب فى هذا الفعل ، أنا أعلم أيضًا أننى إذا حاولت الوقوف فى طريقه ومعارضته فإنه سيحول المسألة كلها إلى معركة تحدٍّ ، ولهذا فإننى أوافقه على طول الخط ، وهذه طريقة فعالة جدا .

لكن هناك طريقة أخرى وفى هذه الطريقة فإننا نهاجم أسلوب حياته بطريقة مباشرة فأقول له :

" يمكنك أن تشفى تمامًا من هذا المرض خلال أسبوعين لو أنك اتبعت هذه الوصفة الطبية ، حاول أن تفكر فى طريقة لإسعاد شخص جديد كل يوم "٠

دعنا نتخيل ما الذى سوف تعنيه هذه المُحاولة فهو مشغول دائمًا بأفكار مثل :

" كيف يمكننى إزعاج أحدهم ؟ "٠

والآن عليه أن يفكر فى طرق عديدة لإسعاد شخص جديد كل يوم ، والإجابة التى أحصل عليها :

" إن هذا أمر غاية فى السهولة فقد فعلت هذا - إسعاد الآخرين - فى كل يوم من أيام حياتى "٠

وبالطبع أنا أعلم أن هذا القول غير صحيح ، ولهذا أطلب منه أن يفكر فى الأمر مليا وأنا أعرف أنه لن يفعل ثم أقول له :

" تستطيع أن تستخدم الوقت الذى تقضيه وحدك عندما يجافيك النوم فى التفكير فى طرق مبتكرة لإسعاد الآخرين ، وستجد أن صحتك ستتحسن بدرجة ملحوظة "٠

و عندما أرى المريض فى المرة التالية فإننى أسأله :

" هل فكرت فى ما طلبته منك قبل أن تنام أمس ؟ " .

و عندها يقول المريض :

" كلاً ، فقد استغرقت فى النوم بمجرد دخولى إلى الفراش "٠

إن كل ما سبق يجب قوله بطريقة ودودة وبدرجة من التواضع وبدون إظهار أى قدر من " التفوق " أو التعالية على المريض٠

و لكن إجابة البعض الآخر قد تختلف فعندما يقول المريض :

" كلاً ، فأنا لم أستطع التفكير فى الآخرين ؛ لأننى كنت فى غاية القلق "٠

فتكون إجابتى :

" لا تتوقف عن القلق ، ولكن فى الوقت نفسه يمكنك التفكير أحيانًا فى الآخرين".

فأنا أرغب هنا فى توجيه اهتماماته نحو الآخرين .

و أحيانًا يقول المريض :

" لماذا يجب على أن أهتم بإسعاد الآخرين ؟ فإن الآخرين لا يهتمون أبداً بإسعادى".

" عليك أن تفكر فى صحتك أولاً ، أما الآخرون فإنهم سيعانون من نتائج تصرفهم هذا فيما بعد ".

إن كل جهودى موجهة نحو زيادة الاهتمام بالآخرين فى المجتمع بين حالاتى المرضية فأنا أعرف أن علتهم الرئيسية هى نقص " التعاون " وأريدهم أن يعرفوا هذا أيضًا فكلما تمكنوا من التواصل مع زملائهم من البشر فى علاقة يسودها " التعاون " والندية كلما تماثلوا للشفاء بطريقة أسرع .

الإهمال الجسيم Criminal Negligence

إن الإهمال الجسيم ما هو إلا صورة واضحة لنقص الاهتمام الاجتماعى ، فعندما يُلقى أحدهم بعود الثقاب مشتعلاً بعد استخدامه فإنه يتسبب فى حرائق الغابات ، وعندما يترك أحد عمال الكهرباء كبلاً مكشوفًا فى الطريق العام ويذهب لمنزله تاركًا إياه ليعرض حياة المارة لخطر الموت ، فى كلتا الحالتين السابقتين لم يتعمد الفرد إحداث الأذى ؛ فهو غير مذنب بجريمة القتل العمد ولكنه شخص لم يتم تدريبه على التفكير فى الآخرين وفى توفير الأمان لهم وهو درجة من أشد درجات النقص فى " التعاون " الذى رأيناه فيما سبق بين الأطفال المهملين والأفراد الذين يرتكبون أخطاء تضر الآخرين عن غير قصد وعن إهمال جسيم .

المساواة الاجتماعية والاهتمام الاجتماعى

كما رأينا من قبل فإن الاهتمام بزملائنا من البشر هو أمر يمكن تدريسه وتعليمه فى البيت وفى المدرسة ، وقد رأينا أيضًا العقبات التى توضع فى طريق نمو وتطور الأطفال ، إن الشعور الاجتماعى حاسة من الحواس التى لا تورث ، ولكن إمكانيات هذه الحاسة يمكن توريثها ، وهذه الإمكانية يمكن تطويرها حسب مهارة الوالدين وحجم اهتمامهم بأطفالهم وأيضًا حسب تقدير الأطفال للبيئة المحيطة بهم ، فإذا شعر الأطفال بأن من حولهم يتميزون بالعدوانية أو أنهم محاطون بأعداء وأن ظهرهم إلى الحائط ، فإن هؤلاء الأطفال لن يسعوا إلى إقامة صداقات أو الوصول بالصداقة إلى المستوى المرغوب فيه من " التعاون " ، وإذا شعروا بأن الآخرين يجب أن يكونوا عبيداً لهم فإنهم سيرغبون فى التحكم بالآخرين وعدم مساعدتهم ، وعندما يهتمون فقط بلذاتهم وما يوفر لهم الراحة ويقيهم من القلق والإزعاج ، فإنهم سيعزلون أنفسهم عن المجتمع .

لقد رأينا أهمية شعور الأطفال بأنهم أعضاء مكتملو القيمة ومساوون لكل فرد آخر فى العائلة فى زيادة رغبتهم فى الاهتمام بالآخرين ، كما رأينا أن الأب والأم يجب أن تسود بينهما علاقة ودية تمتد إلى علاقات يسودها الصداقة والتعاون مع الآخرين خارج العائلة ، وبهذه الطريقة وحدها فإن الأطفال سوف يشعرون أن البشر هم أفراد يمكن الوثوق بهم سواء كانوا داخل محيط العائلة أو خارجه ، كما رأينا أن الأطفال فى المدرسة يجب أن يشعروا بأنهم جزء لا يتجزأ من الفصل المدرسى وأصدقاء حقيقيون لمن حولهم من الأطفال .

إن الحياة داخل العائلة والحياة فى المدرسة ما هى إلا تمهيد للحياة فى العالم الواسع ، والهدف منهما - العائلة والمدرسة - هو تعليم الأطفال كيف يصبحون أفراداً اجتماعيين وأعضاءً فى الجنس البشرى الذى يتكون من أفراد متساوين ، وعندما تتحقق هذه الشروط فإنهم سيتمكنون من الاحتفاظ بشجاعتهم ومواجهة مشاكل الحياة بثقة ، وسيجدون لها حلولاً تحقق خَيْرَ الآخرين ورفاهيتهم .

إذا تمكن الأطفال من أن يصبحوا أصدقاء حقيقيين للجميع وأن يساهموا فى خير المجتمع من خلال الوظائف النافعة والزيجات السعيدة ، فإنهم لن يشعروا أبدًا بأنهم أقل من الآخرين .

إنهم سيشعرون بأن العالم كله بيتهم ومنزلهم الدافئ ، وأن العالم كله ما هو إلا مكان حميم يمكنهم فيه مقابلة أفراد خيرين مساوين لهم فى مهمة التعامل مع مشاكل الحياة ، كما أنهم سيشعرون كما لو أن هذا العالم كله ينتمى إليهم فهم كمن يقول :

" هذا هو عالمى فيجب أن أكون إيجابيا وأن أحاول تنظيمه وتحسينه ؛ فأنا لن أنتظر وأتوقع أن ينصلح حاله دون مساهمة منى ".

و سيثقون فى أن الوقت الحاضر ما هو إلا مرحلة من مراحل تاريخ البشرية التى ينتمون إليها بماضيها وحاضرها ومستقبلها ، كما أنهم سيشعرون أن الحاضر هو الوقت المناسب لتحقيق المهام الخلاقة التى ستساهم فى تطوير البشر .

لا شك فى وجود الشرور والصعوبات كما أنه لا شك فى وجود الكوارث والظلم والإجحاف فى هذا العالم ولكنه عالمنا وكل مميزاته وعيوبه هى ملك خالص لنا ، إنه عالمنا الذى يجب أن نعمل فيه بغرض الوصول به إلى أحسن الأوضاع الممكنة ، والذى نأمل أن يتمكن كل من يواجه مشكلاته بطريقة صحيحة من تحسينه .

ومواجهة المشكلات بطريقة صحيحة يعنى حلا لمشاكل الحياة الثلاث بطريقة تستخدم التعاون ، إن كل ما نطالب البشر به وأحسن مديح لأفرادها هذا الجنس هو أنه عليهم أن يكونوا زملاء عمل صالحين ورفقاء مخلصين لشريكهم فى الحب والزواج ، وبمعنى آخر فإن عليهم إثبات استحقاقهم للقب إنسان .

الفصل الثانى عشر

الحب والزواج

أهمية الحب والتعاون والاهتمام الاجتماعى

فى إحدى المناطق الواقعة فى ألمانيا تنتشر إحدى العادات التى تختبر قدرة الفتى والفتاة المخطوبين على تحمل مسئوليات الزواج معًا ، فقبل حفل الزفاف يذهب العريس والعروس إلى منطقة واسعة من الأرض تم فيها قطع إحدى الأشجار ، وعندها يتم إعطاؤهما منشارًا ذا مقبضين ويطلب منهما قطع جزع الشجرة إلى نصفين . إن هذا الاختبار يوضح مدى قدرتهما على التعاون مع بعضهم البعض ، فهذه المهمة تتطلب شخصين ، وإذا كانت الثقة معدومة بينهما ، فإنهما سيجاهدان ضد بعضهم البعض، وسيعجزان عن إتمام المهمة ، وإذا حاول أحدهما أن يأخذ زمام المبادرة فى يده ، وأن يفعل كل شيء بنفسه ، فحتى لو انقاد الطرف الآخر له فإن المهمة ستأخذ ضعف المدة المفترضة ، ولهذا فإن عليهما أن يتعاونا وينظما جهودهما .

إن هؤلاء القرويين الألمان قد اكتشفوا أن " التعاون " هو الركيزة الأساسية التى يفترض وجودها قبل الزواج.

إذا طلب منى أن أعرف الحب والزواج لقلت :

" إن الحب وإشباعه بواسطة الزواج هو أكثر درجات الإخلاص والولاء لفرد من الجنس الآخر، ويتم التعبير عنه فى صورة جاذبية جسدية والرغبة فى البقاء فى صحبة الطرف الآخر دائمًا ، وفى قرارهما المشترك فى إنجاب أطفال ".

إن الحب والزواج ضروريان لتحقيق التعاون بين البشر وهو ليس تعاونًا من أجل تحقيق سعادة ورخاء فردين فقط ، ولكنه تعاون من أجل سعادة ورخاء البشرية بأكملها.

إن وجهة النظر السابقة - فى أن الحب والزواج يمثلان نوعًا من " التعاون " من أجل سعادة ورخاء البشرية بأكملها - تلقى الضوء على جانب مهم من هذه المسألة فحتى الجاذبية الجسدية - وهى أهم الدوافع البشرية - ما هى إلا تطور ضرورى لبقاء البشر.

والإنسان - بكل نقاط ضعفه المعروفة عنه - وجِد على الأرض بدون الاستعدادات اللازمة لاستمرار حياته عليها ، وكانت الطريقة الوحيدة للحفاظ على بقاء الجنس البشرى هى كثرة التوالد ، وهذا هو ما سبب خصوبتنا واستمرار وتزايد الجاذبية الجسدية.

وفى أيامنا هذه كثيرًا ما نجد أن الصعوبات والخلافات تبرز فوق مشاكل الحب عندما يواجه المتزوجون هذه الصعوبات فإن الآباء والأمهات يهتمون بها أيضًا فهى تشغل المجتمع كله وبأكمله ، ولهذا يكون من الواجب علينا أن نعالج المسألة بطريقة عملية غير متحيزة . يجب أن ننسى ما تعلمناه ونحاول بقدر الإمكان أن نفحص المسألة دون أن نسمح لأى اعتبارات خارجية فى التأثير على قرارنا.

و أنا هنا لا أعنى أننا نستطيع معالجة والحكم على مشكلة الحب والزواج كما لو كانت مشكلة مستقلة تمامًا بذاتها وبمعزل عن كل شىء فلا يمكن تحرير البشر بهذه الطريقة ، ولن يمكنهم الوصول إلى حلول لمشاكلهم عن طريق أفكارهم الخاصة وحدها.

فإن كل البشر مرتبطون بروابط محددة ؛ فإن نموهم وتطورهم يحدث فى المكان نفسه وتحت الظروف نفسها وكل قراراتهم يجب أن تتلاءم مع هذا الإطار ، وهذه الروابط الثلاثة الأساسية تنبع من حقيقة أننا نعيش على سطح مكان واحد ، ومن المفروض علينا أن ننمو ونتطور بما يتيحه هذا المكان من إمكانيات خاصة بالبيئة

والظروف المحيطة ، وأننا نعيش وسط أفراد آخرين من البشر، وأنه يجب علينا أن نتلاءم ونتكيف معهم ، وأخيراً فيجب أن نأخذ في الاعتبار أننا نوعان (رجل وامرأة) وأن مستقبل الجنس البشري يعتمد على قوة وتماسك العلاقات بينهما.

لقد أصبح الآن واضحاً أنه إذا ما اهتم الأفراد برفاهية ورخاء المجتمع من حولهم والبشر ككل فإن كل ما يقومون به سيكون مدفوعاً بهذا الاهتمام بالآخرين ، وسيحاولون حل مشكلة الحب والزواج بطريقة تأخذ في الاعتبار رفاهية ورخاء الآخرين ، أي أنهم سيحلون هذه المشكلة كما لو كان صالح الآخرين يعتمد على هذا الحل.

ولا حاجة للأفراد بأن يعلموا أن هذا هو الغرض من حلها بهذه الطريقة ؛ لأنك لو سألتهم فلربما عجزوا عن إعطائك سبباً عمليا لقيامهم بحلها بهذه الطريقة ، ولكنهم سيصبحون دائماً – وبطريقة تلقائية – باحثين عن رفاهية ورخاء وصالح البشر ، وسيصبح هذا الاهتمام ظاهراً في كل نشاطاتهم.

ولكن هناك العديد من الأفراد الذين لا يهتمون برفاهية ورخاء البشر، فهم لا يفكرون فيما يمكن أن يساهموا به ، أو كيف يمكن لهم أن يصبحوا جزءاً لا يتجزأ من العالم المحيط بهم ، فهم كمن يقول :

" ما الذي سيعود عليَّ من مساهماتي ؟ وهل الآخرون يهتمون بي ؟ وهل كل من حولي يقدرون قيمتي حق قدرها ؟ ".

لو كانت هذه هي طريقة الفرد وموقفه من الحياة ، فإنه سيحاول حل مشكلة الحب والزواج بنفس الطريقة التي تتفق مع موقفه وسيسأل دائماً :

" ما الذي يمكن أن أستفيده من حلي لمشكلة الحب والزواج ؟ ".

إن الحب ليس وظيفة طبيعية تماماً كما يظن بعض علماء النفس ، فإن الجنس ما هو إلا غريزة أو دافع ، لكن الحب والزواج أكثر من ذلك بكثير فهو أكثر من مجرد إشباع للغريزة ، ونحن نعلم أن دوافعنا وغرائزنا قد نمت وتطورت وتحضرت وهُذِّبت ، فقد كبحنا جماح بعض رغباتنا وميولنا ، فلكي نتلاءم بطريقة أفضل مع الآخرين فقد تعلمنا كيف نتكلم ونعبر عن أنفسنا دون أن نجرح شعورهم ، كما تعلمنا أن نعتني

بأنفسنا وأن نشذب من مظهرنا حتى نظهر بطريقة مقبولة أمام الآخرين تحببهم فينا ، وحتى عندما نشعر بالجوع فإننا لا نسمح للطريقة البدائية الحيوانية فى الحصول على الطعام وتناوله فى الظهور ، بل إننا وجدنا طرقًا متعددة أكثر حضارة تسمح لنا بالحصول على الطعام وتناوله.

إن كل غرائزنا ودوافعنا قد تأقلمت مع الحضارة السائدة حولنا ، وهى كلها تعكس الجهود التى تعلمناها كى نتمكن من تحقيق الرفاهية والرخاء للبشر.

لو أننا طبقنا هذا الفهم السابق على مشكلة الحب والزواج ، فإننا سنرى أن الاهتمام بالآخرين وبالعالم كله يجب أن يكون داخلاً ومشمولاً فى هذا الفهم ؛ لأن هذا الاهتمام أساسى ، فلا فائدة من مناقشة الجوانب المختلفة من الحب والزواج حتى نفهم ونقدر أن المشكلة لا يمكن حلها إلا من خلال نظرة واسعة شاملة تأخذ بعين الاعتبار رفاهية ورخاء المجتمع ككل ، وعندها فربما تمكنا من تحسين الحل أو الحصول على حلول أكثر كفاءة للمشكلة ، ولكن إذا وجدنا حلولاً أفضل فإن هذا سيكون لأننا أخذنا فى الاعتبار حقيقة كون المجتمع يتكون من رجل وامرأة يعيشان على سطح الكوكب نفسه وأن التعاون بينهما هو أمر ضرورى من أجل البقاء ، وعندما تأخذ الإجابات (حلول مشكلة الحب والزواج) فى الاعتبار ما سبق ، فإنها ستحتوى على الكثير من الحقيقة التى ستسمح لها بالصمود إلى الأبد.

الشراكة المتساوية An equal partnership

عندما نعالج الأمور بالطريقة السابقة ، فإننا سنكتشف أن مشكلة الحب ما هى إلا مهمة تحتاج إلى شخصين (رجل وامرأة) ، وبالنسبة إلى معظم البشر فإن هذا يعتبر شيئًا جديداً ، فإنه عندما تم تدريبنا خلال مرحلة الطفولة الأولى ، فإننا قد تعلمنا كيف نعمل ونؤدى المهام وحدنا وبعضنا تعلم أن يعمل ويؤدى المهام المختلفة بالاشتراك مع الآخرين ، ولكننا جميعًا قليلو الخبرة فيما يتصل بالعمل مع فرد واحد (العمل الثنائى) ، وهذا الوضع الجديد يمثل مشكلة إلا أنها ستكون مشكلة سهلة الحل

نسبـيا إذا ما كان طـرفاها (الرجل والمرأة) قد تم تدريبـهما بالفعل على الاهتمام بالآخرين ؛ لأن هذا سيساعد على تعلمهما - بسرعة - كيفية الاهتمام بالطرف الآخر.

نستطيع القول إنه إذا ما أردنا تحقيق التعاون الكامل والتام بين الرجل والمرأة فـإنه على كل منهمـا أن يهتـم بالآخر أكثـر من اهتمـامـه بنفسـه ، وهذا هو الأسـاس الوحـيد الناجح الذى يمكن عليـه بناء الحب والزواج ، وإن خطأ الكثـيـر من الآراء فى الزواج وفى الاقتراحات التى تقدم لإعادة تشكيله وهيكلته ستصبح ظاهرة.

لو أن كلا من الرجل والمرأة أصبح مهتما بالآخر أكثر من اهتمامه بنفسه ، فإن المساواة ستتحقق تلقائيا ؛ لأنه عندما يتم تحقيق مثل هذا التلاحم والولاء المتبادل فإن أيا منهمـا لن يشعر بأنه مقَيد أو مغبون فى هذه الصفقة ، لكن علينا أن نتذكر أن المساواة ممكنة إلتحقيق فقط إذا كان كل منهما يتبنى الموقف نفسه .

إنه على كل منهما أن يبذل الجهد المخلص فى تسهيل وإثراء حياة الآخر ، وبهذا يتحقق الأمن والأمان لكل منهما ، وهذا الأمان سيتحقق لأن كلا منهما سيشعر بقيمته وأهميته واحتياج الآخر له ، وسنجد هنا الضمان الأساسى للزواج والمعنى الأساسى للسعادة فى هذه العلاقة وهى الشعور بأنك - رجلاً كنت أو امرأة - ذو قيمة لا يمكن الاستغناء عنها وأن شريك حياتك فى حاجة دائمة إليك وأنك صاحب صالح قويم السلوك وصديق صدوق لصاحبك.

إنه من غير الممكن لشريك فى مهمة تعاونية أن يقبل وضع التابع ، فلا يمكن لاثنين من البشر أن يحيا حياة مثمرة لو أن أحدهما رغب فى التحكم فى الآخر وإجباره على الطاعة ، وفى الوقت الحاضر فإن الكثير من الرجال - وبعض النساء أيضًا - مقتنعون أن دور الرجل هو الحكم والإدارة ، وإنه ما على المرأة إلا الخضوع والطاعة ، وهذا هو السبب فى وجود الكثير من الزيجات غير السعيدة ، فلا يوجد من يستطيع تحمل وضع الدونية Postion of inferiority دون أن يمتلئ بالحقد والغضب والرفض لمن أجبَره على تقبل هذا الوضع ، إن الشركاء يجب أن يكونوا متساوين

وعندما يكون الناس متساوين ، فإنهم يجدون دائمًا طريقة لمواجهة وحل مشاكلهم وخلافاتهم ، فهم - مثلاً - سيتفقون بسهولة على مسألة الإنجاب وتوقيتها ، وسيعرف الزوجان أنهما إذا ما قررا عدم الإنجاب فإن هذا سيعكس عدم استعدادهما للمساعدة فى الحفاظ على استمرار الجنس البشرى ، وأنهما سيتفقان على حل مسألة التعليم وغيرها من المشاكل التى ستواجههما خلال حياتهما الزوجية؛ لأنهما يعلمان أن الأطفال فى الزواج غير السعيد يكونون معاقين ، ولا يستطيعون النمو والتطور بطريقة فعالة.

الاستعداد للزواج

فى مجتمعنا الحالى فإن البشر نادرًا ما يكونوا مستعدين للتعاون ، فإن التعليم والتدريب الذى حصلنا عليه يكون مركزًا على النجاح الشخصى وعلى اعتبار ما يمكن أن نحصل عليه من الحياة وليس ما نستطيع أن نساهم به فيها ، من السهل أن نفهم أنه عندما يعيش شخصان معًا فى التلاحم والولاء الذى يتطلبه الزواج فإن الفشل فى " التعاون " وعدم القدرة على الاهتمام بالآخر سوف يكون له نتائجه الخطيرة ، فالكثير من الناس يمرون بخبرة الزواج - وما يعنيه الزواج من علاقات حميمة - لأول مرة ، فهم غير معتادين على أن يأخذوا فى الاعتبار اهتمامات وأهداف ورغبات وأمال وطموحات فرد آخر ، وهم غير مستعدين لما تمثله المهمة المشتركة (الزواج) من مشاكل ، وهذا يشرح لنا سبب حدوث الأخطاء الكثيرة فى الزيجات المحيطة بنا ، ولقد حان الوقت لفحصها ، ولكى نتعلم طريقة تجنب هذه الأخطاء فى المستقبل.

أسلوب الحياة والوالدين والموقف من الزواج

إن كل الأزمات التى تمر بنا كبالغين علينا أن نتعامل معها بما يتفق مع الطريقة التى دُربنا عليها فى الصغر ، ويكون رد فعلنا متوافقًا مع أسلوب الحياة الذى اخترناه لأنفسنا.

إن استعدادتنا للزواج لا تتم بين يوم وليلة ، ونستطيع أن نرى فى الخصائص التى تميز سلوك الأطفال وفى مواقفهم وأفكارهم وأفعالهم كيف دربوا أنفسهم على مواجهة المواقف كبالغين ، وإن الخصائص الرئيسية لطرقهم فى معالجة مشكلة الحب والزواج تكون قد تشكلت بالفعل فى سن الخامسة أو السادسة.

فنحن نستطيع أن نرى – فى نمو وتطور الطفل – مبكراً أنهم قد شكلوا بالفعل وجهة نظرهم فى الحب والزواج ، ويجب ألا نتخيل أن لهم مشاعر جنسية تدفعهم . إنما هم يقررون على أساس إحدى نواحى الحياة الاجتماعية التى يشعرون أنهم جزء منها ، إن الحب والزواج ما هما إلا خصائص مميزة للبيئة التى نشأ فيها الطفل ، وعلى هذا فإن الحب والزواج جزء لا يتجزأ من فهم الطفل للمستقبل الخاص به ، ولابد أن يكون له موقف عقلى من هذا الموضوع.

عندما يظهر الأطفال دلائل مبكرة على اهتمامهم بالجنس الآخر واختيارهم لشريك فى الحياة ، فإننا يجب ألا نقاوم هذا الاهتمام كما لو كان غير مرغوب فيه ، كما أنه يجب ألا نسخفه ونسخر منه ، بل يجب علينا النظر إليه على أنه خطوة للأمام فى طريق إعدادهم للحب والزواج ، فيجب علينا أن نتفق مع الأطفال على أن الحب يمثل تحدياً رائعاً وجميلاً وهو تحد يجب أن يستعدوا له وأن يتقبلوه بالنيابة عن الجنس البشرى كله ، وهكذا يمكننا زرع المثل العليا فى ذهن الأطفال ، وفيما بعد سيكونون مستعدين أن يتجاوبوا مع بعضهم البعض ورفقاء وأصدقاء فى علاقة حميمة ، ولعله من المهم أن نلاحظ أن الأطفال تلقائيون ومخلصون بصدق فى إيمانهم بضرورة الزواج من شخص واحد ، بالرغم من أنهم قد رأوا بالفعل أن زواج الوالدين لم يكن دائماً سعيدا.

هذه نقطة يجب التأكيد عليها فإننا نكون مستعدين بطريقة أفضل لمواجهة الحب والزواج إذا كانت زيجة الأبوين سعيدة ، والأطفال يكتسبون انطباعاتهم الأولى عن الكيفية التى يجب أن تكون بها الحياة الزوجية من الأبوين ، ولعل هذا هو السبب فى أن معظم الفشل يأتى من أطفال خرجوا من بيوت منهارة **Broken homes** وحياة عائلية غير سعيدة ، فلو أن الأب والأم كانا غير قادرين على " التعاون "

بينهما فإنه من المستحيل عليهما أن يعلما الأطفال " التعاون " ، حتى إنه يمكننا أن نقرر حجم فردٍ ما للزواج ومدى كفاءته ومناسبته ما للزواج عن طريق معرفة ما إذا كان هذا الفرد قد نشأ في منزل يسوده " التعاون " أو لا ، وعن طريق مراقبة موقفه من الأب والأم والإخوة والأخوات.

إن أهم عامل هو من أين حصل الفرد على استعداداته للحب والزواج ؟ ، ويجب أن نكون حذرين ، فقد تعلمنا بالفعل أن الفرد غير محدود ببيئته وإنما هو محدود من خلال طريقته لفهم هذه البيئة.

إن طريقة فهم الفرد يمكن أن تكون مفيدة جدا ، فمن الممكن أن يكون هذا الفرد قد مر بخبرات غير سعيدة خلال حياته العائلية مع والديه ، ويمكن أن يدفعه هذا لأن يحسن الوضع الخاص بعائلته الشخصية الجديدة فقد يدفعه وضع عائلة أبويه إلى زيادة استعداده الشخصي للتعاون مما سيحسن فرصه في الحصول على زواج ناجح فيجب ألا نتسرع في الحكم ، ونقرر مسبقًا عدم صلاحية فرد بعينه للزواج لمجرد أنه عانى من وجوده في بيت لا يسوده التعاون.

أهمية الصداقة والعمل

إن واحدة من أحسن الطرق لزيادة نمو وتطور الاهتمام الاجتماعي هي الصداقة فنحن نتعلم أن نرى بعيون الآخرين وأن نسمع بآذانهم وأن نشعر بإحساساتهم ، فلو أننا كبتنا الطفل دائمًا وراقبناه وحميناه فإنه سينمو ويتطور في معزل عن الآخرين ، وبدون أصدقاء أو أصحاب ، ولن يطور هذا الطفل قدراته على الإحساس بالآخرين ، وسيعتبر الطفل نفسه أهم شخص في الوجود وسيكون دائمًا في سعي لتحقيق سعادته ورخائه الشخصي فقط.

ولهذا فإن التدريب على الصداقة ما هو إلا استعداد للزواج الذي سيأتي فيما بعد ، كما أن بعض الألعاب التي يقوم بها الأطفال كثيراً ما تكون مفيدة في تدريبهم على "التعاون" ، لكن هناك أيضًا الكثير من الألعاب التي تنمي روح التنافس والرغبة

فى الامتياز فقط دون غيرها ، ولهذا فإنه من المفيد أن نخلق مواقف يمكن فيها لطفلين فقط أن يعملا معا بنجاح لإنجاز مهمة ما مثل المذاكرة معًا ، كما أننى أؤمن بأن شيئًا مثل الرقص له فائدة كبيرة فى تعليم التعاون بين فردين ؛ لأن الرقص وسيلة جيدة للتسلية وتمضية الوقت وفيها يمكن لشخصين الاشتراك فى نشاط جماعى ولهذا فإن تعليم الأطفال الرقص هو شيء جيد ، وأنا لا أقصد بالرقص ما تعارف عليه الناس الآن من استعراضات بدلاً من نشاط مشترك يتعاون فيه زوجان من البشر ، كما أنه توجد الكثير من الرقصات البسيطة التى يمكن تعليمها للأطفال بسهولة والتى ستساعد فى نموهم وتطورهم .

من المشاكل الأخرى التى تساعد فى إعداد الفرد لتحمل مسئوليات الزواج مشكلة العمل ، وفى الأوقات الحالية فإنه غالبًا ما يواجه الفرد بمشكلة العمل قبل أن يواجه مشكلة الحب الزواج ، فيجب على أحد الشريكين – أو كليهما – أن يعمل حتى يتمكنوا من كسب معيشتهما وإعالة العائلة الجديدة ، وهذا يجعل من الواضح أن الاستعداد للزواج يعنى الاستعداد للعمل أيضًا.

الثقافة الجنسية Sex education

أنا لا أشجع أبدًا أن يقوم الوالدان بشرح الجوانب الجسدية من المسألة الجنسية فى مرحلة مبكرة من حياة الأطفال ، أو حتى أن يقوموا بشرح ما يزيد عن تساؤلات الأطفال وفضولهم فى هذه المرحلة ، فإنه من الواضح أن الطريقة التى ينظر بها الأطفال لمشاكل الزواج مهمة جدا ، فإذا لم تتم معالجة هذه المسألة بطريقة حكيمة فإن الأطفال سيرون مثل هذه المشاكل على أنها خطر أو على أنها شيءٌ يفوق إدراكهم وقدراتهم ، ومن خلال خبراتى السابقة فإن الأطفال الذين شُرحت لهم هذه الحقائق الجنسية عن العلاقة بين الرجل والمرأة فى مرحلة مبكرة من حياتهم مثل سن الرابعة أو الخامسة أو السادسة من العمر ، أو الأطفال الذين مروا بخبرات جنسية ، فإنهم يكونون أكثر توجسًا وخوفًا من الحب والزواج ، كما أن الجاذبية الجسدية تمثل بالنسبة إليهم نوعًا من الخطر الذى يجب تجنبه.

لكن إذا أتحنا الفرصة للأطفال للحصول على المعلومات والخبرات الجنسية فى عمر أكبر فإنهم لن يكونوا بمثل هذا التوجس والخوف كما أنه ستكون لديهم فرصة أحسن فى إقامة علاقات خالية من الأخطاء.

فالنقطة الأساسية هنا هى ضرورة عدم الكذب على الأطفال أو تجنب أسئلتهم ، بل يجب علينا فهم الدوافع الكامنة وراء هذه الأسئلة ، وأن نقوم بشرح وتفسير يغطى تلك الأسئلة ، ولا يتجاوزها أبداً ، وبالقدر الذى نعتقد أن فهم الأطفال يسمح به ، فإن المعلومات الرسمية الجافة والمتطفلة يمكن أن تتسبب فى الكثير من الأضرار والأخطار ، وهذه المشكلة - مثلها مثل كل مشاكل الحياة - يكون من الأفضل للأطفال أن يعملوا على حلها دون الاعتماد على أحد ، وأن يتعلموا فقط القدر الذى يحتاجونه من المعلومات عن طريق السؤال ، فلو أن الثقة كانت متوفرة بينهم وبين الوالدين بدرجة كافية فإنه لن يمكن لأى شىء أن يتسبب فى أذى أو ضرر لهم .

وهناك خرافة سائدة فى أن الأطفال يسهل تضليلهم من خلال الشروح والتوضيحات التى يقدمها لهم زملاؤهم ، إن الأطفال الذين تم تدريبهم على "التعاون" و "الاستقلال" بطريقة جيدة لن يلحق بهم الأذى من خلال معلومات يحصلون عليها فى المدرسة أو الملعب ، وأنا لم أر قط أطفالاً أصحاء يلحق بهم الأذى بواسطة هذه الطريقة ، فإن الطفل لا يتقبل كل ما يقوله أصدقاؤه فى المدرسة ، من ناحية لأن الطفل يكون متشككاً وناقداً لأقوال زملائه فى أغلب الأحيان ، ومن ناحية أخرى فإنه عندما يشك فى صحة ما قيل له فإنه غالبًا ما يذهب لوالديه أو إخوته ، ويستفسر منهم ، وعلى أن أعترف هنا أننى كثيراً ما وجدت الأطفال أكثر لباقة ورقة فى مثل هذه الأمور من الكبار.

العوامل المؤثرة على اختيار شريك الحياة

حتى بدايات الجاذبية الجسدية للرغبة الجنسية عند البالغين يبدأ تَعلمها خلال مرحلة الطفولة ، فإن الانطباعات التى يكتسبها الطفل بخصوص أشياء مثل الشفقة

والتعاطف مع الآخرين والانجذاب ما هى إلا انطباعات تم إعطاؤها له بواسطة أفراد من الجنس الآخر فى البيئة المحيطة به وهذه هى البدايات الأولى للجاذبية الجسدية.

عندما يحصل صبى على مثل هذا الانطباع من والدته أو أخته أو الفتيات الأخريات المحيطات به فإن اختياره للناس الجذابين جسديا - عندما يصل إلى مرحلة البلوغ - سيكون متأثرا بما اعتاد أن يحيط به من بشر فى بيئته خلال مرحلة الطفولة ، كما أنه يكون متأثراً حتى بالأعمال الفنية التى يراها من حوله أو يقوم هو نفسه برسمها.

وبهذه الطريقة فإن كل شخص يتأثر بأفكار تشكل ما هو مثالى وجذاب فى تصوره لما يعنيه الجمال وبهذا يمكننا القول إن الفرد - عندما يصل إلى مرحلة البلوغ - لا يصبح حرا فى اختيار ما هو جميل بالمعنى الصحيح للحرية ، ولكن اختياره يكون متأثراً - إلى درجة بعيدة - بمن كان من حوله خلال مرحلة طفولته.

إن هذا البحث فى معنى الجمال ليس بحثًا عديم المعنى ، فإن انفعالاتنا الجمالية تكون مبنية دائمًا على رغبة فى الحصول على من هو أحسن وأكثر صحة من البشر ، وكل وظائفنا الجسدية وقدراتنا تدفعنا فى هذا الاتجاه الذى لا مهرب لنا منه ، فنحن نعتبر الأشياء جميلة إذا بدت كما لو كانت خالدة (أبدية) وإذا ساهمت فى خير ورفاهية المستقبل البشرى وإذا رمزت إلى الكيفية التى نأمل أن يتطور بها أطفالنا فى المستقبل إن هذا هو الجمال فى نظرنا وهو جمال يجذبنا نحوه دائماً.

أحيانًا إذا واجه الصبى صعوبات خلال حياته مع والدته (أو الحالة العكسية إذا ما واجهت الفتاة صعوبات خلال حياتها مع والدها) - وهو ما يحدث عندما يكون التعاون بين الزوجين غير كاف - فإن الصبى (أو الفتاة) يبحث عن النوع العكسى من الأشخاص ، وعلى سبيل المثال فإذا كانت والدة الصبى التى ضايقته وحاولت التحكم فيه وكان الصبى ضعيفًا وخائفًا من أن يقع تحت سيطرة إحداهن فإنه سيجد النساء غير المسيطرات جذابات جنسيا ، وهذا يجعل من السهل عليه الوقوع فى أخطاء ، فهو قد يبحث عن شريكة لحياته تتمتع بمظاهر القوة ، إما لأنه يفضل القوة وإما لأنه يجد فيها التحدى الذى يمكنه من إثبات قوته الشخصية ، وإذا كانت

الفجوة بينه وبين أمه ضخمة فإن استعداده للحب والزواج سيكون ضعيفًا ، وحتى انجذابه الجسدى نحو الجنس الآخر سيكون مليئًا بالصعوبات والعراقيل ، وهناك درجات عديدة ومتفاوتة الشدة من الصعوبات ، وعندما تصل هذه الصعوبات إلى أقصاها فإنه سيستبعد الجنس الآخر تماماً ٠

الحفاظ على عهود الزواج ومسئولياته

إن أسوأ الاستعدادات على الإطلاق هى استعدادات الفرد الذى تعلم أن يسعى فقط نحو ما يحقق اهتماماته الشخصية وينميها ويطورها ، فإنه عندما يكون لدينا مثل هذا الفرد فإنه سيقضى كل وقته فى البحث عن السبل والوسائل التى تمكنه من الحصول على المزيد من ملذات الحياة ، كما أنه سيطالب دائمًا بالمزيد من الحريات والامتيازات والتنازلات من الآخرين ، وهو لن يأخذ فى الاعتبار أبدًا الجنس الآخر (شريك حياته) ، ولن يحاول الإسهام فى حياته بما يثريها ويحقق السعادة والرخاء له ، إن مثل هذه الطريقة فى الحياة شديدة الخطورة ، وتمثل كارثة محتومة الوقوع حتى إننى أقارن مثل هذا الفرد بمن يحاول وضع طوق الفرس عليه بادئًا من الذيل فلا يوجد طريقة أكثر بعداً عن الصواب من هذا ٠

ولهذا فإنه لا ينبغى لنا – عندما نحاول إعداد أنفسنا للحب والزواج – أن نبحث عن أعذار أو طرق لتجنب المسئوليات ، فعلاقة الحب لا يمكن أن تزدهر فى وجود الشكوك والتردد ، كما أن "التعاون" يتطلب الولاء والإخلاص الكامل ، فالزواج لا يكون زواجًا إلا إذا حافظ الطرفان على عهودهما دون انتقاص أو تحوير ، وفى هذه العهود (الوعود) يكون قرار إنجاب الأطفال وتعليمهم وتدريبهم على "التعاون" وجعلهم أعضاء مفيدين فى المجتمع وأعضاء على قدم المساواة مع غيرهم وقادرين على تحمل مسئولية الجنس البشرى ، فإن الزواج الصالح هو أحسن وسيلة لدينا لتنشئة أجيال المستقبل ، ويجب أن يكون هذا هو هدف الزواج ؛ فالزواج ما هو إلا وظيفة

تتطلب الكثير من العمل ، كما أن للزواج قواعده وقانونه الذى يحكمه ، ولن يمكننا أن نركز على أحد الجوانب وأن نتجاهل الجوانب الأخرى بدون أن نخالف قانون " التعاون " الأبدى.

إنه من المستحيل تحقيق تلاحم حقيقى ، أو ولاء وإخلاص كاملين فى الحب والزواج إذا ما حددنا مسئولياتنا لفترة زمنية معينة أو نظرنا إلى الزواج على أنه تجربة من التجارب التى تمر فى حياتنا ، فلو أن الرجل (أو المرأة) أبقى مثل هذا الاختيار مفتوحًا (اختيار الخروج من الزواج والتحلل من عهوده) ، فإنه لن يبذل قصارى جهده فى محاولة إنجاح الزواج ، ونحن لا نسمح أبدًا بوجود مثل هذا المخرج فى أى من المهام الخطيرة والمهمة فى حياتنا ، وبالمثل فإنه لا يجوز لنا السماح بوجود مثل تلك الأفكار ونحن مقدمون على الزواج.

لا يمكن أن نسمح أيضًا بوضع حدود للحب ، وكل الذين يحاولون - مهما حسنت أخلاقهم أو نياتهم - إيجاد بديل للزواج والحب قد أخطأوا اختيار الطريق ، فإن البدائل التى يقترحونها ستحد من الجهود الفعالة للرجال والنساء الذين يحاولون حل مشكلة الزواج ، وستجعل من السهل عليهم أن يتراجعوا عن مواجهة المشكلة .

أنا أعلم بوجود الكثير من العقبات فى مجتمعنا ، وأنا أعرف أن هذه العقبات تعوق الكثيرين وتسبب لهم الإحباط والتراجع عن محاولة حل مشكلة الحب والزواج بطريقة صحيحة حتى لو توافرت لهم الرغبة فى حلها ، ولكننى أرى أنه من الواجب التخلص من هذه العقبات ، وليس من المشكلة ، ونحن على تمام العلم بالخصائص التى من الضرورى أن تتوفر لعلاقة الشراكة فى الحب حتى تكون علاقة مملوءة بالولاء والإخلاص والثقة المتبادلة ، وأن تخلو من التحفظات والمخارج والسعى وراء الصالح الخاص.

بعض الوسائل الشائعة لتجنب المسئولية

من الواضح أنه إذا آمن الناس بأن الخيانة الزوجية هى أمر ممكن الحدوث (علينا أن نتقبل إمكانية حدوثه) ، فإن هؤلاء لم يستعدوا للزواج بطريقة صحيحة ،

فإنه من المستحيل تحقيق علاقة صحبة حقيقية بين رجل وامرأة اتفقا على الاحتفاظ بحريتهما ، فإن العلاقة السابقة ليست بعلاقة شراكة ، ففى علاقة الشراكة نحن لا نملك مطلق الحرية فى الحركة فى أى اتجاه نختاره ؛ لأننا التزمنا بـ " التعاون " ، ودعنى أعطكم المثال التالى الذى يوضح الكيفية التى تجعل مثل هذه الاتفاقات الخاصة تؤدى إلى فشل الزيجات الناجحة وتحقق ضرراً أكيداً لكل من الرجل والمرأة :

" تم الزواج بين رجل مطلق وامرأة مطلقة ، وكان كلٌّ منهما متحضراً وذكيا بدرجة كافية ، كما أن كلا منهما كان يأمل فى أن تكون الزيجة الجديدة أفضل حظاً وأكثر توفيقًا من السابقة ، ولكنهما كانا على غير علم بسبب فشل الزواج الأول لكلٍّ منهما ، كان كلٌّ منهما يتطلع ويأمل فى الحصول على علاقة أفضل دون أن يلاحظ أىٌّ منهما النقص الخطير فى اهتمامهما بالمجتمع ، كانا - هذان الزوجان - يعتقدان أنهما من المفكرين الأحرار ، وكانا يرغبان فى زواج حديث لا يتعرض فيه الشريكان للملل أو السأم من بعضهما البعض ، ولهذا قررا معًا أنْ يكون كلٌّ منهما حرا تمام الحرية ، فلأى منهما مطلق الحرية فى فعل ما يشاء ، ولكن على كل منهما أن يخبر الآخر بما يحدث بينه وبين الجنس الآخر بكل أمانة.

وبخصوص النقطة الأخيرة فإن الزوج كان أكثر جرأة من الزوجة ، فكلما عاد إلى المنزل أخبر زوجته بالخبرات (العلاقات الجنسية غير الشرعية) التى مرت به دون تحفظ ، وكانت الزوجة تبدو سعيدة جدا وفخورة بنجاحات زوجها المتعددة ، وكانت هى - من ناحيتها - تنوى القيام بمثل ما قام به من علاقات ، ولكنها قبل أن تبدأ فى اتخاذ الخطوة الأولى أصيبت برهاب الأماكن المفتوحة Agoraphobia فتوقفت عن الخروج من المنزل وحدها ، وأبقاها هذا المرض داخل حدود غرفتها ، وإذا حاولت الخروج من باب الغرفة فإن خوفًا شديداً كان يتملكها ، ويجبرها على العودة من حيث أتت.

إن هذا المرض الذى أصابها كان حماية لها من القرار الذى اتخذته بإقامة علاقات خارج حدود الزواج ، ولكن وجود هذا المرض يعنى ما هو أكثر من هذا ،

فحيث إنها كانت عاجزة عن الخروج وحدها ؛ فإن زوجها كان مجبرًا على البقاء بجانبها فى كل خطوة تخطوها ، فها نحن نرى كيف تمكن منطق الزواج الصحيح والقوى من تحطيم اتفاقهما وقرارهما الخاص ، والزوج لم يستطع أن يستمر فى كونه مفكرًا حرا -كما كان يدعى- ؛ لأنه أصبح مضطرا للبقاء بجانبها دائمًا ، أما هى فلم تستطع الاستفادة من هذه الحرية فى التفكير ؛ لأنها كانت خائفة من الخروج وحدها .

لو أنه كتب لمثل هذه السيدة أن تبرأ من مرضها فإنه علينا أن نصحح فهمها لمسألة الحب والزواج ، كما أنه على الزوج أيضًا أن ينظر إلى الزواج على أنه شركة تتطلب "التعاون" .

إن هناك أخطاء أخرى ترتكب فى بداية الزواج ، فإن الطفل الذى تم تدليله بصورة مبالغ فيها خلال مرحلة الطفولة الأولى يشعر بأنه مهمل عندما يتزوج ، فهو لم يتدرب على التكيف مع متطلبات الزواج والحياة الاجتماعية ، فمثل هذا الطفل ينمو ويتطور إلى ما يشبه الطاغية عندما يتزوج ، ويشعر شريكه فى الزواج بأنه ضحية مغلوبة على أمرها وقعت فى فخ الزواج منه ، وتبدأ فى المقاومة.

ولعله من المثير ما يحدث عندما يتزوج فردان تعرض كلٌّ منهما للتدليل الزائد خلال مرحلة الطفولة فإن كلا منهما سينتظر الحصول على الاهتمام والتدليل من الطرف الآخر ، بل إنه سيطالب به كحق من حقوقه ، ولن يكتفى أىٌّ منهما بما يحصل عليه ، وستكون الخطوة التالية هى البحث عن مخرج (مهرب من هذه العلاقة) فيحاول أحدهما - أو كلاهما - إقامة علاقة خارج حدود الزواج على أمل الحصول على المزيد من الاهتمام والتدليل.

كما أنه هناك بعض الأفراد غير القادرين على الوقوع فى الحب مع شخص واحد فقط فهم يقعون فى الحب مع شخصين فى الوقت نفسه ، وبهذا يشعرون بأنهم أحرار ؛ لأنهم يستطيعون الفرار والتنقل من شخص للآخر ، كما أنهم بهذه الطريقة يتجنبون تحمل كل مسئوليات الحب ، فعندما يحب فرد ما شخصين فى الوقت نفسه فإنه فى الواقع لا يحب أيا منهما .

هناك أفراد آخرون يخترعون أحداثًا رومانسية ، كأن يتخيلوا وجود حبيب مثالى وحب رومانسى صعب الحدوث أو الوصول إليه ، وهم بهذه الطريقة يغرقون أنفسهم فى مشاعرهم الرومانسية الخاصة مع محب لا وجود له ، وبدون حاجة للتعامل مع شريك واقعى حقيقى ، فإن الرومانسى المثالى يستطيع - بفاعلية - أن يستبعد كل المرشحين المقبولين ، فلن يستطيع محب حقيقى - من الواقع - أن يتنافس مع محب رومانسى مثالى لا وجود له إلا فى خيال هذا الفرد.

إن الكثير من الرجال والنساء قد دَربوا أنفسهم على كراهية ورفض دورهم الجنسى من خلال أخطاء تم ارتكابها فى مرحلة نموهم وتطورهم ، فهم يكبتون وظائفهم الطبيعية Natural function مما يجعلهم عاجزين جسديا عن تحقيق زواج ناجح إلا إذا تمت معالجتهم بالطبع ، كما ذكرت من قبل فإن هذا هو ما سَميته "الاحتجاج على الرجولة " Masculine protest ، ويحدث هذا بسبب التقدير المبالغ فيه لقيمة الرجل فى حضارتنا ومجتمعنا الحالى ، لو أن الطفل تُرك لشكوكه فى حقيقة دوره الجنسى فإنه قد يميل للشعور بعدم الأمان ، وطالما أن دور الذكر ظل يعتبر الدور الأهم والمهيمن ، فإنه من الطبيعى أن الطفل سوف يشعر - سواء كان ذكراً أو أنثى- أن دور الذكر هو الأعظم ، وسيشك فى قدرته على القيام بمتطلبات هذا الدور ، وسيعظم أهمية الرجل ويتجنب مواجهة أى اختبار حقيقى إذا كان الطفل ذكراً وسيملؤها الغضب لإجبارها على القيام بدور أقل إذا كان الطفل أنثى.

وكثيراً ما نرى أفرادا غاضبين ومتضايقين من دورهم الجنسى ، وأنا أعتقد أن هذا ربما يكون هو السبب الجذرى لجميع حالات البرود الجنسى فى المرأة والعجز الجنسى(*) فى الرجل ، وفى مثل تلك الحالات فإن هناك قدراً من المقاومة للحب والزواج تظهر من خلال مقاومة جسدية ، إنه من المستحيل تجنب مثل هذه الصعوبات إلا إذا آمنا بصدق وقوة أن الرجل والمرأة متساويان ، وطالما أن نصف الجنس البشرى (النساء) لديه من الأسباب القوية ما يجعله غير راض عن وضعه

(*) المقصود هنا العجز الجنسى الذى يعود لأسباب نفسية وجسدية معًا Psychosomatic (المترجم) .

فإن عدم الرضى الذى يملأ النساء سيمثل عقبة ضخمة فى طريق نجاح الزواج ، والعلاج هنا هو المزيد من التدريب على المساواة ، وفى الوقت نفسه فإنه يجب علينا ألا نسمح للأطفال بأن يمتلئوا بالشكوك تجاه دورهم المستقبلى .

أن أؤمن بأن الولاء الحميم والمعلن والصريح فى الحب والزواج هو أكثر الأهداف أهمية والتى يجب الوصول إليها وتحقيقها أولاً خاصة إذا لم تكن هناك علاقات جنسية قبل الزواج ، فقد وجدت أن معظم الرجال يفضلون سراً لو أن حبيبته كانت عذراء عند الزواج ، فكثيراً ما ينظرون إلى ذلك على أنه دليل على قوة أخلاقها ونقاء معدنها ، وما هو أكثر من هذا فلو أن علاقة جنسية حدثت قبل الزواج فإن يضع الكثير من الضغوط العاطفية على المرأة ، كما أنه يكون خطأ بالغًا لو أن السبب الرئيسى فى الزواج كان هو الجبن والخوف من افتضاح أمرهما ، وليس رغبتهما الحقيقية الشجاعة فى حياة مشتركة .

يجب علينا أن نفهم أن الشجاعة ما هى إلا أحد جوانب " التعاون " وأنه إذا اختار الرجل (أو المرأة) شريك حياته عن خوف فإن هذا علامة قوية على أنه (الرجل أو المرأة) غير راغب فى التعاون الحقيقى ، ويكون الشىء نفسه صحيحًا عندما يختار (الرجل أو المرأة) شريكًا لحياته يبعد عنه كل البعد من حيث المستوى الاجتماعى أو المستوى التعليمى أو المستوى الأخلاقى (كأن تقبل امرأة رجلاً سكيراً زوجًا لها) ؛ لأن هذا يعنى أنه خائف من الحب والزواج ، ويريد خلق موقف يكون فيه شريك الحياة أقل منه بكثير Inferior بحيث يكون عليه أن يتطلع إليه باحترام .

الخطوبة

إن الدرجة التى يتمتع بها الفرد من الشجاعة ومن القدرة على التعاون تتضح فى طريقته فى معالجة أموره مع الجنس الآخر ، ولكل فرد طريقته الخاصة والمميزة فى معالجة هذا الأمر ، وسلوكه المميز فى التعامل مع الجنس الآخر خلال مرحلة الخطوبة يتفق دائمًا مع أسلوبه فى الحياة ، فإن الطريقة التى يتصرف بها الفرد

تكشف ما إذا كان هذا الفرد يؤمن بمستقبل البشرية ويثق فى إمكانية تحسينه عن طريق التعاون أو ما إذا كان هذا الفرد يؤمن ويهتم بنفسه فقط دون غيرها كأن يكون هذا الفرد مِن مَن يعانون من خوف الأداء العلنى **Stage fright** ، ويعذب نفسه بأسئلة مثل :

" ما الانطباع الذى تركته على الآخرين ؟ وماذا يظنون بى الآن ؟ ".

وغيرها من الأسئلة التى تدل على عدم ثقته بنفسه ، فإنه يمكن للفرد إما أن يكون حريصًا وبطيئًا فى معالجته لأموره مع المرأة وإما أن يكون أو متسرعًا ومندفعًا ، وفى كل حالة فإن سلوكه (خلال مرحلة الخطوبة) سيتشكل من خلال هدفه وأسلوبه فى الحياة ، كما أن سلوكه ما هو إلا تعبير عنهما (هدفه وأسلوبه فى الحياة) .

إننا لن نستطيع الحكم على صلاحية فرد ما للزواج من خلال سلوكه خلال فترة الخطوبة ؛ لأنه خلال هذه الفترة يكون لديه هدف مباشر وربما يكون – فى غير هذه الفترة – من النوع الذى لا يستطيع اتخاذ قرار أو التعامل مع مشكلة ، ولكنها تعتبر – فترة الخطوبة – على أى حال مؤشرًا قويا على شخصية هذا الفرد.

فى حضارتنا الحالية فإنه كثيراً ما يُتوقع من الرجل أن يعبر عن اهتمامه بالمرأة أولاً وأن عليه أن يتخذ الخطوة الأولى للتقرب منها ، وطالما استمرت مثل هذه العادات والتقاليد فى الوجود فإنه سيكون من الضرورى تدريب الفتيان على اتخاذ موقف رجالى **Masculine attitude** وأن يأخذوا زمام المبادرة بلا تردد أو محاولة الهروب، ويمكننا تدريبهم على هذه الأفعال بسهولة إذا كانوا يشعرون بأنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع ، وأن عليهم أن يتقبلوا ميزات وعيوب هذا المجتمع كما لو كانت ميزاتهم وعيوبهم الشخصية.

نحن نعلم بالطبع أن الفتيات والنساء هم جزء لا يتجزأ من هذا الحدث (الخطوبة) وأنه عليهن أن يحتفظن بنوع من المبادرة – رغم ما تفرضه عليهن ظروف الحضارة فى مجتمعنا الحالى والتى تجعلهن مجبرات على التصرف بصورة متحفظة – فإن معالجتهن لهذا الحدث تظهر فى طريقة ارتداء الملابس ، وفى طريقة الحركة

والكلام والإصغاء لحديث الآخرين ، ولهذا يمكن القول إن طريقة معالجة الرجل لهذا الحدث تكون أبسط وأكثر سطحية من طريقة المرأة العميقة والمعقدة فى التعامل معه.

كيفية العمل على إنجاح الزواج

الجانب الجسدى للزواج

إن الانجذاب الجنسى نحو شريك الحياة هو أمر ضرورى جدا ، ولكن علينا أن نتذكر دائما أنه يجب توجيه هذا الانجذاب الجنسى نحو كل ما يحقق سعادة ورخاء البشر فلو كان كل من الرجل والمرأة مهتما اهتماما حقيقيا بالآخر ، فإنهما لن يتعرضا أبداً لضعف الجاذبية الجنسية ، فإن مثل هذه المشكلة تعنى وجود نقص فى الاهتمام بالطرف الآخر فهى تخبرنا بأن الفرد لم يعد يشعر بأنه فى علاقة يسودها المساواة والصداقة والتعاون مع الجنس الآخر وأنه لم يعد راغبًا فى إثراء حياة شريكه فى الزواج .

وقد يظن بعض الناس أن الاهتمام مازال مستمرا بين الشريكين وأن الجاذبية الجنسية هى وحدها التى توقفت وخمدت نيرانها ، ولكن هذا غير صحيح أبداً فأحيانا ما تكذب الشفاه وأحيانًا أخرى يفشل العقل فى الفهم ، ولكن وظائف الجسد تخبرنا بالحقيقة دائمًا ، فلو كانت هذه الوظائف تعمل بكفاءة فإنه يتبع هذا عدم وجود أى خلافات بين الرجل والمرأة ، لقد فقد كل منهما الاهتمام بشريكه وأحدهما على الأقل غير راغب فى مواجهة مشاكل الحياة والزواج ويبحث عن مخرج منها.

إن الدوافع الجنسية لدى البشر تختلف عن الدوافع الجنسية لدى باقى المخلوقات فى أمر واحد على الأقل ، فالدافع الجنسى **Sexual drive** عند البشر يكون مستمرا (أى أنه غير موسمى) ، وهو مستمر ؛ لأن هذا يوفر ضمانًا أكثر لاستمرار والحفاظ على بقاء الجنس البشرى ، وهى وسيلة أكثر فاعلية لزيادة عدد البشر من التزاوج

الموسمى ، أما بالنسبة إلى باقى المخلوقات فإن الطبيعة قد استخدمت وسائل أخرى لضمان بقائها ، وعلى سبيل المثال فإننا نجد أن إناث بعض المخلوقات تنتج أعداداً هائلة من البيض ، ورغم أن معظمها لا يصل أبداً إلى مرحلة النضوج فإن الباقى منها يضمن بقاء واستمرار هذه المخلوقات.

أما بالنسبة إلى البشر فإن طريقة استمرارهم هى إنجاب الأطفال ، ولهذا نجد أنه بالنسبة إلى مشكلة الحب والزواج فإن البشر الأكثر تلقائية والأكثر اهتماماً برفاهية ورخاء إخوانهم من البشر هم الذين ينجبون أطفالاً ، وإن الذين لا يهتمون - عن وعى أو بدون وعى - بإخوانهم من البشر يرفضون تحمل عبء إنجاب الأطفال.

فعندما يرغب الفرد فى الوصول إلى أهدافه وتحقيق رغباته الشخصية فقط وعندما يطلب ويتوقع من الآخرين ولا يعطى أو يساهم فى حياة المجتمع فإنه سيصبح غير ، راغب فى الأطفال لأنه يهتم بنفسه فقط وينظر إلى الأطفال على أنهم عبء لا داعى له وأنهم شىء سيجعله يفقد الكثير من وقته فى رعايتهم وهو وقت يفضل قضاءه فى تحقيق رغباته الشخصية فقط ، ولهذا يمكننا القول إننا إذا أردنا الوصول إلى حل كامل لمشكلة الحب والزواج فإنه من الضرورى أن نقرر إنجاب أطفال ، فالزواج الجيد ما هو إلا وسيلة لرعاية وتخريج الأجيال القادمة من البشر ، وهذا (إنجاب الأطفال) يجب أن يكون دائماً جزءاً لا يتجزأ من الزواج.

الزواج والعمل والواقعية

إن الحل السليم لمشكلة الحب والزواج فى حياتنا العملية والاجتماعية هو الزواج الأحادى **Monogamy**، فإن أى فرد يبدأ علاقة تتطلب مثل هذا الولاء الحميم والاهتمام بالآخر لا يستطيع أن يحطم القاعدة الأساسية التى بنيت عليها هذه العلاقة بأن يبحث عن مخرج ، نحن نعلم إمكانية فشل الزواج فهذا شىء محتمل الوقوع ولا يمكن تجنبه دائماً ، ولكنه يكون من الأسهل تجنب فشل الزواج لو أننا نظرنا إلى الزواج والحب

على أنهما إحدى الوظائف الاجتماعية التى تواجهنا فإن الزواج والحب ما هما إلا مهمة يتوقع المجتمع منا أن ننجزها ، وبطريقة صحيحة ، وهذا سوف يدفعنا إلى استخدام كل الوسائل المتاحة لنا لحل هذه المشكلة.

عندما ينفصل الزوجان فإن هذا يحدث غالبًا ؛ لأنهما لم يعملا معًا بالقدر الكافى لإنجاح هذه الزيجة ، ولكنهما كانا ينتظران أن يأتى النجاح على طبق من الفضة ، وإذا كانت هذه هى طريقتهما فى مواجهة مشاكل الحب والزواج ، فإنه سيكون من الطبيعى أن يفشلا.

فإنه من الخطأ النظر إلى الحب والزواج على أنه وضع مثالى أو نهاية سعيدة لإحدى القصص ، فعندما يتزوج شخصان فإن القصة تبدأ والإمكانيات الخاصة بعلاقتهما تخرج إلى الوجود لأول مرة وخلال الزواج فإنهما يواجهان بمهام الحياة الحقيقية وما يتصل بها من فرص حقيقية للإبداع من أجل صالح المجتمع .

أما وجهة النظر الأخرى ، والقائلة بأن الزواج هو النهاية ، وهو الهدف النهائى فإنها بارزة وكثيرة الظهور فى حضارتنا ، ونستطيع أن نراها بوضوح فى الآلاف من القصص الرومانسية التى تنتهى بالزواج ، بينما فى الحقيقة فإن زواجهما هو بداية حياتهما معًا وبرغم هذا فإنه تتم معالجة هذا الموقف كما لو كان الزواج فى حد ذاته قد حل كل المشاكل بطريقة نهائية وكما لو كان الزوجان قد ربحا المعركة النهائية، وإنهما – بعد ذلك – سيعيشان حياة سعيدة إلى الأبد ، إن كل ما سبق يجعل من الواجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الحب فى حد ذاته لا يحل المشاكل ولا يواجه الصعوبات وأن هناك أنواعًا كثيرة من الحب وأنه من الأفضل الاعتماد على العمل والتعاون والاهتمام بالآخرين فى حل مشاكل الزواج.

وكما رأينا من قبل فإنه لا توجد معجزات فى العلاقة الزوجية ، بل إن موقف كل فرد تجاه الزواج ما هو إلا تعبير عن أسلوب حياته ، وهكذا فإننا لن نستطيع فهمه إلا إذا فهمنا الفرد ككل ؛ لأنه على اتساق كامل مع كل مجهوداته وأهدافه ، فإنه يمكننا اكتشاف أن بعض الأفراد يبحثون عن طريقة للخروج من الزواج ويمكننى بسهولة تحديد هذه المجموعة التى تبحث عن مهرب ، فهى تلك المجموعة

التى مازالت تتصرف كالأطفال المدللين ، إن هذا النوع من الأفراد يمثل خطرًا على المجتمع.

إنهم يسألون فى كل مناسبة :

" هل يمكننى الحصول على ما أشتهيه وأرغب فيه ؟ ".

و إذا فشلوا فى الحصول على بعض ما يرغبون فيه فإنهم يظنون أن الحياة عديمة الجدوى ويفكرون فى أنفسهم قائلين :

" ما فائدة الحياة ؟ إذا كنت لا أستطيع الحصول على كل ما أشتهيه ".

ويتحول مثل هؤلاء الأفراد إلى التشاؤم وتبدأ الرغبة فى الموت فى التولد لديهم فهم يتبنون الكثير من الأمراض الجسدية والعصبية ، كما أنهم يخلقون فلسفة اجتماعية جديدة مبنية على أسلوب حياتهم الخاطئ ، ويشعرون أن أفكارهم الخاطئة فريدة من نوعها وذات أهمية كبيرة ، ويشعرون بأن الكون كله ضدهم يحقد عليهم ويكرههم ، ويحاول كبت أفكارهم ومشاعرهم ، ويكون كل هذا بسبب الطريقة الخاطئة التى تمت تنشئتهم بها.

فذات مرة منذ سنين عديدة كانوا يعيشون فى عصرهم الذهبى عندما كانت كل رغباتهم مجابة وكانوا يحصلون على كل ما تشتهيه أنفسهم ، ولعل بعضهم مازال يظن - حتى الآن - أنه إذا ما بكى واشتكى بما فيه الكفاية واحتج ورفض التعاون مع المجتمع فإنه سيحصل على ما يريد ، فهم لا يرون الحياة والمجتمع وحدة لا تتجزأ، ولكنهم يركزون على اهتماماتهم الشخصية فقط.

و تكون النتيجة أنهم يصبحون غير راغبين فى المساهمة ، ويصرون دائمًا على الحصول على كل ما يشتهون دون عناء أو استحقاق ، وبالمثل يكون الزواج بالنسبة إليهم ليس أكثر من شيء يستطيعون الحصول عليه بأبخس الأسعار ، ويستطيعون إعادته - واستعادة الثمن الذى دفعوه - إذا ما فقدوا الرغبة فى الاحتفاظ به ، فهم يرغبون فى الحصول على زواج على سبيل التجربة **Trial marriage** مزود بطريقة سهلة

للطلاق ، وفى بداية الزواج فـإنهم يطالبـون بالحـرية وبأن يكـون لهم الحـق فـى عـدم الالتزام بالإخلاص لشريك حياتهم.

نحن نعرف أنه عندما يكون فرد ما مـهتما اهتمامًا حقيقيا بشخص آخـر، فإن من الواجب عليه أن يظهر كل مميزات هذا الاهتمام وأن يكون مخلصًا ووفيا ويمكن الاعتماد عليه فى تحمل المسئوليات ، وفى أن يكون صديقًا مخلصًا ، وإذا لم تتوفر كل المتطلبات السابقة فى زواج هذا الفرد فإنه سيكون قد فشل فى حل مشكلة الزواج.

كما أنه من الضرورى أن نهتم برفاهية ورخاء الأطفال ، وعندما يكون الزواج مبنيا على وجهات نظر مختلفة وشديدة البعد عن وجهة النظر التى سبق لى أن شرحتها فإنه ستكون هناك صعوبات عظيمة فى تربية وتنشئة الأطفال ، وإذا كان الوالدين يتشاجران كثيراً ، ولا يعطيان الزواج حق قيمته كاهتمام مستمر ودائم يستطيع أن يواجه كل المشاكل ويحلها ، فإن الوضع السابق يمثل عقبة فى طريق تحول الأطفال إلى أعضاء اجتماعيين ونافعين.

حل المشاكل الزوجية

ربما تكون هناك أسباب تجعل من الواجب أن لا يعيش أفراد بعينهم مع بعضهم ، فهناك حالات يكون فيها من الأفضل لهم أن يعيشوا منفصلين ، فمن الذى تقع عليه مسئولية اتخاذ مثل هذا القرار ؟ هل سنلقى هذه المسئولية على الأفراد أنفسهم وهم لا يفهمون أن الزواج مهمة حيوية ويهتمون فقط بحياتهم الشخصية ؟ وهؤلاء الأفراد سينظرون إلى الطلاق بالطريقة نفسها التى رأوا بها الزواج ، أى أنهم سيفكرون فى أنفسهم قائلين :

" ما الذى سيعود على من الطلاق ؟ ".

وهذا يجعل من الواضح أن مثل هؤلاء الأفراد غير صالحين لاتخاذ مثل هذا القرار ، وكثيراً ما نجد أفرادا يحصلون على الطلاق ، ثم يتزوجون مرة أخرى ويعيدون

الكرة مرارًا وتكرارًا وهم فى كل مرة يكررون الأخطاء نفسها التى ارتكبوها فى الزواج الأول فمن الذى يجب أن يتخذ القرار إذن ؟

إذا اعتقدنا أن هناك مشكلة فى زيجة من الزيجات فإنه ربما يكون من اختصاص أخصائى فى علم النفس أن يقرر ما إذا كانت هذه الزيجة يجب أن تحل أم لا ، ولكن هناك مشكلة فى اتباع هذه الطريقة ، وأنا لا أعلم إذا كان هذا سينطبق على الموقف فى أمريكا لكنى أعلم على وجه اليقين أنه ينطبق على الموقف فى أوروبا ، فقد وجدت أن معظم الأطباء النفسيين يظنون أن رفاهية ورخاء الشخص هى أهم شىء فى الوجود ، ولهذا عندما تتم استشارتهم فى مثل هذا الموضوع فإنهم – عمومًا – ينصحون المريض بأن يتخذ له عشيقًا لأنهم يظنون أن هذه هى الطريقة المثلى لحل المشكلة ، ولكنى على يقين من أنهم سوف يغيرون رأيهم فى هذا الخصوص – بمرور الوقت – وأنهم سوف يتوقفون عن إعطاء مثل هذه النصيحة.

فإن من يقدم مثل هذه النصيحة يكون قد فشل فشلاً تاما فى فهم مشكلة الحب والزواج ككل ، كما أنه يكون قد فشل فى فهم العلاقة بينها وبين مشاكل حياتنا الأخرى على كوكب الأرض ، وإن ما قدمته يعتبر وجهة نظر شاملة كاملة يجب أخذها فى الاعتبار .

هناك خطأ مشابه كثيرًا ما يرتكبه الأفراد عندما ينظرون إلى الزواج على أنه حل لبعض مشكلاتهم الشخصية ، ومرة أخرى فأنا لا أستطيع الحكم على الوضع فى أمريكا لكنى أستطيع أن أقول إن الوضع فى أوروبا هو كالتالى :

إذا أصبح أحد الفتيان (أو الفتيات) عصابيا **Neurotic** فإن الطبيب النفسى كثيرًا ما ينصح باتخاذ عشيق والبدأ فى علاقة جنسية ، كما أنهم يقدمون نصيحة مماثلة للبالغين أيضًا ، إن هذا يخفض من قيمة الحب والزواج ، ويجعل منه عقارًا يمكن استخدامه كأى عقار آخر وأنا أقول لهم إن الأفراد الذين يتعاطون هذا العقار مصيرهم المحتوم هو الخسارة والفشل ، فإن الطريقة السليمة لحل مشكلة الحب والزواج لا تكون إلا من خلال أقصى درجة من درجات الإشباع لجميع جوانب شخصية الفرد ، إنه لا توجد مشكلة أكثر ارتباطًا بسعادة الفرد ، ولا يوجد دور

فى الحياة أكثر استحقاقًا وقيمة من دور الزوج (أو الزوجة) ، ولهذا لا ينبغى لنا أبدًا أن نستخف به ؛ فنحن لا نستطيع أن ننظر إلى الحب والزواج على أنه مجرد وصفة طبية لعلاج مجرم أو مدمن خمور أو مريض بالعصاب ، إن المريض بالعصاب يحتاج إلى علاج صحيح ومتوازن قبل أن يصبح " مؤهلاً " للحب والزواج ، وإذا لجأ الفرد منهم للزواج قبل أن يمتلك القدرات الضرورية واللازمة للتعامل مع مشكلة الزواج بطريقة صحيحة فإن الفشل سيكون مصيره كما أنه سيواجه أخطارًا جديدة لم تكن فى الحسبان.

إن " الزواج " شىء عظيم ومثالى والتعامل مع هذه المهمة (الزواج) يتطلب الكثير من الجهد والنشاطات الخلاقة ولا يجوز أن نحمله بعبء إضافى من النوع السابق.

إن بعض الأفراد يدخلون فى الزواج بغرض تحقيق أهداف غير مناسبة ، فالبعض يتزوج بغرض الحصول على الأمان الاقتصادى والمالى (تأمين المستقبل) ، والبعض الآخر يتزوج بدافع الشفقة على أحدهم ، أو يتزوج لأنه بحاجة لمن يخدمه ، بل إننى قد عرفت بعض الحالات التى تزوج فيها الفرد لكى يزيد من حجم الصعوبات التى تواجهه !!.

ففى إحدى الحالات كان رجلاً صغير السن يواجه الكثير من الصعوبات فى طريق دراساته العليا ومستقبله الوظيفى وكان يشعر بأنه لن ينجح فى هذا الطريق ودفعه هذا للبحث عن عذر يبرر به فشله المتوقع ، وقد دفعه هذا إلى الزواج حتى يعطى لنفسه العذر عندما يفشل فى دراسته ، وكل الدوافع السابقة لا مكان لها لمن يرغب فى تحقيق زواج ناجح.

الزواج والمساواة بين الرجل والمرأة

أنا على يقين من أنه لا يجوز التقليل من حجم مشكلة الحب والزواج ، بل إنه من الواجب أن نضعها على أعلى المستويات ، وفى كل طرق الزواج ووصفاته التى اقترحها

الناس منذ قديم الزمن كانت المرأة هي التى تعانى أكثر من الرجل ، ولا شك فى أنه حتى فى حضارتنا الحديثة فإن الرجل يتمتع بوضع أفضل من المرأة ، وإن هذا نتيجة للطريقة الخاطئة التى يعالج بها المجتمع مسألة الزواج ، ولن نستطيع أن نتغلب على هذا الوضع من خلال ثورة فردية تتم فى حدود (داخل) الزواج ؛ لأن مثل هذه الثورة الفردية سوف تؤثر على كلٍّ من العلاقة بين الزوجين ورفاهية ورخاء العائلة ككل ، ولكن الطريقة الصحيحة للتغلب على الوضع السابق هى أن نتعرف ونفهم الموقف العام الذى تأخذه حضارتنا من المرأة ، وأن نعمل على تغييره .

إن إحدى تلميذاتى وهى أستاذة الجامعة "راسى" من ديترويت قد قامت بإجراء بحث ووجدت أن ٤٢ ٪ من الفتيات التى سألتهن يفضلن لو كنَّ فتيانًا ، وهذا يعنى أنهن غير راضيات عن جنسهن (عن كونهن فتياتٍ).

فكيف لنا أن نحل المشكلات التى تواجه مسألة الحب والزواج بينما نِصف المجتمع البشرى غير راض وغير مقتنع بدوره ، ويرفض وضعه الاجتماعى والحرية الأكبر الممنوحة للنصف الآخر ؟.

و هل يمكننا القول إن هذه المشكلة يمكن حلها بسهولة أكثر لو أن المرأة أصبحت مقتنعة بوضعها ، وتوقعت أن يقلل الجميع من قيمتها ، وآمنت بأنها ليست أكثر من مادة للجنس **Sex object** مخصصة لاستخدام الرجل أو أنه من الطبيعى للرجل أن يكون غير مستقيم وغير مخلص لها ؟.

من كل ما سبق وقلناه يمكننا أن نخرج باستنتاجٍ بسيط وواضح ومفيد ، إن البشر بطبيعتهم ليسوا من النوع الذى يؤيد ويرغب فى أيٍّ من تعدد الزوجات **Polygamous** أو الزواج الأحادى **Monogamous**، ولكننا جميعًا نعيش معًا على سطح هذا الكوكب ، وبالرغم من أننا جميعاً متساوون فإننا مقسمون إلى نوعين (رجل وامرأة) ، وقد رأينا أنه من الواجب علينا جميعًا حل مشكلات الحياة الثلاث ، وهذه الحقائق لا تدع أى مجال للشك فى أن أقصى درجات النمو والتطور للفرد تتحقق عند وصوله إلى الحب والزواج من شخص واحد فقط.

المؤلف فى سطور

ولد ألفريد آدلر فى عام ١٨٧٠ – فى ضواحى مدينة فيينا عاصمة النمسا – لأب يهودى يعمل فى تجارة الحبوب ، وكان ترتيبه الثانى فى عائلة من ستة أطفال ، وعندما كان آدلر فى الثالثة من عمره توفى أخوه الأصغر بسبب الدفتريا فى الفراش المجاور له ، و قد عانى هو نفسه من الكساح و غيره ، كما أنه أصيب – فى الرابعة من عمره – إصابة خطيرة بداء الرئة Pneumonia كادت تودى بحياته ، وكان لكل هذا أكبر الأثر فيه ، فقبل بلوغه سن الخامسة كان قد اتخذ قراره بأن يصبح طبيبًا بشريا حتى يتمكن من "محاربة الموت" على حد تعبيره.

ولقد أصبح آدلر طبيبًا بشريا بعد أن تخرج من كلية الطب جامعة فيينا عام ١٨٩٤ ، وفى البداية تخصص فى طب العيون ، ولكنه أصبح ممارسًا عاما فيما بعد ، قبل أن يتحول اهتمامه إلى علم النفس ، و كان من أول من اهتموا بنظريات سيجموند فرويد ، كما أنه اعترف بأن هذه النظريات قد فتحت طريقًا جديدًا لتحديث وتطوير علم النفس.

وانضم آدلر إلى جماعة المناقشة التى أنشأها فرويد فى عام ١٩٠٢ ، وفى عام ١٩١٠ أصبح آدلر رئيسًا لمجتمع التحليل النفسى ، وبتزكية من فرويد نفسه ، لكن الخلافات سرعان ما دبت بينهما ، و أصبح الخلاف بين وجهة نظره ووجهات نظر كل من فرويد وجَونج أكبر من أن يتغاضى عنها ، مما أدى إلى استقالته فى عام ١٩١١ مكونًا مع بعض زملائه جماعة "البحث الحر فى التحليل النفسى" ، وغير اسمها فى العام التالى إلى جماعة "علم النفس الفردى".

إنه من الواضح أن كل أعمال آدلر تدين بالكثير لزملائه السابقين ، ولكنه كان يحمل فى داخله طريقة مختلفة ومستقلة فى وصف وعلاج مشاكل البشر.

كما قلنا فإن آدلر قد شكل جماعة "علم النفس الفردى" في عام ١٩١٢ التى أكدت على أهمية "النظرة الشاملة" لشخصية الفرد ، وكلمة "الفردى" قد استخدمت هنا للتأكيد على تَمَيز واختلاف كل شخصية عن الأخرى ، وعن عدم إمكانية تقسيم أو تجزئة الشخصية بل وجوب النظر إلى الشخصية على أنها وحدة لا تتجزأ .

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، خدم آدلر في جيش بلاده طبيبًا في قسم الأمراض النفسية و العصبية في إحدى المستشفيات العسكرية ، وقد جعلته فترة الخدمة العسكرية أكثر إدراكًا لأهمية و ضرورة نشر أفكاره.

في عام ١٩٣٥ ذهب إلى الولايات المتحدة و استقر هناك ، و كانت شهرته قد ذاعت هناك أيضًا ، فتم خلق منصب جديد - خصيصًا له - في كلية الطب بلونج آيلاند Long island college of medicine حيث تولى أستاذية قسم علم النفس الطبى و في العام نفسه (١٩٣٥) بدأت مدرسة ألفريد آدلر في إصدار مجلتها "الجريدة الدولية لعلم النفس الفردى" International jounal of individual psychology

ولقد تُوفي آدلر في ٢٨ مايو عام ١٩٣٧ عن عمر يناهز السابعة والستين عامًا متأثرًا بأزمة قلبية مفاجئة خلال رياضته الصباحية (المشى) ، و بعد أن ألقى محاضرة واحدة على طلبة جامعة أبردين في اسكتلاندا .

واليوم بعد مرور أكثر من ٦٥ عامًا على وفاته فإن هناك مستشارين نفسيين تم تدريبهم على استخدام طرق علم النفس الفردى في الكثير من دول العالم من الولايات المتحدة و كندا غربًا إلى إنجلترا و ألمانيا و النمسا و سويسرا و حتى في أستراليا وغيرها من دول العالم.

المترجم :

عادل نجيب بشرى .

ولد فى مصر عام ١٩٥٨ .

وتخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى عام ١٩٨١.

وأمضى معظم حياته بعد التخرج فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وله ترجمات عديدة منها " مدينة الله " لسانت أوغسطين .

" وشال الصلاة " لنيك كارتر ، وساعد فى إعداد ترجمات جديدة لهملت.

كتاب "معنى الحياة" أو "ما الذى يمكن أن تعنيه الحياة لك؟" كما سمى فى طبعته الإنجليزية، هو واحد من أهم مؤلفات ألفريد آدلر وأكثرها شهرة، وقد نشره لأول مرة فى عام ١٩٣١، وشرح فيه أهمية التعويض الزائد كميكانيزم يلجأ إليه الفرد فى محاولة لقهر عقدة النقص والوصول إلى تحقيق هدفه فى "التفوق".

فى هذا المجلد الفريد يقوم ألفريد آدلر - الخصم العنيد لسيجموند فرويد، والزميل والشريك السابق له فى نظرية التحليل النفسى - بشرح وجهة نظر "علم النفس الفردى" فى معنى الحياة، وما يصفها بأنها المشكلات الأساسية الثلاث التى تواجه الفرد فى حياته.. ألا وهى.. العمل، والعلاقة مع باقى أفراد المجتمع، والزواج، كما أنه يخبرنا بطريقته العلمية الفذة والمنظمة عن أهمية "التعاون" فى مواجهة هذه المشكلات الثلاث، حتى إنه وضع تعريفا جديدا لعلم النفس، عرف فيه علم النفس بأنه العلم الذى يبحث عن كيفية معالجة أوجه القصور فى "التعاون"، ولا يخلو الكتاب بالطبع من النقد الصريح والمستتر لنظريات فرويد فى "التحليل النفسى" مع ما هو معروف عن الخلاف الفكرى بينهما.